

سلسلة الرسائل الجامعية (٦)

التَّقْوَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

دراسة في التفسير الموضوعي

لِفَيْصِلَةَ الشَّيْخِ
مُحَمَّدٍ الدَّبِّي
مِنْفَعَةُ اللَّهِ



التقوى في القرآن الكريم دراسة في التفسير الموضوعي

هذه رسالة علمية في التفسير الموضوعي
حصل عليها المؤلف بتقدير «ممتاز»

لفضيلة الشيخ
محمد الديبسي حفظه الله



الطبعة الأولى

٢٠٠٨ هـ - ١٤٢٩ م

رقم الإيداع

٢٠٠٨/١٦٢٧٨

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشؤون الفنية

الدبيسي، محمد.

التقوى في القرآن الكريم، دراسة في التفسير

الموضوعي / محمد الدبيسي، ط ٢.

القاهرة، دار المحدثين

٢٠٠٨ م؛ ٤٩٧ ص؛ ٢٤ سم.

تدمك ٩٧٨٩٧٧٦٣١٧٠٣١

١- القرآن، تفاسير حديثة.

أ. العنوان

٢٢٧,٦

الإدارة والمركز الرئيسي: ٧٦ ش جسر السويس - ميدان الألف مسكن - القاهرة

تليفون وفاكس: ٢٤٩٣١٠٧٤ (٠٠٢٠٢)

رئيس مجلس الإدارة: ٠١٢/٧٧٥٥٩٥١ (٠٠٢)

الإدارة والمبيعات: ٠١٢/٥٠٢٧٢١٢ (٠٠٢) ٠١٢/٧٠٤٢٥٧٠ (٠٠٢)

فرع الأزهر: ٣ ش الدرديري من ش البيطار درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر

البريد الإلكتروني: muhaddethin@yahoo.com

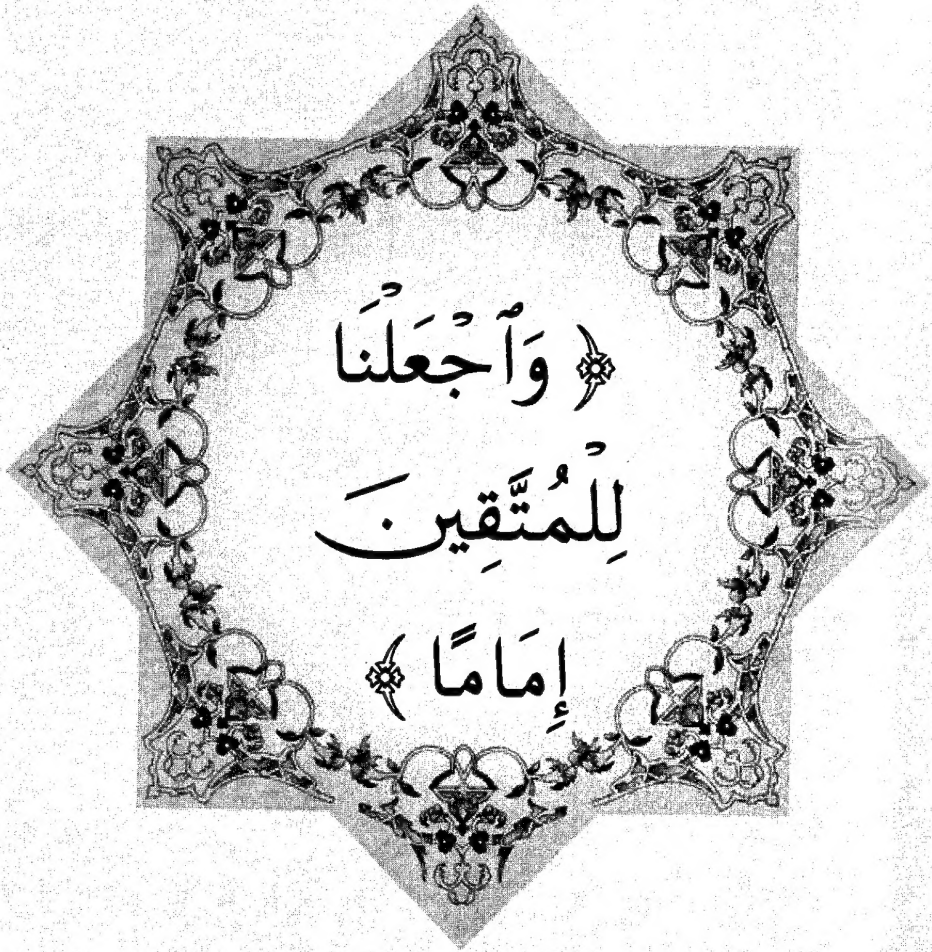


دار الفكر
للطباعة والنشر

سلسلة الرسائل الجامعية

التقوى في
القرآن الكريم
دراسة في
التفسير الموضوعي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



صَلَّى عَلَى الْعَظِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

القرآن الكريم كتاب الله تعالى الخالد، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ولما كان هدف القرآن الأصلي هداية الناس إلى الحق وإلى طريق مستقيم، وجب الإقبال عليه بالفهم والتدبر والتلاوة والحفظ والعلم والعمل والدعوة إليه.

وكان أول ما لفت النظر عند محاولة تدبره أن أول آيات القرآن الكريم في سورة البقرة ذكرت أن هذا القرآن هدى للمتقين، أى أن هدايته خاصة بالمتقين لا غير، وذلك في قوله تعالى: ﴿الْم ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة: ١، ٢]، مع أنه هدى لكل الناس كما قال تعالى: ﴿شَرُّ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥]. ولكنها الهداية العامة التي هي الدلالة على الحق وتبيينه. أما الهداية الخاصة فليست إلا للمتقين. وكانت هذه الآية سبب هذا البحث إذ رُكِّز في ذهن الباحث أن الهداية للمتقين، ووقر في روعه كذلك أن القرآن الكريم لا بد أنه بين صفات هؤلاء المتقين، ليفتح الباب أمام الناس لتحصيل هذه الهداية، فكان هذا البحث.

والمنهج الذي اتبعه الباحث هو منهج التفسير الموضوعي المعتمد على إحصاء مواضع التقوى في القرآن الكريم، واستكمال الفكرة واستقصائها، وفهم المعانى والأغراض وربط الآيات بعضها ببعض واستخلاص النتائج.

وقد واجهت البحث صعوبات كثيرة، نوجز بعضها:

أولاً: قلة المصادر والشروح لموضوع التقوى، فالتفسير المعتمدة كلها كان

الكلام فيها مختصراً موجزاً، لا يفى بالغرض بل إن مواضع كثيرة لم يكن لها تفسير أصلاً، ولم يشر إليها المفسرون.

ثانياً: أوقعت الصعوبة الأولى في صعوبة أخرى، وهى تفسير القرآن بالرأى، والتصدى لتلك المهمة، حيث قال ﷺ فيما يرويه ابن عباس ؓ: «من قال في القرآن برأيه فليتبوء مقعده من النار».^(١)

ثالثاً: لم يكن هناك برغم أهمية الموضوع دراسة وافية لموضوع التقوى من الناحية العلمية، والكتاب الوحيد الذي خصص للتقوى - في حدود علمي - هو «التقوى في الكتاب والسنة وسير الصالحين» للدكتور محمد أديب الصالح، دار القلم دمشق، وهو كتاب يميل إلى الأدب والموعظة، لا إلى الدراسة العلمية، وهناك رسالة «الغاية القصوى في الكلام على آية التقوى» للعلامة تاج الدين عمر بن علي اللخمي المعروف بالفاكهاني المتوفى ٧٣٤هـ (تحقيق وتعليق: محمد يحيى بيدق، مؤسسة الريان، بيروت)، وهى في عدة ورقات في تعريف التقوى، ومنازلها وعاقبتها، وقد أفدت منها في ذلك. ثم بعد أن فرغت من هذا البحث رأيت رسالة أو بحثاً في: «آثار التقوى في القرآن الكريم» لراوية نور الدين عتر (دار المكتبي، دمشق)، وهو لا يزيد عن جزء من كتاب الدكتور أديب الصالح في جزئية آثار التقوى في الدنيا والآخرة، أو ملخصاً له في هذه الجزئية، وكل ذلك بأسلوب عاطفى أدبى.

رابعاً: من الصعوبات التي واجهتني كانت نقل الكتابة في موضوع التقوى من العاطفة والأدب إلى الطريق العلمية في الكتابة، وكان ذلك من أصعب الصعوبات إذ اضطرت بسببها إلى تخفيض حجم الرسالة إلى ثلثها أو قريب من

(١) ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، مكتبة التراث الإسلامى، حلب، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، المقدمة، (١/٤)، وقال: رواه الترمذى وقال: حديث حسن.

نصفها، وكان عبثاً ثقيلاً كأننى أكتب الرسالة من جديد.

وأما أهم المراجع فكانت:

كتب التفسير الخاصة بالقرآن: مثل: «جامع البيان» للطبرى، و«المحرر الوجيز» لابن عطية، و«الكشاف» للزمخشري، و«تفسير القرآن العظيم» لابن كثير، و«التحرير والتنوير» للطاهر بن عاشور.

وكتب الحديث: «صحيح البخارى»، وشرحه «فتح البارى» لابن حجر العسقلانى. و«صحيح مسلم»، وشرحه «المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج» للإمام النووى.

وكذلك المعاجم كـ«أساس البلاغة» للزمخشري، و«لسان العرب» لابن منظور، علاوة على كتب السيرة والشعر والتراجم. وقد تكون البحث من مدخل وخمسة فصول.

❖ المدخل: وفيه مطلبان:

١. اتجاهات التفسير.

٢. التفسير الموضوعي.

❖ الفصل الأول: مفهوم التقوى: وفيه عشرة مطالب:

١. مادة التقوى ومعناها.

٢. صور المادة إحصائياً وترتيبها.

٣. معنى التقوى في الشرع.

٤. ولكن يناله التقوى.

٥. محل التقوى.

٦. لباس التقوى.

٧. كلمة التقوى.

٨. خير الزاد التقوى.

٩. بقية مواضع التقوى.

١٠. التقوى أساس قبول العمل.

✽ الفصل الثاني: أساليب الأمر بالتقوى والحض عليها: وفيه ثلاثة

مطالب:

١. النصوص الواردة في الأمر بالتقوى.

٢. أساليب الأمر بالتقوى من حيث:

أ. المأمور به.

ب. المضاف إلى التقوى (معمولات التقوى).

١. الأوامر والنواهي المصاحبة للأمر بالتقوى تفسير النصوص الواردة فيه.

✽ الفصل الثالث: التقوى دعوة الرسل: وفيه أربعة مطالب:

١. تفسير نصوص دعوة الرسل إلى التقوى.

٢. التكرار في الأمر بالتقوى إشارات وحكمه.

٣. تنوع أساليب الأنبياء في الأمر بالتقوى.

٤. مدى اتفاق أسلوب دعوة إلى التقوى واختلافه وأسباب ذلك.

✽ الفصل الرابع: أسباب التقوى: وفيه خمسة مطالب:

١. الإيمان.

٢. العبادة.

٣. الأخلاق والسلوك.

٤. التقوى مبعث كل التصرفات المقبولة.

٥. صفات المتقين.

✽ الفصل الخامس: عاقبة التقوى: يبدأ بتمهيد في محبة الله ومعيته وولايته

لأهل التقوى، ثم ثلاثة مطالب:

١. في الدين:

أ. الفرقان مع التقوى.

ب. التقوى سبب الهداية.

ج. الانتفاع بالآيات المتلوة والمشاهدة لأهل التقوى.

٢. في الدنيا:

أ. المخرج والرزق والتيسير.

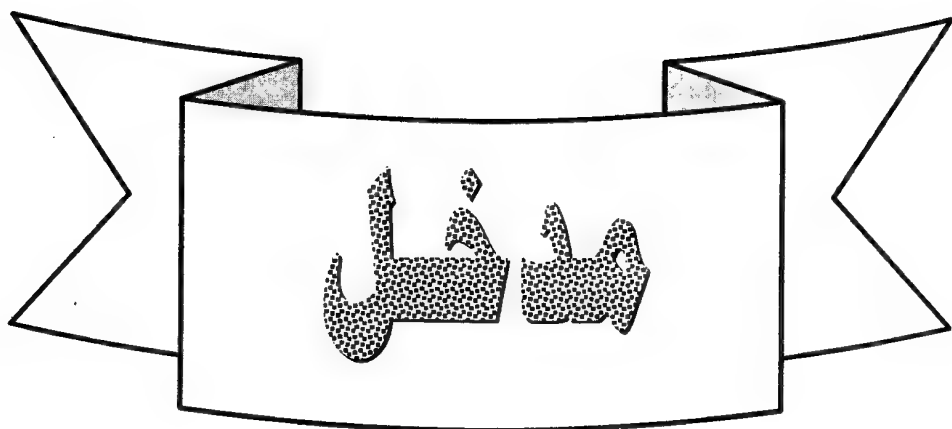
ب. العاقبة للتقوى.

٣. في الآخرة:

الفوز بالجنة والنجاة من النار.

❖ خاتمة: في عرض أهم نتائج البحث والتوصيات.

هذا وينبغي الإشارة إلى أن موضوع التقوى ما هو إلا لبنة في خدمة القرآن الكريم من الناحية الموضوعية، وإسهام متواضع في إظهار أن القرآن الكريم، ما زال مرتعاً خصيباً لأهل العلم، لم توف أبحاثه بالقدر المطلوب، يجد كل باحث فيه بغيته، مع الإقرار بأن موضوع التقوى ذاته، يمكن أن يكون هناك مجال لكلام آخر فيه، بزيادة البحث ومزيد التأمل، والمطالعة، بعد فتح الله تعالى.



مدخل المطلب الأول اتجاهات التفسير

للدخول إلى الكلام على التفسير الموضوعي ينبغي أن نعطي لمحة سريعة عن اتجاهات التفسير بغير كبير خوض في ذلك، إذ هو مستوف في مظانه، معلوم لمن عالج شيئاً من علم التفسير، بل ذلك لزوم البحث.

لقد مر علم التفسير بمراحل عدة حتى اتضحت مدارسه، وتمايزت مناهجه، وظهر أعلامه.

وأولى تلك المراحل كانت مرحلة التفسير في عهد النبي ﷺ وأصحابه الكرام؛ فكان رسول الله ﷺ مصدر التفسير للصحابة الكرام. فلما انتقل ﷺ إلى مولاة، كان مصدر الصحابة في التفسير: القرآن الكريم، ثم سنة النبي ﷺ، وثالثاً: الاستنباط المبني على معرفة اللغة ومشاهدة حال الرسول ﷺ ومعرفة أسباب نزول الآيات وملابساتها، علاوة على قوة فهمهم وسلامة فطرتهم وسليقة لسانهم. وقد أضاف الدكتور/ محمد حسين الذهبي^(١) مصدراً رابعاً هو أهل الكتاب من اليهود والنصارى. وإن كنت قد استغربت إضافته لهذا المصدر؛ لوصول نهى النبي ﷺ للصحابة ألا يصدقوا أهل الكتاب ولا يكذبونهم فيما سكت عنه القرآن، ولأن عدم نقل المفسر عن أهل الكتاب وخلو التفسير من الإسرائيليات يعتبر مدحاً له. فكيف يتخذ الصحابة الكرام ذلك مصدراً لتفسيرهم؟! وقد أورد «الذهبي» نفسه أن العلماء كانوا يتقون تفسير الإمام المفسر «مجاهد بن جبر»

(١) محمد حسين الذهبي «التفسير والمفسرون»، الطبعة السادسة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م،

مكتبة وهبة القاهرة، (١/ ٤٢).

لسؤاله أهل الكتاب.^(١)

ولقد تكلم كثيرٌ من الصحابة في تفسير القرآن الكريم، منهم الخلفاء الأربعة وغيرهم.^(٢) وأشهر من أثر عنه ذلك فهم: عبد الله بن عباس^(٣)، وعبد الله بن مسعود^(٤)، وعلي بن أبي طالب^(٥)، وأبي بن كعب^(٦).

وتميزت هذه المرحلة بعدم تفسير القرآن كله، وبقلة الاختلاف في فهم المعاني، مع الاختصار على توضيح المعاني اللغوية، وكذلك بعدم التدوين. وأما ثاني مراحل التفسير، فكانت في عصر التابعين الذين تتلمذوا على

(١) محمد حسين الذهبي «التفسير والمفسرون»، (١/ ١١٤).

(٢) انظر عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي «الإتقان في علوم القرآن»، الهيئة المصرية العامة للكتاب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ١٩٧٤ م، مجلد ٢، (٤/ ٢٣٣).

(٣) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب رباني أمة محمد ﷺ وأعلمها بكتاب الله تعالى وأفقهها بتأويله. ولد قبل البعثة بثلاث سنوات عمّر إحدى وسبعين عاماً، وتوفي عام ٥٥ هـ، انظر ابن الجوزي «صفة الصفوة»، (١/ ٣١٤-٣١٩).

(٤) عبد الله بن مسعود بن غافل، أسلم قديماً، هاجر الهجرتين، وشهد بدرًا، والمشاهد بعدها، لازم النبي ﷺ، قال فيه الرسول ﷺ: «من سره أن يقرأ القرآن غصاً كما نزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد»، توفي ٣٢ هـ، انظر ابن الأثير «أسد الغابة»، (٣/ ٣٨٤)، وانظر ابن كثير «البداية والنهاية»، (٧/ ١٦٢-١٦٣).

(٥) علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن عم رسول الله ﷺ، أول الناس إسلاماً، زوّجه النبي من ابنته فاطمة عليها السلام، شهد المشاهد كلها مع الرسول إلا تبوك، وقال له أنت مني بمنزلة هارون من موسى، توفي ٤٠ هـ، انظر ابن الأثير «أسد الغابة»، (٤/ ٩١) وما بعدها.

(٦) أبي بن كعب بن قيس الأنصاري، سيد القراء من أصحاب العقبة الثانية، شهد بدرًا، والمشاهد كلها، أخرج الأئمة أحاديثه في صحاحهم، أول من كتب للنبي ﷺ، توفي ٣٠ هـ، انظر ابن الأثير «أسد الغابة»، (١/ ٤٩-٥٠).

أيدى الصحابة ونقلوا عنهم. وقد اعتمد هؤلاء على فهمهم لكتاب الله، وعلى ما رواه الصحابة عن رسول الله ﷺ، وكذلك على تفسير الصحابة، ثم اجتهداهم.

وقد نشأت في هذه الفترة مدارس مختلفة للتفسير:

أولاهها: مدرسة التفسير بمكة. والتي قامت على عبد الله بن عباس ؓ. وكان أشهر رجالها: سعيد بن جبير^(١)، ومجاهد بن جبر^(٢)، وعكرمة مولى ابن عباس^(٣)، وطاووس بن كيسان اليماني^(٤)، وعطاء بن أبي رباح^(٥).
وثانيها: مدرسة التفسير بالمدينة. وكان أشهر رجالها: أبا العالية رفيع بن

(١) سعيد بن جبير حبشي الأصل، كان - رحمه الله - من كبار التابعين، ومقدمهم في التفسير والحديث والفقه والقراءات. قتل في شعبان ٩٥هـ، وهو ابن تسع وأربعين سنة، قتله الحجاج، وله مناظرة معه قبل موته. انظر ابن كثير «البداية والنهاية»، (٩٦/٩-٩٨)، وانظر ابن حجر «تهذيب التهذيب»، (١٣/٤-١٤).

(٢) مجاهد بن جبر المكي المقرئ المفسر أحد الأعلام الإثبات ولد ٢١هـ في خلافة عمر ؓ توفي ساجداً في مكة ١٠٤هـ اعتمد البخاري تفسيره، انظر النووي «تهذيب الأسماء واللغات»، (٨٣/٢).

(٣) عكرمة أبو عبد الله مولى ابن عباس أصله مغربي من البربر، روى كذلك عن أبي هريرة وعلى بن أبي طالب وغيرهم، وقد وثقه الأئمة الثقات كالبخاري ومسلم والإمام أحمد، وشهدوا له بالثقة والقرآن، ت ١٠٤هـ، انظر ابن حجر «تهذيب التهذيب»، (٢٦٣-٢٧٣)، وانظر النووي «تهذيب الأسماء واللغات»، (١/٣٤٠، ٣٤١).

(٤) طاووس بن كيسان: الحميري الجندی مولى، روى عن العبادلة الأربعة، كان عالماً متقناً خبيراً بمعاني كتاب الله تعالى ورعاً أميناً توفي بمكة ١٠٦هـ انظر ابن حجر «تهذيب التهذيب»، (٨/١٠-١٠)، وانظر ابن كثير «البداية والنهاية»، (٩/٢٣٥-٣٤٤).

(٥) المكي القرشي مولا هم ولد سنة (٢٧هـ) توفي (١١٤هـ) روى عن ابن عباس، وابن عمر، وابن عمرو بن العاص، كان ثقة فقيهاً عالماً كثير الحديث وانتهت إليه فتوى أهل مكة، انظر ابن حجر «تهذيب التهذيب» (٧/١٩٩-٢٠٣)، وانظر ابن كثير «البداية والنهاية» (٩/٣٠٦-٣٠٩).

مهران^(١)، ومحمد بن كعب القرظي^(٢)، وزيد بن أسلم^(٣).

وثالثها: مدرسة التفسير بالعراق. وقد قامت هذه المدرسة على عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. وكان أشهر رجالها: علقمة بن قيس^(٤)، والحسن البصري^(٥)، وقتادة بن دعامة السدوسي^(٦).

وقيمة تفسير التابعين أن ما اتفقوا عليه فهو حجة، وأما ما اختلفوا فيه فيرجع فيه إلى لغة القرآن أو السنة أو عموم لغة العرب أو أقوال الصحابة. وتتميز تفسيرهم بكثرة الإسرائيليات واعتماده على الرواية والتلقي، وظهرت فيه نواة

(١) أدرك الجاهلية، وأسلم بعد وفاة النبي ﷺ لستين، روى عن علي، وابن مسعود، وابن عباس، وهو من ثقات التابعين المشهور مجتمع على ثقته، توفي ٩٠ هـ انظر ابن حجر «تهذيب التهذيب»، (٣/ ٢٨٤-٢٨٥).

(٢) من حلفاء الأوس، روى عن علي وابن مسعود وابن عباس، اشتهر بالثقة والعدالة وكثرة الحديث وتأويل القرآن، ت ١١٨ هـ انظر ابن كثير «البداية والنهاية» (٩/ ٢٥٧-٢٥٩).

(٣) زيد بن أسلم مولى عمر بن الخطاب، من كبار التابعين، عرف بغزارة العلم، ثقة، ت ١٣٦ هـ انظر ابن حجر «تهذيب التهذيب» (٣/ ٣٩٥-٣٩٧).

(٤) ولد في حياة الرسول ﷺ، روى عن عمر وعثمان وعلي وابن مسعود، كان ثقة مأموناً، على جانب كبير من الورع والصلاح، وروى له أصحاب الكتب الستة، ت ٦١ هـ انظر ابن حجر «تهذيب التهذيب»، (١/ ٢٧٦-٢٧٨).

(٥) الحسن بن أبي الحسن البصري، ولد في خلافة عمر ونشأ بوادي القرى، كان فصيحاً ورعاً زاهداً عالماً فقيهاً مأموناً، ت ١١٠ هـ انظر ابن حجر «تهذيب التهذيب» (٢/ ٢٦٣-٢٦٤)، انظر ابن كثير «البداية والنهاية»، (٩/ ٢٦٦-٢٦٧).

(٦) عربي الأصل، روى عن أنس وأبي الطفيل، كان قوى الحافظة، واسع الإطلاع، متضلعا في اللغة، ومن هنا جاءت شهرته في التفسير، ت ١١٧ هـ انظر ابن خلكان «وفيات الأعيان»، (٢/ ١٩٧)، ابن حجر «تهذيب التهذيب»، (٨/ ٣٥١-٣٥٦).

الاختلافات المذهبية.

وأما مراحل التفسير بعد هاتين المرحلتين، فبدأت بمرحلة التدوين، حتى أصبح التفسير علماً قائماً بذاته، وكان ذلك على أيدي طائفة من العلماء، كابن ماجه^(١)، وابن جرير الطبري^(٢)، ولقد نحا التفسير في تلك المرحلة اتجاهات مختلفة:

الأول: التفسير بالمأثور، مثل: «المحرر الوجيز» لابن عطية^(٣)، «جامع البيان في تفسير القرآن» لابن جرير، و«تفسير القرآن العظيم» لابن كثير^(٤)، و«الدر المنثور» للسيوطي^(٥).

(١) أبو عبد الله محمد بن يزيد بن عبد الله بن ماجه القزويني، أحد الأعلام، ألف سنته المشهورة إحدى الأمهات الست، توفي ٢٧٣ هـ، انظر ابن حجر «تهذيب التهذيب»، (٥٣٢ - ٥٣٠ / ٩).

(٢) هو محمد بن جرير بن يزيد الطبري (أبو جعفر) ولد عام ٢٢٤ هـ، ٨٣٩ م مفسر، مقرئ، محدث، مؤرخ، أصولي، مجتهد، استوطن بغداد وتوفي ليومين بقيا من شوال في بغداد عام ٣١٠ هـ، ٩٢٣ م، انظر الإمام الذهبي «سير أعلام النبلاء»، (٢٠٦ - ٢١١).

(٣) هو عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن المعروف بابن عطية المحاربى ولد عام ٤٨١ هـ، ١٠٨٨ م، عالم مشارك في الفقه والحديث والتفسير والنحو واللغة والأدب ورحل إلى المشرق وتوفي ٥٤١ هـ، وأشهر مؤلفاته «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز». انظر السيوطي «بغية الوعاة»، (ص ٢٩٥).

(٤) هو إسماعيل بن عمر بن كثير ولد عام ٧٠٠ هـ، محدث، مؤرخ، مفسر، فقيه وتوفي بدمشق عام ٧٧٤ هـ، من تصانيفه «البداية والنهاية» انظر الشوكاني «البدر الطالع»، (١٥٣ / ١).

(٥) هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي، الشافعي عالم مشارك في أنواع من العلوم ولد عام ٨٤٩ هـ، وتوفي في جمادى الأولى عام ٩١١ هـ من مؤلفاته الإتيقان في علوم القرآن، انظر السخاوي «النضوء اللامع»، (٦٥ - ٧٠).

الثاني: التفسير بالرأى. والمقصود بالرأى هنا: الاجتهاد بعد معرفة المفسر لكلام العرب. وقد اختلف العلماء من قديم في جواز التفسير بالرأى بين مجيز ومعارض.^(١) ومن أهم كتب التفسير بالرأى الصحيح: «مفاتيح الغيب» للرازي.^(٢)

وأما التفسير بالرأى المذموم كتفسير الفرق المبتدعة مثل المعتزلة والشيعة، حيث اعتمدت الأولى على الأصول الخمسة المعلومة، والتي لا تتفق مع مذهب أهل السنة والجماعة، وهى: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمنزلة بين المنزلتين. ومن أهم كتب التفسير الاعتزالي: «الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل» للزنجشى^(٣)، أما أهم كتب التفسير عند الشيعة فهو «مجمع البيان في تفسير القرآن» للطبرسى^(٤)،^(٥)

(١) انظر: ابن تيمية «مقدمة في أصول التفسير»، (ص ٢٨ - ٢٩). والسيوطى «الإتقان في علوم القرآن» (١٧٩/٢).

(٢) هو محمد بن عمر بن الحسين، كان إماماً في التفسير والكلام، والعلوم العقلية وعلوم اللغة ولد عام ٥٤٣ هـ وله مؤلفات عديدة أشهرها «التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب»، وتوفى رحمه الله عام ٦٠٤ هـ. انظر الإمام بن كثير «البداية والنهاية»، (١٣/٥٥).

(٣) هو محمد بن عمر بن محمد الخوارزمى الزنجشى، مفسر، محدث، متكلم، نحوى، لغوى، بيانى، أديب ولد بزنجش عام ٤٦٧ هـ، ١٠٧٥ م، من تصانيفه الكثيرة «الكشاف عن حقائق التنزيل»، وتوفى عام ٥٣٨ هـ، انظر السيوطى «طبقات المفسرين»، (ص ٤١).

(٤) هو الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسى الطوسى، مفسر، ومشارك في بعض العلوم، من آثاره «مجمع البيان في تفسير القرآن»، وتوفى عام ٥٤٨ هـ، انظر كشف الظنون لحاجى خليفة.

(٥) انظر الذهبى «التفسير والمفسرون»، (١/ ٢٦٥) وما بعدها.

الثالث: تفسير الفقهاء. فكان من الإنتاج التفسيري للفقهاء: «أحكام القرآن» للجصاص^(١)، وهو يتكلم عن الآيات التي لها علاقة بالأحكام فقط، وكتاب: «الجامع لأحكام القرآن» لأبي عبد الله القرطبي^(٢)، من أجل التفسير، فقد احتوى على أحكام القرآن واستنباط الأدلة وذكر القراءات والناسخ والمنسوخ.

الرابع: تفسير الصوفية. وهو نوعان: تفسير صوفي إشاري، وتفسير صوفي نظري. ومن ذلك: «لطائف الإشارات» للقشيري^(٣).

الخامس: التفسير في العصر الحديث، الذي اهتم بعوامل مختلفة أهمها: التوسع العلمي والتأثر بالمذهب والعقيدة والإلحاد الذي قام على حرية الرأي، وكذلك اللون الاجتماعي من التفسير، ومن رواده: الشيخ محمد عبده، ومن تلاميذه السيد محمد رشيد رضا. وقد أخذ على هذه المدرسة أنها أعطت لعقلها حرية واسعة فتأولت بعض الحقائق الشرعية التي جاء بها القرآن وعدلت بها عن الحقيقة إلى المجاز أو التمثيل، وهم بذلك اقتدوا بالمعتزلة في بعض تعاليمها.

(١) هو أبو بكر، أحمد بن علي الرازي، المشهور بالجصاص، ولد ٣٠٥ هـ، كان إمام الحنفية في وقته، أخذ عن الزجاج وعن أبي الحسن الكرخي وتوفي ٣٧٠ هـ، انظر ابن كثير «البداية والنهاية»، (١١/٢٩٧).

(٢) هو الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي المفسر، كان من الصالحين والعلماء العارفين الزاهدين في الدنيا، توفي - رحمه الله - سنة ٦٧١ هـ، انظر السيوطي «طبقات المفسرين»، (ص ٢٨-٢٩).

(٣) هو الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد بن النيسابوري القشيري الشافعي الصوفي الفقيه ولد ٣٧٦ هـ، من مؤلفاته «التفسير الكبير»، «الرسالة»، «لطائف الإشارات»، توفي ٤٦٥ هـ، انظر ابن كثير «البداية والنهاية»، (١٢/١٠٧)، انظر السيوطي «طبقات المفسرين»، (ص ٢١-٢٢).

المطلب الثانى

التفسير الموضوعى

وهو عبارة عن جمع الآيات القرآنية التي تتحدث عن موضوع واحد مشتركة في الهدف، وترتيبها على حسب النزول كلما أمكن ذلك، ثم تناولها بالشرح والتفصيل، مع الإحاطة بجوانب الموضوع، مثل أن يقال: البر في القرآن الكريم، الإحسان إلى الوالدين في القرآن الكريم، وكذلك مثل التفسير الموضوعى لعدة مسائل قرآنية تتعلق مثلاً بالنظام السياسى للدولة، والنظام القضائى.

وفائدته تتبع مستقل لموضوعات القرآن موضوعاً موضوعاً، يستكمل فيه المفسر الفكرة ويستقصيها بحيث يستطيع فهم المعنى مكتملاً وأغراضه، وإظهار السياقات المختلفة، بحيث يتمكن المطلع أو القارئ من الإلمام بكافة جوانب الموضوع بسهولة.

هذا الاتجاه له نماذج متفاوتة ، ففي الحديث الفصول المختلفة التي أشار إليها د. أحمد الشرباصى مثل «الحرية في القرآن»، و«العزة في القرآن الكريم». وكذلك الدكتور/ محمد أحمد خلف فقد جمع الآيات المتعلقة بالقصاص القرآنى ورتبها تاريخياً، وحاول استخلاص الحقائق وتوضيح ما تشتمل عليه من آراء وأفكار. ومن نماذجه بحث الدكتور شكرى عياد «وصف القرآن ليوم الدين والحساب». أما في القديم فوجدنا «التبيان في أقسام القرآن» لابن قيم الجوزية.^(١)

(١) انظر: د. عفت محمد الشرقاوى «اتجاهات التفسير في مصر في العصر الحديث»، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ود. محمد أحمد يوسف القاسم «التفسير الموضوعى في القرآن الكريم»، ط ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، القاهرة. ود. محمد حسين

وتتميّز للكلام على التفسير الموضوعي ينبغي أن نشير إلى أن الدكتور/ عبد الحى الفرماوى في كتابه «البداية في التفسير الموضوعي.. دراسة منهجية موضوعية» قد قسم التفسير الموضوعي إلى نوعين:

الأول: الكلام على السورة ككل، مع بيان أغراضها العامة والخاصة وما فيها، مع بيان ربط الموضوعات بعضها ببعض، حتى تبدو السورة في منتهى الدقة والإحكام.

الثاني: جمع الآيات القرآنية التي في موضوع واحد ووضعها تحت عنوان واحد، وتفسيرها تفسيراً منهجياً موضوعياً.

وهذا النوع الثانى هو الذي يتبادر إلى الذهن عند إطلاق اسم التفسير الموضوعي ثم ذكر نشأته وعدم الاهتمام به قديماً.^(١)

=

الذهبي «التفسير والمفسرون»، مكتبة وهبة، الطبعة السادسة، ط ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
(١) د. عبد الحى الفرماوى «البداية في التفسير الموضوعي.. دراسة منهجية موضوعية»، الطبعة الثانية، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

وقد مثل كتاب الشيخ محمد الغزالي النوع الأول «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم»، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.



الفصل الأول

مفهوم النقوى



يقصد بهذا الفصل دراسة مواضع لفظة التقوى في القرآن الكريم، وتبيين علاقة هذه المواضع بعضها ببعض، وما قصد إليه القرآن الكريم من معانٍ وإرشادات ينبغي على المؤمن فهمها والالتزام بها. لزم لذلك أن نقدم تعريف التقوى في كلام أهل اللغة، ثم نشرع في تعريف التقوى في الشرع، ثم إحصاء لمادة التقوى في القرآن الكريم، وقد جعلنا هذا الفصل في عشرة مطالب:

المطلب الأول: مادة التقوى ومعناها.

المطلب الثاني: صور المادة إحصائياً.

المطلب الثالث: معنى التقوى في الشرع وتفسير النصوص والربط بينها.

المطلب الرابع: ولكن يناله التقوى منكم.

المطلب الخامس: محل التقوى.

المطلب السادس: لباس التقوى.

المطلب السابع: كلمة التقوى.

المطلب الثامن: خير الزاد التقوى.

المطلب التاسع: بقية مواضع التقوى.

المطلب العاشر: التقوى أساس قبول العمل.

المطلب الأول مادة التقوى ومعناها

قال الراغب الأصبهاني في مادة «وقى»: «الوقاية: حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره، يقال: وقيت الشيء أقيه وقاية ووقاء، قال تعالى: ﴿وَوَقَّيْنَاهُم عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [الدخان: ٥٦]. والتقوى: جعل النفس في وقاية مما يخاف. هذا تحقيقه، ثم يسمى الخوف تارةً تقوى، والتقوى خوفاً، حسب تسمية مقتضى الشيء بمقتضيه، والمقتضى بمقتضاه»^(١).

قال في اللسان^(٢): «وقى وقاه الله وقياً»، ووقاية: صانه، ووقيت الشيء أقيه إذا صنته وسترته عن الأذى. وفي الحديث: «فوقى أحدكم وجهه النار». وهذا اللفظ خبر أريد به الأمر، أى ليق أحدكم وجهه النار بالطاعة والصدقة. ويقال: وقاك الله شر فلان وقاية. وفي التنزيل العزيز: ﴿وَمَا هُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤]، أى: دافع. والتوقية: الكلاءة والحفظ. وقد توقيت واتقيت الشيء: حذرته. والاسم: التقوى.

(١) الراغب الأصبهاني «المفردات في غريب القرآن»، نشر مكتبة الأنجلو المصرية، مادة (وقى)، (ص ٨٣٣).

هو أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصبهاني أديب، لغوى، حكيم، مفسر، له تصانيف كثيرة منها تحقيق البيان في تأويل القرآن وتوفى - رحمه الله - عام ٥٠٢ هـ. انظر حاجي خليفة «كشف الظنون»، (ص ١٧٧٣).

(٢) ابن منظور «لسان العرب»، تحقيق عبد الله على الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، ط. دار المعارف، القاهرة، مادة (وقى).

وابن منظور هو محمد بن مكرم بن على، ولد بمصر عام ٦٣٠ هـ، أديب، لغوى، ناظم مشارك في علوم، توفي بمصر عام ٧١١ هـ، من مؤلفاته «لسان العرب». انظر ابن حجر «الدرر الكامنة»، (٦/ ٢٦٢-٢٦٤).

التاء بدل الواو، والواو من الياء، وفي التنزيل: ﴿وَأَتْنَهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]، أى: جزاء تقواهم، وقيل: معناه ألهمهم تقواهم.

والتقى: المتقى. ورجل تقى من قوم أتقياء وتُقواء، والأخيرة نادرة. قال أبو بكر: معناه موق نفسه من العذاب والمعاصي بالعمل الصالح.

قال النحويون: الأصل وَقَوَّى. فأبدلوا من الواو الأولى تاء كما قالوا متزراً، والأصل موتزراً، وأبدلوا من الواو الثانية ياء وأدغموها في الياء التي بعدها وكسروا القاف لتصبح الياء. قال أبو بكر: والاختيار عندي في تقى أنه من الفعل فعيل، فأدغموا الياء الأولى في الثانية، الدليل على ذلك جمعهم إياه أتقياء، كما قالوا ولي وأولياء، وذلك أقرب لعدم ارتكاب الحذف والقلب.

المطلب الثاني ترتيب المادة إحصائياً

رتبت مادة التقوى إحصائياً على ترتيب «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم»، وذلك للاستعانة بها في فصول البحث، مع التعليق على كل مادة من هذه المواد بما يناسبها، وذكر المكي والمدني للاستفادة منها في فهم مواضعها وسياقها، وقد اختصرت الإحصاء لمجىء الآيات في موضعها:

أولاً : لفظة التقوى:

وهي محل البحث وردت خمس عشرة مرة، وقد ازدحمت بالصور البيانية على ما سنوضح بعد ذلك - إن شاء الله تعالى.

وهذه أمثلة لتلك المواضع:

١. ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧].
٢. ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].
٣. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَمْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ [الحجرات: ٣].

ثانياً: الأمر بالتقوى:

جاء الأمر بالتقوى في خمسة وثلاثين موضعاً، منها تسعة وستون موضعاً بلفظ ﴿اتَّقُوا﴾، أى الأمر لجماعة المخاطبين، وواحدة بالفاء ﴿فَلْيَتَّقُوا﴾، وثلاثة مواضع للمفرد المخاطب بقول ﴿اتَّقِ﴾، واثنان أيضاً للمفرد المخاطب ولكن بلام الأمر ﴿وَلْيَتَّقِ﴾، وخمسة مواضع بضمير المتكلم ﴿اتَّقُونِ﴾، وأربعة مواضع بضمير الغائب ﴿اتَّقُوهُ﴾، وواحدة لا غير لجماعة الإناث ﴿اتَّقِينَ﴾.

وأما معمول التقوى، فهو إما لفظ الجلالة «الله»، وإما لفظ الرب، أى اتقوا ربكم. ويلاحظ أن لفظ «ربكم» يأتي في أمر الناس بالتقوى، أى أن المخاطبين به هم عموم الناس. وقد يأت الاثنان معاً: «الله ربكم» أو: «ربه». ومن هذه المواضع:

١. ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأحزاب: ١].

٢. ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [الروم: ٣١].

٣. ﴿أَنْ أُنْذِرُوكَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢].

٤. ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠].

٥. ﴿وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ [الأحزاب: ٥٥].

وأخيرة - وهى وحيدة - بغير إضافة، وذلك في قوله تعالى:

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

[الأنعام: ١٥٥].

وفى دعوة الرسل أقوامهم لتوحيد الله جاء بعد الأمر بالتقوى والطاعة -

اتقوا الله وأطيعون - توضيح لبعض صفات الله التي تستوجب أن يؤمنوا عند سماعهم وهى لا تليق بغيره - سبحانه - فكيف يعبد سواه، مثل:

١. ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ [الشعراء: ١٣٢].

٢. ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّ الْأُولِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٤].

٣. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [يس: ٤٥].

٤. ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

٥. ﴿قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ

حِسَابٍ ﴿[الزمر: ١٠].

وقد وجاءت معمولات أخرى للتقوى، وهي:

أولاً: النار:

﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ [البقرة: ٢٤].

ثانياً: اليوم الآخر:

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ ﴾ [البقرة: ٤٨].

ثالثاً: السيئات:

﴿ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُهُ ۚ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [غافر: ٩].

رابعاً: الفتنة:

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥].

ثالثاً: الأمر بالتقوى بين الأمر والنهي:

بمعنى أن الأمر بالتقوى قد يأتي معطوفاً على أمرٍ أمر الشارع به، أو نهيٍ نهي عنه الشارع، أو يأمر بالتقوى ثم يعطف عليه الأمر أو النهي، أو يأتي أمر ونهي ويعطف عليه الأمر بالتقوى، ولكل ذلك معاني تناسبه، وقد يأتي بغير ذلك. ونذكر من هذه الآيات:

أ. أن يكون الأمر بالتقوى معطوفاً على أمر، أو العكس: ﴿ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ ۖ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

ب. الأمر بالتقوى بين الأمر والنهي، أو: معطوف على كليهما:

١. ﴿فَلْيَكْتُِبْ وَلِيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلِيَتَّقِيَ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٢٨٢].
٢. ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].
٣. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَسَّجُوا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَسَّجُوا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المجادلة: ٩].

وسوف يتم دراسة ما يتعلق بخواتيم هذه الآيات ومناسبتها للسياق إن شاء الله تعالى.

رابعاً: الفعل الماضي «اتَّقُوا»:

ورد هذا الفعل في تسعة عشر موضعاً؛ المكي منها ثمانية مواضع، منها:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَإِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].
 ٢. ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩].
- وأما المدني فهو أحد عشر موضعاً، منها:
١. ﴿قُلْ أُوْنِتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَالِكُمْ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥].
 ٢. ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٢].

ويلاحظ في التعبير بالماضي «اتَّقُوا» سواء في المكي أو المدني:

١. ذكر جزاء التقوى ويغلب في الآيات ذكر الجزاء الأخرى، سواء في ذكر

- النجاة من النار أو من الوعد بالجنة ووصفها، أو بذكر الدار الآخرة وأنها دار المتقين، أو بذكر الثواب...، والتوسع في ذكر ذلك وغيره.
٢. وكأن المناسبة بين ذكر التقوى بلفظ الماضي وذكر عاقبتها وأجرها أنه لما فرغ من التقوى وأتمها كان المتوقع ذكر الجزاء.
٣. وذكر الماضي أراد تحقق الوقوع كأنه قد حدث.
٤. استخدام لو في المكي مرة واحدة لعموم الناس، وفي المدني مرتين لأهل الكتاب فقط، ومناسبة ذلك.
٥. التركيز على الجزاء الأخرى في المكي كأنه:
- أ. تركيز على الإيمان باليوم الآخر وهو أحد قواعد التوحيد.
- ب. الحمل على الإيمان بذكر الجنة والنار فكان مناسباً للدعوة في بدايتها.
- ج. أن الرسول ﷺ لم يكن يملك لهم في مكة ما يعدمهم به من أمور الدنيا، أى حتى يكون الإيمان بالله وحده طلباً لثوابه لا للعاجل الفانى.
٦. المقارنة بين أهل التقوى والكفار صورة وعاقبة وذلك تقريباً في كل الآيات المكية، مثل: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾، و﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ﴾، و﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾.

خامساً: الفعل المضارع «تتقوا»:

ورد أحد عشرة مرة الغالب فيها استخدام الجملة الشرطية. وكلها مدنية إلا آية الأعراف مكية، وهى في قصص الأنبياء. وغالبها في الإيمان والعمل الصالح المناسب للعهد المدني. وكذلك يتميز أسلوب الشرط بحصول الجواب أو النتيجة إذا وقع الشرط، مما يتميز معه عاقبة التقوى عند وقوع شروطها، فكان كالحث عليها لتحصيل هذه العاقبة العظيمة.

المكى: آية واحدة: ﴿أَوْعِجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٣].

أما المدنى، فمما ورد فيه: منها الشرطى، مثل:

١. ﴿إِنْ تَمَسَّسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

٢. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ تَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

٣. ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهُوَ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٦].

ويبقى موضع ليس من الشرط، وهو: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٤].

وقد عطف فيها بين البر والتقوى الإصلاح، ولكل معنى، كما سيأتى - إن شاء الله.

سادساً: العمل المضارع «تتقون»:

ورد في تسعة عشر موضعاً، منها أربعة عشر موضعاً مكيّاً، والباقي مدنى. والملاحظ في المدنى الترجى ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، وعلى خلاف الأفعال السابقة من جعل التقوى سبباً لحسن العاقبة في هذه المواضع جعل التقوى هى العاقبة والنتيجة للأعمال الصالحة. وكذلك ارتباط التقوى بالأعمال الصالحة التى فرضت في العهد المدنى؛ عهد التشريع. بل أجمل ذلك في أن العبادة سبب التقوى أو يرجى بها.

وأما الآيات المدنية، فما جاء فيها: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

وأما المواضع المكية التنزيل، فيلاحظ عليها:

أولاً: أن التقوى هي دعوة الرسل وأنها مطلوبة بقوله تعالى: (ألا تتقون)، إذ بداية دعوة الرسل هي لتوحيد الله، ومن ثم وجدنا الرسل جميعاً متفقين على دعوة الناس إليها، إما بمعنى الإيمان، وإما بمعنى الخشية. لذلك لاحظنا أيضاً التكرار.

ثانياً: يلاحظ أن التقوى كذلك طلبت بعد تقرير أدلة التوحيد التي كان يسوقها الرسل لأقوامهم برهاناً على انفراد الرب بالخلق والرزق، مما يستوجب انفراده بالتوحيد والعبادة.

من هذه الآيات:

١. ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۖ قَالَ يَبْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥].

٢. ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

٣. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَبْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣].

٤. ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۚ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٦، ٧٨].

٥. ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۖ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ۖ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الصافات: ١٢٣، ١٢٤].

٦. ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا تَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧].

سابعاً: الفعل المضارع «يتقون»:

ذكر ثمانى عشرة مرة جمعت كثيراً من أمور التقوى ومطلوباتها السابقة، من أن أولياء الله الذين آمنوا وكانوا يتقون، وأن الموعدة والذكرى لهم، وكذلك النجاة في الآخرة، وأن الدار الآخرة لهم كذلك، ورحمة الله يكتبها لهم، وأن آياته الكونية لقوم يتقون، وأن آيات الله يبينها رجاء التقوى، وكذلك أنزل قرآنه سبحانه وتعالى لذلك. والمكى فيها ثلاثة عشر موضعاً، والمدني خمسة مواضع. من المدني: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأعراف: ١٦٤].

وأما المواضع المكية، فمنها:

١. ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌّ وَلَهْوٌ وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنعام: ٣٢].
٢. ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ تُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنعام: ٥١].
٣. ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

ثامناً: الفعل «يتقن» المجزوء:

ورد في ستة مواضع؛ أربعة مواضع منها شرطية لبيان عاقبة التقوى، واثنان في الأمر المفرد بالتقوى، ولكل معنى في السياق. والمدني منها خمسة مواضع، والمكى موضع واحد مقرون بالصبر المناسب للدعوة في العهد المكي، علاوة على كونه في قصة يوسف، والقصص القرآني أحد أهدافه تثبيت أهل الإيمان بحكاية ما حدث للرسول مع أقوامهم السابقين وصبرهم على ذلك. والموضع المكى هو: ﴿قَالُوا أَأَتَاكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ

وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ [يوسف: ٩٠].

وأما المدنى فمنه: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجْلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ كُم يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ [الطلاق: ٢].

فجمع للمتنقى في جواب الشرط الرزق والمخرج واليسر، وثم فارق بين أن يجعل له مخرجاً وبين أن يجعل له من أمره يسراً، وجمع له كذلك تكفير السيئات وإعظام الثواب.

تاسعاً: بقية مشتقات التقوى:

١. الفعل «يَتَّقِهِ»:

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَخَشِيَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ [النور: ٥٢].

٢. الفعل «يَتَّقِي»:

﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ [الزمر: ٢٤].

٣. «الآتَقَى»:

لم تأت صيغة أفعل هذه إلا مرة واحدة، وكأنها لا تحتل أكثر من ذلك، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتَقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿٢١﴾ [الليل: ١٧، ٢١].

٤. «أتقاكم»:

وكذلك «أتقاكم» في خطاب المؤمنين ذكرت مرة واحدة، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

٥. «واق»:

وهذه اللفظة وردت ثلاث مرات، كلها متعلقة بالله تعالى، ولها معانٍ منها: ﴿هُمَّ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤].
والمعنى أن ليس لأحد واق من الله، لا الأنبياء ولا الأقوياء ولا غيرهم، إذا اتبعوا أهواءهم وخالفوا أمر ربهم.

٦. «تقياً»:

وردت ثلاث مرات؛ اثنان في سورة مريم، في قصة يحيى وعيسى، والثالثة عامة في ثواب التقوى، وهي:

١. ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨].

٢. ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٣].

٣. ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣].

٧. «تقاة»:

تقاة بمعنى تقية، وردت مرة واحدة في حكم خاص بها، وذلك في قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

٨. «تقاته»:

ذكرت مرة واحدة كذلك: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ

وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ [آل عمران: ١٠٢].

٩. الفعل «يوق»:

المبنى للمجهول، ورد مرتان في وقاية النفس من الشح، ولم يأت إلا في الشح والبخل، ومبنيًا للمجهول، ومدنيًا، ومنها:

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُخْجَلُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ [الحشر: ٩].

١٠. الفعل «اتقى»:

جاء مذكوراً في سبعة مواضع، وجاء بالافراد لبيان مسئولية كل فرد عن عمل نفسه، ولبيان أن التقوى محلها القلب أو بالأصح أن الله هو العالم بمن اتقى، علم ذلك إليه، وأن التقوى هي البر، وأنه يسر أصحاب التقوى للحسنى في الدنيا والآخرة، وأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.. إلى آخره. واثنان منهم مكيان، والخمسة مدنية.

المكى:

١. ﴿ يَسْتَبِيءَ آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ أَتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ [الأعراف: ٣٥].

٢. ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ [الليل: ٥-٧].

ومن المدنى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَىٰ ۖ وَاتُّوا الْبُيُوتَ مِنْ أَدْبَارِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩].

١١. «تقواها»:

﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۖ ﴾ [الشمس: ٨].

تبين رحمة الله ﷻ وقطع العذر، ومعنى المقابلة بين الفجور والتقوى.

١٢. «تقواهم»:

جاءت مرة واحدة تبين أن التقوى نفسها جزاء الهداية: ﴿ وَالَّذِينَ أَهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۖ ﴾ [محمد: ١٧].

١٣. «المتقون»:

جاءت ست مرات فقط، وهى إما بياناً لصفاتهم، أو وصفاً للجنة التي وعدوا بها وذكر ألقاها. وقد جاء ثلاث منها مكية، وثلاث مدنية.

المكى:

١. ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۖ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۖ ﴾ [الأنفال: ٣٤].

٢. ﴿ قُلْ أَذِلَّكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ۖ ﴾ [الفرقان: ١٥].

٣. ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ۖ ﴾

[الزمر: ٣٣].

أما المدنى، فمنه:

١. ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ

أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ [البقرة: ١٧٧].
 ٢. ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا
 دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾
 [الرعد: ٣٥].

١٤. «المتقين»:

وردت في ثلاثة وأربعين موضعاً، منها ستة وعشرون موضعاً في التنزيل
 المكي جاءت لتطالبهم بالصبر، وتبين لهم أن العاقبة للمتقين، ثم ذكر الجنة والنار
 للحث على الإيمان والتوحيد، وكذلك التقابل بين فريقى، المتقين والفجار، وجزاء
 كلٍّ وعاقبته، وذكر الأمم السابقة وما آلت إليه أحوالهم بالإيمان أو بعدهم.
 أما المدنى: وهى سبعة عشر موضعاً فتبدأ بإيضاح وتقرير أن الكتاب هدى
 للمتقين، ويبين صفاتهم، وأن البيان والموعظة للمتقين، كأنه كالحث لهم على
 التزام صفات التقوى. وهى مناسبة للأوامر والنواهى في العهد المدنى. ثم بين
 لهم ما يجمع ذلك كله فإن الله لا يقبل هذه الأعمال إلا من المتقين، مع الحض على
 ذلك بكونه مع المتقين، وأنه يحبهم - سبحانه. ومن مواضع المدنى:
 ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَئِكَ هُمُ السَّادِقُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَبَسُوا
 دِينَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا فَلَا يَدْعُونَ بِلِسَانِهِمْ إِلَى اللَّهِ حَقًّا وَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧-١٧٨].

وأما المكي، فمنه:

١. ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا
 فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾
 [النحل: ٣٠].

٢. ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾
 [مريم: ٩٧].

٣. ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ﴾
 [الأنبياء: ٤٨].

المطلب الثالث

التقوى في كلام أهل الشرع

وإذ قد عرفنا مادة التقوى في كلام أهل اللغة وذكرنا إحصائها، فلا بد من معرفة معناها في لسان أهل الشرع، ليكتمل المعنى ويتضح المقصود، إذ على معرفة معناها في عرف الشرع يتوقف معرفة ما ينبني على ذلك من معرفة الله تعالى، والخوف منه والخشية له، وما يتبع ذلك من ثواب وعقاب. فنبدأ بكلام الفخر الرازي - رحمه الله تعالى، لأنه لخص كلام من سبقه وفصل بعض التفصيل، حيث يقول عند تفسيره لقول الله تعالى ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]:

«المسألة الثانية: المتقى في اللغة: اسم فاعل من قولهم وقاه فاتقى. والوقاية فرط الصيانة، إذا عرفت هذا فنقول إن الله تعالى ذكر المتقى هاهنا في معرض المدح، ومن يكون كذلك أولى أن يكون متقياً في أمور الدنيا، بل بأن يكون متقياً فيما يتصل بالدين، وذلك بأن يكون آتياً بالعبادات محترزاً عن المحظورات»^(١).

وهو كلام كثير من المفسرين، فكانت التقوى عند الإمام الرازي هي الإتيان بالعبادات وترك المحظورات ولا يكون المرء تقياً إلا بذلك ولكنه - رحمه الله - أورد سؤالاً مهماً مفاده: هل يستحق المرء اسم التقوى إذا لم يتق الصغائر؟ يقول - رحمه الله تعالى: «واختلفوا في أنه هل يدخل اجتناب الصغائر في التقوى؟ فقال بعضهم: يدخل كما يدخل الصغائر في الوعيد، وقال آخرون: لا يدخل، ولا نزاع في وجوب التوبة من الكل، إنما النزاع في أنه: إذا لم يتق الصغائر هل يستحق ذلك الاسم؟»، وكأنه - رحمه الله - اختار عدم استحقاقه لهذا الاسم، إذ أورد من الأدلة ما يؤيد ذلك ويقويه وإن لم يصرح فقال: «فروى عنه عليه السلام أنه

(١) الإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي «مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير»،

ط. دار الغد العربي، القاهرة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، (١/ ٣٨١-٣٨٢).

التقوى في القرآن الكريم

قال: «لا يبلغ العبد درجة المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس».^(١) وعن ابن عباس - رضى الله عنهما: «أنهم الذين يحذرون من الله العقوبة في ترك ما يميل الهوى إليه ويرجون رحمته بالتصديق بما جاء منه».^(٢) وبإيراده الحديث، وهو أن العبد لا يبلغ درجة المتقين حتى يدع ما لا بأس به فمن باب الأولى لا يكون تقياً بارتكاب الصغائر فإنها وإن سميت كذلك فهي حرام وإن لم ترق إلى الكبائر.

ومن ثم يقع اسم المتقى عند الرازى على من ترك المحظورات وأتى بالعبادات واجتنب الصغائر، ولكن هل يشترط في التقوى ترك ما لا بأس به، أى لا حرج فيه ولا إثم، كما أشار إليه غيره من أهل العلم؟ فالظاهر أن استدلاله بالحديث المذكور يشير ضمناً إلى ذلك حيث عقب بعد ذلك - رحمه الله - فذكر جوهر التقوى ومعناها، فقال: «واعلم أن التقوى هى الخشية قال في أول سورة النساء: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِقُوهَا رَبَّكُمْ﴾ [النساء: ١]. ومثله في أول سورة الحج، وفي الشعراء: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٠٦]. ولا فرق في الخشية بين الصغائر والكبائر».^(٣)

ثم وصل بنا إلى الغرض الأصلي منها، وهو خمسة أمور، فقال^(٤) - رحمه الله: «واعلم أن حقيقة التقوى وإن كانت هى التي ذكرناها، إلا أنها قد جاءت في القرآن، والغرض الأصلي منها الإيمان تارة، والتوبة تارة أخرى، والطاعة

(١) الحديث أخرجه العراقي في أحاديث الإحياء (٣٣/١)، كتاب الشعب، وقال رواه الترمذى وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث عطية السعدى.

(٢) الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٣٨٢/١).

(٣) الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٣٨٢/١).

(٤) المصدر السابق، (٣٨٢/١).

ثالثة، وترك المعصية رابعاً، والإخلاص خامساً.

أما الإيذان فقوله تعالى: ﴿وَالْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ [الفتح: ٢٦]، أى: التوحيد، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَمْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ [الحجرات: ٣]، وفي الشعراء: ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١١].

وأما التوبة فقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا﴾ [الأعراف: ٩٦]، أى: تابوا.

وأما الطاعة: فقوله تعالى في سورة النحل: ﴿أَن أُنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونَ﴾ [النحل: ٢]، وفيه أيضاً: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ [النحل: ٥٢]، وفي المؤمنين: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

وأما ترك المعصية: فقوله تعالى: ﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: ١٨٩]، أى: فلا تعصوه.

وأما الإخلاص: فقوله في سورة الحج: ﴿فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]، أى: من إخلاص القلوب، فكذا قول الله تعالى: ﴿وَإِنِّي فَاتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٤١].

وهذه الأغراض بهذا التفصيل ستكون عوناً - إن شاء الله تعالى - فيما يأتي، ونبراساً نستضيء به في تنزيل ألفاظ التقوى الواردة على حسب تلك المعانى، بحيث يظهر المراد منها بحسب السياق وغيره من الأدلة.

ويختتم الإمام الرازى كلامه في التقوى بذكر أهميتها وعظم مكانتها وشرف أهلها وعلو منزلتهم، فيقول: «واعلم أن التقوى مقام شريف، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وقال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله...».

وينهى الإمام هذا الختام قائلاً: «ولو لم يكن للمتقى فضيلة إلا ما في قول الله

تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] كفاه، لأنه تعالى بين أن القرآن هدى للناس في قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ثم قال ها هنا في القرآن إنه ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، فهذا يدل على أن المتقين هم كل الناس، فمن لا يكون متقياً كأنه ليس بإنسان.^(١)

ونواصل النظر في كلام أهل العلم، لنستكمل تعريف التقوى، حيث نصل إلى شرح الحافظ ابن رجب الحنبلي لحديث: «اتق الله حيثما كنت» من كتابه «جامع العلوم والحكم»^(٢)، حيث هو أجمع من رأيت شرحاً لمعنى التقوى في شرحه للحديث، ونعيد ترتيب كلامه ليتفق مع الترتيب العام للكلام على تعريف التقوى، يقول - رحمه الله - ما مختصره: «وأصل التقوى أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه، إلى أن يقول متدرجاً في الكلام على التقوى: وقد يغلب استعمال التقوى على اجتناب المحرمات، كما قال أبو هريرة^(٣) ﷺ لما سئل عن التقوى، فقال: هل أخذت طريقاً ذا شوك؟ قال: نعم،

(١) الفخر الرازي «التفسير الكبير»، (١/ ٣٨٢).

(٢) الحافظ ابن رجب الحنبلي «جامع العلوم والحكم»، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، تحقيق شعيب الأرنؤوط وإبراهيم باجس، (١/ ٣٩٥) وما بعدها.

والحافظ ابن رجب هو عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الشهير بابن رجب الحنبلي، محدث حافظ فقيه أصولي مؤرخ، ولد ببغداد عام ٧٣٦هـ، ومؤلفاته ٣٣ جزءاً ورسالة منها «جامع العلوم والحكم»، وتوفي عام ٧٩٥هـ. انظر ابن حجر العسقلاني «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة»، (٢/ ٣٢١-٣٢٢).

(٣) هو عبد الرحمن بن صخر الدوسي أسلم عام ٧هـ، كان من حفاظ الصحابة روى عن الإمامين أبا بكر وعمر، وأبى بن كعب، والفضل بن العباس، وكثير من غيرهم، شهد مع النبي ﷺ خيبر وما بعدها، توفي - رحمه الله - عام ٥٩هـ، انظر الحافظ ابن كثير «البداية والنهاية»، (٨/ ١٠٣).

فقال: فكيف صنعت؟ قال: إذا رأيت الشوك عزلت عنه أو جاوزته أو قصرت عنه، قال: ذاك التقوى». وأخذ هذا المعنى ابن المعتز^(١) فقال:

خَلَّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا فَهُوَ التَّقَى
وَاصْنَعْ كَمَا شِئْتَ فَوْقَ أَرْضِ مِنَ الشُّوكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى
لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً إِنْ الْجِبَالَ مِنَ الْحَصَى

فكان أول ما أشار إليه ابن رجب - رحمه الله - من معاني التقوى حسب ترتيبنا لكلامه هو اجتناب المحرمات، ثم يزيد عليه بعد ذلك بمثل ما ذهب إليه الإمام الفخر في بداية تعريفه للتقوى، فيقول - رحمه الله تعالى: «فتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك، وهو فعل طاعته واجتناب معاصيه».

ثم يرتفع بمعنى التقوى منزلة أخرى فيقول: «ويدخل في التقوى الكاملة فعل الواجبات وترك المحرمات والشبهات»^(٢)، وهو في هذه المنزلة يفيدنا معنى جديداً تشتمل عليه التقوى، وهو زائد على اختيار الفخر الرازي، وهو ترك الشبهات، فلا تكمل تقوى العبد - على كلام الحافظ ابن رجب - إلا بترك الشبهات، وهو حق، إذ حديث النبي ﷺ يشير إلى هذا المعنى، وهو قوله: «فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام»^(٣)، وإن كان الرازي أدخل في التقوى ترك ما لا بأس به، وهو ترك بعض

(١) هو عبد الله بن المعتز بالله محمد بن المتوكل الخليفة العباسي، أديب، شاعر من آثاره ديوان شعر، ت ٢٩٦هـ.

(٢) ابن رجب الحنبلي «جامع العلوم والحكم»، (١/ ٣٩٥).

(٣) رواه البخاري (٥٢)، و(٢٠٥١). وانظر أحمد بن علي بن حجر العسقلاني «فتح الباري بشرح صحيح الإمام محمد بن إسماعيل البخاري»، تصحيح وتحقيق عبد العزيز بن باز،

حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراماً، يكون حجاباً بينه وبين الحرام، فإن الله قد بين للعباد الذي يصيرهم إليه فقال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، فلا تحقرن شيئاً من الخير أن تفعله ولا شيئاً من الشر أن تتقيه»^(١).

وبعد أن قطعنا هذا الشوط الطويل مع الحافظ ابن رجب في تبين ملامح التقوى وصل بنا - رحمه الله تعالى - إلى أصل التقوى، فقال: «وأصل التقوى أن يعلم العبد ما يتقى ثم يتقى»، وذكر معروف الكرخي عن بكر بن خنيس، قال: «كيف يكون متقياً من لا يدرى ما يتقى؟».

قال معروف الكرخي^(٢): إذا كنت لا تحسن تتقى أكلت الربا، وإذا كنت لا تحسن تتقى لقيتك امرأة ولا تغض بصرك، وإذا كنت لا تحسن تتقى وضعت سيفك على عاتقك وقد قال النبي ﷺ لمحمد بن مسلمة^(٣): «إذا رأيت أمتي قد اختلفت فاعمد إلى سيفك فاضرب به أحياناً»^(٤).

على يد عبد الرحمن بن عوف، وتوفي بدمشق بعد أن ولاه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عليها. انظر أبا النعيم الأصبهاني «حلية الأولياء»، (١/٢٨٨).

(١) ابن رجب الحنبلي «جامع العلوم والحكم»، (١/٤٠٠).

(٢) علم الزهاد، بركة العصر، أبو محفوظ البغدادى، واسم أبيه فيروز، وقيل فيروزان، من الصابئة، توفي سنة مئتين، انظر الإمام الذهبي «سير أعلام النبلاء»، تحقيق شعيب الأرنؤوط وغيره، طبعة أولى، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م، (٩/٣٣٩).

(٣) هو محمد بن مسلمة بن خالد بن عدى الأنصارى الأوسى، شهد بدرأً وأحياناً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ إلا تبوك ومات بالمدينة عام ٤٦هـ. انظر ابن الأثير الجزرى «أسد الغابة في معرفة الصحابة»، (٥/٢١٢).

(٤) ابن رجب الحنبلي «جامع العلوم والحكم»، (١/٤٠٢). و«أُحْد» الجبل المشهور بالمدينة المنورة، وقَصْدُهُ ﷺ ألا يشارك في الفتن.

وما زال حبل الحديث متصلاً في معنى التقوى وحقيقتها، حتى نصل إلى صاحب رسالة «الغاية القصوى في الكلام على آية التقوى»^(١) العلامة الفاكهاني، حيث هو من قد علمت الذي أفرد آية التقوى برسالة وكان دقيقاً في اختياره لمعنى التقوى من بين ما عرض لها من معاني وحقائق، فنذكر حاصل كلامه وما زاد به عن غيره ممن سبق أو ممن عارضه، ثم الترجيح بين ذلك كله لاختيار الأقرب إلى الأدلة والأولى بالمتابعة، وحتى نستقصى في البحث ما ورد فيه.

يقول - رحمه الله تعالى:

«الطرف الأول في حقيقة التقوى جملة وتفصيلاً. أما جملة: فهي عبارة عن امثال المأمورات واجتناب المنهيات. قال الغزالي^(٢) - رحمه الله تعالى: التقوى في قول شيوخنا: تبرئة القلب عن ذنب لم يسبق عنك مثله، حتى يحصل للعبد من قوة العزم على تركه وقاية بينه وبين المعاصي.

(١) العلامة تاج الدين عمر بن علي اللخمي المعروف بالفاكهاني «الغاية القصوى في الكلام على آية التقوى»، تحقيق وتعليق محمد يحيى بيدق، الطبعة الأولى، مؤسسة الريان، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، (ص ٢٩).

والعلامة الفاكهاني ولد بالاسكندرية سنة ٦٥٤هـ، يقول عنه ابن فرحون في «الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب»، (ص ١٨٦-١٨٧): قرأ القرآن بالقراءات، وكان فقيهاً فاضلاً متفنناً في الحديث والفقه والأصول والعربية والأدب، على حظ وافٍ من الدين المتين، والصلاح العظيم، واتباع السلف الصالح، وحسن الخلق، وله شعرٌ حسن، توفي - رحمه الله - عام ٧٣٤هـ. وانظر ابن كثير «البداية والنهاية»، (١٤/ ١٦٨).

(٢) الإمام حجة الإسلام محمد بن محمد محمد الغزالي الطوسي، ولد ٤٥٠هـ، فقيه متكلم أصولي حكيم، له مؤلفات كثيرة أشهرها: إحياء علوم الدين، توفي ٥٠٥هـ. انظر ابن السبكي «طبقات الشافعية»، (٤/ ١٠١).

وأما تفصيلاً: فاعلم أن التقوى في القرآن الكريم تنطلق على ثلاثة أشياء:
أحدها: بمعنى الخشية والهبة، قال تعالى: ﴿وَإِنِّي فَاتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٤١]،
وقال - سبحانه وتعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١].
والثاني: بمعنى الطاعة والعبادة، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ
حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، قال ابن عباس ؓ: أطيعوا الله حق طاعته.
قال مجاهد: هو أن يطاع فلا يعصى، وأن يشكر فلا يكفر.

الثالث: بمعنى تبرئة القلب عن الذنوب، وهذه هي الحقيقة في التقوى كما
تقدم دون الأولين، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَخَشِ
اللَّهُ وَيَتَّقِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢]، ذكر الطاعة والخشية ثم
ذكر التقوى، فعلمت بهذا أن حقيقة التقوى معنى غير الطاعة والخشية، وهي:
تبرئة القلب عما ذكرنا.^(١)

وبتأمل ما قاله - رحمه الله تعالى - من ذكر التقوى جملة، لم نره خرج على
كلام أهل العلم. وأما تفصيلاً، فما ذكره من أن الأول والثاني مما يطلق على
التقوى فكذلك هو قول أهل العلم، وإن استدل على الأولى وهي الخشية بقوله
تعالى: ﴿وَإِنِّي فَاتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٤١]، حيث استدل بها الإمام الرازي على
التقوى بمعنى الإخلاص كما سبق، والتدقيق أن الآية محتملة، فلا يظهر خلاف
- إن شاء الله تعالى.

وأما الثالث فالنظر فيه من وجوه، وهو الذي ذكره في تعريف التقوى، وإن
كان قد نقله عن الإمام الغزالي، لكنه اختاره وأقام الدليل عليه من الآية
الكريمة: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَخَشِ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ
﴾ [النور: ٥٢].

(١) الفاكهاني «الغاية القصوى»، تحقيق يحيى بيدق، (ص ٢٩).

الوجه الأول: أنه ذكر في حقيقة التقوى تفصيلاً أنها على ثلاث أشياء في القرآن الكريم ثم قال في الثالث إنه هو حقيقة التقوى دون الأولين، فكيف تطلق على ثلاثة أشياء في القرآن، ثم يقول والثالث هو الحقيقة دون الأولين؟ فكان الأولى أن يذكر أن ذلك اختياره أو ما ارتضاه، وأنه الذي سيبنى عليه شرحه، خاصة وأن الأولين لم يُقدح في دليلهما، وأنها من معاني التقوى التي لا غبار عليها.

الثاني: هو احتجاجه بالآية الكريمة على أن العطف يقتضى المغايرة بين الطاعة والخشية والتقوى. والرد أن التغاير ليس لازماً للعطف فقد يعطف الشيء على مرادفه للتأكيد مثلاً كقول الشاعر:

فألفى قولها كذباً ومينا

وقد يعطف الخاص على العام والعكس، لفرط الاهتمام بالخاص، أو لغيره من المعاني المستنبطة من السياق، كقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨]، فعطف جبريل وميكايل على الملائكة، وهما قطعاً من الملائكة، وإن ذلك من باب عطف الخاص على العام لخصوصيته، كما في تفسير الآية، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢]. فالعطف يقتضى التغاير، فماذا نفعل في قوله تعالى: ﴿وَلَيْكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى﴾ [البقرة: ١٨٩]، وله تفصيل يأتي في موضعه - إن شاء الله تعالى - وهو قريب مما سبق التوفيق به.

ومن عطف العام على الخاص قوله تعالى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [نوح: ٢٨]، فلا مانع إذاً في قوله تعالى في الآية محل الاستشهاد ﴿وَنَحْشَ اللَّهِ وَيَتَّقِهِ﴾ [النور: ٥٢] أن يكون

من باب الترادف أو عطف العام على الخاص لفائدة^(١).

ثالثاً: قوله: «فعلمت بذلك أن حقيقة التقوى معنى غير الطاعة والخشية وهى: تبرئة القلب عما ذكرنا» ليس بلازم.

وعلى أية حال فقد أفادنا - رحمه الله تعالى - معنى آخر جديداً للتقوى ينضم إلى ما ذكر أهل العلم، وبعد ذلك قسم - رحمه الله تعالى - ما ذكر من معنى التقوى إلى منازل: الأول: تقوى عن الشرك، والثاني: تقوى عن البدعة، والثالث: تقوى عن المعاصي الفرعية.

ويجمعها قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٣].

ونستكمل رحلتنا مع العلامة الفكهاني في تعريفه لحقيقة التقوى لزماً علينا، حيث لخص لنا مرة أخرى تعريفه للتقوى، ووضع لها حداً جامعاً على حد تعبيره، فنلخص مقصوده في بعض، ونسوق حروفه في البعض الآخر، ثم نقف بعد ذلك لنقارن ونوازن بين كلامه بعضه بعضاً، وبين كلامه وكلام أهل العلم.

يقول - رحمه الله تعالى - بعد أن ذكر للإمام الغزالي تعريفاً للتقوى، وهو ترك فضول الحلال، وخبر الرسول ﷺ: «إنما سمى المتقون متقين لتركهم ما لا بأس به حذراً مما به بأس»^(٢):

(١) انظر لما سبق جمال الدين بن هشام الأنصاري «مغنى اللبيب»، وبهامشه حاشية الشيخ محمد الأمير، دار إحياء الكتب العربية، (٣٢/٢).

(٢) انظر الإمام الفاكهاني «الغاية القصوى في الكلام على آية التقوى»، تحقيق محمد يحيى بيدق، ص ٣١ وما بعدها.

«فأحببت أن أجمع بين ما قاله علماؤنا وبين ما في الخبر عن الرسول ﷺ فيكون حداً جامعاً، ومعنى بالغاً، فأقول: التقوى اجتناب ما تخاف منه ضرراً في دينك.^(١)

ثم الذي يُخاف منه في أمر الدين قسمان: يخص الحرام والمعصية^(٢)، وفضول الحلال، لأن الاستعمال لفضول الحلال يخرج صاحبه إلى الحرام ومحض العصيان، وذلك لشره النفس وطغيانها، وتمرد الهوى وعصيانه.

فقد تحصل لك من ذلك أن التقوى على قسمين: فرض ونفل. فالفرض ما تقدم من أنه تبرئة القلب عن شر. والنفل ما نُهي عنه نهى تأديب، وهو فضول الحلال، كالمباحات المأخوذة بالشهوات.

فالأولى فرض يلزم بتركها عذاب النار. والثانية تقوى خير وأدب، يلزم بتركها الحبس والحساب واللوم. فمن أتى بالأولى فهو في الدرجة الأدنى من التقوى، وهي منزلة مستقيمي الطاعة. ومن أتى بالأخرى فهو في الدرجة العليا من التقوى، وتلك منزلة مستقيمي المباح. وإذا جمع العبد بينهما على اجتناب كل

(١) وانظر كذلك أبا السعود «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم»، دار الفكر، بيروت (١/٣٢). والألوسي «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني»، دار الفكر، بيروت، طبعة عام ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، (١/١٧٩). وانظر القاضي أبا سعيد عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي «أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي بحاشية الكازوني)»، تحقيق الشيخ عبد القادر عرفات العشّا حسّونة، دار الفكر، بيروت، طبعة عام ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، (٢/٩٩-١٠٠).

(٢) قال الألوسي في «روح المعاني»: «فالمراتب متعددة لتعدد مراتب الضرر، فأولها التوقي عن الشرك، والثانية التجنب عن الكبائر، ومنها الإصرار على الصغائر، والثالثة ما أشير إليه بما روى الترمذي عنه ﷺ: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً بما به بأس»، وفي هذه المرتبة يعتبر ترك الصغائر».

معصية وفضول فقد استكمل معنى التقوى وقام بحقتها، وجمع كل خير فيها، وهو الورع الكامل الذي هو ملاك أمر الدين، وذلك منزلة الأدب على باب الله ﷻ. فهذا معنى التقوى وبيانها في الجملة، فافهمه موقفاً^(١).

هذا ملخص كلامه الذي يتحصل في أن التقوى فرض ونفل. والفرض هو تجنب ضرر المعصية، والنفل ترك الفضول.

ونلاحظ شيئاً آخر لا بد من الإشارة إليه، وهو أن تعريفه للتقوى بترك المعصية والحرام، أو تبرئة القلب عن الذنب وترك الفضول لا يعنى ذلك أن المتقى لا يأتى بالواجبات والمستحبات الشرعية، إذ لا يعقل أن المتقى يتجنب المعاصي والذنوب وهو مقصر في الواجبات الشرعية كترك الصلاة مثلاً أو الصيام أو الصدق أو الأمانة وبر الوالدين وغيرها، إذ ذلك عين المعصية، فكان مجمل كلامه في نهاية المطاف أن التقوى الإتيان بالواجبات وعدم التفريط فيها، مع بقية ما أشار إليه الرازي.

ومن السابقين المتقدمين ممن تكلموا في التقوى وتعريفها ولزومها: الحارث المحاسبى^(٢) - رحمه الله. فقد بين لنا حد التقوى، وإن كان على طريقة من ذكرنا من أهل العلم ولكنه ساق ذلك في صيغة الحوار من السؤال والجواب، تعليماً للسائل، وتفهماً للقارئ والسامع، وتثبيتاً لتلك المعانى في القلوب والأذهان. يقول - رحمه الله^(٣): «قلت: فما التقوى؟»، قال: «الحذر بالمجانبة لما كره الله

(١) الفاكهاني «الغاية القصوى»، تحقيق يحيى بيدق، (ص ٣١).

(٢) الحارث بن أسد المحاسبى نشأ بالبصرة، نزل بغداد، نقل الحديث عن أعلام عصره، ألف المؤلفات في تزكية النفس منها: الرعايا، والوصايا، توفي ٢٤٣هـ. انظر ابن الملقن «طبقات الأولياء»، (ص ١٧٥-١٧٧).

(٣) المحاسبى «الرعاية لحقوق الله»، تحقيق عبد القادر عطا، الطبعة الثالثة، دار الكتب الحديثة، (ص ٤٧).

ﷺ، قلت: «الحذر من ماذا؟»، قال: «الحذر من الله ﷻ»، قلت: «فالحذر من الله في ماذا؟»، قال: «في خصلتين: تضييع واجب حقه، وركوب ما حرم ونهى عنه في السر والعلانية».

فأعاد - رحمه الله - علينا معنى التقوى بالحذر والمجانبة لما كرهه الله، وهو قريب من كلام الفكهاني والألوسي^(١) ومن نحا نحوهم - رحمهم الله جميعاً - وإن عبروا بها يضر في الدين والآخرة، فقد عبر عنه هو بها كره الله ﷻ، وليس المقصود الكراهة الاصطلاحية، وهي تعبير المتأخرين في الفقه والأصول بما نهى الشارع عنه نهياً غير جازم؛ لا يأنثم فاعله، وإنما لا شك مراده ما هو أعم من ذلك مما يشمل الحرام والمكروه، كما هو تعبير المتقدمين، وكما جاء في حديث الرسول ﷺ: «إن الله كره لكم ثلاثاً: قيل وقال، وكثرة السؤال، وضياح المال»^(٢)، ومما لا ريب فيه أن ذلك يشمل الحرام.

(١) هو محمد بن عبد الله الحسيني الألوسي، ولد عام ١٢١٧هـ، مفسر، محدث، فقيه، أديب، لغوي، نحوي، مشارك في بعض العلوم وله بعض مصنفات منها: «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني»، وتوفي في عام ١٢٧٠هـ. انظر البغدادى «هدية العارفين»، (٢/٤١٨).

(٢) رواه مسلم (١٧١٥). وانظر النووي «شرح صحيح مسلم»، تحقيق الصباطى وحازم محمد وعماد عامر، (٦/٢٥١).

المطلب الرابع ولكن يناله التقوى منكم

نستفتح بهذا المطلب، وهو مطلب الإخلاص الذي يجب أن نبدأ به، وقد عبر القرآن عنه بقوله: ﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

بعدما أشرنا فيما سبق إلى معنى التقوى لغةً وفي عرف أهل العلم، نحصى أولاً الآيات التي وردت فيها لفظة التقوى ذاتها، لنستوضح منها صورة متكاملة لأهل الإيمان تحمل على التمسك بها، وحمل النفس عليها، ولتحقق سعادة الفرد والمجتمع، وحتى تعود حضارة هذا الدين حية كما كانت على أسسها المتينة:

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنْ رَبِّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانَهَارٍ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ١٠٩].

ولقد وردت كلمة التقوى في القرآن خمس عشرة مرة، وهذه هي مواضعها:

أولاًها: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧].

الثانية: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

الثالثة: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢].

الرابعة: ﴿أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

الخامسة: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

السادسة: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾

[التوبة: ١٠٨].

السابعة: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنْ رَبِّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ

أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانَهَارٍ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ١٠٩].

الثامنة: ﴿لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا حَتَّىٰ تَرْزُقَكَ وَالْعِيقَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

التاسعة: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾

[الحج: ٣٢].

العاشرة: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ خُومَهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾

[الحج: ٣٧].

الحادية عشرة: ﴿وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾

[الفتح: ٢٦].

الثانية عشر: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَمْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ [الحجرات: ٣].

الثالثة عشرة: ﴿وَتَسْجُؤًا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

[المجادلة: ٩].

الرابعة عشرة: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ

الْعَفْوَ﴾ [المدثر: ٥٦].

الخامسة عشرة: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ﴿١٢﴾﴾

[العلق: ١١-١٢].

فبالنظر إلى هذه الآيات نراها وضحت على نحو دقيق وتناسق بديع شمول

التقوى وصورتها، فرأينا أولاً: أن الله تعالى هو أهل التقوى، وأنه لا يناله إلا

التقوى من الناس، وأن الرسول ﷺ إنما أمر بالتقوى، ثم جسد ملامح التقوى بأن

لها كلمة هي كلمة التقوى، ولها زياً يعرف به أصحابها هو لباس التقوى، وأن لها

مستقراً يفيض على بقية الأعضاء وهو القلب: ﴿فَإِنَّهَا مِنَ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾

[الحج: ٣٢]، ولها زاد يتزوده المرء هو خير زاد، زاد الآخرة: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ

خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧]. ووضحت الآيات بشدة أن التقوى وإن

كان محلها القلب، فإن لها مظاهر تنبئ عما في القلب، وسلوكاً رشيداً يشير إلى

تلك الصفة هو احترام شعائر الحق سبحانه: ﴿وَمَنْ يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ

تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ ، ودلت على الأساس الأمتن، هو أساس التقوى. وأخيراً

بينت أن العاقبة للتقوى، أى لهم العقبى في الأولى والآخرة.

و نبدأ رحلتنا المباركة مع هذه الآيات الكرييات، نفصل تلك المعاني، ونجلى تلك الحقائق، ونأخذ أول ما نأخذ قوله تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدر: ٥٦]، توطئة للكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، لتعلقها بالله ﷻ فهي أحق بالبدء بها. والمعنى أنه سبحانه حقيق بأن يتقيه عباده ويخافوا عقابه، فيؤمنوا ويطيعوا، وحقيق بأن يغفر لهم إذا آمنوا وأطاعوا.^(١) ونشير إلى ما ذكره صاحب «التحرير والتنوير» العلامة الطاهر بن عاشور^(٢)، يقول - رحمه الله^(٣): «جملة ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى﴾ واقعة موقع التعليل لمضمون جملة ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ [المدر: ٥٥]، تقوية للتعريض بالترغيب في التذكر، والتذكر يفضي إلى التقوى، فالمعنى: فعليكم بالتذكر، واتقوا الله تعالى، لأن الله هو أهل التقوى». وأهل الشئ: مستحقة، وأصله أنه ملازم الشئ وخاصته وقرابته وزوجته، ومنه: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ [هود: ٨١]، وعليه فأهل التقوى أى المستحق لها، وأهل المغفرة أى أن المغفرة من خصائصه،

(١) انظر الزخشرى «الكشاف»، دار المعرفة، بيروت، (٤/ ١٦٢-١٦٣). والطبرى «جامع البيان في تفسير القرآن»، وعلى هامشه: النيسابورى «تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان»، دار الحديث، القاهرة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، مجلد ١٢، (٢٩/ ١٠٨). وابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، مكتبة التراث الإسلامى، حلب، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، (٤/ ٤٤٧). والفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١٦/ ١٣).

(٢) هو محمد الطاهر بن عاشور رئيس المفتين المالكيين بتونس، ومولده ووفاته ودراسته بها ولد عام ١٢٩٦هـ/ ١٨٧٩م، وله مصنفات مطبوعة منها «التحرير والتنوير» في تفسير القرآن، وتوفى عام ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م. انظر عمر رضا كحالة «معجم المؤلفين»، (٣/ ٣٦٣).

(٣) الإمام محمد الطاهر بن عاشور «التحرير و التنوير»، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، (٢٩/ ٣٣٤-٣٣٥). وأضاف بيت الكشاف:

ألا يا ارحمنى يا إله محمد فإن لم أكن أهلاً فأنت له أهل

وأنه حقيق أن يغفر، لفرط رحمته وسعة كرمه وإحسانه، وهو تعريض بالمشركون أن يقلعوا عن كفرهم بأن يغفر لهم ما قد سلف، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] وتحريض للعصاة أن يقلعوا عن الذنوب، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].

وتعريف جزأى جملة ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى﴾ للقصر على الله تعالى أنه لا غيره يستحق أن يتقى ويتجنب غضبه، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]. وذكر ابن كثير في تفسيره حديث النبي ﷺ إذ قال: قال ربكم: «أنا أهل أن أتقى فلا يجعل معي إله، فمن اتقى أن يجعل معي إلهاً كان أهلاً أن أغفر له»^(١). ونختم كلام ابن كثير بما أورده من تكرار كلمة (أهل) دون أن يقال: والمغفرة، للإشارة إلى اختلاف المعنى بين أهل الأولى وأهل الثانية.

ونعود إلى قوله تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾، وهو موضع شديد الارتباط بتقوى القلب وهو الإخلاص له سبحانه.

وقد نزلت الآية الكريمة^(٢) لتبين للمؤمنين - بعدما ذكر الله تعالى من مناسك الحج وشعائره - أن الأصل في ذلك كله تقوى الله، وأن الواصل إليه - سبحانه - هو التقوى منكم، دون نفس اللحم والدم، على خلاف معتقدات أهل الجاهلية وفعلهم، فإنهم كانوا يلوثون بدماء القرابين ولحومها الكعبة

(١) انظر ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤/٤٤٧).

(٢) وهناك قراءة أخرى: (لَنْ تَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا)، بالتاء في الموضعين، فأنت لفظ التقوى، ومن قرأ بالياء فلأن التقوى والتقى واحد. انظر ابن الجوزي «زاد المسير»، (٥/٤٣٤).

المشرفة، ظناً أن ذلك يصل إلى الله.

قال الألوسي في روح المعاني^(١): «أى لن يصيب رضا الله تعالى اللحوم المتصدق بها ولا الدماء المهراقة بالنحر من حيث إنها لحوم ودماء، ولكن يصيبه ما يصحب ذلك من تقوى قلوبكم التي تدعوكم إلى تعظيمه تعالى والتقرب إليه سبحانه والإخلاص له ﷺ، وقال مجاهد: أراد المسلمون أن يفعلوا فعل المشركين من الذبح وتشريح اللحم ونصبه حول الكعبة ونضحها بالدماء تعظيماً لها، وتقرباً إليه تعالى» اهـ.

وفي الآية، بعد تخلص معتقدات أهل الإيمان من أى شائبة من شوائب الجاهلية وحمل أعماهم وأقوالهم على التقوى، إشارة لطيفة إلى أن ينظروا إلى المقصود من هذا العمل ومن كل عمل، وهو ما يصل إلى الله - جل وعلا - من أعماهم، وذلك هو الإخلاص المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾، فاعمل ما شئت وقل ما شئت ظاهراً وباطناً، فلن يصل من ذلك كله إلى الله العلى سوى ما كان منك على التقوى، فلتكن محاسبتك لنفسك إذاً على هذا المقياس، فما كان لوجه الله فأمضه، وما كان لغيره فدعه، فإن الله لا يصل إليه إلا ما كان خالصاً لوجهه وصالحاً على سنة نبيه ﷺ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، فكان هذا الموضع للتقوى داعياً المرء إلى الإخلاص في عمله، وترك الرياء فيه أو محبة ثناء الناس أو حب الظهور والشهرة، وتنقية عمله من كل هذه الشوائب المكدره له والأمر المحبطة لثوابه. يقول ابن الجوزي في «زاد المسير»^(٢):

(١) محمود بن عبد الله الحسين الألوسي «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني»، دار الفكر بيروت، طبعة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، (١٠/٢٧٩ - ٢٨٠).

(٢) الإمام ابن الجوزي «زاد المسير في علم التفسير»، المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة

«والإشارة بهذه الآية إلى أنه لا يقبل اللحوم والدماء إذا لم تكن صادرة عن تقوى الله، وإنما يتقبل ما يتقونه به، وهذا تنبيه على امتناع قبول الأعمال إذا عرِيت عن نية صالحة».

١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م، (٤٣٤/٥).

وابن الجوزى هو عبد الرحمن بن على بن محمد، ولد ببغداد عام ٥١٠هـ، محدث، حافظ فقيه، واعظ أديب، مؤرخ، مشارك في علوم أخرى وله مصنفات تزيد على ثلاثمائة وأربعين مصنفاً منها «زاد المسير في علم التفسير» وتوفى - رحمه الله - في بغداد عام ٥٩٧هـ. انظر السيوطى «طبقات المفسرين» ص (١٧).

المطلب الخامس محل التقوى

أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى:

وكلمة التقوى لا ينطقها ولا يعمل بمقتضاها ويثبت عليها إلا صاحب قلب عامر بالتقوى، ممتلئ منها، يخشى الله ويتقيه، فينضح ذلك على الجوارح، لأن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد، وإذا فسدت فسد سائر الجسد، ألا وهي القلب، كما قال رسول الله ﷺ: ^(١) «فقلبٌ خربٌ من التقوى فارغٌ منها أنى يتأتى منه كلام التقوى وألفاظ الخشية! ناهيك عن أعمال الإيثار وسلوك الطاعة. إن ما يتميز به ذلك الدين هو تلك الصلة الوثيقة بين القلوب وبين خالقها، تلك الصلة من المحبة والخشية والإنابة والطمأنينة بذكره والتعلق به، أى صلة التقوى التي كان القلب إذن محلها التقوى ومستقرها، منه تفيض، ومنه تنطلق.

وكان لذلك موعدنا مع مكان ومنزل التقوى، وقد ذُكر ذلك في موضعين من القرآن الكريم، الأول: قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَمْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ [الحجرات: ٣]، والثاني: قوله: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

ونبدأ بالموضع الأول، وهو قول الحق سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَمْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣].

(١) رواه البخارى (٥٢) من حديث النعمان بن بشير. انظر أحمد بن على بن حجر العسقلانى «فتح البارى»، (١/١٢٦). ومسلم (١٥٩٩)، وانظر النووى «شرح صحيح مسلم»، (٣١/٦).

يقول ابن جرير: ^(١)

«يقول تعالى ذكره إن هؤلاء الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله هم الذين اختبر الله قلوبهم بامتحانهم إياها، فاصطفاها وأخلصها للتقوى». وأول ما نشير، نشير إلى أن الآية ذكرت ميزة عظيمة لأهل التقوى، وهى أن قلوب أهل التقوى إنما اصطفاها الله تعالى لذلك، وهو وحده الذي أخلصها وهياها ومحصها لتقواه تعالى، فكأن الله - جل وعلا - بسابق علمه علم أهلية هذه القلوب له، لتوحيده ومحبه وذكره، أى لتقواه الشاملة، فنقاها لذلك وهذنها، لتكون أوعيته من خلقه ومحل رحماته من بين المؤمنين به ﴿اللَّهُ تَجَبَّتْ إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]، وذلك بما أعانها به ووفقها له من العمل الصالح من مثل ما ذكر سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ

(١) ابن جرير الطبرى، «جامع البيان»، مجلد ١١، (٧٦/٢٦). والغض الكف في لين، كما يقول ابن جرير، ومنه غض البصر، وهو كفه عن النظر، كما قال جرير:

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

يقول ابن عاشور في «التحرير والتنوير»، (٢٦/٢٢٢-٢٢٣): «الغض حقيقته خفض العين، أى أن لا يحدق بها إلى الشخص، وهو هنا مستعار لخفض الصوت والميل به إلى الإسرار، والامتحان الاختبار والتجربة، واللام في قوله (للتقوى) لام العلة، والتقدير: امتحن قلوبهم لأجل التقوى، أى لتكون فيها التقوى، أى ليكونوا أتقياء».

فيجوز أن يجعل الامتحان كناية عن تمكن التقوى من قلوبهم وثباتهم عليها، بحيث لا يوجدون في حال غير متقين، وهى كناية تلويحية. ويجوز أن يجعل فعل (امتحن) مجازاً مرسلاً عن العلم، علم الله أنهم متقون، وعليه فتكون اللام في قوله (للتقوى) متعلقة بمحذوف حال من قلوب، أى كأنه للتقوى، فاللام للاختصاص».

(وأولئك) إشارة إلى الموصول تفخيماً لاشأنه، وأنهم جديرون بالخبر المذكور بعده. انظر الألوسى «روح المعاني»، مجلد ١٤، (٢٠٦/٢٦).

أَصَوَاتُهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُؤَلِّتُكَ الَّذِينَ أَمْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى^(١)،
وليس المقصود هو فقط خفض الصوت عنده، وإن كان مطلوباً تأديباً معه ﷺ حياً
وكذلك ميتاً، كما طبقه عمر^(٢)، بل خفض الصوت دليل السمع والطاعة، إذ
لا يعقل أن يخفض المرء صوته عنده ويخالف أمره ونهيه، ويكون مع ذلك من
الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، ولكن كف الصوت عنده عنوان التسليم
لأمره والائتبار بحكمه، ودليل الاتباع لهديه وشرعه ظاهراً وباطناً حال حياته،
ولستته وشريعته بعد موته، كما فهمه بعض أهل العلم^(٣)، لذا ورد قول الحق -

(١) وقد رأيت الأستاذ/ سيد قطب أشار إلى مثل ذلك في تفسيره «في ظلال القرآن»،
فيحسن ذكر لفظه. يقول - رحمه الله:

«فالتقوى هبة عظيمة، يختار الله لها القلوب بعد امتحان واختبار، وبعد تخليص وتمحيص،
فلا يضعها في قلب إلا وقد تهيأ لها، وقد ثبت أنه يستحقها. والذين يغضون أصواتهم
عند رسول الله ﷺ قد اختبر الله قلوبهم وهيأها لتلقى تلك الهبة، هبة التقوى،
وقد كتب لهم معها وبها المغفرة والأجر العظيم»، سيد قطب «في ظلال القرآن»، دار
الشروق، بيروت، الطبعة العاشرة ١٤٠١هـ، ١٩٨١م، (٦/ ٣٣٤٠).

(٢) روى ابن كثير في تفسيره، (٤/ ٢٠٧)، قال: روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ
أنه سمع صوت رجلين في مسجد رسول الله ﷺ قد ارتفعت أصواتهما، فجاء، فقال:
أتدريان أين أنتما؟ ثم قال: من أين أنتما؟ قالاً: من أهل الطائف، فقال: لو كنتما من أهل
المدينة لأوجعتكما ضرباً.

(٣) يقول الإمام القرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، دار إحياء التراث العربي، بيروت،
الطبعة الثانية، (١٦/ ٣٠٧):

«المسألة الرابعة: قال القاضي أبو بكر بن العربي: حرمة النبي ﷺ ميتاً كحرمة حياً، وحرمة
المأثورة بعد موته في الرفعة، مثال كلامه المسموع من لفظه، فإذا قرئ كلامه وجب على
كل حاضر ألا يرتفع صوته عليه، ولا يعرض عنه، كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند
تلفظه به».

ويقول كذلك:

جل ذكره: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٥١]، وقوله - سبحانه: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

وقد فهم الصحابة رضي الله عنهم من ذلك أن رفع الصوت عنده ﷺ سبب الهلاك وحبوط العمل، فما بالك بأزيد من ذلك من مخالفة أمره أو التخلف عن طلبه، فكانوا مضرب المثل في الأدب معه، إذ القلوب الممتلئة من تقوى الله ﷻ لا يصدر منها حتى ولا رفع الصوت على المشرع ولا الشرع، إذ رفعه دليل التجرؤ واللامبالاة وقلة الأدب المنافي للخشية والتوقير النابع من تقواه - سبحانه.

فهذا ثابت بن قيس بن شماس^(١)، الصحابي الجليل، خطيب رسول الله ﷺ يضرب لنا المثل الواقعي على ذلك، فقد ذكر ابن كثير في تفسيره^(٢)، عن أنس رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي.. ..) إلى قوله تعالى: (... وأنتم تشعرون)، جلس في بيته حزينا ففقد رسول الله ﷺ، فانطلق

« الخامسة: وليس الغرض يرفع الصوت ولا الجهر ما يقصد به الاستخفاف ولا الاستهانة، لأن ذلك كفر والمخاطبون مؤمنون ».

(١) هو ثابت بن قيس بن شماس بن مالك بن زهير الخزرجي المدني، يقال له خطيب الأنصار شهد أحداً وما بعدها من المشاهد وثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ بشره بالجنة ﷻ، قتل في موقعة اليمامة. انظر الإمام النووي «تهذيب الأسماء واللغات»، (١٣٩/١).

(٢) انظر ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤/٢٠٦-٢٠٧)، والرواية التي ذكرها هي رواية الإمام أحمد بن حنبل «مسند أنس» رقم (١٢٤٢٦)، طبعة بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، (ص ٨٧٥).

بعض القوم إليه فقالوا له: تفقدك رسول الله ﷺ مالك؟ قال: أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي ﷺ وأجهر له بالقول، حبط عملي، أنا من أهل النار. فأتوا النبي ﷺ فأخبروه بما قال، فقال ﷺ: «لا، بل من أهل الجنة». قال أنس رضي الله عنه: فكنا نراه يمشي بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة، فلما كان يوم الياومة، كان فينا بعض الانكشاف، فجاء ثابت بن قيس بن شماس وقد تحنط ولبس كفنه، فقال: بثسما تعودون أقرانكم. فقاتلهم حتى قتل ﷺ.

فكانت هذه البشارة العظيمة لتلك القلوب التقية.

ويؤيد حديث النبي ﷺ هذا المعنى، وهو أن التقوى في القلب، فيقول ﷺ: «التقوى ها هنا» ويشير إلى صدره - ثلاثاً - «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه»^(١). وإذا كان أصل التقوى في القلوب، فلا يطلع أحد على حقيقتها إلا الله ﷻ، كما قال ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(٢).

وليس معنى هذا ترك العمل في الظاهر، كما يظنه كثير من الناس في أيامنا هذه، إذ يحسب أن قلبه سليم ويترك واجبات الشرع ويفرط فيها، بحجة أن ربنا رب قلوب، وهو معنى لم يخطر على بال أحد من أهل العلم، لأن الحكم على الناس إنما هو بظاهر الشرع، فلو كانت قلوبهم سليمة كانت أعمالهم موافقة لما في هذه القلوب، وإلا كيف يدعى تاركو الصلاة - مثلاً - والواقعون في غير ذلك من نواهي الشرع تقوى قلوبهم؟ لذا يشير الحافظ ابن رجب في شرحه لحديث «إني حرمت الظلم على نفسي»، فيقول - رحمه الله تعالى: «وفي هذا الكلام دليل

(١) الحديث رواه مسلم (٢٥٦٤)، عن أبي هريرة رضي الله عنه. وانظر النووي «شرح صحيح مسلم»، (٨/٣٦٣).

(٢) الحافظ ابن رجب الحنبلي «جامع العلوم والحكم»، (٢/٢٧٥-٢٧٦).

على أن الأصل في التقوى والفجور هو القلب، فإذا بر القلب واتقى برت الجوارح، وإذا فجر القلب فجرت الجوارح، كما قال النبي ﷺ: «التقوى هاهنا»، فأشار إلى صدره^(١).

كما سبق، تتضح بجلاء مكانة القلب، وأنه محل تقوى الله تعالى، ومحل تمحيصه ونظره، فهو محل أنواره من التوحيد، مما يدفع المؤمنين للاهتمام بإصلاح قلوبهم بمزيد الطاعة والإخلاص لله تعالى، وتنقية القلوب مما يفسدها ويعكر صفوها ويطفأ نورها، سواء بمعاصي الجوارح فإنها سبب ظلام القلب وقسوته كما قال النبي ﷺ: «إذا أذنب العبد ذنباً نكتت في القلب نكتة سوداء، فإن تاب وأقلع صقلت، وإذا أذنب ذنباً آخر نكتت نكتة أخرى حتى يسود القلب، وذلك الران الذي قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]. فإذا ما استحکم فساد القلب وسواده والران عليه صار قلباً ميتاً، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه، فصار عنده الحق باطلاً والباطل حقاً، ورأيته على أسوأ سبيل في السلوك والعادات والأخلاق، وهو مشاهد في دنيا الناس اليوم.

وكذلك يسود القلب بما يرتكب من معاص متعلقة به، كالحقد والحسد والغش وحب الدنيا وطول الأمل والتفاق والرياء وترك الإخلاص، وهى أنكى وأشد.

كان إذا القلب وتقواه والاهتمام به سبب كل سعادة ورفعة في الأولى والآخرة.

ولا يفوتنا أن نشير إلى احتمال آخر في حديث النبي ﷺ: «التقوى هاهنا»، ويشير إلى صدره، «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم»، وهذا الاحتمال

(١) المصدر السابق، (٢/٤٧).

لمعنى كلامه ﷺ أنه لا بد أن يسود علاقة المسلم بأخيه المسلم علاقة التقوى. قال بعضهم: ويحتمل أن يكون معناه محل التقوى هو القلب، فمن كان في قلبه التقوى فلا يحقر مسلماً، لأن المتقى لا يحقر مسلماً.^(١)

والموضع الثانى من المواضع التى وردت التقوى فيها مضافة إلى القلب هو قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمَ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]. وقد أحرنا ذكرها للمعنى الجديد المتعلق بتقوى القلب، وهو تعظيم شعائر الله تعالى، فإذا كنا قلنا قبلاً: إن تقوى القلب وبره تظهر على الجوارح والعكس كذلك، فإن الآية الكريمة توضح بغير لبس أن تعظيم شعائر الله - جل ذكره - أعظم الأدلة على تقوى القلب، فلا يكون القلب قد حلتته تقوى الله - سبحانه - وهو لا يعظم شعائره ومعالم دينه وأوامره ونواهيه، فإن ذلك أخص خصائص المتقين لربهم.

ترى المستهزئ بذلك، التارك لأوامره، الواقع في نواهيه، المسر بمعصيته أو الجاهر بها، تراه الله تقياً؟

ولقد ضربت الآية المثل في تعظيم تلك الشعائر وإجلال تلك الحرمات، بتعظيم البدن التى ينحرفها الحاج في حجه، تقريباً إلى الله بها رجاء الثواب، وإطعاماً للبائس الفقير. وهذا الفعل، وإن كان في نظر المرء يمكن أن يكون هناك ما هو أفضل منه في جنسه أو من غير جنسه كما سنوضح، فقد أمر الشارع به، ليستخرج من القلوب تقواها، وليميز منها تعظيمها لأوامره، تنبيهاً على غيره من الأوامر، وإرشاداً لها على تعظيم بقية معالم الدين صغيرها وكبيرها، إذ الكل من الله - تبارك وتعالى - المستحق للتعظيم والإكبار.

(١) انظر د. محمد أدب الصالح «التقوى في هدى الكتاب والسنة وسير الصالحين»، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى ١٩٩٦م، (١/ ١١٢-١١٣).

ولنرى تحليل الآية:

اسم الإشارة هنا مستعمل للفصل بين كلامين أو وجهين من كلام واحد، كما يقدم الكاتب جملة من كتابه في بعض الأغراض، فإذا أراد الخوض في غرض آخر قال: هذا وقد كان كذا وكذا، والقصد منه التنبيه على الاهتمام بما سيذكره بعده، إذا كان ما بعده لا يصلح خبراً، والمعنى: ذلك بيان أو ذكر، والمشهور استعمال هذا، كما في قوله تعالى: ﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّيْغِينَ لَشَرَّ مَقَابٍ ﴾ [ص: ٥٥]، وقول زهير:

هذا وليس كمن يعيا بخطبته وسط الندى إذا ما قائل نطقاً^(١)
وإنما أوتر استعمال ذلك للبعد للدلالة على بعد المنزلة، كناية عن تعظيم مضمون ما قبله.

والشعائر جمع شعيرة، وهى المعلم الواضح، وشعائر الله لقب لمناسك الحج، وقيل: هى شرائع دينه تعالى.^(٢)

وهى بوزن (فعيلة)، إما بمعنى اسم الفاعل، أى مُشْعِرَةٌ معلِّمة بما عينه الله، أو بمعنى مفعولة، أى مُشْعَرٌ بها تجعل ليشعر بها الرائي، فعلى التفسير الأول تكون جملة ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعْظِمَ شَعَائِرَ اللَّهِ ... ﴾ معطوفة على جملة ﴿ وَمَنْ يُعْظِمَ حُرْمَتِ اللَّهِ ... ﴾، وشعائر الله أخص من حرمة الله، إذ الحرمة ما لا يحل هتكه، وجميع ما كلفه الله بهذه الصفة فيحتمل أن يكون عاماً في جميع التكاليف، فعطفت عليها للعناية بالشعائر. وشعائر الله كل ما أمر الله بزيارته أو بفعل يوقع فيه مما أشعر الله الناس وقرره وشهره، ومنه الكعبة والصفاء والمروة وعرفة

(١) زهير بن أبى سلمى، ط دار بيروت ١٣٨٤هـ، ١٩١٤م، تحقيق أكرم البستانى.

(٢) انظر الألوسى «روح المعانى»، (١٠/ ٢٢١). والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير» (١٧/ ٢٥١).

والمشعر الحرام ونحوها من معالم الحج. وتطلق الشعيرة أيضاً على بدنة الهدى، قال تعالى: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾، لأنهم يجعلون فيها شعاراً علامة على أنها نذرت للهدى.

وضمير ﴿فَإِنَّهَا﴾ عائد إلى شعائر الله المعظمة، وقوله: ﴿فَإِنَّهَا مِّنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ جواب الشرط، أى تعظيمها من أفعال ذوى تقوى القلوب، على رأى الزمخشري^(١) ومن تبعه كالرازى، والبيضاوى^(٢) وأبى السعود^(٣)، وذهب البعض إلى أنها من تقوى القلوب^(٤)، وإضافة تقوى إلى القلوب لأن تعظيم الشعائر اعتقاد قلبى ينشأ عنه العمل. وتقوى انقلوب أولى لموافقتها لصريح الكتاب الكريم.

(١) الزمخشري «الكشاف»، (٣/٣١-٣٣). و عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي «المحرر الوجيز»، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، (٤/١٢١). والرازى «مفاتيح الغيب»، (١١/٢٧٣). والبيضاوى «أسرار التنزيل»، (٤/١٢٥). وأبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (٤/١٨).

(٢) هو عبد الله بن عمر بن محمد بن علي البيضاوى الشيزارى الشافعى قاض عالم بالفقه والتفسير والأصليين والعربية والمنطق والحديث وأصولى وله تصانيف كثيرة منها منهاج الوصول إلى علم الأصول، وتوفى عام ٦٨٥هـ/١٢٨م. انظر ابن السبكي «طبقات الشافعية»، (٥/٥٩).

(٣) هو محمد بن محمد بن مصطفى العمادى الحنفى، ولد رحمه الله عام ٨٩٨هـ، فقيه، أصولى، مفسر، شاعر، عارف باللغات العربية والفارسية والتركية، وتوفى في ٥ من جمادى الأولى ٩٨٢هـ، ودفن بجوار أبى أيوب الأنصارى بالقسطنطينية، وله مؤلفات كثيرة منها «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم». انظر الشوكانى «البدر الطالع»، (١/٢٦١).

(٤) انظر الظاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٧/٢٥٧).

وإنما ذكرت القلوب، كما يقول الإمام الرازي^(١): «لأن المنافق قد يظهر التقوى من نفسه، ولكن لما كان قلبه خالياً عنها، لا يكون مجداً في أداء الطاعات، أما المخلص الذي تكون التقوى متمكنة في قلبه فإنه يبالغ في أداء الطاعات على سبيل الإخلاص»، ويكاد يكون هذا الكلام كلام أبي حيان^(٢) في «البحر المحيط» بنصه. ويقول الزمخشري: «وإنما ذكرت القلوب لأنها مراكز التقوى التي إذا ثبتت فيها وتمكنت ظهر أثرها في سائر الأعضاء».^(٣)

لا ريب إذن أن تعظيم دين الله تعالى ومعالمه هو من عمل أصحاب القلوب النقية. ونلاحظ أن هذا الموضع بالذات من مواضع التقوى سيق في موضوع الحج ومناسكه وأعماله، لأن كثيراً من أعمال الحج - إن لم يكن كلها - لا مدخل للتعليل العقلي فيها، وإنما تعتمد على ما قر في القلب من الإيثار وما تمكن فيه من التقوى كالطواف، والسعى سبعاً، ورمى الجمار سبعاً، وحلق الشعر أو تقصيره، ونحر البدن. لذا وجدنا عمر رضي الله عنه يقول في تقبيل الحجر: «أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك».^(٤) فتعظيم هذه الأمور والأفعال والأماكن، وإن لم يعلم المرء علتها، لها حكم لا

(١) انظر الفخر الرازي «مفاتيح الغيب»، (١١/٢٧٣).

(٢) أبو حيان الأندلسي «البحر المحيط»، دار الفكر بيروت، طبعة عام ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م، (٧/٥٠٦). وأبو حيان هو محمد بن يوسف بن علي الغرناطي الجياني الأندلسي الشهير بأبي حيان، ولد عام ٧٥٤هـ، وهو أديب نحوي لغوي مفسر له مصنفات عديدة تزيد على الخمسين أشهرها «البحر المحيط في تفسير القرآن» وتوفي بالقاهرة في ٧٤٥هـ. انظر ابن حجر «الدرر الكامنة» (٤/٣٠٢-٣١٠).

(٣) جار الله الزمخشري «الكشاف»، (٣/٣٣).

(٤) حديث عمر رواه البخاري (١٦٠٥). وانظر ابن حجر العسقلاني «فتح الباري»،

(٣/٤٧١)، ورواه مسلم (٢٤٨). وانظر النووي «شرح صحيح مسلم»، (٢/٢٠).

شك، دليل تقوى القلب والتسليم لأمر الرب - جل شأنه، وهو فيض الإيمان وبرد اليقين.

ومن هنا رأينا تطبيق ذلك في عمل الصحابة وأمر النبي ﷺ، فمعنى تعظيم البدن - لكونها من شعائر الله سبحانه - كما ذكر المفسرون هو أن تُختار حسناً سماناً غالية الأثمان، لأن اختيارها على غير ذلك يدل عليالبخل والشح والحرص على الدنيا، وغير ذلك من المعانى السيئة المنافية للتقوى، أن يضمن المرء على نفسه بالثواب، ويبخل على الله تعالى بهال الله الذي جعله مستخلفاً فيه، فأى تقوى هذه إذا؟ لذا روى أنه ﷺ أهدى مائة بدنة فيها جمل لأبى جهل في أنفه برة من ذهب^(١)، وكان ابن عمر رضي الله عنهما يسوق البدن مجللة بالقباطى، فيتصدق بلحومها وبجلالها.

وقد يفكر المؤمن في أنه لو أهدى عدداً أكبر من البدن والهدايا بدلاً من عدد أقل أحسن وأثمن وأعلى لكان أولى، فإن الرد جاء من النبي ﷺ نفسه لعمر رضي الله عنهما فقد أهدى نجبية طلبت منه بثلاثمائة دينار، وسأل النبي ﷺ أن يبيعها ويشتري بثمانها بدناً، فنهاه عن ذلك وقال: «بل أهدها».^(٢) يقول الأستاذ/ سيد قطب في ذلك: «ويربط - أى السياق - بين الهدى الذي ينحره الحاج وتقوى القلوب، إذ التقوى هى الغاية من مناسك الحج وشعائره، وقد كان المسلمون على عهد النبي ﷺ يغالون في الهدى ويختارونه سميناً غالياً، يعلنون بها عن تعظيمهم لشعائر الله مدفوعين بتقوى الله...، والناقة النجبية التي أهديت لعمر رضي الله عنهما لم يكن يريد أن يضمن بقيمتها، بل كان يريد أن يبيعها فيشتري بها نوقاً أو بقرأً للذبح، فشاء رسول الله ﷺ أن يضحي بالنجبية ذاتها لنفاستها وعظم قيمتها، ولا يستبدل بها

(١) جار الله الزخشرى «الكشاف»، (٣/ ٣٣).

(٢) المصدر السابق، (٣/ ٣٢).

نوقاً كثيرة قد تعطى لحماً أكثر، ولكنها من ناحية القيمة الشعورية أقل، والقيمة الشعورية مقصودة ﴿فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾، وهذا هو المعنى الذي لحظه رسول الله ﷺ وهو يقول لعمره: «انحرفا إياها»، هي بذاتها لا سواها.^(١)

هذه هي المعاني التي أكد عليها الرسول ﷺ لتدل على تقوى القلوب، وحمل فيها أهل الإيثار على أفضل البذل.

تلك تقوى القلوب، وأثرها في تعظيم الشرع ومعاله، وأثرها في هذا السلوك الراشد الذي تستضيء به حياة الأمة، ويستنير طريقها إلى التقدم والرقى.^(٢)

(١) سيد قطب «في ظلال القرآن»، (٤/٤٢٢).

(٢) فإذا نفشت هذه الأخلاق وجدنا الكل يراعى الله تعالى، عليه رقيب منه، مطلع على عمله، ناظر وشاهد لسره وعلمه، فرأينا حينئذ المدرس يراعى ربه، والطبيب يراعى ربه، والحاكم والمحكوم كل يراعى ربه، فيتقن كل واحد عمله، ويتفوق كل واحد في فنه، ويتقدم كل صانع في صنعه، ترى الأمة حالئذ وقد تقدمت وخرجت عما هي فيه من الفساد والإفساد.

المطلب السادس

لباس التقوى

وما زال البحث متصلاً حول جوانب التقوى المختلفة، ليكتمل بنائها في نفوس المؤمنين، وواقعهم ومجتمعهم. فإذا كان للتقوى محل وهو القلب، ولها كلمتها كلمة التقوى، ولها مظاهرها التي تنبئ عنها من تعظيم شعائر الله ﷻ، فإن لها لباساً يتميز به أصحابها، إذا رُؤوا ذُكر الله تعالى، فرويتهم تذكر به، وسلوكهم يدعو إليه.

إن الآية التي وصلنا إليها من مواضع التقوى هي قول الحق - جل اسمه: ﴿يَبْنِيْٓءَ اٰدَمَۙ قَدْ اُنۡزِلۡنَا عَلَیْکُمۡ لِبَاسًا یُّوَارِیۡ سَوۡءَۤاَتِکُمۡ وَرِیۡشًا وَّلِبَاسُۙ التَّقۡوٰیۙ ذٰلِکَ خَیۡرٌۢ مِّنۡ ؕ اٰیۡتِ اللّٰهِ لَعَلَّہُمۡ یَذَّکَّرُوۡنَۙ﴾.

ويحسن في البداية أن ننقل هنا كلام الأستاذ/ سيد قطب^(١)، لنفاسته ولتصويره للواقع، ولكن مع تلخيصه لطوله. يقول - رحمه الله - قبل أن يبدأ في تفسير الآية - ما ملخصه: وأخيراً فإن القصة والتعقيبات عليها - قصة آدم عليه السلام كما سيجيء - تشير إلى شيء مركوز في طبع الإنسان وفطرته، وهو الحياء من التعرى وانكشاف سواته:

﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِّنۡ سَوَءٍۭ تَہِمَاۙ﴾ [الأعراف: ٢٠].

﴿فَدَلَّٰهُمَا بِغُرُورٍۭ ۖ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَءَاتُهُمَا وَطَفِقَا مَخۡصَفٰنٍ عَلَیۡہُمَا مِّنۡ وَرَقِ الْجَنَّةِۙ﴾ [الأعراف: ٢٢].

﴿يَبْنِيْٓءَ اٰدَمَۙ قَدْ اُنۡزِلۡنَا عَلَیْکُمۡ لِبَاسًا یُّوَارِیۡ سَوَءَۤاَتِکُمۡ وَرِیۡشًا وَّلِبَاسُۙ التَّقۡوٰیۙ ذٰلِکَ خَیۡرٌۢ مِّنۡ ؕ اٰیۡتِ اللّٰهِۙ﴾.

(١) الأستاذ/ سيد قطب «في ظلال القرآن»، (٣/ ١٢٧٥) وما بعدها.

﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَرِيْمًا﴾ [الأعراف: ٢٧].

وكلها توحى بأهمية هذه المسألة وعمقها في الفطرة البشرية، فاللباس وستر العورة زينة للإنسان وستر لعوراتهِ الجسدية. كما أن التقوى لباس وستر لعوراتهِ النفسية. والفطرة السليمة تنفر من انكشاف سوءاتها الجسدية والنفسية، وتحرص على سترها ومواراتها. والذين يحاولون تعرية الجسم من اللباس وتعرية النفس من التقوى ومن الحياء من الله تعالى، هم الذين يريدون سلب الإنسان خصائص فطرته وخصائص إنسانيته التي بها صار إنساناً، وهم الذين يريدون إسلام الإنسان لعدوه الشيطان وما يريده به من نزع لباسه وكشف سواته.

إن العرى فطرة حيوانية، ولا يميل الإنسان إليه إلا وهو يرتكس إلى مرتبة أدنى من مرتبة الإنسان، وإن رؤية العرى جماًلاً هو انتكاس في الذوق البشري قطعاً، والمتخلفون في أواسط إفريقية عراة، والإسلام حين يدخل بحضارته إلى هذه المناطق يكون أول مظاهر الحضارة اكتساء العراة! فأما في الجاهلية الحديثة «التقدمية» فهم يرتكسون إلى الوهدة التي ينتشل الإسلام المتخلفين منها وينقلهم إلى مستوى «الحضارة» بمفهومها الإسلامى الذي يستهدف استنفاد خصائص الإنسان وإبرازها وتقويتها.

وقصة النشأة الإنسانية في القرآن توحى بهذه القيم والموازن الأصلية وتبينها خير بيان.

وسوف نعود - إن شاء الله - لتكملة كلامه بعد النظر في الآيات.

ونلاحظ أن الخطاب موجه إلى جميع ذرية آدم، لا يختص بأحد دون أحد أو قوم دون قوم أو أهل ملة دون غيرهم، ليوحى بأن هذا الأمر وهو اللباس وتغطية السوءات يجب على كل الناس، لأن ذلك هو الفطرة والطبع السليم، وغير ذلك من التبرج والعرى وإظهار مفاتن المرأة إنما هو من غواية الشيطان

وفتنته لبني آدم جميعاً، إذ ذلك ما حدث مع أبي البشرية كلها.

وهذا الخطاب بهذا المعنى يشمل المؤمنين والمشركون، ولكن الحظ الأوفى منه للمشركون، لأن حظ المؤمنين منه هو الشكر على يقينهم بأنهم موافقون في شئونهم لمرضاة ربهم، وأما حظ المشركون فهو الإنذار بأنهم كافرون بنعمة ربهم معرضون لسخطه وعقابه، لكونه لم يستقبلوا هذه النعمة وتلك المنة بما تستوجبه من طاعة الله تعالى والائتمار بأمره وعدم الانسياق مع وسوسة الشيطان وإغوائه، ففسقوا عن أمر ربهم وأفسدوا في الأرض بهذه الصنوف من العرى والتبرج التي كانت سبباً في إفساد غيرهم وإخراجهم عن تقوى الله - جل وعلا.

وابتدئ الخطاب بالنداء ليقع إقبالهم على ما بعده بالاهتمام البالغ بشراشر قلوبهم.

وكان لخطابهم ببني آدم وقعه العجيب بعد ذكر قصة آدم عليه السلام وما لقيه من وسوسة الشيطان ليبين لهم ما حدث لأبيهم مع عدوه وعدوهم، فتحترس الذرية من الوقوع في شركه، إذ شأن الذرية أن تتأثر لأبائهم وتتعدى أعدائهم.^(١)

ونرى في التفسير القرآني ﴿أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا﴾ تشریفاً لهذا المظهر، حيث عبر عن تيسير اللباس لهم وإلهامهم إياه بالإنزال من عند الله، ومن ثم كان أول مظاهر الحضارة الإنسانية، أو كان الذي على آدم من اللباس نزل به من الجنة، فكان له في معنى الإنزال مزيد اختصاص. وهذا تنبيه إلى أن اللباس من أصل الفطرة الإنسانية وهي أول أصول الإسلام، وأنه مما كرم الله به النوع الإنساني منذ ظهوره في الأرض، وفيه تعريض بالمشركون الذين خرجوا عن هذا التكریم ومسحوا تلك الفطرة، وجعلوا من قرباتهم نزع لباسهم بأن يحجوا عراً، وتعريض بغيرهم ممن جعله تقدماً ورقياً، بل هو ارتكاس في حياة الجاهلية،

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٨/ ٧٢).

وقد كان الأمم يحتفلون في أعياد أديانهم بأحسن اللباس، كما حكى عن موسى ﷺ وأهل مصر: ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزَّيْنَةِ ﴾ [طه: ٥٩]، فكان في اللباس تقوى الله تعالى ظاهراً وباطناً.^(١)

أما قوله تعالى: ﴿ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا ﴾ فيقول الزمخشري: «أى أنزلنا عليكم لباسين: لباساً يواري سوءاتكم ولباساً يزينكم، لأن الزينة غرض صحيح كما قال: ﴿ لَتَرْكَبُوَهَا وَزِينَةً ﴾».^(٢)

واختلف القراء في قوله تعالى: ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَى ﴾، فمنهم من قرأها بالنصب، ومنهم من قرأها بالرفع، ولكل توجيه بديع. أما قراءة النصب فبالعطف على لباساً وريشاً، ويكون المعنى: أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم ولباساً يزينكم ولباساً للوقاية أى تتقون به - ويتعين أى يكون لباساً حقيقة - كلبوس الحرب من الدروع والجواش والمغافر، وذلك كقوله: ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ ﴾. والإشارة في قوله: ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ تعود إلى هذا اللبوس المذكور، أى خير أعطاه الله بنى آدم، وتكون الجملة مستأنفة حينئذ.

وأما على قراءة الرفع فتكون الجملة معطوفة على جملة ﴿ قَدْ أَنْزَلْنَا ﴾، والاختيار هنا أن يكون المراد بالتقوى تقوى الله تعالى وخشيته، لأن هذا المعنى أليق بالرفع، ويكون استطراداً للتحريض والحث على تقوى الله فإنها خير للناس من منافع الزينة، واسم الإشارة على هذه القراءة لتعظيم المشار إليه، وهو التقوى.

وأطلق على التقوى اللباس، إما بتخيّلها بلباس يلبس، وإما بتشبيهه ملازمة

(١) انظر لما سبق الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٨ / ٧٢-٧٤).

(٢) الزمخشري «الكشاف»، (٢ / ٥٨).

تقوى الله بملازمة اللباس لباسه، كقوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾^(١)، مع ما يحسن هذا الإطلاق من المشاكلة، وهذا المعنى الرفع أليق به، ويكون استطراداً للتحريض على تقوى الله، فإنها خير للناس من منافع الزينة، واسم الإشارة لتعظيم المشار إليه.

وقد رجع ذلك الإمام الطبري - رحمه الله - فقال: «وأولى الأقوال بالصحة»^(٢) في تأويل قوله: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾ استشعار النفوس تقوى الله في الانتهاء عما نهى الله عنه من معاصيه، والعمل بما أمر به من طاعته. وذلك يجمع الإيثار والعمل الصالح والحياء وخشية الله والسمت الحسن، لأن من اتقى الله كان به مؤمناً وبها أمر به عاملاً، ومنه خائفاً، وله مراقباً، ومن أن يرى عند ما يكرهه من عباده مستحيماً، ومن كان كذلك ظهرت آثار الخير فيه، فحسن سمته وهديه، ورؤيت عليه بهجة الإيمان ونوره.

ثم يعلل لهذا الاختيار - رحمه الله تعالى - بأن كل من ادرع شيئاً واحتبى به حتى يرى هو أو أثره عليه فهو له لباس، ولذلك جعل - جل ثناؤه - الرجال

(١) انظر: الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٨/ ٨٥). وأضاف الزخشرى «الكشاف»، (٢/ ٥٨-٥٩): «كأنه قيل: ولباس التقوى المشار إليه خير. ولا تخلو الإشارة من أن يراد بها تعظيم لباس التقوى، أو أن تكون إشارة إلى اللباس الموارى للسواة، لأن مواراة السواة من التقوى تفضيلاً له على لباس الزينة».

(٢) الطبري «جامع البيان»، (٨/ ١١٢). وقد ذهب إلى هذا القول لأن المفسرين فسروا لباس التقوى بعدة أقوال جمعها ابن الجوزي في عشرة أقوال. قال رحمه الله، (٣/ ١٨٢-١٨٣)، في زاد المسير: «وللمفسرين في (لباس التقوى) عشرة أقوال: أحدها: أنه السمت الحسن. قاله عثمان بن عفان، ورواه الذيال بن عمرو عن ابن عباس. والثاني: العمل الصالح. رواه العوفي عن ابن عباس. والثالث: الإيثار. قاله قتادة وابن جريح والسدي. فعلى هذا سمي لباس التقوى لأنه يقى العذاب... الخ».

للنساء لباساً، وهن لهم لباساً، وجعل الليل لعباده لباساً.

ونظرة أخرى على قوله ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾، يتضح لنا أن هذه الصيغة من صيغ العموم، ومن ثم يكون المعنى أن كل لباس يكون فيه تقوى الله ﷻ حسياً كان أو معنوياً فهو خير، فالمؤمن إذاً مطالب بأن تكون التقوى زيه الذي يرتديه، وثيابه التي يتدثر بها. فما كان مقرباً إلى الله تعالى من الزى والملبس فهو تقوى لله يحافظ عليها أهل الإيمان. فمثلاً، نهى النبي ﷺ عن التشبه بالكفرة مطلقاً في زيهم ولباسهم وسلوكهم واعتقاداتهم، وغيره مما يختصون به، قائلاً: «من تشبه بقوم فهو منهم»^(١)، فيكون التشبه بهم في الزى والمظهر مما يدخل في هذا الباب من لباس التقوى، أى: إن لباسهم مخالف للتقوى وعليه يلزم مخالفتهم، والتزى والظهور بما كان يجب النبي ﷺ هو التقوى والأحب والأقرب إلى الله - سبحانه، علاوة على ما في التشبه بهم من الإحساس بعقدة النقص المظهرة للتخلف، والمزرية بماضى الأمة وهويتها وتراثها، والتي نراها من هؤلاء المتفرنجين. وهذا التقليد من هؤلاء يدل على ميلهم إلى ما نهى الله عنه من مودة الكفار وموالاتهم وتفضيلهم على بنى جلدتهم، والله - جل وعلا - حذرنا ذلك بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١].

ومن ثم قال رسول الله ﷺ: «خالفوا المشركين»^(٢)، وهو في أمور متعددة، مما يدل على اطراد طلب المخالفة وشموله، وهو في الملابس لا كما يقال في الجوهر، لأن الجوهر - والنهى عن التشبه بالكفرة فيه معلوم - لا يحتاج إلى بيان أو تنبيه،

(١) رواه أبو داود (٤٠٣١)، وحسنه الألبانى في تخريج أحاديث «المشكاة»، (٤٣٤٧).

(٢) هكذا بصيغة الأمر. والحديث رواه مسلم (٢٥٩). وانظر النووى «شرح صحيح مسلم»، (١٤٩/٢).

وكانه ﷺ يستشرف الغيب بإخباره عن تردى هذه الأمة حين تخرج عن أوامر ربها وسنة نبيها وتتبع الكفرة وتقلدهم وتسير سير الذليل الحقير المنكسر وراء سيده المنتصر، فيقول: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، حتى إذا دخلوا جحر ضبٍ دخلتموه»، قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟»^(١) وهذا الواقع الكريه لا تخطئه عين، حتى عد رجعيّاً ومتخلفاً ومقدوفاً بالبسيل من الاتهامات من لا يسير في هذا السبيل ولا ينهج هذا النهج النكد.

والتأمل في الآية لابد أن يقف متفحصاً عند قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾، فهي طلب التذكر وإعمال العقل والفكر ومدى ما أدت إليه هذه المخالفة لتلك الآيات - التي لابد أن تحمل على تقوى الله - من واقع مربي عن عظيم الخطر في مخالفة أمر الله تعالى، ومعاندة العقل، ومصادمة الفطرة، ومخالفة السنة، وما في ذلك من خزي وهوان في الدنيا والآخرة.

ونعود إلى كلام الأستاذ/ سيد قطب^(٢) كما وعدنا، يقول - رحمه الله: «فهنالك تلازم بين شرع الله اللباس لستر العورات والزينة وبين التقوى. كلاهما لباس، هذا يستر عورات القلب ويزينه، وذاك يستر عورات الجسم ويزينه، وهما متلازمان. فمن شعور التقوى لله والحياء منه ينبثق الشعور باستقباح عرى الجسد والحياء منه. ومن لا يستحي من الله ولا يتيقيه لا يهيمه أن يتعري وأن يدعو إلى العرى، العرى من الحياء والتقوى، والعرى من اللباس وكشف السوءة!».

(١) رواه البخاري (٣٤٥٦). وانظر ابن حجر العسقلاني «فتح الباري»، (٦/ ٤٩٥). ورواه

مسلم (٢٦٦٩). وانظر النووي «شرح صحيح مسلم»، (٨/ ٤٧٢).

(٢) الأستاذ/ سيد قطب «في ظلال القرآن»، (٣/ ١٢٧٨-١٢٧٩).

المطلب السابع

كلمة التقوى

ونواصل التعرف على بقية مواضع التقوى، لنستكمل البحث، من هذه المواضع «كلمة التقوى» وقد وردت في قوله: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٦]، فإذا كان للتقوى محل ولها لباس، وتعظيم للشعائر يدل عليها فإن لها كلمة كذلك، وجمهور المفسرين^(١) هنا على أن كلمة التقوى هنا هي قوله «لا إله إلا الله»، وذكر بعضهم أنها «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، أو «لا إله إلا الله والله أكبر»، أو «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير»، أو هي «بسم الله الرحمن الرحيم»، وقيل عن مجاهد إنها الإخلاص، ونقل عن الزهري^(٢) الوفاء بالعهد، هذا مجمل أقوال المفسرين، وهي أقوال لا يملك الباحث التسليم بها، إذ معناها أن الله ﷻ ألزمهم قول «لا إله إلا الله»، وهذا القول هم ملتزموه من قبل ومن بعد: ضحوا فيه بأنفسهم وأهليهم وأموالهم

(٢) وانظر ابن جرير الطبري «جامع البيان»، مجلد ١١، (٢/٦٦-٦٧). والقرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، مجلد ٨، (١٦/٢٨٩). والفخر الرازي «التفسير الكبير»، (١٤/٣٤٥). وابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤/١٩٤). والزنجشري «الكشاف»، (٣/٤٦٧). والإمام أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي «زاد المسير في علم التفسير»، (٧/٤٤٢-٤٤٣) الطبعة الرابعة، المكتب الإسلامي. وأبو حيان «البحر المحيط»، (٩/٤٩٧). والألوسي «روح المعاني»، مجلد ١٤، (٢٦/١٧٨-١٨٠). وابن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٤-٢٥/١٩٥-١٩٧). وغيرها.

(٢) هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري ولد عام ٥٨ هـ، ٦٧٨ م، محدث، حافظ، فقيه، مؤرخ، من أهل المدينة وتوفي رحمه الله ١٢٤ هـ، له تصنيف في مغازي رسول الله ﷺ، انظر حاجي خليفة «كشف الظنون»، (ص ١٤٦-١٤٧).

وأوطانهم، كذلك فإن القول بأنهم أحق بتلك الكلمة من غيرهم قول لا يظهر له وجه أو ميزة!

ولم يوجد من المفسرين والمحققين ممن قرأت لهم من أشار إلى هذا الاعتراض، أو بمعنى أدق أشار إلى بعض تلك المعاني وإن لم يورد فيه إشكالاً أصلاً إلا صاحب «التحرير والتنوير» العلامة ابن عاشور، وهاك ملخص تحقيقه - رحمه الله: إن كلمة التقوى إن حملت على ظاهر المعنى كانت من قبيل الألفاظ، وإطلاق الكلمة على الكلام شائع، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، وفُسرَت هنا بقول «لا إله إلا الله». وإلزامهم إياها معناه أنه قدر لهم الثبات عليها قولاً بلفظها، وعملاً بمدلولها؛ إذ فائدة الكلام حصول معناه، وإضافة كلمة إلى التقوى بهذا التفسير حقيقية، ومعناها أن كلمة الشهادة أصل التقوى، لأن أساس التقوى اجتناب الأصنام من إضافة السبب إلى المسبب، ثم تتفرع على ذلك شعب التقوى. وأفاد - رحمه الله - أن الأسانيد التي رفعت تفسير الكلمة بـ «لا إله إلا الله» إلى الرسول ﷺ كلها ضعيفة، ولكنها وردت عن كثير من الصحابة، وهذا هو الاحتمال الأول.

والاحتمال الثاني: أن ﴿كَلِمَةٌ﴾ على غير ظاهر معناها، فتكون إضافتها بيانية، أو تطلق على حقيقة الشيء الأول، وتكون مقحمة كإقحام اسم في قول لبيد:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما

ومنه قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ أَتَمُّ رَبِّكَ﴾ على أحد التفسيرين، ويكون المعنى: وألزمهم التقوى، والثاني وهو إطلاقها على حقيقة الشيء، كقول النابغة:

نبئت زرعة والسفاهة كاسمها يهـدى إلى غرائب الأشعار

ويؤيده ما نقل عن مجاهد أنه فسرهما بالإخلاص. فيكون المعنى على هذا الاحتمال الثاني أنهم تخلقوا بالتقوى لا يفارقونها، واستعير الإلزام لدوام

التقوى في القرآن الكريم

المقارنة. وهذا الاحتمال لا يعارض تفسير كلمة التقوى بالشهادة وهو الاحتمال الأول، لأنه تفسير للتقوى بجزء من التقوى هو أهم جزئياتها: وهو الشهادة.^(١)

وآخر ما أشار إليه أهل التفسير لكلمة التقوى هو أنها الوفاء بالعهد، ويكون للإلزام. هنا معنى جديد هو الإيجاب، أى أمر المؤمنين أن يوفوا بعهدهم مع المشركين في صلح الحديبية لذلك لم ينقض المسلمون العهد حتى كان المشركون هم الذين نقضوه.

والذى أذهب إليه - بعد عرض ما سبق من أقوال المفسرين - متوائماً مع فهمي للسياق، مستنداً إلى بعض ما ذكرته من إشارات أهل العلم، أن كلمة التقوى هنا عامة لأنها مفرد مضاف إلى معرفة فيكون من صيغ العموم، فتشمل كلمة التقوى حيثند كل ألفاظ التقوى، أى ما فيه طاعة الله واتقاء غضبه، وليس الألفاظ فحسب بل الالتزام بمعناها والثبات عليها، ويكون المعنى: أن الله تعالى ألزم أهل الإيمان في كل ألفاظهم تقوى الله تعالى وثبتهم، أو يجب أن يثبتوا على تلك المعانى الحققة لألفاظ التقوى، فلا يصدر منهم إلا ما فيه تقوى الله تعالى قولاً وعملاً، لأنهم أحق بذلك شرعاً وقدرأ، لما علم الله فيهم من محبتهم له، ومن خشيتهم لله ﷻ ومهابتهم واقتدائهم بالنبي ﷺ أن يلفظوا بأقوال لا تقوى فيها، أو أن يتلفظوا بأقوال التقوى ولا يعملوا بمقتضاها، أو يداوموا ويثبتوا عليها ثباتاً على المبدأ وتمسكاً بالواجب الحق. والآية تحمل - كما أشار الأستاذ/ سيد قطب - الثناء على أصحاب النبي ﷺ حيث ألزمهم كلمة التقوى بأحقيتهم... الخ.^(٢) فلا يجوز للمؤمنين أن يخرجوا في ألفاظهم وأقوالهم عن

(١) انظر العلامة ابن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٦ / ٢).

(٢) انظر سيد قطب «في ظلال القرآن»، (٦ / ٣٣٢٩).

تقوى الله ﷻ كما قال: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨]، وقال النبي ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»^(١)، فكان قول الخير أو الصمت علامة من علامات الإيمان بالله واليوم الآخر.

ونلاحظ أن القرآن الكريم عبر بالكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة، وأن الكلمة الطيبة هي كلمة التقوى على ما أشرنا، وعكسها الكلمة الخبيثة، وذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ [٢٥] تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ [٢٦] وَمِثْلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ [٢٧] يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٧].

ويتضح من قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ... ﴾ أن جزاء كلمة التقوى نطقاً والتزاماً، والثبات على ذلك هو تثبيت أصحابها بالقول الثابت في الحياة الدنيا، بأن ييسر الله لهم الأقوال الإلهية على وجهها، فإن (ال) في ﴿ بِالْقَوْلِ ﴾ للاستغراق، والباء للسببية. وأن يدركوا دلائلها حتى تطمئن قلوبهم فلا يخامرهم شك، فيصبحوا ثابتين في إيمانهم غير مزعزعين، وعاملين غير مترددين. و﴿ وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ يشمل ما كان من أمرها مما يحتاج التثبيت لأهواها وكرهها، وأول ذلك القبر. روى البخاري عن البراء بن عازب أن الرسول ﷺ قال: «المسلم إذا سئل في القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله»، فذلك قوله: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي

(١) رواه البخاري (٦٠١٨)، (٦١٣٦)، (٦٤٧٥). وانظر ابن حجر العسقلاني «فتح الباري»، (١٠/٤٤٥-٥٣٢)، (١١/٣٠٨). ورواه مسلم (٤٧). وانظر النووي «شرح صحيح مسلم»، (١/٢٩٣).

الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴿١﴾، وهو الجزاء الذي من جنس العمل والذي طالما أكد عليه القرآن الكريم والسنة المشرفة.

(١) انظر ابن جرير الطبري «جامع البيان»، مجلد ٧، (١١ / ١٤٤). وابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٢ / ٥٣١). والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٢ / ٢٢٦-٢٢٧).

المطلب الثامن

خير الزاد التقوى

﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴾

[البقرة: ١٩٧]:

التزود إعداد الزاد، وهو الطعام الذي يحمله المسافر، وهو مستعار للإكثار من فعل الخير استعداداً ليوم الجزاء، شبه بإعداد المسافر الزاد لسفره بناءً على إطلاق اسم السفر والرحيل على الموت. قال الأعشى^(١):

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ولايت بعد الموت من قد تزودا
ندمت أن لا تكون كمثله وأنت لم ترصد بما كان أرصدا

هذا في المعنى المجازي للتزود، ويجوز استعماله في معناه الحقيقي على وجه استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه، فيكون التزود أمراً بإعداد الزاد من الطعام وغيره، ويكون تعريضاً كما في سبب نزول الآية بقوم من أهل اليمن يحجون بيت الله بغير زاد، يقولون: نحن متوكلون على الله، كيف نحج بيت الله ولا يطعمنا؟ فيكونون كلاً على الناس ثقلاء عليهم، فنبههم بأن خير الزاد ما يقيهم السؤال ويحفظهم من أن يكونوا ثقلاء على الناس، فإن ذلك من التقوى، لأن فيه صيانة ماء الوجه والعرض.^(٢)

وهكذا يتضح أن التقوى زاد المؤمن في سفره في دنياه، وسفره إلى آخرته^(٣)،

(١) ميمون بن قيس «ديوان الأعشى»، دار صادر بيروت، (ص ٤٦).

(٢) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والنوير»، (٢/ ٢٣٥-٢٣٦). وانظر العلامة الألوسي

«روح المعاني»، (٢/ ١٣٠). والقرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، (٢/ ٤١١).

(٣) يقول الإمام الرازي في مقاتيح الغيب، (٣/ ١٨٩)، ما حاصله: «وتحقيق الكلام أن الإنسان له سفران، سفر في الدنيا يتزود له الطعام والشراب والركب، وسفر من الدنيا لا بد له فيه من زاد هو معرفة الله ومحبته والإعراض عما سواه، وهذا الزاد الأخير خير

وهي إشارة أيضاً إلى لزوم استصحاب التقوى على كل حال من أحوال المؤمن سافراً وحضراً وكل ما كان فيه تقوى لله ﷻ حتى لو كان زاداً يأكله وشراباً يشربه فعليه أن يتزوده، فهو أقرب إلى الله وأحب إليه سبحانه، بل كل شأن من شئونه ولو كان مباحاً كالطعام والشراب لا ينبغي أن يخليه عن التقوى، فهو دليل التعلق بالله تعالى والالتزام بشرعه، ودليل على أن كل حركة وسكنه من المؤمن إنما هي لله تعالى، كما قال: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦٢-١٦٣).

وهناك ملحوظة، وهي أن المرء لما كان مسافراً إلى الآخرة في كل أوقاته، وأن رحيله إليها يمكن أن يتم بين لحظة وأخرى، فإن المؤمن الذي يهمله أمر آخرته ينبغي أن يكون مشغولاً في كل أوقاته بإعداد زاد الرحيل، لأنه غير منقطع السفر حتى يصل، فلا يضيع من وقته شيئاً في غير تقوى الله تعالى في أمر معاده ومعاشه، يضمن بأنفاسه أن تضيع سدى بغير فائدة يرجو ثوابها في دينه ودنياه.

ولا يقدر هذا الأمر وذلك الخطر حق قدره إلا من أكرمه الله تعالى باستخدام عقله وبإعمال فكره ونظره في حاله في الدنيا وما هو مقدم عليه من أمر الآخرة، لذلك رأينا الآية الكريمة تختتم بقول الله تعالى: ﴿وَأَتَّقُوا يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾، أى واشتغلوا بتقواي يا أصحاب العقول، لأن الأبواب جمع لب وهو العقل، واللب الخالص من كل شىء، وكأن مقتضى العقل الخالص عن

من الأول لوجوه، منها أن زاد الدنيا يخلص من عذاب موهوم ومنقطع وزاد الآخرة يخلص من عذاب دائم ومتيقن، وأن زاد الدنيا يوصل إلى شهوة النفس وزاد الآخرة يوصلك إلى عتبة الجلال والقدس، وأن الدنيا وزادها في ادبار وانقضاء وزاد الآخرة يوصلك إليها وهي كل ساعة في الإقبال والقرب والوصول. فثبت بما ذكرنا أن خير الزاد التقوى» ا.هـ. ويمثل ذلك أشار الخازن في تفسيره.

الشوائب شوائب الهوى وغيره تقوى الله سبحانه وتعالى. ^(١) يقول ابن عطية ^(٢) في المحرر الوجيز: «وخص أولو الألباب بالخطاب وإن كان الأمر يعم الكل، لأنهم الذين قامت عليهم حجة الله وهم قابلو أوامره والناهضون بها، وهذا على أن اللب لب التجارب وجودة النظر، وإن جعلناه لب التكليف فالنداء بـ(أولى الألباب) عام لجميع المكلفين».

وقد يلحظ المرء تكراراً في الآية، فبعد الحث على التقوى أمر بها مرة أخرى في قوله تعالى: ﴿وَأَتَّقُوا يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾، ولكن التحقيق أنه ليس هناك تكرار، لأنه حث على الإخلاص بعد الحث على التقوى.

ويوضح البيضاوى المعنى، فيقول - رحمه الله: « قضية اللب خشية الله وتقواه، حثهم على التقوى ثم أمرهم أن يكون المقصود بها هو الله تعالى فيتبرأ من كل شيء سواه». ^(٣)

(١) انظر الألوسى «روح المعانى»، (٢/١٣٠). وابن عاشور «التحرير والتنوير»،

(٢/٢٣٦). والرازى «مفاتيح الغيب»، (٣/١٩٠).

(٢) ابن عطية «المحرر الوجيز»، (١/٢٧٤).

(٣) البيضاوى «أنوار التنزيل»، (١/٤٨٣). وهذا ما ذكره أبو السعود بنصه في «إرشاد

العقل السليم»، (١/٢٤٤).

المطلب التاسع

بقية مواضع التقوى

واستكمالاً للبحث لابد من الإشارة إلى بقية مواضع التقوى في القرآن الكريم، لتكتمل صورة التقوى، ونستأنف بهذه الآية الكريمة: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]:

وحديث التقوى وزادها يدفع بنا إلى بيوت الله تعالى، وهى المساجد، حيث تنزل الرحمة وتحط السكينة وتحف الملائكة، وفيها يستطيع المرء المؤمن أى يحصل التقوى، وأن يجهز منه ما يمكنه من مواصلة رحلة السفر إلى الآخرة.

وللمسجد في الإسلام أهميته القصوى، فهو المدرسة التي خرجت وتخرج قادة الإنسانية ورواد النهضة وفرسان الحق، فكان المسجد أول ما أسس النبي ﷺ عند وصوله للمدينة، لعلمه وإعلامه بعظم منزلته في بناء الأمة وتقوية الصلة بالله تعالى وإيقاظ الضمير وشحن القلوب بهادة التقوى، حيث تعلم العلم النافع والقيام بالعمل الصالح من ذكر وقراءة للقرآن، ومن قيام وصلاة ومن اعتكاف ومجاهدة، وفيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتعلم الدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، وكذلك فيه يتم النظر في مصالح المسلمين وجمع صدقاتهم، وعقد ألويتهم وخروج جيوشهم ناشرة لواء الخير والعدل والسلام، بتعبيد الناس لرب العالمين وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.

وفيه علاوة على ذلك الإصلاح بين الناس وجمع شملهم وتوحيد صفهم وإظهار المساواة بينهم، لا فرق بين كبير وصغير ولا أبيض ولا أسود إلا بالتقوى، حيث الجميع أمام رب واحد صفاً واحداً بكتاب واحد وإمام واحد يرجون رحمته ويخافون عذابه.^(١)

(١) انظر د. محمد سعيد رمضان البوطي «فقه السيرة»، (ص ١٥٢-١٥٣)، ١٣٩٨هـ.

فكان رسول الله ﷺ أول ما يبدأ يبدأ من بيت الله تعالى، وأول ما يرجع قبل رجوعه إلى أهله وبيته، يبدأ ببيت الله تعالى.^(١)

ولما تفتن المنافقون لفضل المسجد وخطره، هدامهم شيطانهم إلى هذا التفكير الخبيث - الذي ما فتى المنافقون في كل عصر وزمان يستخدمونه - ليكيدوا للإسلام وأهله، وليحاربوا الله ورسوله، وليفرقوا به بين المؤمنين، ألا وهو مسجد الضرار، فبينوا مساجد لإيقاع الضرر - بل أعظم الضرر - بالإسلام والمسلمين، أو يحولوا المساجد إلى مساجد ضرار، ليخرجوا بها المسلمين عن تقوى الله تعالى، بتحريم ما أحل الله أو بتحليل ما حرم الله، وبنشر الجهل والخزعات، وبإيقاع الفتنة بينهم والخلاف، وإلهائهم عن قضايا الأمة بفرعيات لا خطر للخلاف فيها، وشغلهم عن مهمات الأمور وقضايا الساعة والعودة إلى

=

١٩٧٨م، دار الفكر، الطبعة السادسة. يقول: «فقد أقبل رسول الله ﷺ بمجرد وصوله إلى المدينة واستقراره فيها على إقامة مجتمع إسلامي راسخ متماسك يتألف من هؤلاء المسلمين: الأنصار والمهاجرين الذين جمعتهم المدينة المنورة، فكان أول خطوة قام بها في سبيل هذا الأمر بناء المسجد. ولا غرو ولا عجب، فإن إقامة المسجد أول وأهم ركيزة في بناء المجتمع الإسلامي، ذلك أن المجتمع المسلم إنما يكتسب صفة الرسوخ والتماسك بالتزام نظام الإسلام وعقيدته وآدابه، وإنما ينبع ذلك كله من روح المسجد وحيه... إلخ». وانظر الدكتور مهدي رزق الله أحمد «السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية دراسة تحليلية»، الطبعة الأولى، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، (ص ٢٩٣) وما بعدها. وكذا صفى الدين المباركفوري «الرحيق المختوم (بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام)»، (ص ٢٠٥-٢٠٦)، الطبعة الثانية، دار إحياء التراث.

(١) رواه البخاري (٤٤١٨). وانظر ابن حجر «فتح الباري»، (١١٤/٨). ومسلم (٢٧٦٩). وانظر النووي «شرح صحيح مسلم»، (١٠٠/٩) وما بعدها.

النبع الصافي في الكتاب والسنة وسير النبلاء من السلف الصالحين، حتى تبقى الأمة متخلفة لا قيمة لها ولا وزن في دنيا الناس، وهو ما يصبو إليه أعداء الأمة وأعداء الإسلام.

قام المنافقون في عهد رسول الله ﷺ فعلاً بهذا الفعل الهابط، فقاموا ببناء مجمع سموه مسجداً^(١)، ليكيدوا فيه لله ولرسوله وللمؤمنين، وتهيته لكل أصحاب العداوة والحقد على الإسلام ورسوله والمسلمين. وكان عبد الله عمرو أبو عامر من أشrafهم في الجاهلية، تنصر وتعبد حتى سمي أبا عامر الراهب، ولما جاء الإسلام شرق به ريقه وناق وجاهر النبي ﷺ بالعداوة، وظاهر عليه الكفار واليهود. وبعد غزوة بدر ذهب إلى مكة وأقام فيها يحرض على النبي ﷺ.^(٢) فلما فتح الله مكة ذهب إلى الطائف، فلما فتحت الطائف ذهب إلى الروم يستنصر بهم على أهله وعشيرته، يحارب رسول الله ﷺ والمسلمين - وذلك ديدنهم؛ العمالة لأعداء أمتهم والاستنصار بهم ضد أهلهم ووطنهم - ووعدهم أن يأتي بجيش من الروم ليطرده محمدًا وصحبه من المدينة، وأن يعدوا هذا المجمع إرساداً لمن حارب الله ورسوله من قبل، وهو أبو عامر الفاسق، كما سماه باسمه اللائق به رسول الله ﷺ.^(٣)

جاء المنافقون وطلبوا من النبي أن يصلي لهم في مسجدهم ويدعو لهم بالبركة حيث بنوه لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة، يحلفون بالله كذباً إن أردنا إلا الحسنی، والله يشهد إنهم لكاذبون، وكان قريباً من مسجد قباء إمعاناً في

(١) انظر أبا حيان «البحر المحيط»، (٥/٥٠٢).

(٢) وقال للنبي ﷺ: «لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم».

(٣) وقد جاء في السير أن رسول الله ﷺ دعا على الكاذب أن يموت طريداً شريداً غريباً، فمات أبو عامر على هذا النحو لما فر إلى الشام، طريداً شريداً غريباً، فكان هو الفاسق الكاذب.

تفريق المؤمنين وتشتيتهم. كان رسول الله ﷺ متجهزاً لغزوة تبوك، فقال لهم: «إنا على سفر وحال شغل، عندما نرجع - إن شاء الله - نصلى فيه»، يريدون بصلاته فيه تحصيل مزية لمسجدهم تروج لمقصدهم الفاسد وهدفهم الأثيم.

وعند رجوع المصطفى ﷺ من تبوك قبيل دخوله المدينة جاءه النهى الحاسم من الله - جل وعلا: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾، إنه مسجد لم يؤسس على التقوى، فأمر ﷺ عمار بن ياسر^(١) في نفر من أصحابه أن اذهبوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وحرقوه. إنها المفاصلة بين الحق والباطل، ليس ثم أنصاف حلول تلتقى فيها التقوى مع عدمها في منتصف الطريق، لا تقم فيه أبداً، وحرقوه واهدموه.^(٢)

التقوى إذاً هي الفاصل بين ما كان لله تعالى فيبقى في الدنيا وله ذخره وثوابه يوم يقوم الأشهاد، وما كان لغيره فيهدم في الدنيا، ويوم القيامة يهوى بأصحابه في نار جهنم.^(٣)

(١) قال معظم المفسرون: دعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم ومعن بن عدى وعامر بن السكن ووحشياً قاتل حمزة، فقال: «انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله...». وانظر لما سبق القرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، (٢٥٣/٨). وابن جرير «جامع البيان»، جلد ٧، (١٨/١١).

(٢) (لا تقم فيه) أى: للصلاة، وقد يعبر عن الصلاة بالقيام. يقال: فلان يقوم الليل، أى يصلى، ومنه الحديث الصحيح: (من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه)، القرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، (٢٥٨/٨)، والألوسى «روح المعانى»، (٢٨/٧).

(٣) انظر الشيخ محمد الغزالي «فقه السيرة»، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، طبعة دار القلم، (ص ٤١٤-٤١٥). ود. محمد سعيد رمضان البوطي «فقه السيرة»، (ص ٣٢٤-٣٢٦). ود. مهدي رزق الله أحمد «السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية دراسة تحليلية».

ثم جاء التوجيه الحاسم بالأسلوب المعجز: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ مُخْبِتُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا وَ اللَّهِ مُخِبٌ الْمُنَظَّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]. فنقف عند هذا الموضع أولاً لنحلله، ثم نعود للموضع التالى للتقوى في هذه القصة.

اللام في قوله: ﴿لَمَسْجِدٌ﴾ لام القسم، وقيل: لام الابتداء، والمعنى: والله لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه، وفيه تأكيد لمضمون الجملة. و(مسجد) مبتدأ، و﴿أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى﴾ صفة، وخبره ﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾.

و﴿فِيهِ رِجَالٌ مُخْبِتُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا﴾ صفة ثانية للمبتدأ جاءت بعد خبره على قول بعضهم، فبعد أن ذكر صفة المحل ذكر صفة الحال فيه، وعلى كل حال فيه تقرير وتحقيق لاستحقاق القيام فيه.

وهو حاصل كلام المفسرين^(١)، وفيه تتضح معانى كثيرة عند النظر الفاحص لهذا النص الكريم.

أول هذه المعانى: تبيين الله تعالى لصفات المسجد الذي يجب أن يقوم فيه النبى ﷺ وأتباعه، بعد أن نهاء أن يقوم في مسجد الضرار أبداً. وهذه الصفات تدور كلها حول التقوى و المتقين، لأن المسجد - كما أشرنا - هو المكان الذي يحصل فيه المرء على وجه الخصوص زاد التقوى المأمور به.

فأقسم المولى ابتداءً بنفسه - سبحانه - أن المسجد الذي يجب أن يقوم فيه هو المسجد المؤسس على التقوى، سواءً في النية والقصد من إرادة وجه الله تعالى والدار الآخرة، أو من القيام بالشرع وإحياء السنة، أو من التعاون على البر

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير و التنوير»، (٢٩/١٠). والعلامة أبا السعود «إرشاد

العقل السليم»، (٢/٤٤٧-٤٤٨). والعلامة الألوسى «روح المعانى»، (٢٨/٧).

والتقوى وتقوية الروابط وإحكام عرى الوحدة و التكافل والتراحم والمساواة بين المؤمنين، أو من مساعدتهم على تحصيل زاد آخرتهم بتوثيق الصلة بينهم وبين ربهم، أو بغير ذلك من أسس التقوى اللازمة لقيام بناء محكم متين.

ولفرط اهتمام الصحابة بمعرفة أماكن التقوى وجدنا سؤا لهم عن أى المساجد أسس على التقوى من أول يوم؟ وهى مسألة تنازعها أهل العلم بناءً على أقوال الصحابة. قال في البحر المحيط: «قال ابن عباس وفرقة من الصحابة والتابعين: المؤسس على التقوى مسجد قباء، أسسه رسول الله ﷺ وصلى فيه أيام مقامه بقاء وهى يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس وخرج يوم الجمعة، وهو أولى لأن الموازنة بين مسجد قباء ومسجد الضرار أوقع منها بين مسجد الرسول. وروى أنه قال: «هو مسجدي هذا» لما سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى، وإذا صح هذا النقل لم يمكن خلافه»^(١).

(١) انظر أبا حيان «البحر المحيط»، (٥/٥٠٤). والقول الأول قول الكشاف بحروفه، انظر (٢/١٧٢)، وتبعه البيضاوى، (٣/١٧٢)، وأبو السعود، (٢/٤٤٧)، والنسفى، (٢/١١١)، وذكر النيسابورى كلام الكشاف كذلك، مجلد ٧، (١١/١٨) (على هامش الطبري). أما القول الثانى فترجيح ابن جرير، مجلد ٧، (١١/٢١-٢٢)، وكذا ابن عطية، (٣/٨٢)، والقرطبى، (٨/٢٥٩-٢٦٠)، وهو ترجيح صديق خان في «فتح البيان»، (٤/١٩٧-١٩٨)، وسبقه الألوسى، (٧/٢٩).

وقول من قال: هو مسجد رسول الله ﷺ هو الأرجح - في نظر الباحث - لصحة الحديث الذي رواه مسلم: (هو مسجدي هذا)، فهو نص في المسألة، فلا نظر لخلافه، ويؤيده قوله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾، والمسجد الذي قام فيه وداوم ﷺ مسجده المشرف. وأما قول من قال: ﴿فِيهِ رِجَالٌ مُّحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ فهو صادق على رجال مسجد الرسول، بل هو من باب الأولى، أو هم الأنصار بغض النظر عن كونهم يصلون في قباء أو في مسجد الرسول ﷺ، ولا يعقل أن أهل قباء يصلون في قباء فقط، ولا يأتون مسجد النبى ﷺ صلاة معه وجهاداً وتعلماً واستفتاءً وغير ذلك!

ولم يقل - سبحانه - إنه أسس على التقوى فقط، وإنما أسس عليها من أول يوم قيامها، فقط وكأن ما أسس على غير التقوى من أول يوم ثم تبدلت أحوال القائمين عليه إلى التقوى أو تغيروا وتبدلوا بمتقين كذلك لا يزال المسجد المؤسس على التقوى من أول يوم أفضل وأحق أن يقام فيه^(١)، وهذا يؤكد قيمة التقوى وعلو منزلتها، والله أعلم.

الصفة الثانية من الصفات التي تدعو المرء إلى أن يقوم في المسجد المؤسس على التقوى من أول يوم: كون عمّاره من الذين يحبون أن يتطهروا، وعبر بالمحبة لأن الذي يحب شيئاً ممكناً يفعل لا محالة، فقصد بذلك التنويه بأنهم يتطهرون

وأما روايات الطهارة النازلة فيهم - أى أهل مسجد قباء - فروايات ضعيفة كما ذكر الألوسى وصديق خان، وقد جمع بعضهم بين القولين. وقال الألوسى وتبعه حسن خان: «وجع الشريف السمهودي بين الأخبار، وسبقه إلى ذلك السهيلي، وقال: كل من المسجدين مراد، لأن كلا منهما أسس على التقوى من أول يوم. والسر في إجابته توهم السائل اختصاص مسجد قباء بمزية على هذا. ثم قال: ولا يخفى بعد هذا الجمع» أ.هـ. بتصرف. ورجح هذا الجمع العلامة ابن عاشور في «التحرير والتنوير»، (٣٢/١٠)، حيث قال ما حاصله: «ووجه الجمع عندى في قوله ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى﴾ أى: المسجد الذي هذا صفته فيكون وصفاً كلياً انحصر في فردين: مسجد الرسول ومسجد قباء، فأيهما صلى فيه حال دعوته للصلاة في مسجد الضرار كان أحق وأجدر». وقال ابن كثير - رحمه الله، (٣٨٩/٢)، في الجمع بين القولين: «ولا منافاة بين الآية وبين هذا، لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى».

(١) قال الإمام ابن كثير، (٣٩٠/٢): «دليل على استحباب الصلاة في المساجد القديمة من أول يوم بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له، وعلى استحباب الصلاة مع الجماعة الصالحين والعباد العاملين المحافظين على إسباغ الوضوء والتنزه عن ملامسة القاذورات».

تقرباً إلى الله بالطهارة وإرضاء لمحبة نفوسهم لها، بحيث صارت الطهارة خلقاً لهم، فلو لم تجب عليهم لفعلوها من تلقاء أنفسهم.^(١) والطهارة تشمل الطهارة الحسية والطهارة المعنوية من تطهير النفس من الذنوب والمعاصي بالتوبة والاستغفار، فتلك صفات مسجد التقوى، وهذه صفات أهله.

الثاني: بينت الآية السابقة بهذا التعبير وهو ﴿رَجَالٌ مُّحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾^(٢) أن المرء الذي يقصد تقوى الله فلا بد له من صحة تعينه على ذلك، وتعاونه على إعداد زاده والعمل لآخرته، أو بمعنى آخر أن يقوم في المسجد الذي هذا أهله، فذلك أجدر أن يحقق هدفه من تقوى الله تعالى. وفي التعبير بكونهم رجالاً ما فيه من التنويه بشأنهم وإعلاء منزلتهم، وكفى به شرفاً، فمن هذه صفاتهم من طهارة القلب والنفس والبدن، ومن زكاء الفعل والقول هم الرجال.

الثالث: أن المعاني الجميلة في الآية ذلك الجزء الرائع الذي لا جزاء فوقه،

(١) انظر العلامة ابن عاشور «التحرير والتنوير»، (٣٣/١٠).

(٢) قال المفسرون: هذه الآية نزلت في الأنصار. يقول صاحب «التحرير والتنوير» مختصراً هذه الأقوال: «وجملة ﴿فِيهِ رَجَالٌ مُّحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ ثناء على مؤمنى الأنصار الذين يصلون بمسجد رسول الله ﷺ وبمسجد قباء. وكان المؤمنون من الأنصار يجمعون بين الاستجمار بالأحجار والغسل بالماء. وقد ذهب الإمام الفخر، (١٧٨/٨)، إلى أن الطهارة المراد منها التطهر عن الذنوب والمعاصي، وأن هذا القول متعين لازم لوجوه: الأول: أن التطهر عن الذنوب والمعاصي هو المؤثر في القرب من الله تعالى واستحقاق ثوابه ومدحه. والثاني: أنه تعالى وصف أصحاب مسجد الضرار بمضارة المسلمين والكفر بالله والتفريق بين المسلمين فوجب على كون هؤلاء على الضد من صفاتهم، وما ذاك إلا لكونهم مبرئين عن الكفر والمعاصي. والثالث: أن طهارة الظاهر إنما يحصل لها أثر وقدر عند الله لو حصلت طهارة الباطن من الكفر والمعاصي.

وهو محبة الله تعالى للمتطهرين، فإنهم لما أحبوا الطهارة أحبهم الله، والجزاء من جنس العمل، أو لما أحب المؤمن المتطهرين وقام معهم لله تعالى، تطهيراً لنفسه وإرضاءً لربه وتقوى له سبحانه، فإنه بذلك متعرض لمحبة الله له على قدر ما طهر نفسه وزكاها وحفظها ورعاها، أى بقدر ما حصل من تقوى الله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

الرابع: أن الآية أشارت في المقام الأول إلى عظمة هذا الجبل - الرعيل الأول - من أصحاب الرسول ﷺ، حيث نوهت بهم وبشأنهم وبجميل صفاتهم بعظيم تقواهم لله ثم بمحبة الله - جل وعلا - لهم.

وفي المقابل ألمحت الآية إلى أهل النفاق والشك والارتياب، من سوء نيتهم وخُبث طويتهم، وفساد قصدهم، فعرضت الآية بهم تعريضاً هتاك أستارهم وفضح عداوتهم، حيث بينت أن مسجدهم لم يؤسس على التقوى، فكان حرياً بالمقاطعة والهدم والتحريق وعدم القيام فيه، وعرضت بمن فيه بأنهم غير متقين، حيث أنهم لا يحبون أن يتطهروا، يحبون الخُبث والخبائث في القصد والنية والعمل والبناء، حتى ولو كان في صورة ما يحبه الله تعالى من بيوته، فهم جديرون ببغض الله إياهم.^(١)

الخامس: جاءت الآية باسم التفضيل ﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾، فهل هناك مفاضلة بين التقوى وما أسس عليها وبين ما لم يؤسس على التقوى؟ هل يوجد وجه مقارنة حتى يقال: هذا أحق فقط من هذا؟ كلا، إن اسم التفضيل هنا مسلوب المفاضلة، لأن الله تعالى قال: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾، فكان معنى أحق أى كونه في نفسه حقيقاً بأن يقام فيه، إذ لا استحقاق للقيام في المسجد الضرار رأساً.

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٣٣/١٠)، والفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٨/١٧٧-١٧٨).

ولعل النكتة في الإتيان باسم التفضيل هو التهكم بالمنافقين^(١) بأن مسجدهم - مجارة لهم - وإن كان حقيقاً بالصلاة فيه فإن المسجد الذي أسس على التقوى أحق، أى إن مسجدكم لم يؤسس على التقوى، فليس جديراً إلا بأن يكون مكاناً تلقى فيه الجيف والقمامة، وأن يهوى بأصحابه في النار.

السادس: استنبط العلماء من الآية أن ما كان من المساجد لم يؤسس على التقوى ولم يبن على رضا الله تعالى فلا يقوم فيه المؤمن، إذ هو لاحق بمسجد الضرار، وقد طبق العلماء ذلك. يقول الإمام القرطبي^(٢): «وأسند الطبرى عن شقيق أنه جاء ليصلى في مسجد بنى عامر، فوجد الصلاة قد فاتته، فقليل له: إن مسجد بنى فلان لم يصل فيه بعد، فقال: لا أحب أن أصلى فيه، لأنه بنى على ضرار. قال علماؤنا: وكل مسجد بنى على ضرار أو رياء أو سمعة فهو في حكم مسجد الضرار، لا تجوز الصلاة فيه».

فهذه آثار التقوى، يتحرى أصحابها مواقع القبول وأماكن الرضا عند الله تعالى.

ونستكمل الموضوع التالى للتقوى في سياق مسجد الضرار وهو قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنْ رَبِّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ١٠٩]:

فبعد أن أقسم الله - سبحانه وتعالى - بأن المسجد الذي أسس على التقوى

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٠ / ٣١).

(٢) القرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، (٨ / ٢٥٤). وكذلك الكشاف أشار إلى ذلك، ونقل القصة. يقول الزنجشیری، (٢ / ١٧٢): «وقيل: كل مسجد بنى مباحةً ورياءً وسمعةً أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله، أو بهال غير طيب، فهو لاحق بمسجد الضرار».

من أول يوم هو الحقيق بالصلاة والدعاء دون غيره، بل إن غيره مصيره إلى الهدم والفناء ولا يجوز أن يقوم فيه المسلم، جاءت الآية التي معنى لتأكيد ذلك وبث السكينة في قلوب المؤمنين لمثل هذا الحكم الحاسم، ولمحو أى تردد في تلك المواقف والمبادئ الفاصلة، فضربت الآية هذا المثل شاهداً على ثبات وقوة ما بنى على التقوى، وهشاشة وخسة وسوء ما بنى على غيرها وسرعة انهياره، مما يدل على عاقبة ذلك وحسن ثوابه وسوء منقلب الآخر وأليم عقابه.

وبالنظر في الآية: نجد التفرع في قوله: ﴿أَفَمَنْ أُسِّسَ...﴾ على قوله: ﴿لَمْسَجِدْ أُسِّسَ...﴾ لزيادة بيان أحقية المسجد المؤسس على التقوى بالصلاة فيه، وبيان أن تفضيل المسجد تفضيل مسلوب المشاركة بعد ورود النهى عن الصلاة فيه.

والاستفهام للتقرير^(١)، وأخرت الفاء عن همزة الاستفهام لأن الاستفهام حقه الصدارة.

ونلاحظ في الآية: أنه في الجزء الأول جاء الخبر بقوله (خير)، أى: أفمن أسس بنيانه على تقوى الله تعالى ورضوانه خير، وفي الجزء الثاني حذف الخبر وهو قوله (خير) وكأنه لدلالة الأول عليه، ولكنه في الثاني ومع حذف الخبر عقب بقوله: ﴿فَأَنهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾، وهو تركيب موح كأن الثاني لا

(١) هذا ما عليه جمهور المفسرون، وذهب صديق خان في «فتح البيان»، إلى أنه استفهام إنكارى، وكذا الألوسى في «روح المعاني»، (٧/ ٣٢). والفاء عاطفة على مقدر أى بعد ما علم حالهم، فمن أسس. والتأسيس: بناء الأساس، وهو قاعدة الجدار المبنى من حجر وطين أو خص. والبنيان في الأصل: مصدر بوزن الغفران والكفران، ويطلق البنيان على المبنى من الحجر والطين خاصة، وهو هنا مطلق على المفعول أى المبنى. والشفا (بفتح الشين والقصر): حرف البئر وحرف الحفرة. والجرف (بضميتين): جانب الوادى وجانب الهوة. وهار: اسم مشتق من هار، البناء إذا تصدع.

يستحق أبداً ذكر الخير معه، لأنه لا خير فيه البتة، كأنه - وهو الحق - شرٌ كله قصداً ونية وعملاً ونتيجة، ويذكر بقابل ذلك بأن الأول خير كله قصداً ونية وعملاً وعاقبة، حيث يقال في جواب الاستفهام: بل المؤسس على التقوى هو الخير، فالتمسك بذلك هو الخير، وقد يوحى تنكير الخير بشيء مما ذكر.

ونلاحظ في الجملة الثانية كذلك التعبير بكلمة (هار) أى: منهار، وفيه إشارة إلى أن من أسس بنيان دينه على غير التقوى، ورفع بنائه أيّاً كان على غير رضا الله تعالى، فقد أسس بنيانه على حرف منهار، ليس على حرف يوشك أى يسقط ويتداعى، بل هو منهار بالفعل، كما يؤكد اسم الفاعل البانى على شيء منهار متداع ساقط، يبنى وهو ينهار، فهل يتم له البنيان؟ وهل يستطيع هو نفسه أن يبنى والبنيان ينهار ويتساقط عليه منزلق فوق رأسه، يكاد أن يرحم به وأن يدفن تحته حياً. وهى توحى أشد الإيحاء بما عليه بناء التقوى والمتقون من ثبات البنيان وارتفاعه، وتحقيق النتيجة للبنايين المتقين، وحفظ الله لهم.

وتبين الآية نتيجة البناء على غير تقوى، على الباطل والنفاق والرياء والسمعة، على غير ما يرضى الله، تبيينها على أسوأ حال وهو الانهيار به^(١) في نار جهنم، وهو العاقبة الوخيمة التي وضحت وجلت ما هو مقابلها وهو الجنة، تلك عاقبة الذين اتقوا وإن لم تذكر في الآية.^(٢)

(١) سواء عاد الضمير على البانى أو على البنيان وكانت الباء للتعدي أو للمصاحبة، أى: انهار به حال كونه مصاحباً له إلى النار.

(٢) جاءت بعض الأخبار لتؤكد بظاها أن هذا المسجد وقع بعينه في نار جهنم، وليس هناك شيء خارج قدرة الله تعالى. يقول العلامة الألوسى، (٣٣/٧)، ما حاصله: «وظاهر الإخبار أن ذلك المسجد إذا وقع وقع في النار، فقد أخبر ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة أنه قال في الآية: والله ما تنهى ان وقع في النار. وذكر لنا أنه حفرت فيه بقعة فرأى منه الدخان...»، إلى أن يقول: «وأنت تعلم أنى والحمد لله مؤمن

وقد لخص صديق خان^(١) البلاغة في الآية بقوله: «والمعنى أن من أسس بنيان دينه على قاعدة قوية محكمة، وهى تقوى الله ورضوانه، خير أمن أسس دينه على ضد ذلك، وهو الباطل والنفاق. قيل: إنه استعارة مكنية شبهت التقوى والرضوان بما يعتمد عليه البناء تشبيهاً مضمراً في النفس، وأسس بنيانه تخييل فهو مستعمل في معناه الحقيقي، أو مجازاً فتأسيس البنيان بمعنى إحكام أمور دينه، أو تمثيل لحال من أخلص لله وعمل الأعمال الصالحة بحال من بنى شيئاً محكماً مؤسساً يستوطنه ويتحصن فيه، أو البنيان استعارة أصلية والتأسيس ترشيح...»، إلى أن يقول: «وسبحان الله، ما أبلغ هذا الكلام وأقوى تراكيبه وأوقع معناه وأفصح مبناه»^(٢).

وهكذا أوضح هذا البيان المعجز بأوضح الأساليب أنه لا يستوى أبداً ما أسس لله مع ما أسس لغيره، وأن التقوى هى الفیصل في التفرقة في كل مراحل العمل نيةً وسلوكاً وواقعاً. وكذا لا يستويان عاقبة ونتيجة تنظرك. فهى دعوة

بقدرته سبحانه على أتم وجه وأنه ﷺ فعال لما يريد، لكنى لا أؤمن بمثل هذه الظواهر ما لم يرد فيها خير صحيح عن رسول الله ﷺ. وقد سبق ابن عطية إلى القول بمثل ذلك، ولكنه رجح كونه مثلاً، يقول: ﴿فَأَنبَارٌ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ الظاهر منه وما صح من خبرهم وهدم رسول الله ﷺ مسجدهم أنه خارج مخرج المثل. وقيل: بل ذلك حقيقة وأن ذلك المسجد بعينه انهار في نار جهنم. قاله قتادة وابن جريح، وهذا كله بإسناد لين، وما قدمناه أصوب وأصح. اهـ.

(١) صديق خان «فتح البيان»، (٤/ ٢٠٠-٢٠١).

وهو محمد صديق خان بن حسن بن على، عالم، أمير مشارك في أنواع من العلوم ولد في قنوج بالهند في جمادى الأولى ١٢٤٨ هـ، ١٨٣٢ م، وله من تصانيفه الكثيرة أبجد العلوم، وتوفي عام ١٣٠٧ هـ، ١٨٨٩ م. انظر فهرس الفهارس للكتاني (١/ ٢٦٩).

(٢) صديق خان «فتح البيان»، (٤/ ٢٠٠-٢٠١).

لبناء النفس والمجتمع على ذلك ليتقدم ويتطور.

والموضع التالى من مواضع التقوى هو قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾^(١):

ويطلق البر في كلام الشرع على معنيين: أحدهما: على معاملة الخلق بالإحسان إليهم، وربما خص بالإحسان إلى الوالدين ف قيل: بر الوالدين، ومن هذا المعنى قوله النبى ﷺ لما سُئِلَ عن بر الحج، قال: «إطعام الطعام وإفشاء السلام»، وفي رواية: «وطيب الكلام»^(٢). والثانى: أى من معانى البر أن يراد به فعل جميع الطاعات الظاهرة والباطنة وذلك كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآلَمَاتِ كِتَابِهِ وَآلَتَّبِعَنَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوَى الْقُرْبَىٰ وَآلَتَتَمَىٰ وَآلْمَسْكِينِ وَآبَنَ السَّبِيلِ وَالسَّالِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فالبر بهذا المعنى يدخل فيه جميع الطاعات الباطنة كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، والطاعات الظاهرة كإنفاق الأموال فيما يحبه الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والوفاء بالعهد، والصبر على الأقدار، كالمرض والفقر، وعلى

(١) البر في اللغة: التوسع في فعل الخير، وينسب إلى الله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾، وإلى العبد فيقال: بر العبد ربه. انظر الراغب الصبھانى «المفردات في غريب القرائن»، مادة بر. والإثم في اللغة: الذنب، وقد أِثْمَ إِثْمًا ومَأْثِمًا إِذَا وَقَعَ فِي الْإِثْمِ فَهُوَ أَثِمٌ. انظر أبو بكر الرازى «مختار الصحاح»، ترتيب محمود خاطر، مادة: أثم.

(٢) رواه الحاكم أبو عبد الله في المستدرک على الصحيحين (٤٨٣/١) من رواية جابر، وصححه، ووافقه الذهبى. وهو في «مجمع الزوائد» لنور الدين الهيئى (٢٠٧/٣)، وقال: رواه الطبرانى في الأوسط واسناده حسن.

الطاعات كالصبر عند لقاء العدو.

وقد فسر النبي ﷺ البر بقوله: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس». (١)

فما علاقة ذلك كله بجواب النبي ﷺ: «البر حسن الخلق»؟ حسن الخلق يشمل هذه الخصال كلها لأنه يراد به التخلق بأخلاق الشريعة، والتأدب بآداب الله التي أدب بها عباده في كتابه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝﴾ [القلم: ٤]، لذلك قالت السيدة عائشة: كان خلقه ﷺ القرآن، يعنى يتأدب بآدابه، فيفعل أوامره ويحتمل نواهيه، فصار العمل بالقرآن له خلق الجبلة لا تفارقه، وهذا أحسن الأخلاق وأشرفها. (٢)

ولكن هل عطف التقوى على البر يقتضى المغايرة؟ فما معنى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ﴾؟ ذكرنا فيما سبق توضيح معنى البر، وكان مهماً لمعرفة العلاقة بين البر والتقوى، لأن البر في المعانى السابقة هو تقوى الله تعالى، لذلك قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾ إلى قوله: ﴿... وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾، وجاء قوله تعالى ليؤكد هذا المعنى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ﴾، وإذا فما معنى قوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾؟ خاصة وأن الأصل في العطف أنه يقتضى المغايرة، وإلا كان المعنى: وتعاونوا على البر والبر، أو التقوى والتقوى. والتوفيق أن هذه الألفاظ إذا اجتمعت افرقت في المعنى، كلفظ الإسلام والإيمان والدين، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ تعنى أن الإسلام مقصود به معنى، وهو الأفعال الظاهرة في حديث جبريل، وهى الشهاداتتان والصلاة والصيام والزكاة والحج، والإيمان

(١) رواه مسلم (٢٥٥٣)، انظر النووي «شرح صحيح مسلم»، (٨/٣٥٢).

(٢) انظر ابن رجب الحنبلى «جامع العلوم والحكم»، (٢/٩٣).

مقصود به الاعتقادات الباطنة، كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وأمّا عند الإطلاق فيشمل كل منهما الآخر، أى إذا افترقا، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾، فلا شك أن الإسلام يشمل الإيمان والإحسان، وصار الدين كذلك يشمل الإسلام والإيمان والإحسان.

وكذا لفظ البر والتقوى عند اجتماعهما، كقوله تعالى السابق: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾، فإن البر له معنى، والتقوى لها معنى على ما فصلنا في معانى البر، ومعانى التقوى. يقول الإمام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى»: «وقد قال في آية البر: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾، فجعل الأبرار هم المتقين عند الإطلاق والتجريد، وقد ميز بينهما عند الاقتران والتقييد في قوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾. وقد أشار ابن القيم إلى مثل ذلك في تفسير الآية.^(١)

ثم ندرس الآن ما لم نتعرض له في دراسة نصوص البر والتقوى التي أشرنا إليها قبل، لأننا ذكرناها في مواضعها من البحث. أول ذلك قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾، وعلى ما وضحنا من علاقة البر والتقوى يكون معنى الآية: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾، أى على معاملة الخلق بالإحسان وبالتقوى معاملة الحق سبحانه بفعل طاعته، واجتناب محرماته، ويكون قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ أن يراد بالإثم: المعاصى، وبالعدوان: ظلم الخلق، وذلك أنسب للسياق، لأنه في تأديب الله تعالى للمؤمنين في معاملتهم للكفرة، حيث أرشدهم إلى أن شأنهم للكفرة لا يمنعهم من الإحسان إليهم ليحبوا دين الله، ولا يدفعهم لظلمهم

(١) شيخ الإسلام أحمد عبد الحليم ابن تيمية «مجموع فتاوى شيخ الإسلام»، (١٨٣/٧)، وانظر ابن القيم محمد بن أبى بكر «التفسير القيم»، جمع محمد أويس النوى، تحقيق محمد حامد الفقى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (ص ٢٢٨).

لكونهم كفرة قد أذوا المسلمين وصدوهم عن المسجد الحرام، كل ذلك لا يحملهم على العدوان، بل يلزمهم الإقساط إليهم وعدم التعدى عليهم.
أما التعاون على البر والتقوى فجميل أثره، وحسن عاقبته، فقد سمعنا عنها وعشناها ذكريات.

لم تسعنى المصادر والمراجع التي تحت يدي بتفسير موسع للآية، وكأنها واضحة بما لا مزيد عليه لتفسير أو شرح، فلم تزد على تفسير معنى الإثم والعدوان والبر والتقوى، مع إشارة للتفسير المناسب للسياق أو العموم في الآية.

يقول الإمام ابن جرير شارحاً لألفاظ الآية مجملًا لتفسيرها:

«وليعن بعضكم أيها المؤمنون بعضاً على البر، وهو العمل بما أمر الله بالعمل به، والتقوى، وهو اتقاء ما أمر الله باتقائه واجتنابه من معاصيه. وقوله: ﴿وَلَا تَعَاوُنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ يعنى: ولا يعن بعضكم بعضاً على الإثم، يعنى على ترك ما أمركم الله بفعله، والعدوان». يقول: «ولا على أن تتجاوزوا ما حد الله لكم في دينكم وفرض لكم في أنفسكم وفي غيركم».

وأما مناسبة ذلك - وهو قوله: ﴿وَتَعَاوُنُوا...﴾ - للسياق، فهو على قول من قال: إن قوله ﴿وَتَعَاوُنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَلَا تَجْرِمَنَّكُمْ﴾، فيكون المعنى كما يقول العلامة أبو السعود^(١): «أى لا يكسبنكم شدة بغضكم لهم لصددهم إياكم عن المسجد الحرام اعتداءكم عليهم، وانتقامكم منهم للتشفى، ﴿وَتَعَاوُنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾، لما كان الاعتداء غالباً بطريق التظاهر والتعاون، أمروا أثر ما نهوا عنه بأن يتعاونوا على كل ما هو من باب البر

(١) العلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (٦/٢). وبمثله قال الألوسى «روح

والتقوى، ومتابعة الأمر، ومجانبة الهوى، فدخل فيه ما نحن بصده من التعاون على العفو، والإغضاء عما وقع منهم دخولاً أولاً^(١)، ثم نهوا عن التعاون في كل ما هو من مقولة الظلم والمعاصي، بقوله: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾، فاندرج فيه النهي عن التعاون على الاعتداء والانتقام.

وبتكملة النظر في الآية وجدنا النهي متأخراً عن الأمر، مع أن دفع المفسد مقدم على جلب المصالح، أو كما يقول العلامة أبو السعود: «مع تقدم التولية على التحلية، مسارعة إلى إيجاب ما هو مقصود بالذات، فإن المقصود من إيجاب ترك التعاون على الإثم والعدوان، إنما هو تحصيل التعاون على البر والتقوى»^(٢). ونلاحظ أن التعاون على البر والتقوى متضمن للنهي عن الإثم والعدوان، لأن الأمر بالشئ نهى عن ضده، فالنهي تأكيد لمضمون الجملة قبله، ومع ذلك فالاهتمام بحكم الضد يقتضي النهي عنه بخصوصه، والمقصود أنه يجب أن يصد بعضهم بعضاً عن ظلم قوم لكم نحوهم شأن، وهو أن البغض لا يقتضي ولا يكون سبباً لظلم المبغوض والاعتداء عليه، وأن تجتمع القبيلة مع بعضها في

(١) يوضح الألوسي هذا القول بأنه على قول من قال: إن قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا...﴾ استئناف، والوقف لازم على قوله: ﴿أَنْ تَعْتَدُوا﴾، لتصير الآية من جوامع الكلم، وتكون تذييلاً للكلام، ويكون هو المعنى العام في الآية، فدخل في البر والتقوى جميع مناسك الحج، فقد قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾، ويدخل العفو والإغضاء دخولاً أولاً. وإلى مثله أشار القرطبي «الجامع لأحكام القرآن» فيما نقله عن الأخفش، قال: هو مقطوع من أول الكلام، وهو أمر لجميع الخلق بالتعاون على البر، أو ليعن بعضهم بعضاً، وتحاثوا على ما أمر الله تعالى، واعملوا به، وانتهوا عما نهى الله عنه، وامتنعوا عنه، فقوله موافق لما روى عن النبي ﷺ أنه قال: «الدال على الخير كفاعله» ا.هـ، (٤٦/٣). وقد نقله د. أديب الصالح «التقوى»، (٤٦/١).

(٢) أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (٦/٢).

مواجهة الآخرين حميةً وعصبيةً مهما كان الآخرين مظلومين ومعتدى عليهم، ومهما كان أفراد القبيلة ظالمين آثمين معتدين.

ولم يفرق الإسلام كذلك في هذا المبدأ حتى مع اختلاف العقيدة والدين، بله العرق واللون والمكان، فالآية نزلت في المشركين الصادقين عن سبيل الله وعن المسجد الحرام، المقاتلين للإسلام وأهله، والذين فعلوا في المسلمين ما يندى له جبين البشرية خزيًا وأسفًا، ومع ذلك جاء الإسلام بالعدل والقسط في معاملتهم، حتى حال القدرة عليهم، ولم يرض لهم الظلم، مع أنهم البادئون به الساعون إليه.

ويجدر بنا أن ننقل كلمات الأستاذ/ سيد قطب في تفسير الآية، إذ أصاب في عمومته وجانبه الصواب في بعضه فننقل هنا ما حالفه فيه التوفيق، ونترك الآخر لتعليق الهامش. يقول - رحمه الله ^(١): «إنها قمة في ضبط النفس، وفي سماحة القلب...، ولكنها هي القمة التي لا بد أن ترقى إليها الأمة المكلفة من ربه أن تقوم على البشرية لتهدئها، وترتفع بها إلى هذا الأفق الكريم الوضيء». ثم يمضي - رحمه الله - ليصف الجاهلية، وما جاء به الإسلام من منهج رباني، وتربية استطاعت أن تروض نفوس العرب على الانقياد لهذه المشاعر، فيقول: «كانت حمية الجاهلية ونعرة العصبية.. كان التعاون على الإثم والعدوان أقرب وأرجح من التعاون على البر والتقوى، وذلك طبع في بيئة لا ترتبط بالله، ولا تستمد تقاليدها

ولا أخلاقها من منهج الله وميزان الله، يمثل ذلك كله المبدأ الجاهلي المشهور: «انصر أخاك ظالمًا أم مظلومًا» ^(٢)، وهو المبدأ الذي يعبر عنه الشاعر الجاهلي وهو

(١) سيد قطب «في ظلال القرآن»، (٢/ ٨٩٣).

(٢) هذا ما أشرنا إليه في بداية الكلام مما جانبه فيه التوفيق - رحمه الله تعالى، وليت مثل هذا

يقول:

وهل أنا إلا من غزية، إن غوت غويت، وإن ترشد غزية أرشد

ثم جاء الإسلام، جاء المنهج الرباني للتربية، جاء ليقول للذين آمنوا: ﴿وَلَا تَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝﴾، جاء ليربط القلوب بالله، وليربط موازين القيم والأخلاق بميزان الله، جاء ليخرج العرب ويخرج البشرية كلها من حمية الجاهلية ونعرة العصبية وضغط المشاعر والانفعالات الشخصية والعائلية والعشائرية في

=

الكلام الجميل لم يعكر صفوه مثل ذلك، وقد ذكره من قبل ثم أعاد الكلام عليه مرة أخرى من بعد، وكأنه - رحمه الله - فاتته - والغفلة والسهو من صفات البشرية - أن هذا حديث صحيح رواه البخاري، وانظر فتح الباري، (٩٨/٥)، باب «أعن أخاك ظالماً أو مظلوماً»، المطبعة السلفية، من كلام الرسول المعصوم ﷺ حيث قالوا: يا رسول الله، هذا نصره مظلوماً، فكيف نصره ظالماً؟ قال: تأخذ فوق يديه، وفي رواية: تحجزه عن الظلم، فإن ذلك نصره. نعم ذكر ذلك القول في الجاهلية، يقول الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»، الموضع السابق: «لطيفة: ذكر المفضل الضبي في كتابه الفاخر أن أول من قال «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» جندب بن العنبر بن عمرو بن تميم، وأراد بذلك ظاهره، وهو ما اعتادوه من حمية الجاهلية، لا على ما فسرہ النبي ﷺ وفي ذلك يقول شاعرهم:

إذا أنا لم أنصر أخى وهو ظالم على القوم لم أنصر أخى حين يظلم» ١. هـ.

ومقصودنا، حتى وإن قيل ذلك وصار مبدأ في الجاهلية، فكم من أمور الجاهلية صححها النبي ﷺ فأخذنا الصحيح هذا الذي أقره الشرع، ونبذنا ما لم يقره، فصار هذا القول من قول الرسول ﷺ بهذا التفسير الرائع، بل ويصح أن يكون تفسيراً جميلاً للآية، لا كما أبواه الأستاذ على معنى الجاهلية، فيتعاون الناس على نصر المظلوم، وكف الظالم، ولو كان أخاهم، ففي ذلك نصره، وهو من التعاون على البر والتقوى، وترك التعاون على الإثم والعدوان.

مجال التعامل مع الأعداء والأصدقاء».

ونعود لاستكمال النظر في الآية، حيث فصل بعض أهل العلم شيئاً من التعاون الذي يجب بين الناس، فنقل القرطبي عن ابن خويز مناد قوله: «والتعاون على البر والتقوى يكون بوجوه: فواجب على العالم أن يعين الناس بعلمه فيعلمهم، ويعينهم الغنى بماله، والشجاع بشجاعته في سبيل الله، وأن يكون المسلمون متظاهرين كاليد الواحدة: «المؤمنون تتكافؤ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم»^(١)، ويجب الإعراض عن المعتدى، وترك النصرة له، وردّه عما هو عليه».

وهذا كالمقدمة لما ذكره علماء الحديث في باب التعاون على البر والتقوى، ومنهم الإمام النووي^(٢)، حيث ذكروا من أحاديث النبي ﷺ ما يوضح شيئاً من هذا التعاون يكون نبراساً لبقية أنواع التعاون، وفي نفس الوقت تبين جزاء هذا التعاون وعظيم ثوابه عن الله - جل وعلا. فالحديث الأول عن الجهاد يبين أن المعين للمجاهد الغازي على الجهاد أن له أجر الغزو، مع أنه لم يغز، يقول رسول الله ﷺ: «من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازياً في أهله بخير فقد غزا»^(٣)، وفي رواية لابن حبان: «كتب له مثل أجره لا ينقص من أجره شيء».

(١) رواه أبو داود سليمان بن الأشعث، تعليق محمد محي الدين عبد الحميد، دار إحياء السنة النبوية، (٢٧٥١). وابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة العلمية، بيروت، (٢٦٨٣).

(٢) أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، ت ٦٧٦هـ، في كتابه «رياض الصالحين» مع شرحه دليل الفالحين، للإمام محمد بن علان الصديقي، ت ١٠٥٧هـ، دار الريان للتراث، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، (٤٥٥/١) وما بعدها.

(٣) متفق عليه، من رواية زيد بن خالد الجهني. رواه البخاري (٢٨٤٣)، وانظر ابن حجر العسقلاني «فتح الباري»، (٤٩/٦). ورواه مسلم (١٨٩٥)، وانظر النووي «شرح صحيح مسلم»، (٤٦/٧).

بل إن من خلف غازياً في أهله بخير، من قضاء حاجة لهم أو إنفاق عليهم أو ذب عنهم أو مساعدتهم في أمرهم، كان غازياً هو الآخر، له أجرهن لا ينقص من أجره شيء، وإن كان عظم الثواب يختلف باختلاف الجهاز والنفقة والقيام على مصلحة أهل الغازى قلة وكثرة.

إن التعاون على البر والتقوى وجزيل الثواب عليه جعل ثواب المجهز والمتخلف في أهل الغازى بخير ثواب، من عرض نفسه للموت، وتحمل مشقة السير، وكابد متاعب القتال والمواجهة.

والحديث الثانى في الحج، عن ابن عباس - رضى الله عنهما: أن رسول الله ﷺ لقي ركباً بالروحاء، فقال: من القوم؟ قالوا: المسلمون، فقالوا: من أنت؟ قال رسول الله ﷺ: فرفعت إليه امرأة صبياً، فقالت: ألهذا حج؟ قال: نعم ولك أجر.^(١)

فإذا كان الحديث الأول في الجهاد يبين التعاون على البر والتقوى، فهذا في الحج يبين كذلك قيمة التعاون على طاعة الله تعالى، حتى ولو كان المتعاون معه المحمول على ذلك صبياً صغيراً غير مكلف، فما بالك لو كان مكلفاً، وكذلك لو التعاون فيما هو أخص من هذا الأمر، مما يلزمه ويخصه مباشرة. وهذا يوضح ثواب التعاون على الطاعة، وأهمية أن يقوم الناس بإعانة بعضهم بعضاً على القيام بمثل هذه القربات والتقرب إلى الله تعالى بالإعانة على جميع الطاعات، وأن في كل أجر لا ينقص به أجر الآخر.

والثالث عن أبى موسى الأشعرى ؓ عن النبى ﷺ أنه قال: «الخازن المسلم الأمين، الذي ينفذ ما أمر به فيعطيه كاملاً موفراً طيبةً به نفسه، فيدفعه إلى الذي

(١) رواه مسلم في الحج (١٣٣٦)، وانظر النووى «شرح صحيح مسلم»، (١٠٩/٥).
الروحاء: محل بقرب المدينة، انظر الصديقى الشافعى «دليل الفالحين»، (١/٤٥٦).

أمر له به، أحد المتصدقين»^(١).

فإذا كان الحديث الأول فيمن يعين على الجهاد، والثاني على الحج، فهذا في الخازن الأمين كيف جعله رسول الله ﷺ بتعاونه أحد المتصدقين، فإذا ما أخرج ما أمر بإعطائه من المال على النحو الذي ذكره النبي ﷺ كان متصدقاً مع أنه ليس بهاله، ونلاحظ قول الرسول ﷺ: «فيعطيه كاملاً موفراً» تأكيد بعد تأكيد لما غلب على الخزان من بخلهم ببال غيرهم، أما قوله «طيبة بها نفسه» أى بغير حسد للآخذ على ما أخذ، وهو ليس ماله حتى تطيب أو لا تطيب بها نفسه، ومع ذلك أشار إليه لغلبة الحسد على إعطائهم المال لغيرهم، أو لعبوسهم وتقطيب وجوههم بما يكدر خاطر المعطى، فانظر كيف عظم أجرهم. وفي هذا توصية من النبي ﷺ لأمثال هؤلاء في كل زمان ومكان، لإحسان معاملتهم ظاهراً وباطناً لكل مسلم له تحت أيديهم مصلحة يثابون على قضائها هذا الثواب العظيم.

ونختم بقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى﴾، وسياق هذه الآية الكريمة هو: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى﴾، فكما ذكر سبحانه وتعالى في آية البر: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ...﴾، فهكذا هنا ليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها، ولكن البر في تقوى الله تعالى. وقد ذكر أن الأنصار في الجاهلية كانوا إذا رجعوا من الحج دخلوا بيوتهم من ظهورها، فرجع أحدهم فدخل من بابه، فكانه عيّر بذلك، فنزلت الآية الكريمة لترشدهم أن البر ليس في اتیان البيوت من ظهورها، ليس في ذلك بر، كما أنه التوجه في ذاته إلى المشرق والمغرب ليس فيه

(١) متفق عليه. رواه البخارى (١٤٣٨)، وانظر ابن حجر العسقلانى «فتح البارى»،

(٣/٣٠٢). ورواه مسلم (١٠٢٣)، وانظر النووى «شرح صحيح مسلم»،

(٤/١٢٠).

بر، وأخبرهم أن البر في تقوى الله تعالى، ونهاهم ثم عن تلك العادة من عادات الجاهلية، وهى آتيان البيوت من ظهورها، وأنها ليست من علامات الفلاح، ولا العمل الصالح، فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١).

وقد ذكر الزمخشري في «الكشاف» أن هذه الآية تحتل أن تكون تمثيلاً لتعكيسهم في السؤال وهو قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ﴾ وأن مثلهم كمثل من يترك باب البيت ويدخله من ظهره، والبر من اتقى ذلك، ومباشرة الأمور من وجوهها، والمراد توطين النفوس وربط القلوب على أن جميع أفعاله حكمه وصواب من غير اختلاج تردد أو شك.^(٢)

وإذا قلنا: إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فلا مانع أن يزداد هذا المعنى على التفسير السابق للآية، فتشمل الآية الكريمة هذا وذاك، خاصة وقد صار هذا التذليل مثلاً، وهو قوله: ﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾.

والموضع التالى هو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ءَاعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]:

فإذا كان الله تعالى أهل التقوى، والداعى إليها رسول الله ﷺ وأتباعه بإحسان، ولها كلمتها وهدايا، فإن هذه الآية الكريمة تبين لنا طريقاً هو أقرب للتقوى، ومكاناً ينزل فيه المرء بجوارها أو يحل عندها، ألا وهو العدل مع القريب والبعيد والعدو والصديق، مع المسلم والكافر، ترفعاً عن نزعات الميل والهوى لجنس أو عرق أو دين، وتخلصاً كذلك من رغبات النفس ضد

(١) انظر ابن جرير الطبرى «جامع البيان»، (٢/١٠٨). وانظر ابن كثير «تفسير القرآن

العظيم»، (١/٢٢٥). والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢/١٨٩).

(٢) انظر جار الله الزمخشري «الكشاف»، (١/١١٧-١١٨).

المكروهين والمبغوضين إلى أفق العدل والحق والقسط. إنه منهج الله - سبحانه وتعالى - الحامل للنفس البشرية على الضبط وفق معايير الحق والخير الخاضع لسلطان الله تعالى وحده، الذي يجعل تلك القلوب حية تستشعر خوف الله ومراقبته والخشية له الباعثة على السلوك السوى والخلق الرشيد والعمل الصالح، مهما يكن فيها من مشقة وجهاد.

وإذا كانت الآية الكريمة السابقة قد نهى الله تعالى فيها المؤمنين أن يحملهم الشنآن لمن صدوهم عن المسجد الحرام على الاعتداء، وكانت الغاية في ضبط النفس والسماحة، يرفعهم الله إليها بمنهجه التربوي القويم، فهاهم أولاء ينهون أن يحملهم الشنآن على أن يميلوا عن العدل، يقول الأستاذ/ سيد قطب^(١): «وهي قمة أعلى مرتقى وأصعب على النفس وأشق، فهي مرحلة وراء عدم الاعتداء، والوقوف عنده تتجاوزه إلى إقامة العدل مع الشعور بالكره والبغض. إن التكليف الأول أيسر لأنه إجراء سلبي ينتهي عند الكف عن الاعتداء. فأما التكليف الثاني فأشق لأنه إجراء إيجابي يحمل النفس على مباشرة العدل والقسط مع المبغوضين المشنئين».

كل ذلك يحدث وينبغي أن يحدث لعلة واحدة، هي أن ذلك أقرب للتقوى، أقرب لما يحب الله - جل وعلا، يقول الإمام الفخر الرازي، في قوله: ﴿أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾: «فنهاهم أولاً عن أن يحملهم البغضاء على ترك العدل، ثم استأنف فصرح لهم بالأمر بالعدل تأكيداً وتشديداً، ثم ذكر لهم علة الأمر بالعدل، وهو قوله تعالى: ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾»^(٢).

(١) انظر سيد قطب «في ظلال القرآن»، (٢/ ٨٥٣).

(٢) الفخر الرازي «التفسير الكبير»، (٥/ ٦٢٠). وهو قول معظم المفسرين من قبل، انظر الزخشري «الكشاف»، (١/ ٣٢٦-٣٢٧)، والبيضاوي، (٢/ ٣٠١)، والنسفي،

ويكمل الإمام فيقول:

«وفيه وجهان - أى معنى التقوى هنا: الأول: هو أقرب إلى الالتقاء من معاصي الله تعالى. والثانى: هو أقرب إلى الالتقاء من عذاب الله». ^(١)

(١/٢١٣)، وأبا حيان «البحر المحيط»، (٤/١٩٦). والألوسى «روح المعانى»،
جلد ٤، (٥/١٢٣).

يقول العلامة الألوسى في تفسير الآية: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾ أى كثيرى القيام له بحقوقه اللازمة، وقيل: أى ليكن من عادتكم القيام بالحق في أنفسكم بالعمل الصالح، وفي غيركم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ابتغاء مرضاة الله تعالى، ﴿شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ أى بالعدل، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ أى لا يحملنكم، ﴿شَتَانُ قَوْمٍ﴾ أى شدة بغضكم لهم، ﴿عَلَىٰ آلَا تَعْدِلُوا﴾: فلا تشهدوا في حقوقهم بالعدل، أو فتعدوا عليهم بارتكاب ما لا يحل، ﴿أَعْدِلُوا﴾ أيها المؤمنون في أوليائكم وأعدائكم. ﴿هُوَ﴾ راجع إلى العدل، ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أى أدخل في مناسبتها... إلخ.

(١) الرازى «التفسير الكبير»، (٥/٦٢١).

وأفعل التفضيل هنا على غير بابه، إذ لا يشترك العدل مع الجور في قريهما من التقوى، ولكن العدل أقرب، بل ذلك كقوله: ﴿ءَاللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، إذ ليس فيما يشركون خير حتى تعقد المقارنة، يقول الإمام ابن كثير: «وقوله ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ من باب استعمال أفعل التفضيل في المحل الذي ليس في الجانب الآخر منه شيء، كما في قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾، الإمام ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٢/٣٠-٣١). وتكلف الراغب الأصفهاني - على حد تعبير العلامة الألوسى - في توجيه الآية فقال: فإن قيل: ذكر - سبحانه - ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ وأفعل إنما يقال لشئين اشتركا... إلخ؟ قيل: إن أفعل وإن كان كما ذكرت، فقد يستعمل على تقدير بناء الكلام على اعتقاد المخاطب في الشيء في نفسه، قطعاً لكلامه وإظهاراً لتبكيته، فيقال لمن اعتقد مثلاً في زيد فضلاً وإن لم يكن فيه فضل ولكن لا يمكنه أن ينكر أن عمرأ أفضل منه: اخدم عمرأ فإنه أفضل من زيد، وعلى ذلك جاء قوله تعالى: ﴿ءَاللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. «روح المعانى»، (٥/١٢٢-١٢٣).

والحق أن حذف معمول التقوى هنا يجعلها تشمل كل معاني التقوى، أى التقوى الشاملة، التي لا يشذ معها شئ من الخير، وذلك أن العدل هو ملاك كبح النفس عن الشهوة، وذلك ملاك التقوى.^(١)

وهذا يبين لنا أهمية التقوى وقيمتها ودرجتها عند الله، ومدى محبة الله تعالى للمتقين، حيث فرض على النفس هذا التكليف الشاق، وهذا المبدأ الصعب، ولكن يهون على النفس وتتقبله راضية إذا كان في ذلك ما يحب الله من تقوى ويرضى، وما تستقيم به أمور الدنيا.

ولما كان الأمر بالعدل يمكن أن تتلملل منه النفس، وتتردد في القيام به، جاءت بداية الآية بهذا النداء المحب للنفس المثير فيها لكوامن الطاعة: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، ليحملهم على المسارعة لما يتلوه من الأوامر والنواهي، إذ من دواعى الإيمان وأهم سماته وعلاماته المبادرة لامثال تعاليم الشرع وتوجيهاته، والانصياع التام لأحكامه وتشريعاته.

ثم جاء الأمر بالقيام لله تعالى، وهو كذلك حث على الانقياد لتكاليف الله تعالى، متصل بما قبله من الحث في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَقَهُ الَّذِي وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.^(٢)

وقد رأينا كيف جاء الأمر بالقيام بصيغة المبالغة، لأن من قام مرة أو مرتين لا يعد قواماً لله تعالى، وكذلك لأن كثرة القيام لله تعالى لا تترك مجالاً للقيام لغيره بوجه ما للجور أو للظلم، أو لأية مخالفة للأمر، حتى يكون المرء في قيامه مثلاً

(١) انظر العلامة ابن عاشور «التحرير والتنوير»، (٦/ ١٣٦).

(٢) ومعنى القيام لله هو أن يقوم لله بالحق في كل ما يلزمه القيام به من إظهار العبودية وتعظيم الربوبية.

للتقوى الكاملة لله - جل وعلا - التي يجاهد المرء أن يصل إليها من كل جهة لرضا الله - سبحانه.

وفي الآية تنبيه على أنه - سبحانه - إذا أمر المؤمنين بأن لا يحملهم بغضهم وعداوتهم لأعدائهم وأعدائه على ترك العدل معهم، وأن ذلك أقرب للتقوى، فمن باب الأولى العدل مع المؤمنين وهم أولياؤه وأحباؤه. ترى العدل معهم يصل بالمرء إلى أية درجات التقوى؟^(١)

ثم ختم القرآن الكريم الآية بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، فإذا كان العدل أقرب للتقوى، فإن التقوى هي المطلوب الأصلي والهدف المنشود، ومن ثم أمر بها مرة أخرى، اعتناءً بشأنها، وتنبيهاً على أنها ملاك الأمر كله.^(٢)

ويحتمل الأمر بالتقوى هنا كذلك ما ذهب إليه الإمام ابن جرير الطبري، من كونها أمراً بالخوف من الله في عدم تطبيق ما سبق من أوامر، مع التنبيه على أن الله خير بذلك، وأنه لا يخرج عن علمه ما يصنعون فيجزئهم به، يقول - رحمه الله: «واحدروا أيها المؤمنون أن تجوروا في عبادته، فتجاوزوا فيهم حكمه وقضاه الذي بين لكم، فيحل لكم عقوبته وتستوجبوا أليم نكاله، إن الله خير بما تعملون، أي ذو خبرة وعلم بما تعلمون أيها المؤمنون فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه، من عمل به أو خلاف له، محض ذلكم عليكم كله، حتى يجازيكم به

(١) راجع الزمخشري «الكشاف»، (١/٣٢٦-٣٢٧). والبيضاوي، (٢/٣٠٣). والرازي «التفسير الكبير»، (٥/٦١٩). وأبا حيان «البحر المحيط»، (٤/١٩٦). وأبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (٢/١٣).

(٢) انظر أبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (٢/١٤). والألوسي «روح المعاني»، (٥/١٢٣).

التقوى في القرآن الكريم

جزاءكم، المحسن منكم بإحسانه، والمسيء بإساءته، فاتقوا أن تسيئوا». وأبو حيان الأندلسي له نظرة أخرى فاحصة ولطيفة في الخاتمة الكريمة للآية، فيقول - رحمه الله ^(١): «لما كان الشنآن محله القلب، وهو الحامل على ترك العدل، أمر بالتقوى، وأتى بصفة ﴿حَبِيرٌ﴾ ومعناها: عليم، ولكنها تختص بما لطف إداركه، فناسب هذه الصفة أن ينبه بها على الصفة القلبية» ^(٢). أى من كون اطلاع الحق على خفايا الصدور، فتجعل المرء مراقباً لربه، يصدر فعله عن هذه المراقبة، مقروناً بالتقوى الباعث على مراعاة الأمر. ونختتم بأن الحق - سبحانه - أظهر الاسم المعظم في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ لما مر، إدخالاً للروعة في النفس، وإثارة للمهابة، وتأكيداً على استقلال الجملة.

وأما الموضع التالى فهو قوله تعالى: ﴿وَإِنْ ظَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٧]:

وإذا كانت آية العدل تبين لنا منزلاً ينزله المرء فيكون قريباً من التقوى التي يحب الله ورسوله ﷺ، فهذه الآية الكريمة تبين لنا المنزل الثانى الذي ينزله المرء فيكون كذلك أقرب للتقوى، وهو العفو. وهو من المفارقات العجيبة في أسلوب القرآن الكريم المعجز، أن يكون العدل والعفو أقرب للتقوى، وهما ليسا في كفة واحدة من أوامر الشرع، إذ العدل واجب والعفو مستحب وفضل، ولكن إذا علمنا مقابل العفو، وهو الذي يشاركه في التقوى، ولكن العفو أقرب منه لها،

(١) انظر ابن جرير «جامع البيان»، مجلد ٤، (٦ / ٩١).

(٢) انظر أبا حيان «البحر المحيط»، (٤ / ١٩٦).

تبيت لنا هذه المفارقة، فمقابل العفو التمسك بالحق، وهو لا ينافي التقوى، ومن ثم كان العفو أقرب منه لها.

أما العدل فلا يدخل معه في التفصيل شيء، إذ ليس هناك إلا الجور والظلم، فصار أفعال التفصيل هنا على غير بابها كما بينا، من ثم كان العدل قائماً برأسه في كونه هو الأقرب من التقوى.

ولتوضيح ذلك نعود إلى تفسير الآية الكريمة^(١)، والذي ملخصه أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها، وقد فرض لها صداق، فلها نصف هذا الصداق، جبراً لكسرهما. واستثنى ما هو أقرب للتقوى - وهو على الأصح من أقوال أهل العلم^(٢) - أن تعفو المرأة عن نصفها المقدر لها من الصداق، أو يعفو الزوج عن نصف المهر الآخر، حيث في الغالب ما يسلم الزوج المهر كاملاً. ثم ندهم إلى عدم نسيان هذا التفضل من كل منهما على الآخر، وترك التقصى، والمسامحة، لما كان بينهما من الوصلة التي لا تشبهها وصلة، والتي تدعو رعايتها إلى التسامح. ثم ختم بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، كأنه ترغيب للمحسن، وترهيب

(١) وانظر ابن جرير الطبري «جامع البيان»، مجلد ٢، (٢/٣٤٠)، وعلى هامشه تفسير النيسابوري، (ص ٣٨٢). وأبا حيان «البحر المحيط»، (٢/٥٣٩). وابن عطية «المحرر الوجيز»، (١/٣٢٠) وما بعدها. والنسفي «مدارك التنزيل وحقائق التأويل»، (١/٩٥). وأبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (١/٢٧٤). والبيضاوي «أنوار التنزيل وأسرار التأويل»، (١/٥٣٥). والرازي «التفسير الكبير»، (٣/٤٥٠). والقرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، مجلد ٢، (٣/٢٠٨). والزنجشري «الكشاف»، (١/١٤٦). وابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (١/٢٨٩). والألوسي «روح البيان»، (٢/٢٣٣-٢٣٤). وابن الجوزي «زاد المسير»، (١/٢٨١).

(٢) وقد أشار صديق خان إلى هذا الأصح في «فتح البيان»، (١/٢٩٣) وما بعدها، بعد ذكر الأقوال وأصحابها.

لغيره، فهو بصير بما عمل كل منكم فيجزيه به.

ونلاحظ أن القرآن الكريم يلاحق هذه القلوب كي تصفو وترف وتخلو من كل شائبة باستجاشة شعور التقوى، ويلاحقها باستجاشة شعور السباحة والتفضل، ويلاحقها باستجاشة شعور مراقبة الله، ليسود التجميل والتفضل هذه العلاقة ناجحة كانت أم خائبة، ولتبقى القلوب نقية خالصة صافية، موصولة بالله في كل حال.^(١)

وليس ثم خلق حميد وسلوك رشيد يحمل المرء على هذه التصرفات الحسنة، إلا تقوى الله - جل وعلا، فالمتقون أهل لأن يبادروا إلى امتثال ذلك، لتسود هذه المعاني النبيلة في مجتمع أهل الإيمان، فلا ترى مكاناً حينئذ لحقد وانتقام، مما نسمع عنه ونقرأ هذه الأيام بين الأزواج وزوجاتهم، ابتداءً بالمحاكم، وانتهاءً بالتطبيع إرباً إرباً في أجولة تلقى في المصارف والترع أو على قوارع الطرق، مما ينهى به الأزواج والزوجات هذه العلاقة، بل حياة الآخر منهما على هذه النحو المفزع البائس، بغير شفقة كانت أو رحمة تكون. وليتأمل المرء سمو الإسلام ونظراته الحانية لما يجب أن تكون عليه الحياة، فاشلة كانت أو ناجحة، وما في اتباع تعاليمه من السعادة في الدنيا والآخرة.

يقول العلامة الطاهر بن عاشور: «ومعنى العفو أقرب للتقوى: أن العفو أقرب إلى صفة التقوى من التمسك بالحق، لأن التمسك بالحق لا ينافي التقوى، لكنه يؤذن بتصلب صاحبه وشدته، والعفو يؤذن بسماحة صاحبه ورحمته، والقلب المطبوع على السماحة والرحمة أقرب إلى التقوى من القلب الصلب الشديد، لأن التقوى تقرب بمقدار قوة الوازع، والوازع شرعى وطبيعى، وفي القلب المفطور على الرأفة والسماحة لين يزغه عن المظالم والقسوة، فتكون

(١) انظر سيد قطب «في ظلال القرآن»، (١/٢٥٧).

التقوى أقرب إليه لكثرة أسبابها فيه»^(١).

وقد لاحظنا أن القرآن الكريم لم يذكر إلا العدل والعفو في كونها أقرب للتقوى، وقد رأينا فيما مر معنى ذلك في العفو، ولعل العدل - والله أعلم - لم يذكر مقروناً بالتقوى ذاتها، بل بالقرب منها، لأن في الفضل - وهو فوق العدل - مجالاً واسعاً يكون المرء به من المتقين، فما بالك لو زادهم فوق عدله من كرمه تفضلاً، وقد سمعنا أمثلة مثل ذلك من فعله الشريف ﷺ، فقد ذكر القاضي عياض في «الشفاء»^(٢) أمثلة عديدة، منها:

عن أنس رضي الله عنه: كنت مع النبي ﷺ وعليه برد غليظ الحاشية، فجبذه أعرابي بردائه جبذة شديدة، حتى أثرت حاشية البرد في صفحة عاتقه، ثم قال: يا محمد، احمل لي على بعيرى هذين من مال الله الذي عندك، فإنك لا تحمل لي من مالك ولا مال أبيك، فسكت النبي ﷺ ثم قال: «المال مال الله، وأنا عبده»، ثم قال: «ويقاد منك يا أعرابي ما فعلت بي؟»، قال: لا، قال: «لم؟!»، قال: لأنك لا تكافئ بالسيئة السيئة، فضحك النبي ﷺ ثم أمر بأن يحمل له على بعير شعير وعلى الآخر تمر.

فرأينا في الحديث الشريف عدله وفضله ﷺ، وكيف لم يحمله ظلم الأعرابي له ﷺ على أن يعامله بالمثل، بل زاد فوق العدل التفضل.

وهكذا رأينا تلك الجوانب المضيئة للتقوى، التي تجعل الفرد المسلم والمجتمع الإسلامى أرقى وأغز المجتمعات التي يعيش في رباها المرء مطمئناً، يشعر بالرضا والسكينة، يفيض عليه السلام النفسى من جراء تلك المودة

(١) انظر ابن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢/٤٠٤).

(٢) انظر الملا على «شرح الشفاء بتعريف حقوق المصطفى»، دار الكتب العلمية، بيروت، (١/٢٤٣).

والرحمة والتعاطف، فضلاً عما ينتظره في الآخرة من رضوان الله تعالى وحسن مشوبته.

والموضع التالى هو قوله تعالى:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَتَنَجَّجُوا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرُّسُولِ وَتَنَجَّجُوا بِالْبَرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المجادلة: ٩]:

وفى سيرنا لاستكمال صورة التقوى نصل إلى النجوى، حيث أمر تعالى بأن يكون تناجى المؤمنين فيما بينهم بالبر والتقوى، فإذا كانت التقوى لها كلمتها التى ينبغى أن تقال نطقاً، وأن تمثل سلوكاً، فإنه كذلك ينبغى أن يكون تناجيهم، أى كلامهم المخصوص الذى يتسارون به بينهم ويخفونه عن غيرهم، لا بد أن يكون كذلك، وهذا أدب إسلامى رفيع أن يكون سر المرء وعلايته براً وتقوى، خاصة إذا كان هذا التناجى يمكن أن يكون سبباً لوقوع الريب والشك فى قلب غيره، فيقع بين المؤمنين بسبب ذلك سوء الظن المؤدى إلى التجسس المنهى عنه، وإلى وقوع البغضاء والشقاق، لتحل محل الألفة والمحبة والاجتماع، بل إن من آداب الإسلام العليا المحافظة على قلب المؤمن، وألا يصدر من أحد ما يكون سبباً لحزن أخيه وتألمه، حفظاً لشعوره ومراعاةً لنفسيته، وفى ذلك يقول رسول الله ﷺ: ^(١) «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس، من أجل أن ذلك يحزنه»، فإن ذلك يحزنه، فحفظ الإسلام حق الإنسان بهذا الإعلان الخالد، ناهيك عن شتمه وسبه والسخرية به وضربه وسجنه وتعذيبه وقتله، فإن ذلك يحزنه فلا تفعله، وإن لم يتعلق به حق، إذ ما علاقته باثنين يتناجيان ولكل

(١) رواه البخارى (٦٢٩٠)، وانظر ابن حجر العسقلانى «فتح البارى»، (١١/ ٨٢-٨٣).
ورواه مسلم (٢١٨٤)، وانظر النووى «شرح صحيح مسلم»، (٧/ ٤٢٣).

حريته، لا إن كان ذلك يحزنه، هو أخوك، حريته موقوفة عند حزنه، إن وصلت إليه. ثم انظر إلى ما في ذلك من السلام، إذ كل أحد آمن الجانب من أخيه لا ينتظر منه أدنى الشر ولا يتوقعه. وتخيل مجتمعاً قد ترك كل واحد انشغاله بغيره، ففترغوا لهدف واحد، توجهت إليه جهودهم، وتوحدت عليه مقاصدهم، وتألفت عليه قلوبهم، وهو كيف يترقى هذا المجتمع وينمو ويقوى ويعز، ويصير مرهوب الجانب، مسموع الصوت، صامداً لأعنى قوة كالبنيان المرصوص.

ونعود إلى الآية الكريمة، نستوضح معانيها، حيث بدأت بالخطاب للمؤمنين: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، وهل هو للمؤمنين الخالص، أو للمنافقين الذين آمنوا في الظاهر؟ فإن حملنا ما تقدم من الخطاب في الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ هُوَ عَنِ النَّجْوَى...﴾ على اليهود والمنافقين، كان الخطاب هنا لأهل الإيثار ألا يسلكوا مسلكهم، ونهياً لهم ألا يقتفوا طريقهم طريق الشيطان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ﴾. وإن حملنا الخطاب السابق على اليهود فقط، جاز أن يكون الخاطب هنا للمنافقين الذين آمنوا بألستهم ولم تؤمن قلوبهم.^(١)

وإن كان الأولى أن يكون الخطاب للمؤمنين، إذ ذلك المعهود من خطاب القرآن الكريم، وكذلك لما سبق في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ هُوَ عَنِ النَّجْوَى﴾، وهو عام لكل من نهى عن ذلك، فشمّل اليهود والمنافقين، فلم يبق إلا أن يكون

(١) انظر الرازي «التفسير الكبير»، (٤٤٧/١٥). والألوسي «روح المعاني»، مجلد ١٥،

(٣٨/٢). والطاهر بن عاشور «النحرير والتنوير»، (٣٢/٢٨). وابن الجوزي «زاد

المسير»، (٨/١٩٠). والقرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، مجلد ٩، (١٧/٢٩٤).

ورجح صاحب التحرير أن الخطاب للمنافقين، وذكر أدلته، انظر (٣٢/٢٨). ولكن المذكور هو اختيار الباحث.

ذلك خطاباً للمؤمنين.

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ﴿١﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴿٢﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ أَهْدَىٰ ﴿٣﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [العلق: ٩-١٢]:

هذا هو الموضوع التالى من مواضع التقوى. فبعد أن رأينا الموضوع الأول - وهو أن الله ﷻ أهل التقوى - رأينا هنا النبى ﷺ هو الأمر بها المبلغ عن الله - سبحانه وتعالى، ولما كان - صلوات الله وسلامه عليه - إمام المتقين، لا جرم كان إمام الأمرين بها والداعين إليها، وهى سنة الأنبياء وطريقتهم جميعاً فى دعوة أقوامهم إلى الله تعالى، كما فى قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا رَسُولَهُ ﴿١٨﴾ ﴾ [الشعراء: ١٠٦-١٠٨] وهكذا سار على هذا الدرب جميع الأنبياء من توصية أقوامهم وأمرهم بتقوى الله تعالى، وإذا كان الأنبياء قد واجهوا من قومهم الإيذاء والعنت والمشقة فقد واجه ﷻ أعظم المشقة فى دعوة قومه إلى تقوى الله تعالى. والآية من الآيات التى تخبر بشيء مما وقع له ﷻ مع قومه. قال الألوسى فى «روح المعانى»: «لم يختلف المفسرون كما قال ابن عطية فى أن العبد المصلى هو رسول الله ﷻ، والناهى هو اللعين أبو جهل»، فقد أخرج أحمد ومسلم والنسائى وغيرهم عن أبى هريرة ؓ أن أبا جهل حلف باللات والعزى لئن رأى رسول الله ﷻ يصلى ليطأن على رقبته وليعفرن وجهه، فأتى رسول الله ﷻ وهو يصلى ليفعل، فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبه ويتقى بيديه، فقيل له: مالك؟ فقال: إن بينى وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة، فقال رسول الله ﷻ: «لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضواً عضواً». وفى بعض الأخبار ما ظاهره أنه حصل منه نهى لفظى^(١)، فقد أخرج أحمد والترمذى وصححه وغيرهما عن ابن عباس قال: كان النبى ﷻ

يصلى، فجاء أبو جهل فقال: ألم أنك عن هذا؟.. الحديث.

ولننظر في تحليل الآيات:

قوله: ﴿أَرَأَيْتَ﴾: كلمة تعجيب من حال، يقال للذي يعلم أنه رأى حالاً عجيبة. واستعمل الاستفهام فيها لأن الحالة العجيبة من شأنها أن يستفهم عن وقوعها استفهام تحقيق وتثبيت لنبتها إذ لا يكاد يُصدَّق به. والرؤية هنا علمية، والمعنى أعجب ما حصل لك من العلم قال الذي ينهى عبداً إذا صلى. والمنهى عنه محذوف يغنى عنه تعليق الظرف بفعل ﴿يَنْهَى﴾، أى ينهاه عن صلاته. وأتى بصيغة المضارع في قوله ﴿يَنْهَى﴾ لاستحضار الحالة العجيبة، كأنها تقع الآن، وإلا فإن نهييه قد مضى.^(١) ولمعنى آخر وهو أن هذه الحالة عجيبة في كل زمان يمكن أن تقع، لذا فهي مذمومة تستدعى التشنيع والتبكيك في كل وقت، لكل طاغية ينهى عباد الله عن الصلاة. والأمر بتقوى الله، لذا رأينا كلمة ﴿أَرَأَيْتَ﴾ هنا متوجهة إلى غير معين كأنها لكل أحد له تمييز في كل آن ومكان.

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٤٤٦/٣٠-٤٤٧). والفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٥٢٠/١٦).

وقد ذكر في التحرير فائدة العدول عن التعبير بضمير الخطاب (ينهاك) إلى (ينهى عبداً)، فقال: «لأن التعجب من نفس النهى عن الصلاة بقطع النظر عن خصوصية المصلى». وقد ذكر الإمام الرازى في «التفسير الكبير» فوائد ملخصها أن التنكير في (عبداً) يدل على كونه كاملاً في العبودية، وثانيها أن هذا أبلغ في الذم، لأن المعنى أن هذا دأبه وعادته، فينهى كل من يرى، وثالثها أن هذا تخويف لكل من نهى عن الصلاة. ورد أن على ﷺ رأى أقواماً يصلون قبل العيد، فقال: ما رأيت رسول الله ﷺ يفعل ذلك، فقل: ألا تنهاهم؟ فقال: أخشى أن أدخل تحت قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ① عَبْدًا إِذَا صَلَّى ②﴾. وأخذ هذا الأدب أبو حنيفة ③. ورابعها: أیظن أبو جهل إذا لم يسجد لى محمد ④ ألا يسجد لى غيره. وخامسها: تفخيم شأن النبى ﷺ كأنه مع التنكير معرف. راجع (ص ٥١٨-٥١٩) لتفصيله.

يقول الأستاذ/ سيد قطب: «والتشنيع والتعجيب واضح في طريقة التعبير، التي تتعذر مجاراتها في لغة الكتابة، ولا تؤدي إلا في أسلوب الخطاب الحي، الذي يعبر باللمسات المتقطعة في خفة وسرعة! ﴿أَرَأَيْتَ﴾؟ رأيت هذا الأمر المستنكر؟ رأيت يقع؟ ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى﴾ ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ ﴿؟﴾»^(١)

ولقد ذكرنا هذه المقدمة لأن قوله: ﴿إِذَا صَلَّى﴾ مرتبط بقوله: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى﴾ ﴿أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى﴾ ﴿؟﴾، كأن الصلاة هي كون المرء على الهدى آمراً بالتقوى، وقد أشار إلى ذلك الفخر الرازي، حيث أوردها على صيغة سؤال مفاده أن المذكور في أول الآية هو الصلاة، والهدى في فعل الصلاة، فلم أضاف إليها شيئاً ثانياً وهو قوله تعالى: ﴿أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى﴾ ﴿؟﴾، وأجاب - رحمه الله - بثلاثة أوجه، نذكر منها وجهاً واحداً، وهو:

«أنه عليه السلام كان في صلاته على الهدى وآمراً بالتقوى، لأن كل من رآه وهو في الصلاة كان يرق قلبه فيميل إلى الإيمان، فكان فعل الصلاة دعوة بلسان الفعل، وهو أقوى من الدعوة بلسان القول»^(٢).

عدنا إذاً إلى قوله: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى﴾ ﴿أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى﴾ ﴿؟﴾ مرتبطاً بالآية قبلها، وقد اخترنا أنه النبي ﷺ^(٣)، والمعنى تعجيب آخر، أي:

(١) سيد قطب «في ظلال القرآن»، (٦/).

(٢) ذكر الرازي في «التفسير الكبير» وجهين آخرين، وإلى مثل ذلك أشار في «روح المعاني»، (٣٣٢-٣٣٣)، فقال: «وكان الظاهر عليه أن يذكر في الجملة الأولى أيضاً أن يقال: رأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى أو أمر بالتقوى، لكنه حذف اكتفاء بذكره في الثانية، واقتصر على ذكر الصلاة ولم يعكس، لأن الأمر بالتقوى دعوة قولية والصلاة دعوة فعلية، والفعل أقوى من القول... إلخ».

(٣) والآية محتملة لتفسير ثانٍ، انظر الألوسي «روح المعاني»، (٣٣/١٦)، وأبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (٨٨٧/٥)، والبيضاوي «أسرار التنزيل»، (٥١١/٥)، والرازي «التفسير الكبير»، (٥٢٠/١٦).

أرأيت إن كان العبد على الهدى، أينهاه عن الهدى، وإن كان العبد آمراً بالتقوى أينهاه عن التقوى، ذلك هو الظن به، فيعجب المخاطب من ذلك، لأن من ينهى عن الصلاة وهى قربة إلى الله، فقد نهى عن الهدى ويوشك أن ينهى عن أن يأمر أحد بالتقوى. وقد عبر القرآن الكريم بـ ﴿عَلَى﴾ فى قوله: ﴿عَلَى أَهْدَى﴾، لتبين شدة التمكن من الهدى، بحيث يشبه تمكن المستعلى من المكان، وهو من الاستعلاء المجازى. وقد أشرنا إلى التفخيم فى تنكير ﴿عَبْدٌ﴾ ويكون المعنى: أينهى العبد الذى هو فى النهاية من العبودية لله تعالى، والمتمكن أشد التمكن من الهدى، أينهاه عن الهدى؟ فما أعجب ذلك! أينهاه عن الأمر بالتقوى؟ فما أعجب ذلك! وفيه من التشنيع على هذا الفعل القبيح والقول الكريه ما فيه، وهو عام فى كل أحد يقول هذا القول المنكر ويفعل هذا الفعل المستقبح، وإنذار من الله تعالى كذلك لكل من يتعاطى هذا الصد عن سبيل الله تعالى أن يكون عقابه من جنس عمله فى السوء والشناعة، ولم يسكت القرآن الكريم عن هذا العذاب المنتظر والجزاء الواقع، بل صرح به فى نهاية السورة بقوله: ﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١١﴾ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٢﴾﴾، حيث وصفه بهذا الوصف القبيح، ثم أشار إلى أن عذابه سيطول أعلى مكان فى جبهته التى يرفعها متكبر متشاخاً، بأن يؤخذ منها ويجر جر إلى النار بشدة لا توصف، وبقسوة لا تخطر ببال، وبذلة ومهانة لا تتصور، جزاء وفاقاً، ناصية الكاذب الخاطئ المذنب الأثيم.

كل ذلك يبين لنا قيمة الأمر بالتقوى، وقيمة الأمر بها، إذ كان الناهى عنها بتلك الصفة وله تلك النهاية.

فإذا كان الناهى عن التقوى صاحب ناصية كاذبة خاطئة، فلاشك أن الأمر بالتقوى صاحب ناصية صادقة صالحة مستقيمة غير آثمة ولا مذنبه، يأمر بالتقوى، ويوجه إليها، ويدعو لها، ويوصى بها.

وتبين الآية لنا خطر الأمر بالتقوى وعظيم فضله، وأنه لا ينبغي لأهل

الإيمان أن يتخلوا عن تلك المهمة والقيام بأعبائها وتحمل تبعاتها، وعليهم أن ينتظروا من الله تعالى شيئين:

الأول: دفاع الله تعالى عنهم والقيام لهم، وأنه يحفظهم من كيد أعدائهم، ومن الشرور المحدقة بهم، كما ذكرنا ذلك في قصة أبي جهل مع النبي وكما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحج: ٣٨]، ومهما لاقوا في سبيل الله تعالى والدعوة إليه فإن العقابة لهم ﴿وَالْعَقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

الثاني: عظيم جزاء الله لهم، المقابل لجزاء الناهي عن التقوى، فإذا كان هذا له السفع في الناصية، فذلك له الإعظام والتكريم في دار الخلد، جزاء بما كان يعمل ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ آدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحجرات: ٤٥-٤٦].

وتبين الآيات أن الأمر بالتقوى من وظيفة الرسل الكرام - عليهم الصلاة والسلام، فالقائمون بذلك من أتباعهم، إذا قائمون بأعظم مهمة، متحملون لأعظم أمانة، فما أعظمهم وأعظم مهمتهم، وما أجملهم وأجل جزاءهم، وأعجب بهم وانداهش لهم، فهم في الدرجة العليا من ثناء الله عليهم.

وتشير الآيات بجلاء إلى أنه ينبغي ألا يأمر بالتقوى ولا يدعو لها إلا من تحقق بها، وتمكن منها في نفسه، فلا يقوم بإصلاح غيره إلا من أصلح نفسه واهتم بها ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣]، فقوله إذا هباء لا يقوم على أساس راسخ ولا أصل ثابت، وإنما هو متاجر بالدين، يقول ما لا يفعل، فلا شك أن مثل هذا لا تؤثر دعوته، ولا تؤتي ثمرتها، ويخشى عليه في الأولى والآخرة، وإن كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لازماً على أي حال.

وتبين الآيات درجة النبي ﷺ العظيمة، ورتبته العالية في كونه أعظم من دعا

إلى تقوى الله تعالى، وتحمل في سبيل ذلك أعظم المشقات والمتاعب، كل ذلك حتى أتاه اليقين، فما أن جاءه أمر الحق تعالى: ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ [المائدة: ٢] لم يتوان لحظة واحدة عن هذا الإنذار، إلى أن لقي الله - جل وعلا - وهو للمسلمين القدوة الحسنة والمثل الأعلى الذي لا بد لهم أن يمثّلوه ظاهراً وباطناً، إن كانوا يرجون رفع رايته في الدنيا وعلو منزلتهم في الآخرة ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

فبينت هذه الكلمات الموجزة من كلام الله المبارك - بعد أن اتضح أن الله سبحانه أهل التقوى - لزوم الأمر بالتقوى مع التزود بزاهاها، وأن الرسول ﷺ أعظم من دعا إلى التقوى، وتحمل في سبيلها. وبينت جزاء التقوى وعظمها، وعاقبة المانعين من الأمر بها وعدم طاعتهم في ترك الأمر بها، وإحاطة الله ومنعته للدعاة لها، مهما بدا أمرهم في الدنيا على غير ذلك، وهى دعوة لأهل الإيمان في كل زمان ومكان لأن يدعو إلى الله، مهما منعهم الطغاة من ذلك ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ﴾ [العلق: ٦]، وأن يثبتوا والعاقبة لهم. كان هذا آخر الكلام على هذا الموضع، مقصود المؤمن فيما يأتي أو يذر بل في كافة أعماله وتصرفاته ونياته وتوجهاته هو تقوى الله - تعالى -.

المطلب العاشر

التقوى أساس قبول العمل

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]:

هذه الآية الكريمة وثيقة الصلة بتلك الآيات الكريمة السابقة، فحيث حلت التقوى في القلب والعمل من العبد فإن الله يقبل أعماله؛ لأن هذه الأعمال كذلك كانت السبب في محبة الله له، إذ لو كانت طاعته وقربانه في غير محل القبول ما وصل العبد إلى محبة الله ولا ولايته؛ أعماله مردودة لفقدتها أحد شرطى القبول - الإخلاص والمتابعة.

يقول الزمخشري في «الكشاف»: «وفيه دليل على أن الله تعالى لا يقبل طاعة إلا مؤمن متق، فما أنعاه على أكثر العاملين أعمالهم! وعن عامر أنه بكى حين حضرته الوفاة، فقيل له: ما يبكيك فقد كنت كذا وكذا؟ قال: إني أسمع الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾»^(١).

وكان الصحابة - رضوان الله عليهم - المثل الأعلى في الفهم والعمل، لذلك ورد عنهم ما يبين قيمة التقوى، يقول الحافظ بن كثير في تفسيره: «كان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: «لو علمت أن الله تعالى تقبل منى سجدة واحدة أو درهماً صدقة؛ ما كان غائب أحب إلي من الموت: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾»^(٢)، ومن الجدير بالذكر أن هذا التعبير القرآني الفريد قد جاء في سياق قصة ابنى آدم، التي

(٢) جار الله محمود الزمخشري «الكشاف»، (١/٣٣٣). وقد ذكر الطبري أثر عامر هذا في تفسيره، مجلد ٤، (٦/١٢٣)، وذكر النسفي كلام الزمخشري، (١/٢٠٧)، ونقله بنصه في «روح المعاني» الألوسي، مجلد ٤، (٦/١٦٥).


(٢) العلامة الشيخ محمد السفا ربنى الحنبلى «نفثات صدر المكمد وقرة عين المسعد لشرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد»، ت ١١٨٨ هـ، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩١ هـ، (١/٤٦).

قصها علينا القرآن الكريم، لتبين قبول الله طاعة المتقين دون غيرهم، حيث قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلُ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، وهذا يبين قيمة التقوى لأن أحد القربانين صار مقبولا والآخر مردودا، لأن حصول التقوى شرط في قبول الأعمال، قال تعالى هاهنا، حكاية عن المحق: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾، وقال - سبحانه - فيما أمرنا من القربان بالبدن: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، والتقوى من صفات القلوب قال ﷺ: «التقوى هاهنا»، وأشار إلى صدره ثلاثا.^(١)

(١) الإمام محمد بن عمر الرازي، «التفسير الكبير»، (٥/٦٥٣).

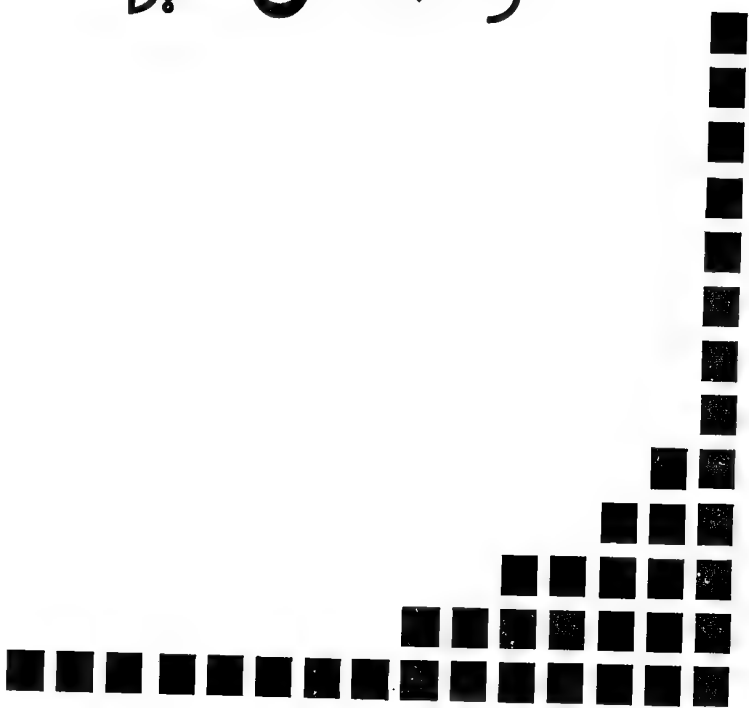
وقد أغرب العلامة الكبير الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسير الآية، حيث ذكر في نهاية ما ذكره من أقوال قوله: «ومعنى هذا الحصر أن الله لا يتقبل من غير المتقين وكان ذلك شرع زمانهم» اهـ. الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٦/١٧٠). وما ذكرنا لكافة المفسرين غنية في الموضوع.





الفصل الثانى

أساليب الأمر بالنقوى والحض عليها



بعد أن عرضنا لمواضع التقوى ومعانيها، حيث اتضحت بذلك أهميتها، نبداً الفصل الثاني، وهو في الكلام على أساليب الأمر بالتقوى في القرآن الكريم، حيث تبين هذه الأساليب كيف اتبع القرآن الكريم كافة ما يمكن من أوامر، ليحمل الناس أفراداً وجماعات على تقوى الله تعالى. وقد جعلته في ثلاثة مطالب:

المطلب الأول : النصوص الواردة في الأمر بالتقوى.

المطلب الثاني : أساليب الأمر بالتقوى من حيث:

أ. المأمور به «المخاطب» مفرداً أو جمعاً، الناس أو المؤمنين، وسر ذلك وتعليله.

ب. المضاف إلى التقوى (معمول التقوى) مع التعليل.

المطلب الثالث : الأوامر المصاحبة للأمر بالتقوى، تفسير النصوص

الواردة فيها.

المطلب الأول النصوص الواردة في الأمر بالتقوى

هذا المطلب حصر للنصوص الواردة في الأمر بالتقوى، وقد ذيلتها بتفسير إجمالي يبين مقاصدها، ليكون تفصيل هذا التفسير كل في موضعه من بقية المطالب، وها هي ذى تلك النصوص:

١. ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيُّ أَتَى اللَّهِ وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأحزاب: ١].

٢. ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

٣. ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨].

٤. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

٥. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

٦. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوُهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

٧. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣١].

٨. ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

٩. ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

١٠. ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١].

١١. ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي

تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ [النساء: ١].

١٢. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾ [المائدة: ٤].

١٣. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾ [المائدة: ٧].

١٤. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة: ٨].

١٥. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [المائدة: ٨٨].

١٦. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٨﴾﴾

[المائدة: ١٠٨].

١٧. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [المائدة: ٥٧].

١٨. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ

كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾ [الأنفال: ١].

١٩. ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ

اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنفال: ٢٥].

٢٠. ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

رَحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنفال: ٦٩].

٢١. ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١٣٩﴾﴾

[التوبة: ١١٩].

٢٢. ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ

﴿١﴾﴾ [الحج: ١].

٢٣. ﴿قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ [الزمر: ١٠].

٢٤. ﴿وَتَسْجُوا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿١﴾﴾

[المجادلة: ٩].

٢٥. ﴿وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ

إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ [الحشر: ٧].

٢٦. ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ
وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الحشر: ١٨].

٢٧. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا
لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقْ شَحْ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٦﴾﴾
[التغابن: ١٦].

٢٨. ﴿يَتَأْتِي النَّبِيَّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَّقُوهُنَّ إِعْذِرْتُمْ وَأَحْصُوا
الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ﴿١﴾﴾ [الطلاق: ١].

٢٩. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَىٰ الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا
﴿١٠﴾﴾ [الطلاق: ١٠].

٣٠. ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَائِتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾ [البقرة: ٤١].

٣١. ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونَ يَتَأُولَىٰ الْأَلْبَابِ ﴿١٧﴾﴾
[البقرة: ١٩٧].

٣٢. ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونَ ﴿٢٢﴾﴾
[المؤمنون: ٥٢].

٣٣. ﴿ذَٰلِكَ يَخْشَوْا اللَّهَ فِيهِ عِبَادُهُ يَعْْبَادُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الزمر: ١٦].

٣٤. ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾
[الأنعام: ٧٢].

٣٥. ﴿مُتَّبِعِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ
الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الروم: ٣١].

٣٦. ﴿وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾
[الأحزاب: ٥٥].

٣٧. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [المائدة: ١١].

وبالنظر في هذه الآيات الكريبات نلاحظ:

أولاً: أن الله تعالى أمر الجميع بتقوى الله مؤمنين كانوا، كقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠]، أو كفاراً كقوله: ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا﴾ [نوح: ٣]، وأفراداً كقوله: ﴿وَلِيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، أو جماعات كقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ [النساء: ١]، أو نساء كقوله: ﴿وَأَتَّقِينَ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٥٥]، حتى النبي ﷺ أمر بذلك بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١].

ثانياً: تعدد معمولات التقوى في الآيات من لفظ الجلالة: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، إلى وصف الربوبية ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ [النساء: ١]، إلى الجمع بينهما: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ [الطلاق: ١].

كذا جاء اليوم الآخر والنار والفتنة والسيئات معمولات للتقوى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وقوله: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤]، وقوله: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]، وقوله: ﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ [غافر: ٩].

كل ذلك لحمل الناس على تقوى الله تعالى.

ثالثاً: رأينا الأمر بالتقوى معطوفاً على أوامر من أوامر الشرع، والعكس ليكون الأمر بالتقوى حاملاً للمؤمنين على تنفيذ تلك الأوامر والتزامها كقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١].

رابعاً: وردت أساليب كثيرة متنوعة مع الأمر بالتقوى، كالتذييل لها، حضاً على تقوى الله تعالى، والتزامها وعداً كقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٠]، ووعيداً كقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧]، وحثاً وإلهاباً لهم: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٧]، إلى غير ذلك مما سنبينه في موضعه - إن شاء الله.

خامساً: بينت الآيات كذلك عواقب الالتزام بأوامر التقوى، كقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

كل ذلك لحمل الناس كافة على تقوى الله تعالى.

وإلى تفصيل ذلك في بقية المطالب، وثمة تنبيه إلى أنني وضعت بعض تلك النصوص في الموضع اللائق بها في الفصول الأخرى، كعاقبة التقوى وغيره.

المطلب الثانى

أساليب الأمر بالتقوى

وهذا المطلب خصص لدراسة أساليب الأمر بالتقوى من حيث:

١. المأمور بها مفرداً أو جمعاً، الناس أو المؤمنون.
٢. المضاف إلى التقوى (معمول التقوى)، مع تعليل كون الأمر بأسلوب الغيبة أو الخطاب.

وها هى ذى بعض الأمثلة لتلك الآيات، نسوقها للنظر فيها، ونربط بين

معانيها:

١. ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].
٢. ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥].
٣. ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].
٤. ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠].
٥. ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].
٦. ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].
٧. ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١].

٨. ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ [الطلاق: ١].

الإضافة إلى النار وعذابها:

١. ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

٢. ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوتًا أَنْفُسُهُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحریم: ٦].

٣. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

الإضافة إلى اليوم الآخر:

١. ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨].

٢. ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ﴾ [البقرة: ٤٨].

٣. ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

٤. ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا جَعَلَ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧].

الإضافة إلى السيئات:

١. ﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُهُ ۚ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٩].

٢. ﴿فَوْقَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ۚ وَحَاقَ بِعَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥].

الفئة:

١. ﴿تَقْوَاَوْفِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

وبالنظر في هذه الآيات الكرييات يتبين:

أولاً: أن إضافة التقوى إلى الله - سبحانه - معناه أن يجعل العبد بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضب وسخط وعقاب وقاية تقيه من ذلك، وهو أصل التقوى كما ذكرنا في تعريفها^(١)، وكذلك الأمر في اتقاء اليوم، إنما يتقى ما يحدث فيه من أهوال وكرب، حيث يأمر الله المؤمنين بأن يجعلوا بينهم وبين تلك الأهوال والكرب وقاية تقيهم من ذلك، من فعل الطاعات واجتناب المعاصي، وهو نفس المعنى في طلب التقوى من النار كما في قوله: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]، أى يجعل بينه وبين النار وعذابها وقاية، كما في حديث النبى ﷺ: «اتقوا النار ولو بشق تمر»^(٢)، وذلك كما ذكرنا.

ثانياً: عبر القرآن الكريم في بعض المواضع بلفظ الجلالة (الله)، وفي بعضها بلفظ الربوبية، ولكن الملاحظ أنه جاء بلفظ الجلالة عند نداء المؤمنين بقوله: ﴿يَتَّيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، كقوله: ﴿يَتَّيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾، ولم يشذ عن ذلك شيء إلا ما كان من قوله في سورة الزمر: ﴿قُلْ يَلْعَبَادِى﴾، وليس بقوله: ﴿يَتَّيُّهَا...﴾، سنشرح مناسبتها بعد - إن شاء الله تعالى.

وأما لفظ الربوبية، فقد ذكر مع قوله تعالى: ﴿يَتَّيُّهَا النَّاسُ﴾، وهى نداء لأمة الدعوة جميعاً، لذا وجدنا السياق متناسباً مع دعوتهم إلى توحيد الله تعالى، وهو ما أشرنا إليه في «التقوى دعوة الرسل»، كقوله: ﴿يَتَّيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا

(١) ابن رجب الحنبلى «جامع العلوم والحكم»، (١/ ٣٩٨).

(٢) الحديث رواه البخارى (١٤١٧). وانظر ابن حجر العسقلانى «فتح البارى»،

(٣/ ٢٨٣). ورواه مسلم (١٠١٦). وانظر النووى «شرح صحيح مسلم»، (٤/ ١٠٩).

رَبِّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾. ولنضرب أمثلة على ذلك من الآيات السابقة، توضح المقصود وتزيد في فهم الآيات، بمقارنتها بعضها ببعض.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١]: جاء الخطاب بـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ ليشمل جميع المدعويين الذين يسمعون القرآن، لئلا يختص بالمؤمنين، إذ غير المؤمنين حينئذ هم كفار العرب، وهم الذين تلقوا دعوة الإسلام قبل غيرهم.

فلما كان ما بعد هذا النداء جامعاً لما يأمر به الناس نودى جميع الناس، فدعاهم الله إلى التذكر بأن أصلهم واحد، إذ قال: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ دعوة تظهر فيها المناسبة بين وحدة النوع ووحدة الاعتقاد، فالمقصود من التقوى في قوله: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ اتقاء غضبه، ومراعاة حقوقه، وذلك حق توحيده والاعتراف له بصفات الكمال، وتنزيهه عن الشركاء في الوجود والأفعال والصفات.

ومن ثم عبر بـ ﴿رَبِّكُمْ﴾ دون لفظ الجلالة (الله)، لأن في معنى الرب ما يبعث العباد على الحرص على الإيمان بوحديته، إذ الرب هو المالك الذي يدير شؤون مملوكه. ودلت الإضافة في ﴿رَبِّكُمْ﴾ على الصلة التي بين الرب وبين المخاطبين، وهى صلة تعد إضاعتها حماقة وضلالاً، لأنهم بهذه الإضافة إليه يحققون له بتقواه حق التقوى.

ثم جاء التعبير ذلك في نفس الآية بقوله - جل وعلا: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾، فجاء بلفظ الجلالة، ولم يعد بضمير على ﴿رَبِّكُمْ﴾، لأن الآية شرعت في الكلام على التشريعات التي حوتها السورة، فأعيد لفظ

التقوى ليختص بالمؤمنين، والحكمة من مخاطبة المؤمنين بالتقوى في مواضعها، حيث جاءت ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾، إنما المطلوب ثباتهم عليها وازديادهم منها. وجاء حينئذ لفظ الجلالة (الله) في هذه الأوامر، لأن التقوى هنا مأمور بها المؤمنون خاصة، لأنه مقام تشريع ناسبه إثارة المهابة وإدخال الروح في ضمائر السامعين، ليمثلوا تلك الأوامر، على خلاف لفظ ﴿رَبِّكُمْ﴾، الذي ناسب الترغيب لما يظهر من صلة بين عموم الناس وبين ربهم. (١)

وفي التعبير بالناس والمؤمنين في هذه النداءات تنبيه آخر، وهو التفريق بين القرآن المدني والقرآن المكي، فإن غالب القرآن المكي كان النداء فيه للناس، بعكس الخطاب المدني فقد كان غالبه ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾. وقد تميز القرآن المكي المتعلق بالتقوى فيما رأينا من النصوص بذكر عاقبة التقوى مجملة، كقوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾، وذلك في قصه قصص الأمم المكذبة، تثبيتاً للمؤمنين وتسلية للنبي ﷺ مع ذكر عاقبة التقوى في الآخرة.

أما القرآن المدني فقد زاد في الأمر بالتقوى للعبادات والسلوك والمعاملات، ثم زاد على ذكر عاقبة التقوى في الآخرة ذكر عاقبة التقوى في الدنيا. يذكر العلامة الطاهر بن عاشور في تفسيره «التحرير والتنوير»، في قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ من سورة الحج، مضيفاً على ما سبق من المعاني: «وفي التعبير عن الذات العلية بصفة الرب مضافاً إلى ضمير المخاطبين، إيماءً إلى استحقاقه أن يتق لعظمته بالخالقية وإلى جدارة الناس بأن يتقوه، لأنه بصفة تدبير الربوبية، لا يأمر ولا ينهى إلا لمرعى مصالح الناس ودرء المفاسد عنهم، وكلا

(١) انظر العلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/٢١٦-٢١٧)، وانظر الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي «الإتقان في علوم القرآن»، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤م، مجلد ١، (١/٣٧).

الأمرين لا يفيد غير وصف الرب دون وصف الخالق والسيد». (١)

وبذا يتضح دقة التعبير بلفظ الجلالة أو الربوبية ومناسبة ذلك للخطاب.
وأما قوله تعالى: ﴿قُلْ يٰعِبَادِ ٱللَّهِ ءَامِنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٱسْعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، فقد خرجت الآية الكريمة عن مثل ما سبقها من كون الأمر بالتقوى للمؤمنين يضاف إلى الله، ليس إلى لفظ الربوبية، وهى الوحيدة كما أشرنا. وأما معناها فهو أن الله - جل وعلا - أمر المؤمنين بأن يتقوا ربهم، وذلك بالنداء في قوله: ﴿قُلْ﴾، ولكن لما أضاف المؤمنين إلى ضمير الله تعالى بوصف العبودية دل ذلك على تشريفهم، وليدل - كذلك من باب الأولى - على كونهم متقين لله - سبحانه - من قبل ندائهم للتقوى وأمرهم بها، ويؤذن كذلك بالاهتمام بما سيقال لهم عن ربهم، لأن الله تعالى أمره أن يبلغهم عين ما أمر الله - جل وعلا، وبين درجاتهم العظيمة عند الله تعالى، إذ وضعهم في مقام المخاطبة منه سبحانه وتعالى. (٢)

ويكون المراد من الأمر بالتقوى لهؤلاء المتقين من قبل، الدوام على تقوى الله والثبات عليها، لأن السياق يشعر بأنهم قد نزل بهم من الأذى والتعذيب في الدين ما يخشى عليهم معه أن يقصروا في تقواهم، حيث جاءت جملة: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٱسْعَةٌ﴾ معترضة، لتزيح ما عسى أن يتوهم من التعلل في التفريط بعدم التمكن في الوطن من رعاية الأوامر والنواهي.

ومن ثم كان الأمر ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ تمهيداً لما سيوجه إليهم من أمرهم

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٧ / ١٨٦).

(٢) وانظر أبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (٤ / ٤٦٠). ومحمود الألوسى «روح المعانى»،

مجلد ١٣، (٢٣ / ٣٦٥). والعلامة ابن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٣ / ٣٥٢).

بالمهجرة للسلامة من الأذى في دينهم، فجاء التعبير الربوبية ليمس هذه العلاقة والصلة الوثيقة بينهم وبين ربهم، التي تثير فيهم الامتثال لترك الوطن والأهل في سبيل الله تعالى، حماية لدينهم وبعداً عن الفتنة فيه.

وجاء كذلك الجمع بين اسم الجلالة واسم الربوبية في معمولات الأمر بالتقوى في قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾، وهو في قوله تعالى في سورة الطلاق: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾.

فראينا أولاً: حذف متعلق ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ليعم جميع ما يتقى الله فيه، وأول ما يقصد بأن يتقى الله فيه ما سيق الكلام لأجله من مواضع الطلاق والعدة وغيرها مما كان شائعاً فيه الظلم في الجاهلية.

ثانياً: قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ تحذير من التساهل في تلك الأحكام، وذلك أنهم كانوا لا يقيمون في الجاهلية للنساء وزناً، وكان قرابة المطلقات قلما يدافعن عنهن، فنسى الناس تلك الحقوق وغمصوها، فكانت هذه الآيات بتلك اللهجة الشديدة لتكفهم عن ذلك، وعبر عن تلك الحقوق بالتقوى وبحدود الله، ولمزيد الحرص على التقوى اتبع اسم الجلالة بوصف ربكم للتذكير بأنه حقيق أن يتقى غضبه. (١)

وإذ قد ورد النداء للجمع - الناس والمؤمنين - بتقوى الله تعالى، فقد جاء كذلك للمفرد ولم يأت إلا في آية واحدة بصيغة الخطاب، وهي قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأحزاب: ١].

والظاهر أن صيغة الخطاب هذه لا تكون إلا للنبي ﷺ، لأنه الموحى إليه من

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٨/ ٢٩٨-٢٩٩).

الله تعالى، ومن ثم يتوجه الخطاب المباشر من الله تعالى إليه، فكانت الوحيدة في القرآن الكريم لهذا المعنى، حتى ولو فرض أن تكررت فلا يمكن إلا لمخاطبة النبي ﷺ. أما بصيغة الغيبة فقد وردت كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦].

وبالنظر في الآية نرى أنه قد ذهب بعض العلماء إلى أن قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ تنبيه بالأعلى على الأدنى بالأمر بتقوى الله تعالى، ويكون ذلك خطاباً للأمم في شخص النبي الكريم ﷺ، ويكون الأمر للنبي ﷺ بالتقوى أمر بالثبات عليها والازدياد منها أتقى الناس لله - جل وعلا. ^(١)

وللعلامة ابن عاشور تفصيل آخر، حيث يقول في تفسيره للآية الكريمة: «والأمر للنبي ﷺ بتقوى الله توطئة للنهي عن إتيان الكافرين والمنافقين، ليحصل من الجملتين قصر تقواه على التعلق بالله دون غيره، فإن معنى ﴿وَلَا تُطِيعْ﴾ مرادف معنى: لا تتق الكافرين والمنافقين، فإن الطاعة تقوى، فصار مجموع الجملتين مفيداً معنى: يا أيها النبي لا تتق إلا الله، فعدل عن صيغة القصر وهي أشهر في الكلام البليغ وأوجز، إلى ذكر جملة أمر ونهي، لقصد النص على أنه قصر إضافي أريد به أن لا يطيع الكافرين والمنافقين، لأنه لو اقتصر على أن يقال: لا تتق إلا الله، لما أصاحت إليه الأسماح إصاححة خاصة، لأن تقوى النبي ﷺ ربه أمر معلوم». ^(٢)

تعين بما سبق في قوله: ﴿اتَّقِ اللَّهَ﴾ والنهي في قوله: ﴿وَلَا تُطِيعْ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ مستعملان في طلب الاستمرار على ما هو ملازم له من تقوى

(١) انظر ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤٥٦/٣). وصديق خان «فتح البيان»، (٣٢٦-٣٢٧/٧).

(٢) الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٥٠/٢١).

الله، فأشعر ذلك أن تشريعاً عظيماً سيلقى إليه لا يخلو من حرج عليه فيه، وعلى بعض أمته، وأنه سيلقى مطاعن الكافرين والمنافقين، فأعلمهم من قبل أن الرسول ﷺ لن يطيعهم لئياسوا من ذلك، وهو دليل على أن طلباتهم من النبي ﷺ يمكن أن تكون نصحاً له، خاصة من المنافقين الذين يظهرون الإسلام فمن تقوى الله ألا يطاعوا فيها كذلك.

وقد ختمت الآية بما يدل على لزوم تقواه وحده بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾، أى هو العليم بما فيه الصلاح، الحكيم بما يشرع، فوجبت طاعته لا طاعة غيره - جل وعلا.

وتبين هذه الآية الكريمة تشريعاً عاماً للمؤمنين في كل زمان أن طاعة المنافقين والكافرين مخالف لتقوى الله ومضاد لها. وكم كان ذلك وما زال مخالفاً لصلاح الأفراد والأمة، بل وموقع لهم في البلاء والمحن.

لم يغفل القرآن الكريم أفراد النساء بالأمر بتقوى الله تعالى، وإن كن يدخلن في الأمر العام ﴿يَتَأْتِيَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، وذلك للتنبيه على أن النساء مأمورات بتقوى الله تعالى لا ينقصن عن الرجال في ذلك، وأن عاقبة التقوى تشملهن في الدنيا والآخرة، وأن صلاح النساء عليه المعول الكبير في إصلاح شؤون البيت، وبالتالي صلاح الأمة.

جاءت الآية الكريمة: ﴿وَأَتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً﴾ [الأحزاب: ٥٥] لتدل على ما سبق. وبالنظر فيها نجد أسلوب الالتفات من الغيبة في قوله ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي ءَابَائِكُمْ﴾ إلى قوله ﴿وَأَتَّقِينَ اللَّهَ﴾ لتشريفهن بذلك، وحملهن على تقوى الله تعالى.

والآية نزلت في نساء النبي ﷺ تنبيهاً بالأعلى على الأدنى بتقوى الله تعالى، فإذا كان صواحب الرسول ﷺ مأمورات بذلك، فمن باب الأولى أن يأمر غيرهن.

التقوى في القرآن الكريم

وختمت الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾، أى لا تخفى عليه خافية، لحضهن على تمام التقوى، فإن اطلاع الرب سبحانه على المرأة حامل لها على الحياء، والبعد عما يغضب الله تعالى، وكان يمكن كذلك أن يقال: إنه كان على كل شيء شهيداً، فأظهر لفظ الجلالة في مقام الإضمار لتربية المهابة في نفوسهن من الله تعالى، وتأكيداً على استقلال الجملة.^(١)

وهكذا ما تركت آيات التقوى في القرآن الكريم من أحدٍ إلا خاطبته بتقوى الله - جل وعلا.

كان معمول التقوى فيما سبق في الآيات السابقة عند مخاطبة الجمع والمفرد هو الاسم الظاهر لفظ الجلالة «الله» أو الربوبية «ربكم» بقوله ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ و﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾. وهنا رأينا أسلوبين جديدين لمعمول التقوى ساقهما القرآن الكريم، ينبغى كذلك النظر فيهما إتماماً لما سبق، وهو قوله: ﴿فَاتَّقُونِ﴾ بصيغة الخطاب، و﴿وَاتَّقُوهُ﴾ بصيغة الغيبة، وقد ورد الأول في قوله تعالى: ﴿وَإِئْتِي فَاتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤١]، وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُونِ يَأْتُوايَ الْآلِبِ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقوله تعالى: ﴿أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢]، وقوله: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢]، وقوله: ﴿ذَلِكَ تَخَوْفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادُهُ يَنْعِبَادُ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٦]، وقد ورد الثانى في قوله: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٧٢]، وقوله تعالى: ﴿وَابْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [الروم: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا﴾ [نوح: ٣]. وبالنظر في الأسلوب الأول، وهو ﴿وَإِئْتِي فَاتَّقُونِ﴾، نلاحظ على هذه

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٣/٩٦).

الآيات أن الأمر بالتقوى جاء بعد مناداة المولى سبحانه لعباده بأنه إلههم وربهم، وكذلك خاطب سبحانه العباد كافة بالتقوى في قوله: ﴿يَعْبَادِ فَاتَّقُونِ﴾، مؤمنهم وكافرهم. وهذه الآيات قد جمعت الأوامر السابقة، التي معمولها لفظ الجلالة الظاهر والربوبية ولكن مع استخدام تعبيرات جديدة لتؤكد لزوم التقوى والحث عليها، مع زيادة أسلوب من أساليب الأمر بالتقوى والحض عليها، وهو: ﴿وَأَتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾، ونلاحظ أن كل ذلك بالخطاب المباشر، لا باستخدام أسلوب الغيبة، تشريفاً للمخاطبين لحملهم على تقوى الله تعالى.

وبالنظر في هذه الآيات نرى أن سياق الأولى في سورة البقرة هو قوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَآئِنِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونِ﴾^(١)، وقد جاء في شأن اليهود لقيامهم بهذه الجريمة، وهي تحريف آيات الله بثمان قليل، ولا يقصد القرآن الكريم أن يحرفوها بثمان كثير، بل هو تبشيع للفعل وأنه مهما أوتوا في مقابله فهو قليل حقير، لأنه فعل منافٍ لتقوى الله والخوف منه.

ثم جاء بهذا التذييل ﴿وَإِنِّي فَاتَّقُونِ﴾، ليحضهم على تقواه هو وحده، فهو من أساليب القصر، بل كما ذكر بعض المفسرين هو أبلغ في إفادة القصر من ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مثلاً، لينبهم على تخصيصه وحده دون غيره بالتقوى، أى بالخوف منه، لا من رهبانهم وأحبارهم ممن يحرفون كلام الله لهم أو يأمرونهم بهذا التحريف، فأمرهم سبحانه بعصيان كل أولئك، وعدم الخوف إلا منه هو وحده، مهما كان الترغيب والترهيب.^(١)

وهو لاشك تنبيه على المؤمنين من باب الأولى بتقوى الله تعالى والخوف منه

(١) انظر «التفسير الوسيط»، مجمع البحوث الإسلامية، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، الطبعة الثانية، سنة ١٩٧٣م، (١/٨٨). والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/٤٥٧). وجار الله الزحشرى «الكشاف»، (١/٦٥).

وحده، والحفظ على دينه وكلامه، لئلا يحرف مهما كان الثمن مادياً أو معنوياً.

أما الموضع التالى وهو قوله تعالى: ﴿يَعْبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ فقد جاء في سياق قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ تَحْوِفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَعْبَادِ فَاتَّقُونِ﴾، وهو تفریع لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ تَحْوِفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ﴾، لأن التخويف مؤذن بأن العذاب أعد لأهل العصيان، فناسب أن يعقب بأمر الناس بالتقوى لتفادى هذا العذاب.

وقدم النداء على التفریع من أن مقتضى الظاهر تأخيره عنه، كقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُونِ يَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، لأن المقام هنا مقام تحذير وترهيب، فهو جدير باسترعاء أذهان المخاطبين إلى ما سيرد بعد التفریع، خاصة وهو يخاطب عموم الناس، كافرهم ومؤمنهم.

أما قوله: ﴿وَاتَّقُونِ يَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، فهو في سياق ترغيب المؤمنين في إكمال أعمال الحج والتزود بزد التقوى في قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، فلذا جاء الأمر بالتقوى معطوفاً بالواو، وخاطب به أولى الألباب، لأن التقوى مما يرغب فيه أهل العقول.

ونختم بقوله تعالى: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾، وهى بعد قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المؤمنون: ٥٢]. وهذه الآية معطوفة على قصص إرسال الرسل السابقة عليها من أول قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ [المؤمنون: ٢٣]، لأن تلك القصص إنما قصت عليهم لأن شأن الرسل منذ ابتداء الرسالة هو الدعوة إلى توحيد الله تعالى بالألوهية، ويكون المعنى: ولكون دينكم ديناً واحداً لا يتعدد فيه المعبود، وكونى ربكم، فاتقون ولا تشركوا بى غيرى، خطاباً للرسل، والمراد أهمهم أو خطاباً لمن خاطبهم القرآن

(١) الكريم.

وهكذا رأينا أنواع الخطاب المختلفة الذي جاءت في القرآن لأمر الناس والمؤمنين، أفراداً وجماعات بالتقوى، وبكل أسلوب يحملهم على ذلك. ويتبقى النظر في الأسلوب الأخير في الأمر بالتقوى، وهو ما جاء بصيغة الغيبة ﴿وَاتَّقُوا﴾، لنستكمل كل معمولات التقوى المتعلقة بالله تعالى. وأول هذه الآيات التي جاء فيها هذا الأمر قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوا وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٧٢] في سورة الأنعام. وفي هذه الآية الكريمة عطف ﴿وَاتَّقُوا﴾ على ﴿أَقِيمُوا﴾، والضمير المنصوب عائد إلى ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ في قوله: ﴿وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا...﴾، أى اتقوا رب العالمين. وفي ذكر اسم الله تعالى بوصف الربوبية لجميع الخلق إشارة إلى تعليل الأمر بالتقوى، إذ هو جدير بذلك سبحانه، لأنه ربهم - جل وعلا.

وجمع قوله «واتقوه» جميع أمور الدين، وقدمت الصلاة، وهى من التقوى للاهتمام بها بعد الإسلام لله تعالى، إذ هى أهم أمور التقوى، فكان ذلك من عطف العام على الخاص لأهمية الخاص بالإفراد والذكر.

ثم ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ تعليلاً للأمر بتقواه - سبحانه، ولوجوب الامتثال، وهى معطوفة على «واتقوه» عطف الخبر على الإنشاء، أى: وقل لهم وهو الذي إليه تحشرون، حضاً لهم على تقوى الله وعلى عدم التفريط فيها، لأنهم سيحشرون إلى الله تعالى فيسألهم عن ذلك، ويجازيهم به، وقدم معمول «تحشرون» ليفيد حصر الحشر إليه لا إلى غيره، تأكيداً

لرجوعهم إليه، وحسابهم عنده لا محالة.^(١)

والآية الأخرى هي قوله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٣١] في سورة الروم، حيث جاءت الآيتان الباقيتان في فصل «التقوى ودعوة الرسل»، والآية السابقة عليها: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

وقد ورد فيها الأمر بتقواه - سبحانه - بعد أمرهم بإقامة وجوههم إلى الله منيبين، أى: راجعين إليه النوبة بعد الأخرى، حيث أعربت «منيبين» حال من الضمير في «أقم»، والخطاب للنبي ﷺ وأمته، فلذا جمع «منيبين»، لتحملهم تلك التقوى على رجوعهم الله والإقامة على طاعته، وأهم ما يقيمون من أمور الدين فذكرها ونبه على إقامتها هو الصلاة، وهي في نفس الوقت التي تبين إنابتهم وحسن تقواهم لله تعالى. وقد فسرت الإنابة أيضاً بالتوبة، فيكون المعنى: أقيموا وجوهكم للدين تائبين لله تعالى، ويكون الأمر بالتقوى وإقامة الصلاة مستعملاً في طلب دوام ذلك.^(٢)

وبعد أن انتهينا من ذكر معمولات التقوى المتعلقة بالرب سبحانه وتعالى، نستكمل بقية معمولات:

أولها: النار وعذابها:

إن تحقيق أسباب الوقاية من النار وعذابها مما يسعى إليه المتقون، ومن ثم كان من صفاتهم التي مدحهم الله - جل وعلا - عليها أنهم يدعون ربهم أن

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٧/ ٣٠٥-٣٠٦).

(٢) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢١/ ٩٥). وأبى السعود «إرشاد العقل السليم».

يقيهم عذاب النار. ولما كانت الوقاية من النار وعذابها من مطلوبات الشرع، ودليل تقوى الله، حيث ينجى الذين اتقوا من عذاب جهنم: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا﴾ [مريم: ٧٢]، أمر الله تعالى الناس جميعاً بأن يتقوا النار، بقوله: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤]، بل وزاد أمر المؤمنين خاصة بأن يقوا أهلهم كذلك، في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾. وقد أمر الرسول ﷺ أيضاً المؤمنين أن يقوا أنفسهم النار، وألا يستصغروا شيئاً من المعروف والعمل الصالح يكون وقاية لهم من النار، فقال - عليه الصلاة والسلام: «اتقوا النار ولو بشق تمرة» الحديث.^(١) دل ذلك على أن امتثال الأوامر واجتناب النواهي والمصارعة إلى الخير هي ما يقى به المرء نفسه من النار وعذابها.

ونبدأ في تحليل تلك الآيات الواردة في ذلك:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾.

الآية الكريمة جاءت في سياق ما ذكره القرآن الكريم من تحدى الكفار أن يأتوا بسورة من مثله، مع الاستعانة بشهادتهم. ثم أخبرهم أنهم لم ولن يفعلوا، وهم فرسان الكلام وأساطين البلاغة، ويهمهم ويشغلهم أن يأتوا بمثله، أو يعارضوه ليبطلوا تلك الدعوة، بدلاً من الحرب والقتال، فظهر بذلك عجزهم، وظهر بذلك إعجاز القرآن الكريم الخالد، وجاء الوعيد الشديد في جواب الشرط - على رأى جمهور المفسرين - وهو ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾، أى ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ بمعنى أنكم إذا لم تأتوا بمثله - ولن تأتوا - فاتركوا عنادكم وآمنوا، لأن ذلك وقايتكم من النار. ولذلك ذهب - أى لأن الإيمان هو الوقاية من النار - بعض المفسرين

إلى أن ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ أثر لجواب الشرط، دل على جملة محذوفة، ويكون تقدير الكلام: فإن لم تفعلوا فأيقنوا أن ما جاء به محمد حق منزل من عند الله، وأنه صادق فيما أمركم به من عبادة الله وحده، فاحذروا النار إن لم تمتثلوا أمره.^(١)

وعلى ما قلنا من ذهاب جمهور المفسرين إلى أن (فاتقوا) جواب الشرط، يقول العلامة أبو السعود في تفسير الآية من «إرشاد العقل السليم»:

﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ جواب للشرط على أن اتقاء النار كناية عن الاحتراز من العناد، إذ بذلك يتحقق تسببه عنه وترتيبه عليه، كأنه قيل: فإذا عجزتم عن الإتيان بمثله - كما هو المقرر - فاحترزوا من إنكار كونه منزلاً من عند الله - سبحانه، فإنه مستوجب للعقاب بالنار، ولكنه أوتر عليه الكناية المذكورة المبنية على تصوير النار، وجعل الاتصاف به عين الملابس بها، للمبالغة في تهويل شأنه، وتفظيع أمره، وإظهار كمال العناية بتحذير المخاطبين منه، وتنفيرهم عنه، وحثهم على الجِد في تحقيق المكنى عنه.

ويستطرد قائلاً إن هذا التعبير ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ من بديع الإيجاز. يقول - رحمه الله: «حيث كان الأصل: فإن لم تفعلوا فقد صح صدقه عندكم، وإذا صح ذلك كان لزومكم العناد، وترككم الإيمان به سبباً لاستحقاقكم العقاب بالنار، فاحترزوا منه، واتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة».^(٢)

فكان هذا اللفظ المبدع في إيجازه يحمل في طياته الأمر بالتقوى، وتبيين سبيل التقوى، وعاقبة النكول عن التقوى.

وهنا سؤال: إنهم لا يؤمنون بالبعث، فكيف حذرهم القرآن النار ولم يحيطوا بها علماً؟ لعله قد سبق علمهم بها حذرهم به النبي ﷺ قبل ذلك وهددهم به إذا لم

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/ ٣٤٣-٣٤٤).

(٢) العلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (١/ ٨٢).

يؤمنوا، ولا شك أن معظم القرآن المكي كذلك، وقد سبق لهم قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، ولذا ذكر هنا أنهم وتلك الحجارة وقود النار، ولعل ذلك إشارة إلى أصنامهم التي كانوا يعبدون، ليروا أنها لم تنفعهم، حيث كانوا يظنون فيها النفع والضرر والتقريب إلى الله، فيزداد بذلك سوءهم وعذابهم، ولتطول برؤيتهم حسرتهم وندامتهم.

والآية التالية قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوًا أَنفُسُكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحریم: ٦].

وهي من هذا القبيل، أي من إضافة التقوى إلى النار. وإذا كانت الآية السابقة خطاباً للكفار، فهذه الآية خطاب للمؤمنين بأن يقوا أنفسهم، وليس ذلك فحسب - فإن المؤمن راع ومسئول عن أهل بيته - وعليه أن يقى أهله كذلك النار، وذلك بأن يحقق في نفسه تقوى الله تعالى، وأن يحمل أهله عليها بكل سبيل، فإن ذلك من مسئوليته التي سيجاسب عليها، فضلاً عن إساءته بأن يرى أهله يعذبون، وكان يمكن أن يكون السبب في نجاتهم.

يقول الإمام ابن كثير في معرض تفسير الآية: «وقال مجاهد: ﴿قُوا أَنفُسُكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾، قال: اتقوا الله وأوصوا أهليكم بتقوى الله»^(١).

ونلاحظ أن الآيات الكريمات السابقة على هذه الآية الكريمة كانت في موعظة نساء النبي ﷺ فكانت تلك مناسبة لتحذير المؤمنين من الغفلة عن موعظة أنفسهم وموعظة أهليهم، وأن لا يصددهم استبقاء الود بينهم عن إسداء النصح لهم، وإن كان في ذلك بعض الأذى^(٢).

(١) الحافظ ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤/ ٣٩١). وابن جرير الطبري «جامع البيان في تفسير القرآن»، مجلد ١٢، (٢٨/ ١٠٧).

(٢) وانظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٨/ ٣٦٥).

وقد عبرت الآية السابقة عن العناد وترك الإيمان بالنار، وفي هذه الآية الكريمة عبر القرآن الكريم عن الموعظة والتحذير بالوقاية من النار، فكان مناسباً أن يعبر عن العناد وترك الإيمان بالنار مع الكافرين، ليفروا من هول ما هم فيه إلى الله تعالى مؤمنين مسلمين، وأما المؤمنون فالموعظة والتحذير هي وقايتهم من النار، ليلمسوها بها وألا يفرطوا فيها فيقحموا بذلك في النار، على عكس الأولين حيث هم في النار أصلاً.

وزيد في الآية الثانية تهويل شأن النار وتفظيعها، ليحذر المؤمنون ذلك، في قوله: ﴿عَلَيْهَا مَلَكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ...﴾، على عكس الأولى، لأنهم في النار ولا يحتاجون إلى تخويف.

وهذا كله هو التقوى التي سبق كل ذلك لأجلها.

الثاني: اليوم الآخر:

جاء الأمر بالتقوى مضافاً كذلك إلى اليوم الآخر أى معمولاً له، لأن اليوم الآخر وما ذكر الله من أهواله التي يشيب له الولدان، كفيل لمن تدبر فيه بحضور قلب، أو مراعاة سمع، أو صفاء ذهن، أن يحمل المرء على تقوى الله تعالى، بل وعلى استدامة تلك التقوى سالكاً سبيل الاستقامة. كلما راغ عنه أو أخذته الدنيا أو الشهوات شيئاً عن هذا السبيل، رده ذلك التذكر مرة أخرى إلى الجادة، والاستعداد ليوم المعاد، خاصة وأن رحيل الإنسان من الدنيا بغته، مما يوجب دوام الحذر ولزوم التقوى.

وهاك ما ورد في ذلك:

١. ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨].
٢. ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا

كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ [البقرة: ٢٨١].

٣. ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ

وَلَا تَنْفَعُهَا شَفْعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ [البقرة: ١٢٣].

٤. ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ [المزمل: ١٧].

والتقوى لا تكون مما سيحدث في هذا اليوم، خاصة إذا كان ما سيحدث فيه شديداً لا دفع له، وأكيداً لا تخمين فيه. يقول العلامة الألوسي، في «روح المعاني»: «واتقاؤه بمعنى اتقاء ما فيه، إما مجازاً يجعل الظرف عبارة عن المظروف، أو كناية عنه للزومه له وإلا فالاتقاء من نفس اليوم مما لا يمكن، لأنه آتٍ لا محالة، ولا بد أن يراه أهل الجنة والنار جميعاً، والممكن المقدور اتقاء ما فيه بالعمل الصالح»^(١).

فمعنى التقوى اللغوي^(٢) أن يجعل المرء بينه وبين عذاب الله تعالى أو حسابه الواقع في هذا اليوم وقاية تقيه منه، وهذه الوقاية هي تقوى الله تعالى، ولكنها بالمعنى الشرعي المعلوم. ونلاحظ أن (يوماً) منكراً ومنونة في كل المواضع، حيث أعربت مفعولاً به، لا ظرفاً، وذلك لتحويل شأن هذا اليوم وشدته، وطوله وكرهه، مما وصفه الله تعالى به في آيات أخرى، كما أشرنا إلى شئ منها. ولعل في تنكيره إبهام مجيئه كذلك، ليكون الناس على حذر من مباغتته إياهم، فيستعدوا بتنام التقوى للقاءه.

وسياق الآيات الكريهات يبين لنا أن القرآن الكريم خاطب كافة البشر باتقاء اليوم الآخر، كلاً بما يليق به من أسلوب ينبئ عن فكره واعتقاده، وبما يكون مؤثراً فيه، بالغاً به الدرجة القصوى من الموعظة، عذراً لهم جميعاً، وتهديداً

(١) العلامة محمود الألوسي «روح المعاني»، (١/٣٩٨).

(٢) انظر العلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/٤٨٤).

لهم جميعاً. فآية المزمل - وهى قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ۝١٧﴾ - جاءت خطاباً للمشركين المكذبين، حيث سبق قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٨ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنَ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ۝١٩﴾ ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ...﴾، فهددهم بما حدث لفرعون في الدنيا بتكذيبه الرسل، أن يحدث لهم مثله، وتوعدهم بما هو أشد، وهو اليوم الذي تشيب فيه الولدان، ليكون باعثاً لهم على تقوى الله تعالى.

وأما قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفْعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝٢٠﴾، والآية الأخرى الشبيهة بها فسياقها في أهل الكتاب من اليهود والنصارى، إذ جاءت بعد قوله تعالى: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ۝٢١﴾ ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي...﴾. ومناسبة سياقها على هذا النحو أن اليهود والنصارى معتقدون أن أنبياءهم وصالحهم سيشفعون لهم عند الله، فأياسهم الله تعالى وقنطهم من كل شيء يظنون نجاتهم به في هذا اليوم، إلا من تقوى الله تعالى، كما سنشير إلى كلام المفسرين.

والآية الثالثة - وهى قوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَىٰ اللَّهِ ۝٢٢ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٢٣﴾ - قد جاءت في سياق نهى الله تعالى المؤمنين عن التعامل بالربا، وأمرهم بحسن المعاملة من إنظار المعسر والتخفيف على المدين، ثم حذرهم اليوم الذي سيرجعون حتماً فيه إلى الله - جل وعلا - فيعطى ويمجازى كل أحد على قدر طاعته وإحسانه، وأنه لا يضيع عنده مثقال الذرة من العمل الصالح، كما أنه سيجازى العاصين المتعدين لحدوده، المخالفين لأمره، جزاءهم الوفاق: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٢٤﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٢٥﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، وكأن اليوم من الهول

بحيث يجب أن يتقيه كل أحد من مسلم أو كافر.

وقد وصف يوم القيامة بأنه تشيب له الولدان، وأنه لا يرد فيه ولا يدفع ولا ينفع ولا يشفع أحد عن أحد. فالوصف الأول يدل على مدى هوله وشدته وعظم كربه، وما يغشى الناس فيه من المحن والعذاب، وما يقاسونه من طول الانتظار، والثاني أنه لا مرد له من الله ولا وقاية له بغير التقوى، والثالث أنه توفي كل نفس ما كسبت، فجمعت الآيات بذلك ما يمكن أن يكون سبباً لتقوى الله تعالى. يقول العلامة الطاهر بن عاشور: «ولذلك قال الشيخ ابن عطية: حصرت هذه الآية المعاني التي اعتاد بها بنو آدم في الدنيا، فإن الواقع في شدة لا يتخلص إلا بأن يشفع له أو يفتدى أو ينصر»^(١).

وذلك في الوصف الأول في الآيات ليوم القيامة.

وقد جاء تنكير «نفس» و«شيء» في الآية في سياق النفي، فتعم كل نفس وكل شيء، ويكون المعنى أنه لا تجزى أى نفس أى شيء عن أى نفس، وهذا يفيد التأسيس الكلي والإقنات التام من نجاة أى نفس، إلا بتقوى الله تعالى. يقول العلامة أبو السعود: «لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا» أى: لا تقضى عنها شيئاً من الحقوق...، وإيراده منكراً مع تنكير النفس للتعميم

(١) الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/٤٨٦)، وذكر أن تفسيره للآية أرسق من تفسير ابن عطية.

والعدل هو الفدية في الآية، وقد احتجت المعتزلة على اعتقادهم الفاسد بنفي الشفاعة لأهل الكبائر من أمة محمد ﷺ على خلاف معتقد أهل السنة جميعاً. وما من مفسر قرأت له إلا وذكر موضوع الشفاعة لأهل الإيمان ممن ارتكب الكبائر في هذه الآية، رادا على المعتزلة. راجع كلام العلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، حيث أحاط بالمسألة، (١/٤٨٧-٤٨٨).

والإقناط الكلى»^(١).

وأخر هذه المعمولات هو «السيئات»، وقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُهُ﴾ [غافر: ٩].

جاءت السيئات هنا في هذا الموضع معمولا للتقوى في قوله تعالى: ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُهُ﴾. وقد ذكر بعض المفسرين أن (قهم السيئات) معناها ألا يفعلوها في الدنيا وأن يحفظها منها، ومن ثم كان من وقاه الله تعالى السيئات فقد رحمه من آثارها الوخيمة في الآخرة. ويمكن أن يكون ذلك في الآخرة، بمعنى: ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ أى جزاء السيئات، أو على ظاهرها على أن جزاء السيئة سيئة مثلها، ﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ﴾ على معنى ما سبق يومئذ أى يوم القيامة، ﴿فَقَدْ رَحِمْتُهُ﴾ من وبيل عقابها، على حذف المضاف، أو منها نفسها، على كونها هى الجزاء. ويكون معنى الوقاية من السيئات في الدنيا والآخرة أن وفقهم الله تعالى لتقواه بالمعنى الشرعى، ليحول بذلك بينهم وبين هلكتهم. والسياق يدل على كون ذلك في الآخرة، إذ تقوى السيئات هى الرحمة التى لا رحمة بعدها، وذلك هو الفوز العظيم، خاصة وأن ذلك دعاء الملائكة للمؤمنين، إذ من فضل الله تعالى السابغ على أهل الإيوان، التائبين منهم بالذات، المستقيمين على أمر الله تعالى، المتمسكين بطريقه، أن ملائكة الله - جل وعلا - الذين يحملون العرش من حوله، من وظائفهم التى يقومون بها ويدأومون عليها، دعاءهم للمؤمنين بهذه الأدعية التى ذكرتها الآيات السابقة على الآية الكريمة التى معنا.

وذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِءِ وَكَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً

(١) العلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (١/ ١٢١).

وَعَلِمًا فَاعْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا
وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ
وَذُرِّيَّتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ
يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ۚ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ [غافر: ٧-٩].

وقد لخص ذلك كله العلامة الألوسي في «روح المعاني»^(١).
وبذلك نختم ما أحصينا من آيات «مضافات التقوى» ومعمولاتها.

(١) انظر العلامة محمود الألوسي «روح المعاني»، مجلد ١٣، (٧٣/٢٤).

المطلب الثالث الأوامر المصاحبة للتقوى

جاء الأمر بالتقوى في القرآن الكريم في آيات كثيرة، إما معطوفاً على أحد الأوامر أو النواهي، كقوله - سبحانه - في الأوامر: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، ومن الثانى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [آل عمران: ١٣٠].

وقد يأتى العكس، أى الأمر بالتقوى، ثم يعطف عليه الأمر أو النهى، فالأول مثل قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥]، ومن الثانى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وقد يكرر الأمر بالتقوى، كقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

وقد يأتى أمر ونهى معطوفين على الأمر بالتقوى، كقوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا ءَايَتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣١]. فهذه الآية فيها نهى عن اتخاذ آيات الله هزواً، وأمر بذكر نعمة الله عليهم وما أنزل من الكتاب والحكمة هدايتهم، ثم عطف على هذا الأمر والنهى الأمر بالتقوى، فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٣١]، ثم ذيلت الآية بقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣١].

علاوة على ما أسميته أساليب الحض على التقوى، وهى التذييلات التى

جاءت في نهاية هذه الأوامر لتكون حضاً وحثاً على تنفيذ تلك الأوامر السابقة، ولها أمثلة مما حصرناه في أول الفصل، منها قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، وقوله: ﴿وَقَدْ مُمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوُهُ وَنَشِيرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

ولم أجد من المفسرين الذين قرأت لهم تفسير هذه الآيات ما يشفى الغلة في توضيح معنى الأمر بالتقوى في هذه الآيات الكريبات، سواء كان مقدماً أو مؤخراً، فإما أنهم لم يذكروها من أصلها كابن عطية والزحشرى، أو أشار إلى معنى التقوى المعلوم - وهو إتيان الأوامر واجتناب النواهي - كالحافظ بن كثير.

وبالنظر في هذه الآيات نجد فرقاً في الأسلوب والمعنى، لو أخرجنا ما قدم أو قدمنا ما أخر. مثال ذلك قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [المائدة: ٤]، فلو قلنا: اتقوا الله وكلوا مما أمسكن عليكم، لتغير المعنى، والدليل على ذلك أننا لو قلنا: اتقوا الله وكلوا، لكان مقصود الشرع هو الأكل، لذلك خوفهم بالله وأمره بالأكل وحملهم عليه، وأن يأكلوا أو لا ليس مقصوداً للشرع، لأنه مباح، أما أن يقول: (فكلوا.. واتقوا..) يكون بذلك أباح لهم الأكل، ثم أمرهم بتقواه ألا يكون في هذا المباح ما يخالف ربهم، أو أن يقعوا بسببه فيما كره لهم أو حرمه عليهم، ويقاس على ذلك الباقي، مع ملاحظة السياق في ذلك كله.

وكذلك في قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١] تختلف عما لو قلنا: أصلحوا ذات بينكم واتقوا الله. وهكذا في معظم الآيات، خاصة تلك التي عطف فيها الأوامر على الأمر بالتقوى أو بالعكس، مما يبين دقة القرآن الكريم المعهودة في اختيار الألفاظ للمعاني المقصودة.

ولابد من النظر في بعض معاني التقوى - التي أشرنا إليها - لنقيم الدليل والبرهان على صحة ذلك، ونؤيده بهذه الآيات شواهد عليه. فنبداً بالقول إن من معاني التقوى الخوف، وهو أقرب ما وجدنا من المعاني يناسب الأوامر أو النواهي بعد الأمر بالتقوى. ويكون المعنى: خافوا الله وافعلوا، أو: خافوا الله ولا تفعلوا، فيكون الخوف هو الباعث على القيام بأوامر الشرع، وانتهاء عن نواهيه، ويكون المعنى: اجعلوا بينكم وبين ما تحذرون من عذاب الله تعالى وسخطه وقاية، من التزام ما أمركم به، واجتناب ما نهاكم عنه. ويكون الأمر بالتقوى - أولاً - ليسرّع أهل الإيمان إلى الامتثال والمبادرة، وعدم التعلل بالواهي من العلل، للتحلل من أوامر الشرع أو نواهيه.

ويصح - في نظري القاصر - أن تكون تلك قاعدة يفسر بها الأمر بالتقوى، قبل الأمر بالشيء أو النهي عن شيء. وبالتنقيب في كلام أهل العلم عن بصيص يؤيد ما أقول، وجدت في كلام العلامة الطاهر بن عاشور - عند تفسير قوله تعالى: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحشر: ١٨] - شيئاً من ذلك، حيث يقول: «ويجوز أن يكون (اتقوا الله) المذكور أولاً مراداً به التقوى بمعنى الخوف من الله، وهي الباعثة على العمل، ولذلك أردف بقوله: ﴿ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾»^(١).

أما ما ورد من الأمر أو النهي، ثم يعقبه الأمر بالتقوى، كقوله تعالى: ﴿ أَعِدُّوا لَهُ أَقْرَبَ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨]، وقوله تعالى: ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿ يَتَأَيُّبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ

(١) العلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٨/ ١١٢).

وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ [المائدة: ٥٧].

الظاهر من كلام المفسرين أن الأمر بالتقوى بعد الأمر بشيء أو النهى عن شيء، إنما هو الأمر بالتقوى مطلقاً، وهى التى تحمل المؤمن على تمام الامثال لله تعالى، ولرسوله ﷺ فى كل شيء، ثم الامثال بوجه خاص بما ورد فى السياق، تنبيهاً على أهميته فى حينه. ويكون المعنى: اتقوا الله أن تقصروا فى أوامره، أو أن ترتكبوا نواهيه، ومن جملتها ذلك الذى أمرناكم به أو نهيناكم عنه، وكذلك احذروا أن تتعدوا حدود الله فيه، أو أن تفرطوا فى تحصيله.

يقول الإمام الطبرى فى مثل ذلك، فى تفسير قوله تعالى: ﴿ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ «يعنى - جل ثناؤه: واتقوا الله أيها الناس فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه، فاحذروه فى ذلك أن تقدموا على خلافه». ثم يشير إلى ما أمر بهن السياق، فيقول - رحمه الله: «وأن تأكلوا من صيد الجوارح غير المعلمة أو مما لم تمسك عليكم من صيدها وأمسكته على أنفسها، أو تطعموا ما لم يسم الله عليه من الصيد والذبائح...»، إلى أن يقول: «ثم خوفهم إن هم فعلوا ما نهاهم عنه من ذلك وغيره، فقال: اعلموا أن الله سريع حسابه لمن حاسبه على نعمته منكم»^(١).

نأتى الآن إلى تفصيل تلك المواضع:

أولاً: المواضع التى عطفت فيها الأوامر على التقوى:

أول هذه المواضع قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾. وهو معطوف على أمر من أوامر الشرع وهو قوله: ﴿ وَاتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾، كما هو واضح فى سياق الكلام على أحكام الحج وإتمام مناسكه، ليفيد الوصاية بتقوى الله تعالى، بعد بيان تلك الأحكام التى لا تخلو من مشقة

(١) محمد بن جرير الطبرى «جامع البيان فى تفسير القرآن»، مجلد ٤، (٦ / ٦٤).

التقوى في القرآن الكريم

للتحذير من التهاون فيها، فالأمر بالتقوى عام، والحج هو أجدر أفراد هذا العموم، لأن الكلام فيه.

أما قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فقد تصدر بقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا﴾، اهتماماً بالخبر، وأن العلم به يقينى لا احتمال فيه، إذ لا حاجة فيه للنظر وإعمال الفكر. ولو اقتصر على قوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لحصل العلم المطلوب، لكن لما أريد تأكيد الخبر افتتح بالأمر بالعلم. وفيه كذلك تعريض بغفلة المخاطب عن أمر مهم^(١)، فجمعت هذه المعانى لتبين أهمية التقوى، وأهميتها في ذلك السياق بالذات، فإن كان في بعض أحكام التقوى كأحجام الحج شدة على النفس رجاء سعادتها، فإنه لا توازى شدة العقاب حال التفريط فيها والتهاون في أدائها، فكان هذا الحض متناسباً تماماً مع بقية السياق. يقول العلامة الألوسى في «روح المعانى»:

﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ﴾ في كل ما يأمركم به وينهاكم عنه، كما يستفاد من ترك المفعول، ويدخل فيه الحج دخولاً أولياً، وبه يتم الانتظام. ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن لم يتقه، أى استحضروا ذلك لتمتنعوا عن العصيان، وإظهار الاسم الجليل في مواضع الإضمار لتربية المهابة وإدخال الروعة^(٢). فكان هذا الترتيب للأمر بالتقوى في هذا السياق بهذه المعانى، مما يحذر المرء أشد التحذير، ويخوفه أشد التخويف، من عدم التزام التقوى وأحكامها.

(١) وانظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢/ ٢١١، ٢٣٠)، (٩/ ٣١٤). وقد فصلناها في قوله: (واعلموا أن الله مع المتقين).

(٢) العلامة الألوسى «روح المعانى»، (٢/ ١٢٧). وقد سبقه بحروفه العلامة أبو السعود

في «إرشاد العقل السليم»، (١/ ٢٤٣). وصديق خان «فتح البيان في مقاصد القرآن»،

مطبعة العاصمة القاهرة، ١٩٦٥م، (١/ ٢٣٠).

والموضع التالي هو قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣]. وهذا موضع في الحث كذلك على التقوى والحض عليها، وهو في خاتمة آيات الحج من سورة البقرة، وهو معطوف على الأمر بذكره - سبحانه - في قوله: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ في نفس الآية، فهو من باب الأمر بالتقوى بعد الأمر بشيء من أوامر الشرع بها مر ذكره في بداية المطلب.

والقول في حذف مفعول ﴿وَاتَّقُوا﴾ والقول في ﴿وَأَعْلَمُوا﴾ سبق، والجديد الذي يحمل المؤمن على التقوى وهو قوله: ﴿أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾. وهذه الوصية بالتقوى وصية جامعة للراجعين من الحج أن يتقوا الله تعالى في سائر أحوالهم وأماكنهم، وألا يجعلوا تقواه خاصة بمدة الحج، كما كانت تفعله الجاهلية، فإذا انقضى الحج رجعوا يتقاتلون ويغيرون ويفسدون، وكما يفعله كثير من عصاة المسلمين عند انقضاء رمضان أيضاً. وإن أهم شيء يدل على الثبات على تلك التقوى المأمور بها هو دوام ذكره، الذي يتحصن به المرء من الشيطان، كما أنه المقصود من تلك العبادات.

وقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ تحريض على التقوى وتحذير من خلافها.^(١) يقول الإمام فخر الدين الرازي، في «التفسير الكبير»: «وأما قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فهو تأكيد بالتقوى، وبعث على التشديد فيه، لأنه من تصور أنه لا بد من حشر ومحاسبة ومساءلة، وأن بعد الموت لا دار إلا الجنة أو النار، صار ذلك من أقوى الدواعي له إلى التقوى».^(٢)

(١) انظر لما سبق الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢/ ٢٦٤).

(٢) انظر الفخر الرازي «التفسير الكبير»، (٣/ ٢٢٦). وانظر الألوسي «روح المعاني»، (ص ١٤٢). والعلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (١/ ٢٤٧).

التقوى في القرآن الكريم

وأما تقديم ﴿إِلَيْهِ﴾ فللاعتناء بمن يكون الحشر إليه ^(١) - سبحانه وتعالى. ويواصل الإمام الفخر كلامه، فيقول: «المراد بقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ﴾ أنه حيث لا مالك سواه ولا ملجأ إلا إليه، ولا يستطيع أحد دفعاً عن نفسه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الأنفطار: ١٩]». ^(٢)

وأما مناسبة ﴿تُحْشَرُونَ﴾ للسياق دون غيرها، فقد ذكر ذلك العلامة الطاهر بن عاشور، في «التحرير والتنوير»، ونلخص ما يفيدنا، فيقول: واختير لفظ ﴿تُحْشَرُونَ﴾ دون: تصيرون أو ترجعون؛ لأن الحشر - الذي هو الجمع بعد التفرق - يدل على المصير والرجوع، مع دلالة الاجتماع - مجتمعين كلهم - كما كانوا مجتمعين حين استحضار حالهم في هذا الخطاب، وهو اجتماع الحج، فذكر ذلك بالحشر العظيم». ^(٣)

ومعنى ذلك أن حشركم إلى الله تعالى يوم القيامة يذكركم به هذا الحشر الكبير في الحج في عرفات، ومزدلفة ومنى، وفي الطواف والسعي، إذ كل ذلك تنبيه مصغر ليوم الحشر الأكبر. والتقوى خير زاد يستعد به المرء لنجاته في هذا اليوم، فكان لفظ ﴿تُحْشَرُونَ﴾ أنسب الألفاظ للسياق، مع الحض الشديد على تقوى الله.

وأما الموضع التالى فهو قوله تعالى: ﴿وَقَدِْمُوا لَأَنفُسِكُمْ^٤ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوُهُ^٥ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣]. وهو موضع كذلك من عطف الأمر بالتقوى على أمر من أوامر الشرع وهو الأمر بتقديم الأعمال الصالحة، وهذه الجمل الكريمة في سياق أدب من آداب الإسلام، وهو

(١) انظر الألوسى «روح المعاني»، (٢/ ١٤٢).

(٢) الرازى «التفسير الكبير»، (٣/ ٢٢٦).

(٣) انظر العلامة ابن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢/ ٢٦٤).

أدب إتيان النساء، وما ينبغي على المسلم أن يكون فيه من الفضائل، وهذا من إحاطة الإسلام بكافة تصاريف المرء وأعماله، لتكون في ظاهرها وباطنها، وسرها وعلاقتها على وفق ما يحب الله تعالى ويرضى.

وسياق الآية الكريمة: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لَأَنفُسِكُمْ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَقَدِّمُوا لَأَنفُسِكُمْ﴾ أي: أعدوا لأنفسكم، أي: لنفعها ما يدخر لكم من الثواب بالأعمال الصالحة في هذه الحياة الدنيا، لتجدوا غبطة ذلك: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لَأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]، وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ عطف على الأمر بتقدمة الأعمال الصالحة، وهو تحريض يناسب السياق السابق في قضاء الشهوات، وخوف التفريط في القربات؛ تحريض على امتثال الشرع بتجنب المخالفة، فيدخل تحته التخلي عن السيئات، والتخلي بالواجبات والقربات، فمضمونها أعم من جملة ﴿وَقَدِّمُوا لَأَنفُسِكُمْ﴾^(١).

ولقائل أن يقول: ما علاقة ذلك بآداب إتيان النساء؟

العلاقة أولاً: بما أشرنا إليه آنفاً من أن كل حياة المسلم يجب أن تخضع لله

تعالى.

وثانياً: أن ذلك اهتمام بالحرص على الأعمال الصالحة، لئلا ينساها المرء حال انشغاله بلذاته وشهواته، أو ألا تكون شهواته ولذائذه هي الطاغية على وقته وجهده، والمسيطرة على فكره وعقله، فإن له معاداً لا ينفع فيه إلا العمل الصالح، إلا تقوى الله تعالى.^(٢)

(١) وانظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢/ ٣٧٤).

(٢) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢/ ٣٧٤).

وقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقُوهُ﴾ عطف على قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، وهو أسلوب جديد كذلك غير ما سبق من أساليب الحض على تقوى الله تعالى، وهو يحمل التحذير والترغيب في آن. يقول الطاهر بن عاشور، في «التحرير والتنوير»: «وقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقُوهُ﴾ يجمع التحذير والترغيب، أى فلاقوه بما يرضى به عنكم، كقوله: ﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ﴾، وهو عطف على قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾»^(١).

هذا أسلوب قوى في حمل المؤمن على تقوى الله تعالى، عندما يوقن بملاقاة الله - جل وعلا، وأنه لا يمنعه منه حينئذ مانع، ولا يدفع عنه دافع. وأما قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقُوهُ﴾، وكونه أمراً بعد الأمر بالتقوى يحمل شدة التحذير، ومناسبة ذلك للسياق فلم أر من تكلم عن مناسبته، كما في الآية السابقة في قوله تعالى: (تخشرون).

وأقول - والعلم عند الله تعالى: إن ملاقاته تعالى تزيد على الخشع، فهي مواجهة الله تعالى لعباده بما عملوا، فإذا تيقن المرء أنه محشور وموقوف ومعرض على الله تعالى، ثم يواجه بما قدمت يداه، فلا شك أن ذلك يزيد من خوفه من ربه، وكذلك من الاستحياء منه، وإن عفا عنه - سبحانه - وهو الأهم في ملاقاته الله، وكان تصريح العلماء بشيء من ذلك. يقول الفضيل بن عياض^(٢): «وسوأتاه منك وإن عفوت»^(٣). وهذا الكلام منبئ على حديث الرسول ﷺ: «ما

(١) الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢/ ٣٧٥). قال ابن عطية: «هو خبر يقتضى مبالغة في التحذير»، «المحرر الوجيز»، (١/ ٣٠٠).

(٢) هو أبو على الفضيل بن عياض أحد أئمة العباد الزهاد وهو أحد العلماء والأولياء انتقل إلى مكة فتعبد بها، وكان حسن التلاوة كثير الصلاة والصيام وتوفى رحمه الله عام ٨٧ هـ. انظر البداية والنهاية لابن كثير (١٠/ ١٩٨).

(٣) لطائف المعارف، ابن رجب الحنبلي، الطبعة الأولى، ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٢ م، ط. دار ابن

الرسول ﷺ: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله، ليس بينه وبين الله ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم... الحديث»^(١). وهذا الأمر مما يستحى المرء منه، وفيه ما حرم الله تعالى ونهى عنه، فكان مناسباً أن يستحى المرء أن يأتي الله تعالى بما يستحى منه، فنبهه المولى - جل وعلا - بلفظه على ذلك، وحذره من الفضيحة بين يديه بمثل تلك الأمور، وغيرها، والله أعلم.

وهكذا نرى كيف جاء هذا الأسلوب حاضاً على التقوى حاثاً عليها، لينضاف إلى ما سبق وما سيلي من أساليب.

وقد أشار العلامة الطاهر بن عاشور، في تفسيره للآية في «التحرير والتنوير»، إلى أن الجمل الثلاث رتبت على عكس حصول مضمونها في الخارج. يقول - رحمه الله: «فإن الظاهر أن يكون الإعلام بملاقاة الله هو الحاصل أولاً، ثم يعقبه الأمر بالتقوى ثم الأمر بأن يقدموا لأنفسهم، فخولف الظاهر للمبادرة بالأمر بالاستعداد ليوم الجزاء، وأعقب بالأمر بالتقوى إشعاراً بأنها هي الاستعداد، ثم ذكروا بأنهم ملاقوا الله، فجاء ذلك بمنزلة التعليل»^(٢).

وجاء قوله تعالى: ﴿وَنَشَرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تعقيباً للتحذير بالبشارة على عادة القرآن الكريم من قرن الوعد بالوعيد.

وأما الآية التالية، فقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣١]. وهذا أسلوب آخر نضيفه إلى ما أوردناه سابقاً من أساليب

كثير، دمشق، بيروت، (ص ٤٩٦).

(١) رواه البخارى (٣/١٤١٧)، ومسلم (٤/١٠٩)، وهذا لفظ مسلم.

(٢) الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢/٣٧٥). وقد ذكر الفخر الرازى في «التفسير الكبير»، (٣/٣٥٧)، تعليلاً آخر. قال في نهايته: «وما أحسن هذا الترتيب»، فانظره.

الحض على التقوى والالتزام بها.

جاء هذا الأمر بالتقوى بعد نهى وأمر في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا ءَايَتِ اللَّهِ هُزُوءًا وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

وهذه الآيات قريبة من الآيات المسوقة آنفاً، ولكنها في الطلاق والخلع والعدة، وما يتعلق بذلك من أحكام الشرع الشريف، والتي أمر المؤمنين فيها أن يتقوا الله تعالى، في أنفسهم ونسائهم وبيوتهم، وأن تكون تقوى الله هي المحرك لهم فيما يأتون ويذرون من هذه الأحكام وغيرها، وألا يكون الهوى والشهوة والانتصار للنفس ومضايقة الآخرين هو الحامل لهم على ذلك، فيكونون كالمستهزئين بهذه الأحكام، اللاعبين بأوامر الله - جل وعلا. ثم ذكرهم بمرته - سبحانه - بإنزال الكتاب والحكمة، إذ أخرجهم من وهدة الجاهلية وضلالها، فاتقوا الله ولا ترجعوا إلى هذه الضلالات، بعد هدايتكم بنعمة الإسلام.

فبينت الآيات - أولاً - أن تقوى الله تعالى لازمة للمؤمن إذا في كل أحواله، وأنها المقصد من كل أحكام الشرع، فلا يفتأ القرآن الكريم يأمر بها ويوصي، سلوكاً واتباعاً، ويبشر بها عقوبة ونتيجة.

وثانياً: كان هذا الأسلوب من أساليب الحض على التقوى مناسباً لهذا السياق، فعندما حذرهم من الاستهزاء بآيات الله بأى نحو كان أمرهم بالتقوى وحثهم عليها بأسلوب التوكيد بأنه بكل شىء عليهم، فلا يغيب عنه شىء من أمورهم.

فهذا تحذير من المخالفة يترتب عليه عقابهم، وإلا بماذا يفيد العلم بمن استهزئ بآيات الله. يقول العلامة ابن عاشور، في «التحرير والتنوير»: «وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ تذكير بالتقوى وبمراعاة علمهم بأن الله عليم بكل شىء تنزيلاً لهم في حين مخالفتهم بأفعالهم لمقاصد الشريعة،

منزلة من يجهل أن الله عليم لا يخفى عليه شيء، وهو إذا علم مخالفتهم لا يحول بين عقابه وبينهم شيء لأن هذا العليم قدير»^(١).

وهكذا ينضاف علم الله بخلقه تحذيراً جديداً باعثاً على التقوى.
وأما الآية التالية، فهي قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وإذا كان علم الله تعالى - في الآية السابقة - بظواهر أفعالهم، وخوافي نياتهم هو الحاث لهم على تقوى الله تعالى، فإن بر الله بهم هو الباعث لهم في هذه الآية الكريمة على تقوى الله في سرهم وعلاانيتهم، وكفى بإعلامهم بأن الله ناظر إليهم زاجراً ورادعاً. يقول العلامة أبو السعود، في تفسيره «إرشاد العقل السليم»: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم بذلك. وإظهار الاسم الجليل في موضع الاضمار لتربية المهابة، وفيه من الوعيد ما لا يخفى»^(٢).

ولتوضيح هذا التهديد الشديد الحامل على تقوى الله تعالى، نسوق شيئاً - مختصراً - مما ذكره الحافظ ابن رجب الحنبلي، في شرحه لحديث: «اتق الله حيثما كنت»، من كتابه «جامع العلوم والحكم». يقول - رحمه الله تعالى: وقال أبو الجلد: أوحى الله تعالى إلى نبي من الأنبياء: قل لقومك: ما بالكم تسترون الذنوب من خلقي، وتظهرونها لي؟! إن كنتم ترون أني لا أراكم فأنتم مشركون بي، وإن كنتم ترون أني أراكم فلم جعلتموني أهون الناظرين إليكم؟».

ويقول كذلك: «وهذا هو السبب الموجب لحشية الله في السر، فإن من علم أن الله يراه حيث كان، وأنه مطلع على باطنه وظاهره، وسره وعلايته، واستحضر ذلك في خلواته، أوجب له ذلك ترك المعاصي في السر. وإلى هذا

(١) الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢/ ٤٢٥).

(٢) العلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (١/ ٢٧٠).

المعنى الإشارة في القرآن الكريم بقوله - عز وجل: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

إلى أن يقول - رحمه الله: «وسئل الجنيد^(١): بما يستعان على غض البصر، قال: بعلمك أن نظر الله إليك أسبق من نظرك إلى ما تنظره. وكان الإمام أحمد ينشد:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل: خلوت، ولكن قل: على رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعةً ولا أن ما يخفى عليه يغيب»^(٢).

فإذا ما تيقن المرء أنه تحت بصر الله، لا يخفى منه شيء على الله، دعاه ذلك وحمله على التقوى والالتزام بأمور الشرع والاستحياء والخوف من مخافتها، وإجلال الله تعالى أن يراه حيث نهاه أو يفترقه حيث أمره.

والشاهد التالي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

وهذا من بديع معنى الحث على التقوى والحض عليها، إذ نصر الله للمؤمنين من أعظم ما يشكرون عليه ربهم - سبحانه وتعالى، لأن النصر من عند الله - جل وعلا. فجعل الله تعالى تقواهم له - سبحانه - هو شكرهم الذي يتوجهون به إليه، ويقومون له به.

يقول الإمام ابن جرير الطبري في «جامع البيان في تفسير القرآن»، عند تفسير هذه الآية الكريمة:

(١) شيخ مذهب التصوف، وهو سيد الطائفة، مولده ومنشأه ووفاته ببغداد، ت ٢٩٧هـ، انظر سير أعلام النبلاء، (٢/١٣٧).

(٢) انظر ابن رجب «جامع العلوم والحكم»، (١/٤٠٩-٤٠٨).

«عن ابن اسحاق^(١): ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾، يقول: وأنتم أقل عدداً وأضعف قوة، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أى: فاتقون فإنه شكر نعمتى». ^(٢)

أى أن تكون التقوى شكراً لله على نعمه، وأن يكون ذلك المعنى بهذه الصياغة من أساليب الحض على التقوى، فذلك مما يحتاج إلى توضيح. أما الكلام على الشكر وتوضيح الكلام فيه، فقد ذكره كل من تكلم في هذه المقامات من مقامات الإيثار، كأبى حامد الغزالي في «الإحياء»، وابن القيم في «مدارج السالكين»، وابن أبى الدنيا في كتاب «الشكر»، وابن رجب الحنبلى في «جامع العلوم والحكم»، وكل من تكلم في التصوف، وغيرهم من شراح السنة، ومفسرى القرآن الكريم.

ونختصر من أقوالهم اختصاراً، ونركز على كلام الحافظ ابن رجب، لأنه الأنسب لما نحن فيه.

فنختصر مقدمة الشكر - أولاً - من كلام الإمام ابن القيم في كتابه «مدارج السالكين شرح منازل السائرين». ^(٣) يقول - رحمه الله تعالى - ما ملخصه: الشكر منزلة من أعلى المنازل، وهى فوق «الرضا» وزيادة، فالرضا مندرج في الشكر، إذ يستحيل وجود الشكر بدونه. وهو نصف الإيثار، فالإيثار نصفان: شكر وصبر. وقد أمر الله تعالى به، فقال: ﴿وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤]، ونهى عن ضده، فقال تعالى: ﴿وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا

(١) محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي، محدث، ومؤرخ، توفي سنة ١٥٠ هـ. انظر المزي (تهذيب الكمال) (٢٤/٤٠٥).

(٢) ابن جرير الطبرى «جامع البيان»، مجلد ٣، (٤/٤٩).

(٣) ابن قيم الجوزية «مدارج السالكين»، (٢/١٧٨: ١٧٩): منزلة الشكر.

تَكْفُرُونَ ﴿ [البقرة: ١٥٢]، وأثنى على أهله، فقال: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ﴿ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢١]، وجعل الشكر غاية خلقه وأمره، قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ﴿ [النحل: ٧٨]، ووعد أهله بأحسن جزائه، فقال: ﴿ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وجعله سبباً للمزيد من فضله، وحارساً وحافظاً لنعمته، فقال: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧]، وأخبر أن أهله هم المتفعلون بآياته، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [لقمان: ٣١]، واشتق لهم اسماً من أسمائه، فقد سمي نفسه - سبحانه: «شاكراً» و«شكوراً»، وسمى الشاكرين بهذين الاسمين، فأعطاهم من وصفه وسماهم باسمه، وحسبك بهذا محبةً للشاكرين وفضلاً.

يقول الإمام ابن رجب، في «جامع العلوم والحكم»، ما ملخصه: ولكن الشكر على درجتين: إحداهما: واجب، وهو أن يأتي بالواجبات، ويجتنب المحارم. وهذا لا بد منه، ويكفي في شكر هذه النعم. والدرجة الثانية من الشكر: الشكر المستحب. وهو أن يعمل العبد بعد أداء الفرائض واجتناب المحارم بنوافل الطاعات، وهذه درجة السابقين المقربين، وهي التي أرشد إليها النبي ﷺ.

كان الأسلوب القرآني الكريم: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ من أعظم أساليب الحث على التقوى والحض عليها، عندما يعلم المرء أنه بسلوكه مسالك التقوى المختلفة يصل إلى هذه الدرجة العلى من القرب والاصطفاء والأجر عند الله تعالى، وذلك في الدنيا والآخرة.

ونعود لسياق هذه الآية الكريمة، لنختم الكلام عليها، حيث يقول الحق تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ أُذُلَةٍ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ يقول العلامة أبو

السعود، أثناء تفسيره للآية، في تفسيره «إرشاد العقل السليم»: «وفي ترتيب الأمر بالتقوى على الإخبار بالنصر إيدان بأن نصرهم المذكور كان بسبب تقواهم؛ أى إذا كان الأمر كذلك فاتقوا الله كما اتقيتم يومئذ. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أى راجين أن تشكروا ما ينعم به عليكم بتقواكم من النصرة كما شكرتم فيما قبل»^(١).

والآية التالية قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

والأمر بالتقوى هنا معطوف على أمر ونهى قبله، وهو أمر عام بالتقوى، يفيد التقوى في كل الأحوال والأمور، وخاصة ما تقدم ذكره - من باب الأولى - وهو التعاون على البر والتقوى، وعدم التعاون على الإثم والعدوان، حتى ولو كان ذلك موجهاً ضد الكفرة المشركين الذين صدوكم عن المسجد الحرام، فلا يحملنكم بغضهم على الاعتداء بطريق التشفى.

ولما كان هذا حملاً للمؤمنين على هذه الدرجة العالية من الأخلاق الفاضلة، ولو مع الكفرة الذين آذوهم واعتدوا عليهم، كان لابد أن يأتي مع الأمر بالتقوى تحذير شديد يمنع من مخالفتها، ويحمل المؤمنين ويحثهم على التزامها، فجاء قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ تعليلاً لهذا الأمر بالتقوى، أى: إن الله يعاقب من لا يتقيه لا محالة، لذا أكد هذا الخبر بـ «ان» والجملة الاسمية.

ونلاحظ كذلك أنه أظهر الاسم الجليل في موضع الإضمار لإدخال الروعة في قلوب المؤمنين، إذ السياق بدلاً من قوله: إنه شديد العقاب. وأفاد إظهار اسم الجلالة كذلك تقوية استقلال الجملة، لتصير تذيلاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾،

(١) العلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (١/٤٠٩).

ليحفظها المرء منعاً له من تقحم الحرام، أو التفريط في أوامر الله تعالى. ^(١) خاصة وقد نزلت الآية الكريمة في المشركين الذين صدوا المسلمين عن المسجد الحرام، فما أن تمكن منهم المسلمون حتى وصلهم الأمر بالعدل، وترك التشفى والظلم، مع ما في ذلك من مخالفة النفس ودواعي الطبع من أن ينتصر المرء ممن ظلمه، وينزل به شيئاً مما فعل به، ولصعوبة الموقف في هذه الأحوال على حد العدل جاء هذا التذليل الشديد، إن عاقبتكم بشدة فجرتكم ولم تعدلوا، فاحذروا شدة عقاب الله تعالى.

والآية التالية قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [المائدة: ٤].

وهو كذلك من مواضع عطف الأمر بالتقوى على أمر من أوامر الشرع، فقد نزلت الآية الكريمة في سياق سؤال الصحابة - رضى الله عنهم - عما يحل لهم من الصيد، فأحل الله لهم أن يأكلوا مما أمسكت عليهم الجوارح الملعمة إذا ذكروا اسم الله عليه. ثم عطف الأمر بالتقوى على ذلك: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾، فأمرهم بتقواه أمراً عاماً، وبالأخص ما يتعلق بسياق الآية، حتى لا يخرجوا عما أباح لهم من الأكل، أو يتجاوزوا ما حده لهم فيه، أو أن يتساهلوا في شيء من أمور الدين حال صيدهم، لأن ذلك مما تميل إليه النفس فتخرج به إلى هواها، وإلى مخالفة الرب - سبحانه، مع ما في الالتزام بتلك الأمور من مصالح لهم.

ثم جاء الحث على التقوى بأسلوب شديد التأثير، يحض على التقوى حضاً،

(١) وانظر لما سبق: العلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (٦/٢).

تنبيه: هذه الآية قبل نزول قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨]، انظر: العلامة ابن عاشور «التحرير والتنوير»، (٦/٨٨).

ويحمل عليها حملاً، وهو قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾، ليزيدنا معنى جديداً عما سبق من أساليب، فعلاوة على مجيء الأسلوب القرآني مؤكداً للخبر بآن والجملة الاسمية، ومظهراً للفظ الجلالة في موضع الإضمار، فقد جاء قوله سريع الحساب ليهددهم ويتوعددهم بالحساب وبسرعته، كأنه يقول: إن معاقبتكم عند المخالفة أسرع شيء يلحقكم، إذ هي في إثر المخالفة تواء، فانظروا نجاة أنفسكم من ذلك، وهو الإسراع بتقوى الله والتزام أوامره، والوقوف عند حدوده. يقول في «روح المعاني» العلامة محمود الألوسي: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أى: سريع إتيان حسابه، أو سريع إتمامه إذا شرع فيه، فقد جاء أنه - سبحانه - يحاسب الخلق كلهم في نصف يوم، والمراد على التقديرين أنه - جل شأنه - يؤاخذكم على جميع الأفعال حقيرها وجليلها، وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة، وتعليل الحكم...^(١)

ويضيف العلامة الألوسي: «ولعل ذكر هذا إثر بيان حكم الصيد لحث متعاطيه على التقوى، لما أنه مظنة التهاون والغفلة عن طاعة الله تعالى، فقد رأينا أكثر من يتعاطى ذلك يترك الصلاة ولا يبالي بالنجاسة، والمحتاجون للصيد - الحافظون لدينهم - أعز من الغراب الأبيض، وهم مثابون فيه».^(٢)

وقد جمع الإمام ابن عطية في «المحرر الوجيز» تفسير الآية.^(٣)

وأيا كان موعد الحساب، فهو تهديد شديد يسوق على التقوى لمن تدبره وخاف معانيه.

وهكذا تزيدنا الأوامر بالتقوى أساليب جديدة في الحض عليها كلما توغلنا

(١) العلامة محمود الألوسي «روح المعاني»، (٢/ ١٠).

(٢) المصدر السابق، (٦/ ٩٥-٩٦).

(٣) ابن عطية «المحرر الوجيز»، (٢/ ١٥٨).

مع تلك الآيات، التي يحسبها المرء بادی الرأي أمراً واحداً، لتعلمنا بقيمة تقوى الله تعالى، وأهميتها وجدارة المرء أن يبذل لها ليصير من أهلها.

والآية التالية هي قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [المائدة: ٧].

جاء هذا القول الكريم معطوفاً على قوله - جل وعلا: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَقَهُ الَّذِي وَاتَّكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

أى جاء الأمر بالتقوى معطوفاً على أمرهم بتذكر نعم الله عليهم، وبأمرهم أن يذكروا الميثاق، وهو العهد بينهم وبين ربهم، حين قالوا سمعنا وأطعنا. ثم ذيل بالخص على التقوى بمعنى جديد، ولفظ جدى يضاف إلى ما سبق من أساليب الحث على التقوى وامثالها، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

ولننظر في سياق الآية لتوضيح ذلك:

ذُكِرَت الآية المؤمنین بنعمة الله عليهم، وهى نعم مضت ليست نعمة واحدة، وإنما المراد جنس النعمة، وأعلاها الإسلام، ثم العز والتمكين في الأرض، وذهاب أمور الجاهلية، وصلاح حال الأمة، إلى غير ذلك من النعم التي أجملتها هذه اللفظة المباركة الموحية. وإذ ذكرهم بالنعم فإنما يقصد بالتذكير شكر الله تعالى، والوفاء له بالعهد، والاستقامة على ذلك، لئلا يخرجوا إلى كفران تلك النعم فيحرموها. ثم ذكرهم بعهد الذي عاهدهم به من بيعتهم للنبي ﷺ على الإسلام، وعلى ألا يشركوا بالله شيئاً، ولا يسرقوا، ولا يزنوا، ولا يقتلوا أولادهم، وذكرهم ببيعة العقبة الأولى والثانية، وبيعة الرضوان، كل هذه العهود وغيرها التي قالوا فيها: سمعنا وأطعنا. وكذلك تحمل الآية معنى العهد الذي عاهدهم به، أى: وفاؤه لهم - سبحانه - إذا وفوا بما عاهدوا الله عليه،

فكان من استعمال العهد في حقيقته ومجازه.^(١)

وعقب بعد ذلك بالأمر بالتقوى، لأن النعمة تستحق أن يشكر مسديها، وأن العهود يجب أن يوفى بها، وشكر الله تعالى والوفاء بعهده هما تقواه، وهو مناسب أشد المناسبة لهذا السياق الكريم.

وجاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ليبين هذه المناسبة في الآية، فيحمل على التقوى ويحث عليها، لأن هذا التذييل جاء تعليلاً للأمر بالتقوى، أى: واتقوا الله لأنه عليم بذات الصدور، فلا تخفى عليه منها خافية، فلا يطلع منكم على تقصير في شكر نعمه، أو إضرار لعدم الوفاء بعهده. فهو تحذير من إضرار شيء من المعاصي، ومن توهم أن الله لا يعلم مكنونات صدورهم ودواخلهم، فيحذروه أشد الحذر. وإذا كان الله مطلعاً على تلك الخفيات، فمن باب أولى أن يطلع على ما ظهر منهم.

وإذا كان الأمر بالتقوى أمراً عاماً، فيدخل فيه المتقدم دخولاً أولاً، أى: فليتقوا الله في كل أمورهم، وبخاصة ما كان من شكر نعمه والوفاء بعهده.^(٢) وقد أشار الإمام ابن جرير لمثل ذلك.^(٣)

(١) سمعنا بمعنى: علمنا، أى: علمنا وأطعنا، أو بمعنى: امتثلنا. وتكون «وأطعنا» تأكيد لها، وقد جاء ذلك في معنى سمع قوله: بايعنا على السمع والطاعة. وانظر لما سبق العلامة ابن عاشور «التحرير والتنوير»، (٦/١٣٤: ١٣٦). والعلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (٢/١٣). والألوسی «روح المعاني»، مجلد٤، (٦/١٢١: ١٢٢).

(٢) انظر العلامة ابن عاشور «التحرير والتنوير»، (٦/١٣٤: ١٣٦). والعلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (٢/١٣). والألوسی «روح المعاني»، مجلد٤، (٦/١٢١: ١٢٢).

(٣) انظر ابن جرير الطبري «جامع البيان»، مجلد٤، (٦/٩٠: ٩١).

التقوى في القرآن الكريم

وهكذا يأتي أمر القرآن الكريم بالتقوى في المواضع التي تحتاج إلى التقوى.
وأما الآية التالية فهي قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

وهذه الآية الكريمة مما عطف فيه التقوى على الأمر: ﴿فَخُذُوهُ﴾ و﴿فَانتَهُوا﴾. وهي وإن كانت نازلة على سبب خاص في غزوة بنى النضير، إلا إنها آية عامة، وفيها جماع صلاح المؤمنين، لذا أمرهم بتقوى الله تعالى الحاملة لهم على عدم تفريطهم فيما آتاهم أو الوقوع فيما نهاهم، لأنه ما أمرهم ﷺ بشيء إلا بشيء يقربهم إلى الله، وما نهاهم عن شيء إلا وفيه بعدهم عن الله - سبحانه وتعالى، فكانت مصلحتهم في الأولى والآخرة في قبول أمره والانتفاء عن نهيه، فطاعته من طاعة الله، ومعصيته من معصيته: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، لأنه ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤]. ومن ثم كانت عاقبة تلك الطاعة له ﷺ الهداية: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤]، والرحمة: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦]، والفوز في الآخرة: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

فلا غرو أن جاء النكير بالتشديد على مخالفته ﷺ فقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]. فكان متناسباً إذاً يأتي أسلوب الحض على هذه التقوى بقوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ بتأكيد الخبر، وإظهار العقاب الشديد لمن يخالف أمره ونهيه ﷺ.

والآية أبلغ رد على من يريد الاحتكام إلى القرآن الكريم لا غير، إذ ذلك ليس من تقوى الله، لأنه في النهاية رد للقرآن والسنة جميعاً. وقد ذكر معظم المفسرين - عند تفسير تلك الآية - أحاديث لزوم اتباع النبي ﷺ وأن ذلك من

تقوى الله تعالى. (١)

وختمت الآية - كما أشرنا - بهذا الأسلوب من أساليب الحض على التقوى: ﴿أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، ليبين مغبة مخالفة أمره ﷺ، وليخوفهم ويحذرهم من ترك التقوى الحاملة لهم على ذلك. لذا يقول الطاهر بن عاشور، في تفسيره «التحرير والتنوير»: «وعطف على هذا الأمر تحذير من المخالفة، فأمرهم بتقوى الله فيما أمر به على لسان رسوله ﷺ، وعطف الأمر بالتقوى على الأمر بالأخذ بالأوامر وترك المنهيات يدل على أن التقوى هي امتثال الأمر واجتناب النهي، واتقوا عقاب الله لأن الله شديد العقاب، أى لمن خالف أمره واقتحم نبيه». (٢)

وأما الآية التالية، فهي قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

ونختم بهذه الآية الكريمة، وهى الوحيدة التي جاء فيها أمر معطوف على الأمر بالتقوى، ثم جاء الأمر بالتقوى مرة أخرى معطوفاً على هذا الأمر. ثم ختمت بهذا الأسلوب المناسب للسياق من كون الرب - جل وعلا - خبيراً بمن يتقى ربه ومن لا يتقيه، وسيجزى كلاً بما يستحق. وهذه الآية الكريمة هى وأمثالها الأصل والدليل لمبدأ محاسبة النفس قبل ملاقة الحساب يوم القيامة. كان الأمر بالتقوى إذاً الحاث للمخاطبين بالإيمان على تلك المحاسبة، وكان

(١) انظر صديق خان «فتح البيان»، (٩/٣٤٩). والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٨/٨٧). وابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤/٣٣٦). والعلامة الألوسى «روح المعاني»، مجلد ١٥، (٢٨/٧١).

(٢) الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٨/٨٧).

الأمر بالتقوى الثانى هو الحامل لهم على ملازمة ذلك والاستقامة عليه، خاصة أن الله تعالى قد قرب إليهم يوم القيامة كأنه غد، ليسهل عليهم مدة المجاهدة اليسيرة في هذه الحياة الدنيا، مع ما يترتب على ذلك من النعيم الخالد المقيم. والغد أقرب الأيام في حياة المرء، أى أن يوم القيامة أقرب الأيام، يعنى أن أقرب أيام المرء ليكون عند الله، فماذا قدم لهذا الغد؟! ومن ثم جاءت لفظة (غد) منكراً لتسهيل ذلك الغد، وخطر شأنه بما لا يدركه أحد، أى غد لا يدرك كنهه، لغاية عظمته، وكنه ما ينتظر الناس فيه من أهوال وكرب.^(١)

هذا وجه تنكير لفظة (غد)، فما وجه تنكير (نفس)؟ يجيب الزمخشري على هذا السؤال، ومثله عدد من المفسرين، فيقول: «أما تنكير النفس فاستقلال للأنفس النواظر فيما قدمن للأخرة، كأنه قال: فلتنظر نفس واحدة في ذلك».^(٢) أى أن النفوس النازرة في أمر آخرتها، وما هى مقدمة عليه من أمر الله، قليلة، وإن كانت كل نفس مطالبة بذلك، لأن النكرة في هذا السياق من صيغ العموم.

يقول العلامة الألوسى، في «روح المعانى»، ما ملخصه - بعد أن نقل كلام الزمخشري: «ولتنظر نفس واحدة في ذلك، وفيه حث عظيم على النظر وتعبير بالترك، وبأن الغفلة قد عمت الكل، فلا أحد خلص منها، فهو كما في الحديث: «الناس كإبل مئة لا تجد فيها راحلة»، لأن الأمر بالنظر وإن عم لكن المؤتمر

(١) انظر الزمخشري «الكشاف»، (٤/ ٨٤). والألوسى «روح المعانى»، (٢٨/ ٨٦-٨٧).

(٢) الزمخشري «الكشاف»، (٤/ ٨٤). ومن تبع الكشاف بألفاظه: الفخر الرازى «التفسير الكبير»، مجلد ١٥ (ص ٤٨٤). وصديق خان «فتح البيان»، ويقول: «وفى النفس - التنكير - للتقليل أو التعريض بغفلة كلهم عن هذا النظر الواجب»، (٩/ ٣٦١). وأبو حيان «البحر المحيط»، (٩/ ١٤٨)، ونسبه للزمخشري. والألوسى «روح المعانى»، مجلد ١٥، (٢٨/ ٨٧).

الناظر أقل من القليل»^(١).

وقد تكرر الأمر بالتقوى مرة أخرى، لإظهار لزومها أولاً، والثبات عليها آخراً، لخطر هذا الأمر وعظيم شأنه. وسواء تكرر ذلك تأكيداً للأمر السابق، أو تأسيساً لأمر جديد بالتقوى، فهما يظهران أهمية الذي اكتنفه الأمر بالتقوى، وأهمية التقوى للقيام بهذا الأمر.

وجاء قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ تعليلاً للحث على التقوى في الموضعين، مع إظهار اسم الجلالة في موضع الإضمار، ليكون أوقع في نفوس المخاطبين، مع استقلال الجملة بدلالتها.^(٢)

نختم بذلك أساليب الأمر بالتقوى والحض عليها، بما اتسع المقام، وهو إشارة لما وراء ذلك مما يمكن أن يقف عليه الباحث في أمر التقوى، وهو تنويه بما كررنا القول به من قبل لقيمة التقوى، حتى تنوعت أساليب الأمر بها والحض عليها بما أتينا بشيء من تفصيله.

ثانياً: النواهي المصاحبة للأمر بالتقوى:

كان فيما ذكرنا في فصل «أساليب الأمر بالتقوى» أن الأمر بالتقوى قد يأتي

(١) العلامة الألوسي «روح المعاني»، مجلد ١٥، (٢٨/٨٧). وانظر كذلك الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٨/١١٠) وما بعدها.

والحديث أخرجه البخاري، ومسلم (٢٣٢)، الفضائل، والترمذي، وابن ماجه، وأحمد في المسند. وهو في صحيح الجامع (٢٣٢٨)، (ج٢)، ط. المكتب الإسلامي، تحقيق ناصر الدين الألباني.

يقول الإمام النووي في شرح الحديث: «بل معنى الحديث: أن الزاهد في الدنيا الكامل في الزهد فيها، والرغبة في الآخرة قليل جداً، كقلة الراحلة في الإبل. هذا كلام الأزهري، وهو أجود من كلام ابن قتيبة»، النووي «شرح صحيح مسلم»، (٨/٣٤٢).

(٢) انظر لما سبق الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٨/١١٢).

معطوفاً على أمر من أوامر الشرع، أو معطوفاً على نهى، وأشرنا إلى أمثلة، ثم أفردنا الأوامر بالكلام. وجاء الآن دور الكلام على النواهي المعطوفة على الأمر بالتقوى، لأنها تبين كذلك مقصود الشارع عندما ينهى عن شيء، ثم يأمر بتقوى الله في الالتزام بهذا النهى، أو العكس. وتوضح أيضاً أن اجتناب النواهي من شرائط تقوى الله تعالى. وهاكم تلكم المواضع:

١. ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٧].

٢. ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْزَمُوا طَيِّبَت مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [٥٧] وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ٨٧-٨٨].

٣. ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٠].

٤. ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١].

٥. ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَّعْضُكُم بَعْضًا أَتُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

نبدأ بالموضع الأول: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [٥٧].

وإذا كانت الأساليب السابقة في الحض على التقوى والتزامها يستخدم فيها

صفات الله تعالى وأسمائه على إجلاله والخوف منه، فإن الأسلوب الجديد يخاطب المؤمنين من ذوات أنفسهم، بإيمانهم الذي يدعون، وبالعكس منه كذلك، كأنه يقول: إن المؤمنين لا يفعلون ذلك الذي يتنافى مع إيمانهم، أو مع كمال إيمانهم بالله.

والأمر بالتقوى هنا معطوف على نهى، على خلاف ما سبق من العطف على أمر أو أمر ونهى. فالآية الكريمة تنهى المؤمنين عن ولاية المستهزئين بدينهم من أهل الكتاب المشركين، ومن الكفار الذين لا كتاب لهم، ثم أمرهم بتقوى الله الباعثة لهم على ذلك، لأن التقوى هى الكفيلة بقطع تلك الولاية المحرمة بين المؤمنين وبين أولئك المجرمين.

ومصادق الآية واقع شاهد، فما إلى المسلمون أعداء دينهم الصادقين لعباد الله عنه، المستهزئين به إلا من قلة تقواهم التي يخشى بها على إيمانهم ذاته. لذا كان الأسلوب متناسباً مع السياق أعظم التناسب مما لو قال مثلاً أن الله سميع عليم، لأن القضية قضية إيمان وكفر، خاصة وقد ذكرهم قبل ذلك بأن من يتخذ أولئك المشركين أولياء فهو منهم فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِّنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، أى ليس مؤمناً.

أما الموضع الثانى، فهو قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (١٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (١٨).

وإذا كان الإيمان في الآية السابقة معلقاً بالتقوى - سواء كان في أصله أو في كماله - فإنه ينتفى أصله أو كماله بانتفائه، مما يحث المرء على التقوى خوفاً من ذهاب إيمانه، فإنه في هذه الآية الكريمة قد أمرهم بالتقوى معللاً ذلك بإيمانهم بالله - جل وعلا، فإن ربهم الذي آمنوا به يستحق منهم التقوى - سبحانه، وكذلك إيمانهم بربهم ﷻ إنما يظهر ويتحقق بتقوى الله - سبحانه وتعالى، لذا كان

هذا الأسلوب جديداً في حث المؤمنين على تقوى الله، بإظهار تلك الرابطة بينهم وبين ربهم، والتأكيد عليها.

وهذا ما يؤكد العلامة ابن عاشور في «التحرير والتنوير»، عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ٨٨]. فكل آية - كما نرى - فيها أمر بتقوى تلهمنا معنى جديداً يستحث قلوب المؤمنين وخطاهم إلى تقوى ربهم، خاصة ما يعرض من أوامر أو نواهٍ في سياق الأمر بالتقوى في نفس الآية.

وسياق هذه الآية والتي قبلها يبين تمام الاتساق بين حكم الآية والأمر بتقوى الله وعلته، فقد نهى - سبحانه - المؤمنين عن تحريم ما أحل، وعن الاعتداء، ثم أمرهم بأن يأكلوا من طيبات ما رزقهم، وعطف على ذلك الأمر بالتقوى لله الذي هم به مؤمنون.

فكأنه يقول: إن الله الذي أنتم به مؤمنون هو الذي يحرم ويحلل، وليس لأحد غيره ذلك، فاتقوا الله ولا تحرموا ما أحل لكم، واتقوا الله ولا تعتدوا إلى ما حرم عليكم، فإن الذي أنتم به مؤمنون قد نهاكم أن تحرموا طيباته وتنقطعوا عن الحياة وترهبوا، فاتقوه ولا تفعلوا ذلك. وكلوا من طيباته التي رزقكم، واتقوه كذلك أن يصرفكم ذلك عن عبادتكم وذكركم، واتقوه أن يشغلكم ذلك عن شكره، واتقوه أن يكون ذلك سبب غفلتكم عن آخرتكم ومعادكم، أو غفلتكم عن المنعم بذلك كله عليكم. فالذى أنتم به مؤمنون يريد أن يرى أثر إيمانكم في التزامكم حدوده، واتباعكم هدى نبيكم ﷺ. فالله تعالى يريد أن تظهر عليكم حقائق دعواكم بأنكم به مؤمنون.

وهي مسألة من خصائص الإيمان، التحليل والتحريم وطاعة الله تعالى، فكان مناسباً أن يذكرهم بالذى هم به مؤمنون.

والموضع الثالث قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمُ

أَضْعَفًا مُضْعَفَةً^ط وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ [آل عمران: ١٣٠].

هذه الآية الكريمة جاءت تنهى عن أكل الربا، وقد وردت ب خطاب المؤمنين، لأن من شأن الإيمان أن يحمل صاحبه على الاستماع لأوامر الشرع، والاستجابة لها، فكأنها تستثير فيهم تلك العاطفة التي تبعث على الاهتمام بما يلقي عليهم من الشرع، والإسراع إلى تنفيذه. والنهى عن أكل الربا أضعافاً مضاعفة ليس معناه جواز أكله بغير مضاعفة، لأنه قد ورد النهى مطلقاً عن أكل الربا في قوله تعالى: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٧٨]، وإنما ربا الأضعاف المضاعفة هو المعلوم عندهم في الجاهلية، فنهاهم عنه.^(١)

والآية تبين وتؤكد أن ترك الكبائر من شرائط التقوى، لذا قال في الأولى: (لا تأكلوا الربا... واتقوا الله...)، أى: اتقوا الله في كل أحوالكم وأعمالكم، وبخاصة أكل الربا، فإن أكله دليل على عدم تقوى الله، بل دليل على دخول أكله تحت لعن الله له، وطرده من رحمته. وفي الآية الثانية أمر المؤمنين بتقوى الله أولاً، ثم عطف عليه الأمر بترك الربا، لتكون تقوى الله والخوف منه هو الباعث على ترك الربا، ولذلك ختمت الآية بقوله: ﴿ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾، حضاً لهم على ذلك، وتبياناً لقيمة التقوى، فإنها إذا لم تحملهم على ذلك دل على عدم إيمانهم، فيثير فيهم بهذا الأسلوب المسارعة لإظهار الإيمان، وذلك بأن يبادروا إلى الالتزام بما يبين تقواهم، وهو أن يذروا كل ربا بقى عليهم. وفي الآية الأولى قال: ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾، وهو حض آخر لهم على ترك الربا المضاعف الذي يظنون به فلاحهم بكثرة أموالهم، فدلهم على ما يطمئنهم على فلاحهم الحق بأنه ترك ذلك، فكان هذا الأسلوب تثبيتاً لقلوبهم وتقوية ليقينهم، وأن الحرام لا

(١) انظر ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (١/٤٠٤).

فلاح معه، وأن التقوى سبب الفلاح في الأولى والآخرة.

أما الموضع الرابع، فهو قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١].

وهذه الآية الكريمة من آيات الآداب التي ساقها القرآن الكريم، تعليماً للمؤمنين وتأديباً لهم في معاملتهم لله ورسوله ﷺ. وقد تصدر الخطاب فيها بالنداء لتنبية المخاطبين على أن ما في حيزه أمر خطير يستدعى مزيد اعتنائهم وفرط اهتمامهم بتلقيه ومراعاته، ووصفهم بالإيمان لتنشيطهم والإيذان بأنه رادع للمحافظة عليه، ورادع عن الإخلال به.^(١)

وقوله: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أى: لا تتقدموا بين يدي الله ورسوله، لا تقطعوا أمراً وتجزموا به وتجتروا على ارتكابه قبل أن يحكم الله ورسوله، ويأذنا فيه. وحاصله النهى عن الإقدام على أمر من الأمور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة. وهى استعارة تمثيلية بتشبيه حال من يفعل فعلاً دون إذن من الله ورسوله بحال المتقدم على من يلزمه متابعتة تصويراً للهجته وبشاعته بصور المحسوس، كتقدم الخادم بين يدي سيده بدون مصلحة. وهذا كله يؤكد أن التقوى ألا يفعل ذلك الفعل كله.^(٢)

يقول العلامة الطاهر بن عاشور في «التحرير والتنوير»:

«وعطف (واتقوا الله) تكملة للنهى عن التقدم بين يدي رسوله ليدل على أن ترك إبرام شيء دون إذن الرسول ﷺ من تقوى الله وحده، أى ضده ليس من التقوى».^(٣)

(١) العلامة محمود الألوسى «روح المعانى»، (١٤/١٩٩).

(٢) المصدر السابق، (١٤/٢٠٠).

(٣) العلامة ابن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٦/٢١٩).

وكان العلامة ابن عاشور لما قال: التقدم بين يدى الرسول، ولم يقل بين يدى الله ورسوله، كأنه نظر إلى تفسير آخر في الآية، وهو أن قوله: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أى: لا تقدموا بين يدى الرسول ﷺ، لأنه تقدم بين يدى الله تعالى، إذ النبى ﷺ هو المبلغ والواسطة عن الله تعالى فكان التقدم بين يديه تقدماً بين يدى الله تعالى. وإنما ذكر الله تعالى في الآية لتعظيمه ﷺ، والإعلام بجلالة محله عند ربه، ومزيد اختصاصه به.^(١)

وللآية الكريمة عدة أسباب للنزول، ذكرها المفسرون، تبين في جملة ما بينت كيفية تأدب الصحابة بهذه الأداب والتزامهم بها، منهم أبو بكر وعمر - رضى الله عنهما. مما يدل على ما ينبغى لمن دونهم من تقوى الله تعالى والتأدب بهذا الأدب.^(٢) وختمت الآية بما يناسب سياقها من أن الله سميع عليم، وهو علة النهى عن التقدم بين الرسول ﷺ، وعلة الأمر بالتقوى لسمعه وعلمه الموجب لمراقبته وخوفه المؤذن بعذاب من يخالف ذلك. وقد أظهر الاسم الجليل في كل الإضمار بدلاً من أنه سميع عليم، لتربية المهابة والإجلال في نفوس المكلفين.

وعلى نفس النهج جاءت الآية الأخيرة، وهى تكمل لنا تلك الصورة السابقة من الأداب، وهى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَتُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ٨].

أعيد النداء مرة أخرى، ومعناه كما ذكرنا في الآية السابقة، ولكن تكراره هنا لاختلاف الغرض والاهتمام به، وذلك أن المنهيات المذكورة من جنس

(١) انظر العلامة الألوسى «روح المعانى»، (١٤/ ٢٠٠).

(٢) انظر السابقين، وابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤/ ٢٠٥-٢٠٦).

المعاملات السيئة الخفية التي لا يتفطن لها من عوامل بها ليدفعها، ومن ثم لم يكن الدافع لها إلا تقوى الله تعالى. وإذا كان الأدب في الآية السابقة مع الله ورسوله ﷺ، فإنه هنا مع المؤمنين الغائبين عن المرء بوجه خاص، مما يزيد من أهمية التقوى الباعثة على التنزه عن مثل هذه الأخلاق، إذ ليس ثم إلا التقوى.

ونشير سريعاً إلى هذه الاخلاق المضادة للتقوى لزوم تفسير الآية. أول هذه الأخلاق في قوله تعالى: ﴿أَجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ تأديب عظيم يبطل ما كان فاشياً في الجاهلية من الظنون السيئة والتهم الباطلة، والتي تنشأ عنها الغيرة والمكائد والاعتيالات والطعن في الأنساب والمبادأة بالقتال، وما نجمت العقائد الباطلة إلا من الظنون الكاذبة، قال تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقال ﷺ: «ياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث» (١).

ولما جاء الأمر باجتناب كثير من الظن، وهو المتعلق بالناس، دل على أن الظنون السيئة غير قليلة، فوجب التمهيص والفحص، لعدم اتهام الناس وحفظ حرمتهم وأخذهم بالظنة، فأعلم السامع بهذا الاستئناف البياني: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾، وهو كناية عن وجوب التأمل في آثار الظنون ليعرضوا ما تقضى إليه على أحكام الشريعة، أو سؤال أهل العلم ليدفعوا المحرم منها، وهو دليل على أنه ليس كل الظن محرماً، ولم نؤمر باجتنابه، وأما اجتناب الظن فبتعاطى وسائل الاجتناب، فإن الظن يحصل في خاطر الإنسان اضطراراً، فلا يعقل التكليف باجتنابه، وإنما يراد بالأمر التثبت فيه وتمحيصه والتشكك في

(١) رواه البخارى (٦٠٦٤)، انظر ابن حجر العسقلانى «فتح البارى»، (١٠/٤٨١).

ورواه مسلم (٢٥٦٣)، وانظر النووى «شرح صحيح مسلم»، (٨/٣٦١).

صحته إلى أن يرجح أحد طرفيه. ^(١)

أما قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ فهو كذلك من تلك المنهيات التي تضاد التقوى، ويجب على المسلم اجتنابها، وهى من آثار الظن، لأن نفس الظان تدعوه إلى تحقيق ما ظنه سراً فيسلك طريق التجسس، ووجه النهى عنه أنه ضربٌ من الكيد والتطلع على العورات. وقد يرى المتجسس من المتجسس عليه ما يسؤه فتنشأ عنه العداوة والحقد، وذلك ثلم للأخوة الإسلامية. وإذا ترتب على التجسس مفسدة عامة صار كبيرة من الكبائر، كالتجسس على المسلمين لمن يتغنى الضر لهم. وليس من المنهى عنه ما يجر نفعاً للمسلمين كالتجسس على الأعداء.

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَنُحِبُّ أَحَدُكُمْ﴾، والاعتباب أن يذكر الغائب بما يكره، والاسم الغيبة بكسر الغين، وإنما قال: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ دون أن يقال: اجتنبوا الغيبة لقصد التوطئة للتمثيل الوارد في قوله تعالى: ﴿أَنُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾، وقد مثلت الغيبة بأكل لحم الأخ الميت، والتمثيل مقصود منه استقطاع الممثل وتشويهه لإفادة الإغلاظ على المغتابين؛ لأن الغيبة متفشية في الناس.

والاستفهام في (أحبب أحداكم..) للتقرير لتحقيق أن كل أحد يقر بأنه لا يجب ذلك، بل يشمئز منه ويقذره، فجاءت فاء الفصيحة لتفيد الإلزام بما بعدها، أى إذا أقررتم بكراهة الممثل به فاكروهوا الممثل كذلك، وهو الغيبة وفي هذا الكلام مبالغات أشار إليها المفسرون تفيد تبشيع هذه الصورة المنكرة، حتى عدت عند جمهور أهل العلم من الكبائر، وإن استثنوا مصلحة الشهادة والرواية

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٦/ ٢٥١-٢٥٣).

أو المشورة في مخالطة أو مصاهرة.^(١)

لا شك بعد ذلك كله أن يكون من شرائط التقوى ترك الكبائر فجاء للأمر بالتقوى معطوفاً على الجمل السابقة ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ ليكون كالتذليل لها، إذ التقوى هي جماع الاجتناب والامتنال، فمن كان سالماً من التلبس بتلك المنهيات فالأمر بالتقوى يجنبه التلبس بشيء منها في المستقبل، ومن كان متلبساً بها أو ببعضها فالأمر بالتقوى يجمع الأمر بالكف عما هو متلبس به منها.

وجملة ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ تذييل للتذليل، لأن التوبة تكون بعد التلبس بالإثم فقليل: ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ﴾، وتكون التقوى ابتداء فيرحم الله المتقى، فالرحيم شامل للجميع.^(٢)

فكان هذا الأسلوب فاتحاً لباب الرجاء الباعث للناس على تقوى الله - جل وعلا - متناسباً مع السياق.

اتضح بهذه الصور التي أوردناها كيف أن الأمر بالتقوى معطوفاً على تلك النواهي دليل على أنها مخالفة للتقوى يشترط نفيها والتنزه عنها حتى يدخل المؤمن في زمرة المتقين.

ونختتم بهذا الموضع، وهو قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]:

وهو كذلك من عطف النهي على الأمر بالتقوى، أي اتقوا الله حق تقاته،

(١) انظر الإمام محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية «التفسير القيم»، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية بيروت، ص (٤٤١)، والظاهر بين عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٦/ ٢٥٥-٢٥٦)، والألوسي «روح المعاني»، (١٤/ ٢٣٨-٢٤٢).

(٢) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٦/ ٢٥٧).

ونهاهم ألا يموتوا إلا وهم مسلمون. والآية كما ذكر المفسرون معناها أن يطاع الله فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر، وهذا التفسير منقول صحيحاً عن ابن مسعود رضي الله عنه.^(١) وأما النهي عن أن يموتوا إلا وهم مسلمون فإن معناه المداومة على هذه التقوى إلى الممات، فإن من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه، فيوشك بمداومتهم على التقوى أن يشبههم الله عليها حال حياتهم فيأتيهم الموت وهم كذلك.

والآية تشير إلى لزوم المرء التقوى في كل أحواله، لأنه لا يعلم متى يموت. ونلاحظ أنها أمرت بأن يتقوا الله حق تقاته، ليست أى تقوى، لأن هذا البذل والاهتمام لأمر الآخرة سبب من أسباب التوفية على الإيثار.

وقد ذكر بعض أهل العلم أن الآية منسوخة^(٢) بقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا﴾ [التغابن: ١٦]، والصحيح الذي عليه المحققون أن ليس ثم نسخ في الآية، إذ تقوى الله حق تقاته لا شك منوطة باستطاعة العبد^(٣)، وكأن المطلوب أن يبذل المرء جهده وما يستطيع حتى لا يموت إلا

(١) انظر ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (١/٣٨٧).

(٢) انظر السيوطي «الدر المنثور في التفسير بالمأثور»، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، (٦/٢٢٨). وانظر الخازن «لباب النقول في معاني التنزيل»، ط. الحلبي، القاهرة، ١٣٧٥هـ/١٩٨٥م، (٦/١٠٦).

(٣) انظر الطبرسي «مجمع البيان في تفسير القرآن»، مكتبة الحياة، بيروت، ١٣٨٠هـ/١٩٦١م. وكذلك هو قول الثعالبي «الجواهر الحسان»، ط. مؤسسة الأعلمي، بيروت، (١/٢٩٤). والظاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٥/٣٠). والقاسمي «محاسن التأويل»، ط. دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، ١٣٧٨هـ/١٩٥٩م، (١٥/٥٨٢٦). والشوكاني «فتح القدير»، دار الحديث، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، (١/٥٤٧).

مسلماً، وهو مقصود يجب أن يبذل المرء له حتى يتعرض لفضل الله بثبته عليه إلى الممات. وقد ذكر الطاهر بن عاشور أن النهي عن الموت على غير الإسلام مجاز يستلزم عدم مفارقة الإسلام طالما كان حياً، لأنه لا يدري متى ينتقل إلى الله تعالى، فبينت الآية أن التقوى لا تجوز مفارقتها على حال، ولا التقصير فيها في أي زمان.



الفصل الثالث

النقوى دعوة الرسل



المطلب الأول : تفسير نصوص دعوة الرسل إلى التقوى «نظرة إجمالية».

المطلب الثاني : التكرار في الأمر بالتقوى.. إشارات وحكمه.

المطلب الثالث : تنوع أساليب دعوة الرسل إلى تقوى الله تعالى.

المطلب الرابع : مدى اتفاق أسلوب دعوة الرسل إلى التقوى واختلافه وأسباب ذلك.

المطلب الأول

نصوص دعوة الرسل إلى التقوى

نظرة إجمالية

لما كانت التقوى بهذه الأهمية، وتحمل تلك المعانى التي رأيناها في الفصلين السابقين، لا جرم كانت أول دعوة الرسل لأقوامهم، وقد جاء في القرآن الكريم آيات كثيرة تبين ذلك، وتبين أيضاً الحجاج التي ساقها الرسل ليحملوا الناس على تقوى الله تعالى.

ونبدأ بإحصاء هذه الآيات ثم بعد ذلك يكون النظر في تفسيرها كل في مطلبه، وها هي ذى:

١. ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢].
٢. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال يَنْقُومِ إِلَيَّ لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا نُوْحًا ﴿٢﴾ [نوح: ١-٣].
٣. ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٦].
٤. ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنُبِّ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ ﴿١﴾ [الشعراء: ١٠-١١].
٥. ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا نُوْحًا ﴿٣﴾ [الزخرف: ٦٣].
٦. ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].
٧. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا نُوْحًا﴾ وهي مكررة في سورة الشعراء بنفس اللفظ عند

ذكر دعوة الرسل لأقوامهم، ففي قصة نوح قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [١٦] إِنْ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا [الشعراء: ١٠٦-١١٠].

أما في قصة هود فقال تعالى:

﴿كَذَبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [٣٢] إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ إِنْ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٣٤﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿٣٧﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿٣٨﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿٣٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٤٠﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ [الشعراء: ١٢٣-١٣٢].
وفي قصة ثمود:

﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [٥١] إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ إِنْ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٥٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٥٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا ههنا ءَامِنِينَ ﴿٥٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَتَنْجَثُونَ مِنَ الْجِبَالِ بَيْوتًا فَرِهِينَ ﴿٥٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٦٠﴾ [الشعراء: ١٤١-١٥٠].

وفي قصة إلياس، وقصة لوط، وقصة شعيب كذلك، مع بعض الاختلافات

التي سنذكرها - إن شاء الله تعالى - عند دراسة النصوص ومقارنتها.

١. ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٣].
٢. ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْفَوِمْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥].

٣. ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعَذَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

٤. ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَا أُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [آل عمران: ٥٠].
٥. ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ تُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١].
٦. ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣].
٧. ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٨].
٨. ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].
٩. ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١].
١٠. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [يس: ٤٥].
١١. ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا تَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].
١٢. ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَّحْمَتِهِ وَجَعَلَ لَكُم نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].
١٣. ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدْبِرُ

الْأَمَّةَ فَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ [يونس: ٣١].

١٤. ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [المؤمنون: ٨٦-٨٧].

١٥. ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾ [يونس: ٦].

١٦. ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ

مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [التوبة: ١١٥].

أرسل الحق سبحانه وتعالى رسله وأنبيائه لدعوة الناس إلى تقواه ﷻ، أى ليجعلوا بينهم وبين عقاب ربهم وعذابه وقاية تقيهم منه، وأول ما يقى الناس ذلك هو توحيده والإيمان به - جل شأنه.

وبالتأمل في النصوص السابقة وتفحصها ومقارنة بعضها ببعض، انتهيت إلى الملاحظات التالية:

التقوى هى أول ما دعا الرسل أقوامهم إليه، وهى كما ذكر كل من رأينا من المفسرين إما توحيد الله تعالى والإيمان به، أو هى الخوف الباعث علياالإيمان والتوحيد وطاعة الرسل. وقد ذهب إلى المعنى الأول - وهو كون التقوى هنا توحيد الله تعالى - الفخر الرازى وغيره، كما أشرنا إلى كلامه في تعريف التقوى. ^(١) وهذا الوجه هو ما أميل إليه للآتى:

أولاً: أن الرسل أول ما دعوا أقوامهم، دعوهم إلى توحيد الله - جل شأنه - فقال تعالى:- ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فسيروا في الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عِاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ٣٦]، فكانت

(١) انظر فصل «مفهوم التقوى».

التقوى كذلك هي توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة، إذ هي أول ما دعا الرسل أقوامهم إليه أيضاً. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿يُزِيلُ أَلْمَلِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢]، أى: أنذروا أنه لا إله غيره فوحدوه وأخلصوا له الدين، والخطاب موجّه للرسل جميعاً.

ثانياً: جاء في رد قوم نوح عليه السلام عليه، لما دعاهم إلى تقوى الله تعالى بقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [الشعراء: ١٠٨]، قالوا في ردهم عليه: ﴿قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، فكان دليلاً على أن أمرهم بالتقوى أمر بالإيمان، لما في ردهم من هذا المعنى.

ثالثاً: جعل القرآن الكريم التقوى في مقابل الكفر في أكثر من موضع، كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥].

تدرج الرسل في دعوة الناس إلى تقوى الله تعالى، من الحض عليها بالرفق، إلى الأمر بها، يتضح ذلك في قول الرسل: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٠٦]، على معنى الترفق بهم والحث لهم، ثم بعد ذلك جاء الأمر بالتقوى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾، مما ينير طريق الدعاة إلى الله بسلوك الأنبياء في الدعوة. هذا على اعتبار أن «ألا» هنا للتحضيض، أما إذا اعتبرناها مكونة من همزة الاستفهام ولا النافية، فإنها تحتل الإنكار، والسياق هو الذي يبين ذلك.

ورأينا الرسل كذلك وهم يسلكون هذا السبيل، يؤكدون للناس تجردهم عن المصالح والمطامع والحظوظ، فلا يبتغون من وراء دعوتهم مالا ولا أجراً، إنما أجبرهم في ذلك كله على الله تعالى، وهذا يبين للدعاة طريق الإخلاص في الدعوة، وابتغاء الدار الآخرة، وتنكب طريق المنافع الذي يوضح بجلاء أنهم ليسوا دعاة إلى الله تعالى، بل هم لصوص يقطعون الطريق على السائرين إلى الله

تعالى، محصورين في شهواتهم الضيقة الزائلة، إنهم دعاة الشيطان وليسوا من التقوى في شيء. إن للدعاة المتقين شأنًا آخر من التجرد عن التكسب بالدين، والمتاجرة به، بل على العكس، إنهم يبذلون وقتهم وجهدهم وأمواهم، بل أنفسهم، عسى أن يقبلهم ربهم ويجزيهم الجزاء الأوفى في الأولى والأخرة.

أن الأمر بالتقوى في دعوة الرسل الناس إلى ربهم ﷻ متكرر، مما يفيد دوام واستمرار الدعوة إليه، مع عدم اليأس أو القنوط من استجابتهم، حتى ولو ظهر الإعراض والعناد إلى أقصى درجة، وقد ظهر ذلك جلياً في قصة القرية التي كانت حاضرة البحر، في سورة الأعراف، حيث يئس بعض أتباع الرسل من دعوة العصاة المخالفين لأمر الله، يقول القرآن الكريم مصوراً هذا المشهد في صيغة حوار: ﴿لَمْ تَعْظُوا قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الأعراف: ١٦٤]، وكانت إجابة المتمسكين بالدعوة القائلين عليها: ﴿مَعَذَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤]، أي: ذلك اعتذار إلى الله، ونرجو أن يثوبوا إلى تقوى الله - سبحانه وتعالى.

أن التكرار في الآيات التي أشرنا إليها، خاصة في سورة الشعراء التي يظهر فيها جلياً تكرار الأمر بالتقوى، ليس تكراراً محضاً، وهو من دقة الأسلوب القرآني. حيث ذكر جمع من المفسرين أن الأمر الأول بالتقوى معلل بكون الرسول أميناً فيما يبلغ عن ربه، أميناً في نصيحهم وإرادة الخير لهم، أميناً في تحذيرهم من مغبة عنادهم وكفرهم، وأن ذلك سيكون سبب هلاكهم. ثم جاء الأمر مرة ثانية بتقوى الله تعالى لعله أخرى، وهي نفى المصلحة في دعوتهم، بل أجره على رب العالمين. فاتضح بذلك أن التكرار ليس تكراراً محضاً، لأنه معلل كما رأينا بعلمتين مختلفتين.

وإذا كان الأمر بالتقوى أمراً بالإيمان والتوحيد - كما أشرنا - فإن بعض آيات التقوى جمعت بين دعوة الرسل إلى توحيد الله ودعوتهم إلى تقواه في ذات

السياق، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ﴾ [نوح: ١-٣]، مما يعد استخداماً للتقوى في بقية أو في بعض معانيها الأخرى وسيأتى شرح ذلك كله - إن شاء الله، وكقول إبراهيم عليه السلام: ﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٦].

تنوع التعبير القرآني لحمل الناس على تقوى الله - جل وعلا:

فمرة بالتخويف الشديد الذي من شأنه دفع الناس إلى التقوى كقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]. فمتصور هذا الهول أو شيء منه وعظمه وخطره، وأنه لا نجاة له منه إلا بتقوى الله يجعله سارع إليها، خاصة وهو يعلم أن مرده إلى الله وأن الدنيا زائلة، وكل ما حصل فيها لا يمنع عنه ولا يدفع موتاً ولا حساباً ولا عقاباً. ومن هذه الآيات أيضاً قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا تَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]. وقوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١].

ومرة أخرى بالترغيب والوعد بالرحمة، كقوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥]. ومنها: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَجَعَلَ لَكُم نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٦].

ومرة بذكر آياته في الآفاق وفي أنفسهم التي تدل على وحدانيته وعظمته الحاملة على توحيده وإفراده بالعبادة والتقوى وحده ﷻ، منها قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ

التقوى في القرآن الكريم

اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ [النساء: ١]. وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْتَقُونَ﴾ ﴿٢﴾ [يونس: ٦].

ومرة بتقريره سبحانه لهم أنه الخالق الرازق المحيي المميت، المدبر الذي بيده الأمر، وذلك كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿٣﴾ [يونس: ٣١]. فمن يستحق أن يتقى ويوحّد ويعبد؟ من كان ذلك كله بيده هو الذي يستحق أن يعبد فلا يشرك به، وأن يتقى فلا يخشى غيره.

ومرة بتعداد النعم عليهم التي لو تفكروا فيها، وأن الله الواهب لها بغير استحقاق منهم، ولا بسبق سبب لكان دافعاً لهم إلى التقوى، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمِ وَبَيْنَ ﴿٥﴾ وَجَنَّتْ وَعُيُونٍ ﴿٦﴾ [الشعراء: ١٣٢-١٣٤].

بين لهم أنه أنزل القرآن الكريم جلياً واضحاً ميسراً ليتقوا الله، قال عز من قائل: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ﴿٧﴾ [الزمر: ٢٨]. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ ﴿٨﴾ [طه: ١١٣]. فكان القرآن الكريم الآيه العظمى والمعجزة الكبرى التي تحمل على تقوى الله - سبحانه.

والآن نشرع في دراسة النصوص القرآنية التي تؤيد ما سبق لتكتمل الصورة بالبرهان الشرعي والدليل العقلي. ونشير في هذا المطلب إلى هذه الآية وبقيّة الآيات تأتي في مواضعها، وهى قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ

عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾
[النحل: ٢].

هذه الآية الكريمة هي ملخص الرسالة حيث ينزل جبريل بالوحي من الله تعالى على من يشاء من عباده ليعلموا الناس بأن الله واحد ليعبدوه ويتقوه. فالآية على وجازتها قد جمعت أركان الرسالة، فالمُرسل هو الله تعالى، أرسل جبريل عليه السلام بالمُرسل به وهو الوحي إلى المُرسل وهو الرسول ليلبلغ رسالة الله - جل وعلا - إلى المُرسل إليهم، وهم الركن الرابع وهم الناس الذين أرسل إليهم الرسول.

وكانت الآية الكريمة في غاية الدقة إذ بينت قضية النبوة أتم بيان، فقد وضحت أن الله - جل وعلا - برحمته أرسل للناس رسلاً ليهدهم إلى تقوى الله حتى يسعدوا في الآخرة والأولى. فكان في الآية الرد على كل الطوائف التي تنكر الرسالة، كهؤلاء الذين قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء، أو هؤلاء البراهمة الذين اكتفوا بالعقل، أو غلاة الصوفية الذين يدعون أن الرسل حجاب بين الله وبين الناس، وغير هؤلاء من طوائف الضلال، كذلك أشارت الآية الكريمة إلى حقيقة مهمة وهي أن الوحي هو الروح - بهذا اللفظ الموحى - لتوقف حياة الناس الحقيقية عليه لأنهم بغيره أموات، لذلك قال فيه الحق - سبحانه: ﴿أَوْمَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكْتُبُ وَلَا الْإِيْمَنُ﴾ [الشورى: ٥٢]، أو لأنه - أي الوحي - بالنسبة للدين كالروح للبدن، فلا دين إذاً بغير وحي.

وبينت الآية كذلك المذهب الحق في موضوع النبوة، وأنها اصطفاء وعطاء من الله - جل في علاه، لا تتحصل بريضة النفس وتهذيبها، أو بإشراق الروح وغيره، بل كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مَنِ الْأَمَلِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، فهي اجتباء محض من الله تعالى. ومن ثم شدد المولى جل

وعز النكير على من ادعى شيئاً من ذلك، وتوعده بأشد العذاب ووصفة بأسوأ الصفات فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٦٣].

ثم جلت الآية زبدة الرسالة وهدفها الأسمى: ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢]؛ أن توحيد الله وتقواه - جل وعلا - مقصد الرسالات، أى أرسل الحق سبحانه رسله وأنزل عليهم كتبه ليُعلموا الناس أن إلههم واحد يجب أن يفردوه هو بالعبادة، وأن يخلعوا ما دونه من الأنداد، وأن ذلك سبيل سعادتهم أفراداً وجماعات، في الدنيا والآخرة فكانت الآية الكريمة كما رأينا محيطة بالموضوع كله على اختصارها ودقتها، مع التوضيح والرد على كل مخالف. وبيئت في نفس الوقت موضوعنا الأساسى من سياقها وهو تقوى الله وأنها دعوة الرسل جميعاً، وإن زاد بعض أهل العلم على ذلك أن الآية أفادت أعلى مراتب الكمال الإنسانى، وهو أن يتحقق المرء بالقوة العلمية والعملية، فالقوة العلمية في معرفة ربه ومعبوده وخالقه ﴿أَنْ أُنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾، يترتب على هذه المعرفة طمأنينة النفس وتحقيق سلامها ورضاها واتزانها الروحى والمادى، مع إبعاد شبح القلق والاضطراب في عدم معرفتها بربها - جل وعلا.

وأما الكمال الثانى فهو بتحقيق القوة العملية وهى تقوى الله عز وجل ويتحقق بها نجاتها ورفعته. يقول العلامة الألوسى وهو تابع في ذلك للإمام الفخر الرازى في قوله تعالى: ﴿أَنْ أُنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ وهو مشتمل على التوحيد الذي هو منتهى القوة العلمية والأمر بالتقوى

التي هي أقصى كمال القوة العملية، فإن النفوس البشرية لها نسبة إلى عالم الغيب تستعد بها لقبول الصور والتحلي بالمعارف والإدراكات من ذلك العالم، ونسبة إلى عالم الشهادة تستعد بها لأن تتصرف في أجسام هذا العالم ويسمى استعدادها الحاصل لها باعتبار النسبة الأولى.^(١)

(١) انظر الفخر الرازي «التفسير الكبير»، (٨/٤٠). والعلامة الألوسي «روح البيان»، مجلد ٨، (١٤/١٤١).

المطلب الثاني التكرار في الأمر بالتقوى إشارات وحكمه

رأينا أن دعوة الرسل أقوامهم كانت إلى تقوى الله تعالى، والمتأمل في النصوص يجد تكرار دعوة الرسل واستمرارها والمداومة عليها. وأقصد بالتكرار هنا أمرين:

الأول: تكرار ألفاظ الرسل في دعوة أقوامهم إلى تقوى الله تعالى.

الثاني: مداومة الرسل - عليهم السلام - في دعوة أقوامهم، وثباتهم على ذلك، فينبغي النظر في الأمرين شرحاً ومثلاً.

ونبدأ بالأمر الأول، وهو تكرر ألفاظ الرسل في دعوتهم إلى التقوى وهل كان تكراراً محضاً أم لا؟ ومثال ذلك نوح عليه السلام، فقد ذكر القرآن الكريم عنه قوله لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنِّي أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ﴾ [الشعراء: ١٠٧-١١٠]، فكرر عليه السلام أمره لهم بتقوى الله تعالى: مصدراً إياه «إيان» التي تفيد التأكيد مع عدم سبق إنكارهم لأمانته لأنه توقع حدوث الإنكار، فاستدل عليهم بتجربة أمانته قبل تبليغ الرسالة فإن الأمانة دليل الصدق. ^(١)

وفي الإشارة إلى استدلال نوح بأمانته تعريض بالمشركين الذين كانوا يدعون النبي ﷺ بالأمين قبل البعثة ثم كذبوه بعد ذلك، كما قال هرقل لأبى سفيان: هل جربتم عليه كذباً؟ أى النبي ﷺ فقال أبو سفيان: لا، ونحن منه في مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها. فقال له هرقل بعد ذلك: فقد علمت أنه ما كان ليرك الكذب

(١) الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٥٨/١٩).

على الناس ويكذب على الله.^(١)

ثم جاء قول نوح عليه السلام: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ فبعد طول الدعوة واستمراره عليها بالرفق واللين والأمانة والصدق، لم يكن بد من الانتقال إلى الأمر بتقوى الله سبحانه وطاعته عليه السلام أمراً جازماً يحمل في طياته التخويف والتحذير من عقاب الله جل وعلا، ويحمل في نفس الوقت تأكيد دعوته السابقة لتقوى الله تعالى، وعلى شاكلته جاء قوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣]، فالاستفهام هنا للإنكار، فبعد أن ترقق بهم ثم رأى منهم ما رأى من الإعراض والإيذاء بعد طول الأناة عليهم، انتقل إلى الإنكار عليهم مفرعاً ذلك على قوله: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ فينكر عليهم شركهم واتخاذهم آلهة أخرى مع الله تعالى، وعدم اتقائهم وخوفهم من ربهم وعقابه. هكذا تتدرج الدعوة إلى تقوى الله تعالى.

ثم بين عليه السلام علة أمره هذه المرة، وهي تنزهه عن المطامع الدنيوية والحظوظ النفسية في الدعوة إلى تقوى الله، وذلك من قوله: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّ أَعْلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩]، أى لا أسألكم عليه أجراً أياً كان مالا أو غيره، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَيَقَوْمٍ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [هود: ٢٩]، فرأينا الأمر بالتقوى معللاً بعلتين: الأمانة وعدم الطمع وطلب الأجر وعلتهما كافية في طلب تقوى الله تعالى فكيف إذا اجتماعاً؟ فلا تكرر إذاً، لأن المعنى مختلف، يقول الإمام الفخر الرازى في تفسيره الآية: «وقد يقول الرجل لغيره: ألا تتقى الله في عقوقى وقد ربيتك صغيراً؟ ألا تتقى الله في عقوقى وقد علمتك كبيراً؟»^(٢)، وهكذا كان كافة

(١) رواه البخارى (٧)، وانظر ابن حجر العسقلانى «فتح البارى»، (١/ ٣١-٤٥).

(٢) انظر الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١٢/ ١٥١). والعلامة أبا السعود «إرشاد العقل

الرسول وأتباعهم يرجون الأجر والثواب من الله تعالى في الآخرة، حيث كانوا متجردين له، حاسمين طمع أنفسهم أو تطلعتها لزائل من زوائل الدنيا وحطامها الفاني، وهذا ما يبينه الأمر بالتقوى نفسه، إذ كيف يأمر الواحد منهم بتقوى الله وهو يطلب أجراً ومالاً ومتاعاً؟ هذا منافٍ لسير المتقين وأخلاق الصالحين وهو بأخلاق النفعيين والمتاجرين بالدين ألصق وأولى.

والأمر الثاني: وهو تكرر الدعوة من الأنبياء - عليهم السلام - لأقوامهم وثباتهم على ذلك، ونضرب مثلاً لذلك أيضاً نوحاً عليه السلام، ولكن بذكر آيات أخرى يقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [نوح: ١]، فقام عليه السلام من فوره يقول: ﴿يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [نوح: ٢-٣].

ثم بعد دعوة طويلة لهم قال: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ فجعل دعوته عليه السلام في كل الأزمان، فعبر بالليل وبالنهار للدلالة على عدم الهوادة في حرصه على إرشادهم، وأنه يترصد كل وقت يتوسم فيه أنه أقرب إلى فهم دعوته من أوقات النشاط بالنهار، ومن أوقات الهدوء وراحة البال وهى بالليل.

فإذا كان ما سبق هو زمن دعوتهم، فإنه ذكر أيضاً بأن دعوته كانت مع ذلك مختلفة الحالات في القول من جهر وإسرار فقال: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَرًا﴾ [نوح: ٨-٩] وقد عبر بـ ﴿ثُمَّ﴾ التي تفيد في عطفها للجمل أن مضمون الجملة المعطوفة أهم من مضمون المعطوف عليها، لأن اختلاف كيفية الدعوة ألصق بالدعوة من زمنها، فدعاهم ﴿جَهَرًا﴾ أى علناً، ثم أضاف الإسرار إليه ليكون أقوى في الدعوة وأشد، والمعنى أنه توخى ما يظنه أقرب لاستجابتهم وأدخل لقلوبهم فجهر حين يكون الجهر أجدى مثل مجامع العامة، وأسر للذين يظن أنهم يستمعون إليه إذ كانوا أبعد عن عيون قومهم، فكانت دعوته كذلك موزعة على مختلف الناس، فها هى

ذى دعوته عليه السلام، وهى على الحقيقة دعوة كافة الأنبياء جمعت مختلف الأزمنة، وجميع الهيئات، وكافة الفئات، وأخذ يدعو: ﴿ فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ [العنكبوت: ١٤].

أما متى توقف نوح عن الدعوة فذلك حين أخبره ربه - سبحانه - بقوله: ﴿ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [هود: ٣٦].

وأما المثل الثانى فهو قصة القرية التي كانت حاضرة البحر: قال تعالى: ﴿ وَسَأَلْتُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٣٦﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا أَلَلَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعَذَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٣٧﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِمُ أَخْبَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَّيْسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٣٨﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١٦٣-١٦٦].

ونذكر ملخصاً سريعاً لقصة هذه القرية، ثم نبين مقصدنا الأصلى فيها، فنقول: أمر الله رسوله ﷺ أن يسأل اليهود في أيامه عن أهل هذه القرية الذين عتوا عن أمر الله تعالى، ولم يعظموا السبت الذي وصاهم به، وماذا كان جزاؤهم عندما فسقوا عن شرع الله ولم يبالوا بالموعظة ولم يتقوا الله، وقد أمره الله تعالى أن يسألهم لا سؤال استفسار، فهو قد علم علمها من الله جل وعلا، بل سؤال تقرير لتقريعهم وتوبيخهم، وعد سوابق عصيانهم وبيان أن عصيانهم إياه ﷺ ليس بدعاً بل شنشنة قديمة منهم.

كان هذا حال الفريق الأول من هذه القرية، وهى الفرقة التي كانت سادرة في غيها وغلوها، لا ترعوى عن ضلالتها، ولا ترقب الله في أفعالها. أما الفريق

الثانى، فهم الأمة الصالحة التي قامت بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وفرقة أيسر من اتعاظ الموعوظين، وغلب على ظنها أن قد حقت عليهم كلمة العذاب، لتحقيقهم بالحال التي أخبر الله تعالى بأنه يهلك أو يعذب من تحققت فيه، فتركت الموعظة والأمر والنهى عن المنكر بما حكى الله عنهم بقوله: ﴿لَمْ تَعِظُوا قَوْمًا^١ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، أى ما العلة في وعظكم هؤلاء؟ وهو إنكار في معنى النفى، يفيد انتفاء جميع العلل التي من شأنها أن يحصلها وعظهم، وذلك يفضى إلى اليأس من حصول اتعاظهم.^(١)

ونلاحظ ابتداءً أن الصالحين المنكرين الذين يتسوا من الوعظ، قالوا لهؤلاء الصالحين الدائنين في الوعظ: ﴿لَمْ تَعِظُوا قَوْمًا^٢ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ هكذا بصيغة المضارع المفيد للاستمرار، أى لم تستمروا في وعظكم؟ مكررين له؟ ثابتين عليه؟ وهو ما يفيد أن تلك الأمة الصالحة ثابتة على كلفة الوعظ، لم تياس، ولم يخالطها الإحباط، وهو ما ينبغى للدعاة إلى الله أن يتعلموه.

كان ردهم أنهم مستمرون في وعظهم لعلتين:

الأولى: ليكون لهم عذر عند الله ﷻ إذا سألهم عن القيام بحق الدعوة.
والثانية - وهو الهدف من دعوة الرسل - هى قولهم: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، أى لما عسى أن يحصل من تقوى الموعوظين بزيادة الموعظة والاستمرار عليها، أى أن الرسل وأتباعهم لا ينفكون يدعون إلى تقوى الله تعالى مهما بدا من إعراض المدعويين إصماماً لآذانهم وإغلاقاً لقلوبهم، وإيذاءً لرسلمهم وأتباع رسلمهم، وأن ذلك لا يزيدهم إلا إصراراً على الموعظة والدعوة، وثباتاً عليها، رجاء أن يتقوا الله تعالى.

وهو ما يبين لنا أسرار تكرار الدعوة والحكمة من الاستمرار عليها.

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٩/ ١٥١).

المطلب الثالث

تنوع أساليب دعوة الرسل إلى الله تعالى

تنوعت الأساليب التي ذكرها القرآن الكريم، والتي تحض الناس على تقوى الله تعالى، حيث نبه الرسل الكرام أقوامهم إليها، أو دعوهم للتفكير فيها، حتى لا يترك المولى - جل وعلا - سبيلاً يصل به الناس إلى تقوى الله إلا وبصرهم بها، ولفت عقولهم وأبصارهم وأسماعهم إليها.

أول هذه الأساليب:

١ - التخويف الشديد الذي من شأنه أن يدفع الناس إلى تقوى الله تعالى:

من ذلك قوله - جل وعلا: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحج: ١-٢].

أمر - سبحانه وتعالى - الناس جميعاً من لدن نزول هذه الآية إلى يوم القيامة بتقواه - جل وعلا، ثم علل سبحانه - وجوب التقوى عليهم بذكر الساعة، ووصفها بأهول صفة لينظروا إلى تلك الصفة ببصائرهم، ويتصوروها بعقولهم حتى يبقوا على أنفسهم، ويرحموها من شدائد ذلك اليوم، بامثال ما أمرهم به ربهم من التردى بلباس التقوى، الذي لا يؤمنهم من تلك الأفزاع إلا أن يتردوا به. ^(١)

فمتصور هذا الخطر العظيم يسارع - لا محالة - إلى إنقاذ نفسه منه، خاصة إذا تيقن بحصوله ووقوعه التيقن المفيد للعمل، الباعث على التقوى، ولا شك أن الله - وجل وعلا - لم يذكر ذلك إلا وله حكمة فيه، يتنبه لها أصحاب العقول

(١) جار الله محمود الزخشي «الكشاف»، (٢٤/٣). و أبو البركات النسفي «مدارك التنزيل»، (٧١/٣).

الواعية المدركة المقدرة لعاقبتها، فيكون دافعاً لها إلى اتقاء هذا الهول الفظيع، لأن المرء العاقل يدفع عن نفسه الشر والسوء بكل وسيلة ممكنة، فإذا ما تحقق الإنسان أن وسيلته في ذلك تقوى الله تعالى، فمن العبث ألا يدفع بها. ومن قلة الفهم وضعف العقل أن ينشغل عنها، وهو يعلم بقدوم الهول الذي لا دافع له ولا مانع منه بغير ذلك.

وقد جرى بلفظ «شئ» للتهويل الشديد بتوغله في التنكير، أى أن زلزلة الساعة لا يعرف كنهها إلا بأنها شئ عظيم.^(١)

ثم فصل بعد ذلك هذا الهول، فذكر منه ثلاثة أشياء:

الأول: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ أى تذهلها الزلزلة. والذهول: الذهاب عن الأمر مع دهشة. والمرضعة: هى التي في حالة الإرضاع، ملقمة ثديها للرضيع، من هول ما فوجئت به ذهلت عن رضيعها ونزعت ثديها لما يلحقها من الفزع الشديد.

الثانى: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا﴾ فمن شدة الهول والكرب العظيم تسقط الحامل حملها لتمام أو غير تمام.

الثالث: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَى﴾ قد ذهبت عقولهم، وترنحت أجسامهم، يتماوجون من غير خمر، ولكن ما أرهقهم من الهول أذهب عقولهم، وطير تمييزهم.^(٢)

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٧ / ١٨٧)، وقال: وهو من المواضع التي يحسن فيها لفظ «شئ» كما ذكر عبد القادر الجرجاني في «دلائل الإعجاز».

(٢) انظر الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١١ / ٢٢٩-٣٠٠). والساعة: علم في اصطلاح القرآن على وقت فناء الدنيا والخلوص إلى عالم الحشر الأخرى، وإضافة الزلزلة في الدنيا أو في وقت الحشر، وحمل الزلزلة على الحقيقة هو الظاهر، وهى حاصلة عند إشراف العالم الدنيوى على الخراب، ويجوز أن تكون الزلزلة مجازاً عن الأهوال

وقد رأينا أن الأمر بالتقوى معلل بأن زلزلة الساعة شيء عظيم، وهو يقتضي أن لزلزلة الساعة أثراً في الأمر بالتقوى غير التخويف الشديد الحامل على التقوى، وذلك على وجه الإجمال المفصل بما بعده في قوله: ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فإذا كان وقت حصول الجزاء فيه هذا الهول المرعب والفرع العظيم، فلا شك كان الانصاف بالتقوى واجباً لاتقاء ذلك كله.

يقول الأستاذ/ سيد قطب، في وصف تفصيل ذلك الهول:

«فإذا هو أشد رهبة من التهويل، إذ هو مشهد حافل بكل مرضعة ذاهلة عما أرضعت تنظر ولا ترى، وتتحرك ولا تعي، وبكل حامل تسقط حملها للهول المروع ينتابها، وبالناس سكارى، وما هم بسكارى، يتبدى السكر في نظراتهم الذاهلة، وفي خطواتهم المترنحة، مشهد مزدحم بذلك الحشد المتماوج، تكاد العين تبصره لحظة التلاوة، بينما الخيال يتملاه، والهول الشاخص يذهله، فلا يكاد يبلغ أقصاه، وهو هول حى، لا يقاس بالحجم والضخامة، ولكن يقاس بوقعه في النفوس الآدمية، في المرضعات الذاهلات عما أرضعن، وما تذهل المرضعة عن طفلها وفي فمه ثديها إلا للهول الذي لا يدع بقية من وعى. إنه مطلع عنيف مرهوب، تنزل له القلوب»^(١).

والآية الثانية من آيات التخويف التي ينبغي أن ننظر في معناها كذلك - لنأخذ العبرة والعظة ونتمسك بأهداب التقوى - هي قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا تَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ

والفرعات التي تحصل يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَرُزِّلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نُصْرُ اللَّهُ﴾. وانظر الطاهر بن عاشور «التحرير و التنوير»، (١٨٧/١٧).

(١) الأستاذ / سيد قطب «في ظلال القرآن»، (٤/ ٢٤٠٨).

جَازٍ عَنِ وَالِدَيْهِ شَيْئًا ﴿[لقمان: ٣٣].

فهذا أمر بالتقوى، وتذكير باليوم العظيم الذي يقوم فيه الناس لرب العالمين، ودعوة بالتخويف مما يقع فيه من أهوال تجعل الولدان شيباً، ليكون تذكير الناس بتلك الأفزاع والكرب حاملاً لهم حملاً على تقوى الله تعالى، وإعداد الزاد - زاد التقوى - لهذا الموقف الذي لا ينفع فيه أحد أحداً: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا نَسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١١﴾ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٣﴾﴾ [المؤمنون: ١٠١-١٠٣]. فلا ينفع كل أحد إلا ما قدم من عمل صالح تثقل به موازينه، وتبيض به صحيفته.

وإذا كان الله - جل وعلا - قد ذكر في الآية السابقة في سورة الحج التخويف بذكر زلزلة الساعة وشدتها، فقد أضاف القرآن الكريم هنا مشهداً آخر من مشاهد الهول والرعب والخوف، وهو مشهد فرار الولد من الوالد والوالد من الولد، كل يقول: نفسى نفسى. فذكر شخصين في غاية الشفقة والمحبة وهما الوالد والولد، ليستدل بهما على غيرهما، فإذا كان الوالد الشفوق لا يجزى عن ولده البار، ولا الولد البار يجزى عن الوالد الشفوق، فما بالك ببقية الأرحام، فضلاً عن الأصدقاء والخلان؟^(١)

يقول الأستاذ/ سيد قطب:

«إن الهول هنا هول نفسى، يقاس بمداه في المشاعر والقلوب. وما تتقطع أواصر القربى والدم، ووشائج الرحم والنسب بين الوالد ومن ولد، وبين المولود والوالد، وما يستقل كل بشأنه، فلا يجزى أحد عن أحد، ولا ينفع أحد إلا عمله وكسبه، ما يكون هذا كله إلا لهول لا نظير له في مألوف الناس،

(١) على اختلاف القراءات في قوله: «يجزى».

فالدعوة هنا إلى تقوى الله تجيء في موضعها الذي فيه تستجاب، وقضية الآخرة تعرض في ظلال هذا الهول الغامر فتستمع لها القلوب»^(١).

وبالنظر في تركيب الآية نلاحظ:

أولاً: تقدم الوالد على الولد في قوله: ﴿لَا تَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ﴾، لأن الوالد أشد شفقة على ابنه، فلا يجد له مخلصاً من سوء إلا فعله.

وقد نزلت الآية في مكة وأهلها - يومئذ - خليط من المسلمين والمشركين، وربما كان الأب مسلماً والابن كافراً، وربما كان العكس. وقد يتوهم بعض الكافرين إذا داخلهم الظن في مصيرهم بعد الموت أن قد يدفع عنهم أبناءهم المسلمون حمية كحمية الدنيا وأنفتها، وكذلك قد يتوهم أن أحد الفريقين أرجى في المقصود. ولكن جملة: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ زَجَا عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً﴾ أكدت بطرق من التوكيد لم تشتمل على مثلها جملة: ﴿لَا تَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ﴾ فقد جاءت جملة إسمية، ووسط فيها ضمير الفصل، وانصب النفي فيها على الجنس. كل ذلك مؤكدات للمبالغة في تحقيق عدم جزء هذا الفريق المولود عن الآخر، إذ كان معظم المؤمنين من الأبناء والشباب، وكان آباؤهم حينئذ كفرة على الشرك، كأبي قحافة والد أبي بكر ﷺ، وأبي طالب والد علي ﷺ، وأم سعد بن أبي وقاص ﷺ، وغيرهم. فأريد حسهم أطباع آبائهم وما عسى أن يكون من أطعامهم في أن ينفعوا آباءهم في الآخرة.

ثانياً: وأما إثارة لفظ «مولود» على «ولد» فلأن لفظ «مولود» توحى بأنه ولده من صلبه، إذ إن لفظ «ولد» أعم منها حيث تطلق على ولد الولد مع ما توحى به لفظة «مولود» من تجشم مشقة التربية التي تستدعى التحنن

(١) انظر الأستاذ/ سيد قطب «في ظلال القرآن»، (٥/٢٧٩٨).

والتعطف^(١). ومع ذلك ليس بمغني ولا بدافع عن أبيه شيئاً، حسماً لأى طمع في ذلك، ولفتاً للأنظار مرة أخرى إلى كون التقوى هى وحدها سبب النجاة. قال تعالى: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

ونختتم بها ذكر الله - جل وعلا - في هذا المعنى مضافاً إلى ما سبق، وذلك قوله: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١]. حيث أمر المولى - جل ذكره - نبيه ﷺ بإنذار الذين يخافون الحشر، لا ولي لهم ساعتئذٍ من دون الله ولا شفيع، بإنذارهم بالقرآن، وتخويفهم رجاء أن يتقوا الله تعالى، فيسارعوا إلى الطاعة ويتنهوا عن المعصية، فبينت الآية الكريمة أن الإنذار والتخويف من الأمور التي كثيراً ما تحصل تقوى الله تعالى، إذ تتأثر القلوب بالوعظ، فترق وتحشع لأمر الله وما نزل من الحق، فتتفاد الجوارح لما يجب الله تعالى، وتتجنب ما يغضبه. ومن ثم أمر النبي ﷺ والمؤمنون بالقيام بهذا الأمر.

وبالنظر في تحليل الآية:

قوله: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾ أى: أعلمهم مع التخويف. ﴿بِهِ﴾ أى: بما يوحى إليك، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٥]. ثم خص الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم، مع أنه ﷺ مأمور بإنذار الخلائق كلهم، لأن خوف الحشر مظنة الإيثار، وكأنه قيل: الكفرة المعرضون دعهم ورأيهم وأنذر بالقرآن من يرجى إيمانه.

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢١/١٩٤). والزخشرى «الكشاف»،

(٣/٢١٧). الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١٢/٥٣٠-٥٣١). ومحمود الألوسى

«روح المعانى»، مجلد ١٢، (٢١/١٦٤).

واختلف أهل العلم في تعريف هؤلاء الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم، فذهب بعضهم إلى أنهم المؤمنون، وعرفوا بالموصول لما تدل عليه الصلة من المدح، لأن الإنذار لهم نافع، خلافاً لحال المنكرين للبعث فإنهم لا يخافونه، فضلاً عن الاحتياج إلى شفعاء. وذهب بعضهم إلى أنهم الكفرة. وذهب قومٌ آخرون إلى أنهم عموم من خاف الحشر وآمن بالبعث من مسلم ويهودى ونصرانى، إلا أنهم قيدوا المسلمين بكونهم مفرطين فيندروا رجاء التقوى. ورجح آخرون أنهم المجوزون للحشر من غير المسلمين، لأن المسلمين على أى حال فيهم شيء من التقوى.^(١)

وهذه المعانى توضح للداعين إلى الله تعالى الطريق الذي ينبغي أن يسلكوه في حل الناس على تقوى الله، والجهد الذي يجب عليهم بذله مع من يرجى إيمانه ممن يخاف الحشر، لا مع غيره.

أما قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فهو تعليل للأمر بالإنذار، أى رجاء أن يتقوا ربهم - سبحانه - بتحقيق أسباب التقوى، وأولها: ترك الشرك والكفر، ثم الإتيان بالطاعات، وترك المعاصي على ما ذكرنا في معنى التقوى.

٢- القرآن يبيّن والحمد بالرحمة :

أمر الله تعالى الرسل بإنذار أقوامهم وتخويفهم رجاء أن يتقوا، لكن إدامة التخويف لهم قد يعودهم عليه حتى لا يكون سبباً لاستجابتهم، بل - على العكس - تكون النفوس قد تبلد إحساسها، لأنها قد تعودت على سماع ذلك حتى فقدت التأثير به، والانفعال معه.

(١) انظر أبا حيان «البحر المحيط»، (٤/٥٢٠). الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٦/٣٢١). والعلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٧/٢٤٤). وأبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (٢/١٥٤)، وجار الله الزخشرى «الكشاف»، (٢/١٦).

فاقتضت حكمته تعالى أن بين لهم الخير، وبشرهم به، ووعدهم بالرحمة، وحببها إليهم، مع ما يستلزم ذلك من إحسانه وفضله، ليكون ذلك كله مدعاة لهم ليتقوا الله تعالى، ويرجوا اليوم الآخر.

من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

أى: وهذا الذي تليت عليكم أوامره ونواهيه - وهو القرآن الكريم - كتاب عظيم الشأن، لا يقدر قدره، أنزلناه على محمد ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام مشتملاً على فوائد الدين والدنيا، وهو كتاب مبارك كثير الخير.^(١) ومن كانت هذه صفته من كونه منزلاً من الله بالخير والبركة للناس في دنياهم وأخراهم يجب اتباعه، حيث الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها.

فلاحظنا أن الله - جل وعلا - قد نعت كتابه بما يكون سبباً في محبة الناس إياه وإقبالهم عليه لتصلح عليه أمورهم كلها، إذ كل أحد يجب الخير لنفسه - لاشك، فكان هذا من باب ترغيبهم في الإيمان والطاعة.

ثم بين لهم الجزاء بعد ذلك، وهو قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، ليكون هذا الرجاء في رحمة الله تعالى عوناً لهم، وشارحاً صدورهم لتقوى الله.

وقدم المولى - سبحانه - الأمر باتباعه، والأمر بالتقوى لتكون الرحمة من الله جزاء ذلك فقال: ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

ونلاحظ أنه - سبحانه - قال: ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾، أى القرآن الكريم، أى اتبعوا أوامره والتزموا بما فيه، ثم قال: ﴿وَاتَّقُوا﴾ بغير عود الضمير إليه، حيث فهم منها من قرأنا له من المفسرين: واتقوا مخالفته ونواهيه، وإن كان حذف الضمير،

(١) انظر أبا السعود، «إرشاد العقل السليم»، (٢/٢٢٣). والألوسی «روح المعاني»،

وحذف المفعول - كما هي عادة القرآن الكريم في كثير من الأحيان - لتشمل كل ما يصلح للتقوى، لأن اتباع القرآن المطلوب في الآية كان في أن يتبعه المرء فيما جاء به، من التزام أمره واجتناب نهيهِ، والاعتاظ بمواعظه، والتأدب بآدابه، والتخلق بأخلاقه.... وغير ذلك. فكان الأمر بالتقوى - زائداً على هذه المعاني - ليشمل كل معاني التقوى الملائمة لهذا السياق من الخوف من الله واليوم الآخر، والخوف من النار، وليمثل كذلك الزائد على الاتباع، من الالتزام بالمستحبات، وترك المكروهات، واجتناب الشبهات، وغيرها مما قدمنا في معنى التقوى، وما يحصل به المؤمن رحمة الله الموعودة في الآية.

وأشارت الآية الكريمة بهذه اللفظة الحانية - لفظة «الرحمة» - إلى ما يشاق إليه المرء في الدنيا من العيشة الحسنة، والحياة المطمئنة، ورضا النفس وسلامها، وتواد الناس وتعاطفهم، وما به يرتفع نكد الدنيا وأزماتها، واضطرابات النفس والاجتماعية، وعدم الأمن والطمأنينة فيها.

لا جرم كان الوعد بالرحمة العنصر الثاني الذي يحمل به الرسل أقوامهم على تقوى الله تعالى، وكان لازماً حيثئذ للدعاة إلى الله أن يخلطوا الرهبة بالرغبة ليكون أعون على تحصيل مقصود الدعوة من تقوى الله، إذ هو الهدف الأسمى - كما ذكرنا - من دعوة الرسل.

وإذا كان ذلك هو ما ذكر الله - جل وعلا - عن الرسول الخاتم ﷺ، فقد جاء مثله عن أول^(١) من أرسله المولى للدعوة إليه نوح عليه السلام حيث قال سبحانه على لسانه - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٣].

(١) ورد ذلك في حديث الشفاعة، انظر العسقلاني «فتح الباري» (٤٧١٢). ورواه مسلم

التقوى في القرآن الكريم

بدأت هذه الآية الكريمة باستفهام إنكارى من نوح عليه السلام يجابه به قومه الذين استبعدوا وأحالوا أن يرسل المولى بشراً لينذر عباده، ويهديهم إلى طريق التوحيد ونبد الشرك، وطاعة الله وترك معصيته، بقولهم: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤] بعد قولهم: ﴿مَّا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ في نفس الآية. فكان هذا الإنكار منه عليه السلام فضحاً لشبهتهم، إذ إن الذي جعلوه مستبعداً ومستحيلاً هو نفسه موجب القبول والإيمان، لأن كون المذكر رجلاً منهم أقرب إلى القبول من كونه من جنس آخر.

ونلاحظ أن الجمل رتبت على ترتيب حصول مضمونها في الوجود، فإن الإنذار مقدم لأنه حمل على الإقلاع عما هم فيه من الشرك والوثنية، ثم تحصل التقوى، وهى العمل الصالح، فترجى منه الرحمة.^(١)

يقول صديق خان في «فتح البيان»:

«وهذا الترتيب في آية من الحسن، لأن المقصود من الإرسال الإنذار، ومن الإنذار التقوى، ومن التقوى الفوز بالرحمة».^(٢)

وغايتنا من الكلام أن الرسل جمعوا إلى الإنذار - الذي أشرنا إليه من قبل - الوعد بالرحمة، لتكون حافزاً للناس على تقوى الله تعالى، والمصارعة إلى إجابة دعوة الرسل، لذلك كان معنى قوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ أى: لتتعلق بكم الرحمة بسبب تقواكم لله تعالى، مع ما في هذا الأسلوب من الشفقة عليهم، ودعوتهم بكل سبيل إلى تقوى الله، كأنه يتحنن إليهم برحمة الله المرجوة ليتقوه -

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٩٦/٨).

(٢) صديق حسن خان «فتح البيان»، (٣/٣٥٤). وكذلك أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (٢/٢٥٩).

سبحانه، فيفوزوا بتلك الرحمة.

وللعلامة أبي السعود رأى حسن في مجيء حرف الترجى «لعل» في هذه الآية، حيث يقول:

«وفائدة حرف الترجى التنبيه على عزة الطلب، وأن التقوى غير موجبة للرحمة، بل هي منوطة بفضل الله تعالى، وأن المتقى ينبغي ألا يعتمد على تقواه، ولا يأمن من عذاب الله ﷻ». (١)

وتلك آية أخرى من آيات الترغيب ليقوا الله تعالى، وهى قوله - سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ؕ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الحديد: ٢٨].

رأينا في الآيتين من قبل كيف رغب الرسل أقوامهم في تقوى الله تعالى بوعدهم بتنزل الرحمة عليهم. أما هذه الآية الكريمة فقد وعدت المؤمنين إيماناً صحيحاً من أهل الكتاب إن هم اتقوا ربهم - جل وعلا - وآمنوا برسوله محمد ﷺ بنصييين من رحمة الله جزاء إيمانهم بالرسول من قبل وإيمانهم كذلك برسول الله ﷺ، وحثاً لهم على الإيمان الصحيح، وترغيباً لهم في تقوى الله الحاملة لهم على الإيمان برسول الرحمة ﷺ، حيث لا يصح إيمانهم إلا بالإيمان به وإتباعه. ويكون معنى الآية: يا أيها الذين آمنوا بعبسى إيماناً خالصاً: اتقوا الله، واخشوا عقابه، واركوا العصبية والحسد وسوء النظر، وآمنوا بمحمد ﷺ، وقد صح حديث لرسول الله ﷺ في ذلك.

يقول الإمام ابن كثير في تفسير الآية:

«قد تقدم في رواية النسائي عن ابن عباس أنه حمل هذه الآية على مؤمنى

(١) أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (٢/٢٥٩).

أهل الكتاب، وأنهم يؤتون أجرهم مرتين، كما في الآية التي في القصص^(١)، وكما في حديث الشعبي عن أبي بردة عن أبيه عن أبي موسى الأشعري، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجلٌ من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بى فله أجران، وعبدٌ مملوك أدى حق الله وحق مواليه فله أجران، ورجلٌ أدب أُمته فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران»، أخرجه الشيخان، ووافق ابن عباس على هذا التفسير الضحاك، وعتبة بن أبي حكيم، وغيرهما، وهو اختيار ابن جرير^(٢).

ومع ذلك، فإن الآية تحتل أن يراد بالذين آمنوا المؤمنون من أهل ملة الإسلام، فتكون الآية بشارة لهم بأنهم لا يقل أجرهم عن أجر مؤمنى أهل الكتاب، لأنهم لما آمنوا بالرسول السابقين أعطاهم الله أجر مؤمنى أهل مللهم، أى أعطاهم أجرهم مرتين، ويكون قوله للمؤمنين ﴿ءَامِنُوا﴾ مستعملاً في الدوام على الإيمان، كقوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ﴾ في سورة النساء، ويكون إقحام الأمر بالتقوى قصداً لأن يحصل في الكلام أمر بشئ يتجدد، ثم يردف عليه أمر يفهم منه أن المراد به طلب الدوام، وهذا من بدیع نظم القرآن^(٣).

ويؤيد هذا الاحتمال ما رواه البخارى عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمالاً، فقال: من يعمل لى من صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط قيراط؟ ألا

(١) سورة القصص، آية: (٥٤).

(٢) الحافظ ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤/٣١٧). وابن جرير الطبرى «جامع البيان»، مجلد ١١، (٢٧/١٤٢).

(٣) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٧/٤٢٧).

فعملت اليهود، ثم قال: من يعمل لى من صلاة الظهر إلى صلاة العصر على قيراط قيراط؟ ألا فعلت النصرارى، ثم قال: من يعمل لى من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين قيراطين؟ ألا فأنتم الذين عملتم». (١)

بل إن الله - سبحانه وتعالى - زاد المؤمنين من أهل الإسلام، جزاء تقواهم وثباتهم على الإيوان، ما جاء في جواب الشرط المحذوف في الآية، وهو النور الذي يمشون به، والمغفرة.

فكأنه أثابهم في الآخرة كفلين من رحمته، مع مغفرة الذنوب والخطايا، وذلك هو الفوز المبين، وجزاء الدنيا، وهو قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾، وهذا الجزاء في الدنيا تمثيل لحالة القوم الطالبين التحصيل لرضا الله والفوز بالنعيم، الخائفين من الوقوع في ضد ذلك، بحالة قوم يمشون في طريق بليل، يمشون الخطأ فيه، فيعطون نوراً، فيتبصرون بالثنايا، فيأمنون الضلال فيه. (٢)

وهذا - كما هو واضح - على احتمال أن المراد بالآية المؤمنون من أهل ملة الإسلام. وإذا قلنا بالاحتمال الأول فلا شك أن هذا الجزاء ينتظر أولئك المؤمنين من أهل الكتاب إذا اتقوا ربهم وآمنوا برسوله محمد ﷺ.

وإنما ضوعف أجرهم لما في النفوس من التعلق بما تدين، فيعسر عليها تركه. وأما في جانب المسلمين فلئلا يفوقهم بعض من آمن بمحمد ﷺ من أهل الكتاب، إذ المسلمون مؤمنون بموسى وبعيسى وبجميع الرسل، لا يفرقون بين

(١) انظر ابن جرير الطبري «جامع البيان»، مجلد (١١)، (٢٧/١٤١). والحافظ ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤/٣١٧). والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٧/٤٢٨).

(٢) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٧/٤٢٩).

أحد منهم.

ويحسن بنا أن ننقل كلاماً جميلاً للأستاذ/ سيد قطب، نختم به الآية. يقول: «ونداؤهم على هذا النحو ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فيه لمسة خاصة لقلوبهم، واستحياء لمعنى الإيمان وتذكير برعايته حق رعايته، واستجاشة للصلة التي تربطهم بربهم الذي يناديهم هذا النداء الكريم الحبيب، وباسم هذه الصلة يدعوهم إلى تقوى الله والإيمان برسوله، فيدو للإيمان المطلوب معنى خاص، معنى حقيقة الإيمان وما ينبثق عنها من آثار.

﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ أى: نصيين من رحمته، وهو تعبير عجيب، فرحة الله لا تتجزأ، ومجرد مسها لإنسان يمنحه حقيقتها، ولكن في هذا التعبير زيادة امتداد للرحمة وزيادة فيض.

﴿وَجَعَلَ لَكُم نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ هبة تنير تلك القلوب فشرق، وترى الحقيقة من وراء الحجب والحواجز، ومن وراء الأشكال والمظاهر، فلا تتخبط ولا تلتوى بها الطريق نوراً تمشون به»^(١).

٣- ذكر آياته في الأفاق وفي أنفسهم:

من الأساليب التي حض القرآن الكريم بها الناس على تقوى الله، ودعا الرسل أقوامهم بها، تلك الآيات الكونية التي بثها - سبحانه - في الكون الرحيب والآيات التي في أنفسهم، شاهدة على وحدانيته وعظمته، داعية الخلق للسجود له، ودوام التسبيح بحمده، والتي لو تفكر فيها المرء، ونظر إليها بعين الاعتبار، لكانت هاديته إلى الله - جل وعلا - وإلى تقواه حق تقاته.

ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي آخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ٦].

(١) الأستاذ/ سيد قطب «في ظلال القرآن»، (٦/ ٣٤٩٦).

وهذا استدلال آخر^(١) على وحدانية الله تعالى، وعلى انفراده بالخلق والتقدير. استدلال بأحوال الضوء والظلمة، وتعاقب الليل والنهار، واختلافهما في الطول والقصر، ثم عطف بما هو أعم وأشمل، وهو ما خلقه - جلت قدرته - في السماء من الأبراج النيرة، والأفلاك الدائرة، والمجرات الهائلة، وما فيها من ملائكة وغيره مما لا يحيط بمعرفته إلا هو - سبحانه، وكذلك ما خلق في الأرض مما بلغته معرفة الناس على مختلف العصور، من البحار والمحيطات وما فيها وما تحتها، ومما هو في باطن الأرض من الجمادات والمعادن وغيرها، ومما هو على ظهرها من أنواع المخلوقات والحيوانات والنباتات. كل ذلك آيات باهرات تدل على الصانع الخالق المدبر الحكيم - سبحانه وتعالى - وعلى وحدانيته، وكمال قدرته التي تدعو الناس إلى تقوى الله تعالى وتوحيده، وإفراده بالعبادة.

وبالنظر في الآية الكريمة:

نرى تأكيد هذا الاستدلال بحرف «إِنَّ»، لأجل تنزيل المخاطبين به، الذين لم يهتدوا بتلك الدلائل إلى التوحيد، منزلة من ينكر أن في ذلك آيات على الوحدانية، بعدم جريهم على موجب العلم.^(٢)

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يشمل كل الأجسام والأحوال فيهما، وبالتالي يكون هذا الدليل أشمل من كل الأدلة السابقة، ويبين حينئذ وجود آيات الله تعالى الشاهدة على الوحدانية ولزوم التقوى في كل مخلوقاته، ويظهر ضلالة الإنسان المتمرد على ربه، المنكر لوجوده، أو المتأبى على

(١) حيث سبقتها آية أخرى تدل على وحدانية الله وبديع صنعه، وهى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِيَتَعَلَّمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

(٢) انظر الطاهر بن عاشور، «التحرير والتنوير»، (١١/٩٧).

طاعته وتقواه.

ولهذه الآية شبيهة في سورة البقرة، وهى قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ...﴾ إلى قوله: ﴿...لَأَيَّتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤] وأخرى شبيهة بها في سورة آل عمران، وهى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَأَيَّتِ لِقَوْمٍ لَّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

فجعلت آية البقرة: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، وآل عمران: ﴿لَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، والآية التي معنا: ﴿لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾. يقول الطاهر بن عاشور: «لأن السياق هنا تعريض بالمشركين الذين لم يهتدوا بالآيات، ليعلموا أن بعدهم عن التقوى هو سبب حرمانهم من الانتفاع بالآيات، وأن نفعها حاصل للذين يتقون، أى يحذرون الضلال، فالمتقون هم المتصفون باتقاء ما يوقع في الخسران، فيبعثهم على تطلب أسباب النجاح، فيتوجه الفكر إلى النظر والاستدلال بالدلائل»^(١).

وهكذا يختص أهل التقوى بالانتفاع بالآيات، وأن الآيات دليل لتقوى الله وتوحيده، ومن ثم دعا الرسل أقوامهم إلى التفكير والنظر لتحصيل تقوى الله. الآية التالية: قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَتَقُؤْا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَأَتَقُؤْا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

هذه آية من آيات التفكير في الآفاق والأنفس، وهى من الآيات التي ساقها القرآن الكريم ليتبصر بها الناس قدرة الله تعالى وعظمته في بديع صنعه، فتحمل الناس على تقواه - سبحانه - وتوحيده، والاعتراف له بصفات الكمال، وتنزيهه

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٩٨/١١).

عن الشركاء في الأفعال والصفات، مع اتقاء غضبه، ومراعاة حقوقه. حملها الرسل إلى أقوامهم ليتقوا الله تعالى.

ونلاحظ في تحليل الآية ما يلي:

- أن الخطاب بالتقوى متوجه إلى الناس جميعاً، أى المكلفين من نزول الخطاب إلى يوم القيامة، مما يدل على أن التقوى ليست مختصة بقوم دون قوم، ولا بمكان دون مكان، ولا بزمان دون زمان، خاصة وأن علة الأمر بالتقوى كذلك واحدة، وهى الخلق من نفس واحدة، والتي تظهر فيها المناسبة بين وحدة النوع ووحدة الاعتقاد.

- أن الله تعالى أمرنا بالتقوى، وذكر عقيقه أنه تعالى خلقنا من نفس واحدة، وليبيان المناسبة بين الأمر بالتقوى والخلق من نفس واحدة يحسن بنا أن نلخص هنا ما ذكره الإمام الفخر الرازى لجودة الكلام. يقول - رحمه الله:

«قولنا: إنه تعالى خلقنا من نفس واحدة مشتمل على قيدين. الأول: أنه تعالى خلقنا. والثانى: كيفية ذلك الخلق. ولكل واحد من هذين القيدين أثر في وجوب التقوى.

أما القيد الأول: وهو أن الله تعالى خلقنا، فلاشك أن هذا المعنى يوجب علينا الانقياد للأوامر والنواهي، أى لتقوى الله. وبيان ذلك بأكثر من وجه:

الأول: أنه لما كان خالقاً لنا، وموجداً لذواتنا وصفاتنا، فنحن عبيده، وهو مولى لنا، والربوبية توجب نفاذ أوامره على عبيده، والعبودية توجب الانقياد للرب الموجد الخالق.

الثانى: أن الإيجاد غاية الإنعام والإحسان، فإنك كنت معدوماً فأوجدك، وعاجزاً فأقدرك، وجاهلاً فعلمك، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ (١٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (١٩)، فعليه أن يقابل تلك النعم بإظهار الخضوع والانقياد، وترك التمرد والعناد، وهو حقيقة التقوى.

أما القيد الثاني: وهو كونه - سبحانه - خلقنا من نفس واحدة، وأن ذلك يوجب تقواه - سبحانه. فبيانه من أكثر من وجه:

الأول: أن خلق جميع الأشخاص من نفس واحدة أدل على كمال القدرة، وتمام العلم، بحيث لو كان الأمر على غير ذلك من غير خالق عليم حكيم قادر، لم نر إلا أشياء متشاكلة ليست على هذا النسق، فلما رأينا في أشخاص الناس الأبيض والأسود والأحمر والأسمر، والحسن والقبيح، والطويل والقصير، دل ذلك على أن مدبرها وخالقها فاعل مختار، قادر على كل الممكنات، عالم بكل المعلومات، فحينئذ يجب الانقياد لتكاليفه وأوامره ونواهيه، فكان ارتباط قوله: ﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾ بقوله تعالى: ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ في غاية الحسن والانتظام.

الثاني: أن هذا يدل على المعاد، لأنه تعالى لما كان قادراً على أن يخرج من صلب شخص واحد أشخاصاً مختلفين، وأن يخلق من النطفة شخصاً عجيب التركيب لطيف الصورة، فكيف يستبعد إحياء الأموات وبعثهم؟ ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَبْعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [لقمان: ٢٨].^(١)

ووصل ﴿ خَلَقَكُمْ ﴾ بصلة ﴿ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ إدماج، للتنبيه على عجيب هذا الخلق وأحقيقته في الاعتبار، وعطف: ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ على: ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ هو صلة ثانية، وقوله: ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا ﴾ صلة ثالثة، لأن الذي يخلق هذا الخلق العجيب جدير بأن يتقى، وقد حصل من ذكر هذه الصلوات تفصيل لكيفية خلق الله الناس من نفس واحدة هذا الخلق العجيب. ولو غير هذا الأسلوب، فجىء بالصورة المفصلة دون سبق إجمال، فقليل: الذي خلقكم من نفس واحدة وبث منها رجالاً كثيراً ونساءً، لفاتت

(١) انظر الفخر الرازي «التفسير الكبير»، (٤/٦٤٧-٦٤٩).

الإشارة إلى الحالة العجيبة من خلق الزوج، وهذا كله يحمل المرء على التفكير والاعتبار الداعي إلى تقوى الله - جل وعلا.

وقد شمل قوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ العبرة بهذا الخلق العجيب الذي أصله واحد، ويخرج مختلف الشكل والخصائص، والمنة على الذكران بخلق النساء من أجلهم، والمنة على النساء بخلق الرجال من أجلهن، ثم من على النوع بنعمة النسل في قوله: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾، مع ما في ذلك من الاعتبار بهذا التكوين العجيب.^(١) والبت: النشر والتفريق للأشياء الكثيرة، وهى من الألفاظ الموحية التي تدل على قدرة الله تعالى وعلمه، وقد جعلها من آياته الدالة على وحدانيته، والداعية إلى توحيده والتزام أوامره. قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩]. فالتأمل في هذا الكون يرى ما بث الله فيه من خلق، وكيف وزعهم على امتداد المكان وتغيره، وعلى امتداد الزمان وتعاقبه، بما يدل على تمام صنعه، وكمال علمه، وعظيم قدرته.

وبقية شرح الآية في الفصل السابق.

٤. تقريره سبحانه له أنه الرب الخالق الرازق، المعطي

المميت، المدبر، الذي بيده الأمر:

وذلك كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

وهذه الآية الكريمة مسوقة في إطار عدد من الآيات تدل على وحدانية الله

(١) انظر الطاهر بن عاشور، «التحرير والتنوير»، (٥/ ٢١٤-٢١٧).

تعالى، وتنكر على المشركين اتخاذهم آلهة أخرى مع الله - جل وعلا. وهى من الآيات التي جاءت على صيغة التقرير للمشركين بما خلق الله - جل وعلا، وبما نشر من آياته، وبما أخرج من معجزاته، ليسلموا بأن الفاعل المبدع لذلك كله هو الله، فإذا أقروا بذلك - ولا بد - فإن السؤال اللازم: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، أى: أفلا تتقون الله، أى: أفلا توحّدونه وتنزهونه عن الشرك؟ أو: أفلا تحافون على أنفسكم أن يعاقبكم باتخاذكم شركاء من دونه لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً، ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، فضلاً عن أن يملكوا شيئاً مما ذكر الله في تقريره لكم؟

وبالنظر إلى الآية نجد:

أن الآية تنزل منزلة الاستدلال على أن الله هو المولى الحق، الواجب التوحيد والطاعة، وقد احتج - سبحانه - عليهم بمواهب الرزق الذي تقوم به قوام الحياة، وبمواهب الحواس التي تميز وتستمتع بمواهب الرزق، وبنظام التوالد والتناسل الذي به بقاء الأنواع، وهذه تفصيلات لبعض أدلة التوحيد. ولما كانت الأدلة كثيرة غير منحصرة، وما سبق تخصيص هذه الأدلة أتى بعدها بالعام في قوله: ﴿وَمَنْ يُدْبِرْ الْأُمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾، ليشمل كل شيء في خلق الله تعالى يتبصره المرء أو يسمعه، ليرى فيه التدبير المحكم، والنظام المتقن، فهذه كلها مواهب من الله تعالى، إذ كان المخاطبون يعلمون أن كل ما ذكر لا يفعله إلا الله، فلا جرم أن كان هو المختص بالإلهية والولاية والتقوى الشاملة.

والاستفهام في ﴿قُلْ﴾ تقريرى، وجاء الاستدلال على طريقة الاستفهام والجواب، لأنه صورة الحوار، ليكون الدليل الحاصل به أوقع في نفوس السامعين، وهو من طريق التعليم فيما يراد رسوخه من القواعد.^(١)

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١١/ ١٥٥).

والتقوى وأدلتها من أهم الأمور التي تستدعى إيصالها للسامعين والمخاطبين بكل ما من شأنه تثبيتها وترسيخها.

ويجذب تلخيص كلام المفسرين في شرح هذه الأدلة على الوحدانية، المقررة للتقوى، وقد جمع الأستاذ/ سيد قطب معظم كلام المفسرين في ذلك، يقول - رحمه الله:

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ : من المطر الذي يحيى الأرض، نباتها وطيرها وأسماكها وحيوانها، وما يحصلون عليه لأنعامهم. وما يزال البشر يكشفون كلما اهتموا إلى شيء من نواميس الكون عن رزق بعد رزق من السماء والأرض. حتى عفن الأرض كشف عن دواء وترىاق.

﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾ : ﴿أَمْ﴾ هنا للإضراب الانتقالي من استفهام إلى آخر، وفيه تنبيه على كفاية هذا الاستفهام في الدلالة على المقصود من تقوى الله تعالى، لو تفكر الناس فيها حق التفكير، وهما الأساس لغيرهما من بقية الحواس، أى من يستطيع خلقهما وتسويتها على هذه الفطرة العجيبة، من يهبها القدرة على أداء وظائفها مع حساسيتها لأدنى أذى، من يصححها أو يمرضها، من يصرفها إلى العمل أو يلهيها، ويسمعها ويربها ما تحب أو ما تكره.. ذلك ما كانوا يدركونه. وما يزال البشر يكشفون من طبيعة السمع والبصر، ومن دقائق صنع الله في هذين الجهازين ما يزيد السؤال شمولاً وسعة. وإن تركيب العين وأعصابها وكيفية إدراكها للمرئيات أو تركيب الأذن وأجزاءها، وطريقة إدراكها للذبذبات، لعالم وحده يدير الرؤوس عندما يقاس هذا الجهاز أو ذاك إلى أدق الأجهزة التي يعدها الناس من معجزات العلم الحديث، وإن كان الناس يهولهم جهاز يصنعه الإنسان لا يقاس إلى شيء من صنع الله، بينما يمرون غافلين بالبدائع الإلهية، لا يسمعون ولا يبصرون.

﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ : إن

مدلول السؤال عندهم مشهود في خروج النبتة، وخروج الفرخ من البيضة، والبيضة من الفرخ، إلى آخر هذه المشاهدات، وهو عندهم عجيب، وهو في ذاته عجيب. وإن وقفة أمام الحبة والنواة تخرج منها النبتة والنخلة، أو أمام البيضة والبويضة يخرج منها الفرخ والإنسان، لكافية في استغراق حياة في التأمل. وإلا فأين كانت تكمن السنبلة في الحبة؟ وأين كان يكمن العود؟ وأين كانت تلك الجذور والساق والأوراق؟ وأين في النواة كان يكمن اللب واللحاء، والساق السامقة والعراجين والألياف؟ وأين كان يكمن الطعم والنكهة، واللون والرائحة، والبلح والتمر، والرطب والبر؟ وأين في البيضة كان الفرخ؟ وأين كان يكمن العظم واللحم، والزغب والريش، واللون والשיات والررفة والصوات؟ وأين في البويضة كان الكائن البشري العجيب؟ أين كانت تكمن ملامحه وسماته المنقولة عن وراثات موعلة في الماضي؟ أين كانت نبرات الصوت، ونظرات العين، واستعدادات الأعصاب؟

﴿وَمَنْ يُدَبِّرْ الْأَمْرَ﴾ : في هذا الكون الذي ذكر كله وفي سواه من شؤون الكون والبشر؟ من يدبر ناموس الكون الذي ينظم حركة هذه الأفلاك على هذا النحو الدقيق؟ من يدبر حركة الحياة، فتمضي في طريقها المرسوم بهذا النظام اللطيف العميق، والتي لا تخطئ ولا تحيد؟ ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾^(١).

تفرع على ذلك أن الله هو الإله الحق، فقال تعالى: ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢]:

وهذه هي الآية التالية لآية التقوى التي نحن بصدد ها. فبعد أن قررهم بها لا

(١) انظر سيد قطب «في ظلال القرآن»، (٣/ ١٧٨١-١٧٨٢). ومحمود الألوسي «روح المعاني»، (٧/ ١٦٠-١٦١). والفخر الرازي «التفسير الكبير»، (٨/ ٣٥٠).

يكون إلا من فعل الله وقدرته، وبعد أن أقروا بذلك، قال: أفلا يكون ذلك حاملاً لكم على تقوى الله؟ أفلا توحيدونه وتطيعونه؟ ثم عقب في الآية الكريمة الأخرى بما معناه: فذلكم الذي يفعل ذلك هو الإله الحق، الذي لا يستحق سواء التقوى والعبادة، وإلا فكيف تُصَرِّفون بعد هذه الأدلة البينة والبراهين الواضحة إلى الضلال؟ كيف تستسيغون ذلك أو تقبله عقولكم؟

وما زال حديث القرآن الكريم متصلاً عما يكون سبباً لتقوى الله تعالى، وبنفس الاستفهام التقريري، فيقول: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ [المؤمنون: ٨٦-٨٧]:

وهذه الآية التالية التي أمر الله تعالى بها نبيه ﷺ، ليقف المشركين على الإقرار بهذه الأشياء التي لا يمكنهم إلا الإقرار بها، ويلزم من الإقرار بها أن يؤمنوا بالله، ويدعنوا لشرعه ورسالة رسوله ﷺ، أى أن الإقرار بأن هذه المخلوقات العجيبة لله تعالى لابد من أن يكون داعية لتقوى الله - جل وعلا، إذ خلق السموات وما فيها ومن فيها لا شك خلق عظيم يدل على التدبير والنظام، والترتيب البديع الذي لا يختل منه شيء، ولا يتقدم فيه شيء على شيء، ولا يتخلف عن عمله وسيره شيء، ليدل على خالق قادر، حكيم عليم، قوى مدبر، ينبغى أن تدعن له الحياة، وتسجد له العقول والقلوب، توحيداً له، وإيماناً به.

ونلاحظ على الآية:

- أن التعبير جاء برب السموات ورب العرش، لأن انفراد الله تعالى بالربوبية في السموات والعرش لا يشك فيه المشركون^(١)، لأنهم لم يزعموا إلهية

(١) وفيه رد على سؤال هل كان الكفار يعرفون شيئاً عن العرش، والإجابة نعم بدليل تقريرهم على ذلك، وإقرارهم به، واعترافهم بأن ذلك لله، لأنهم كانوا يعرفون رباً في

أصنامهم في السموات والعوالم العلوية، فكان ذلك من أعظم الأدلة على بطلان شركهم، وعلى إثبات وجوده - سبحانه، وعلى وحدانيته، وانفراده بالملك المستلزم لانفراده بالطاعة والانقياد. وهو دليل على كل ملحد ومشرك في كل زمان ومكان على وجود الرب ووحدانيته، إذ لا بد لمثل ذلك من خالق مدبر - جل وعلا.

- أن الإجابة على السؤال جاءت في قراءة جمهور القراء: (سيقولون الله)، بلام جارة لاسم الجلالة، وقرأ بعضهم: (سيقولون الله) بدون لام الجر، والمعنى واحد، فالثاني بالنظر إلى اللفظ، والأول بالنظر إلى المعنى، كقولنا: من صاحب الدار؟ فيقال: زيد، أو: لزيد. وقد جاء الجواب بالجر لأن المستفهم عنه لوحظ بوصف الربوبية، والربوبية تقتضي الملك، وقد أنشد القرطبي ومن تبعه: إذا قيل: من رب المزالف والقرى ورب الجياد الجُرد؟ قلت: لخالد^(١)

وقد ختمت هذه الآية بالحث على التقوى بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، لأنه لما تبين من الآية قبلها أنهم لا يسعهم إلا الإقرار بأن ملك الأرض ومن فيها لله، دل على أنهم من ملكه - سبحانه، فهم مربوبون له، لا للأصنام. ولما أقرروا في هذه الآية أن السماء والعرش كذلك - وهى أن السماء أعظم من الأرض وما فيها بما لا يقارن - ناسب حثهم على تقواه، لأنه حيثئذ لا يستحق الطاعة سواه،

=

السماء وهى عرشه، وأن أصنامهم تقربهم إليه زلفى، وإلا لكان ردهم ما هذا الذي تسأل عنه؟ ولكان سبباً لظعنهم بأنه يخاطبهم بما لا يعلمون.

(١) انظر محمد بن أحمد القرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، مجلد ٦، (١٢/١٤٦). ومحمود الألوسى «روح المعانى»، مجلد ١٠، (١٨/٨٧). والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٨/١١٠). والنسفى «مدارك التنزيل»، (٣/٩٧).

وأن يطيعوا رسوله المخاطب لهم، لأن التقوى تتضمن طاعته كذلك ﴿١﴾.

وكان الختم بالتقوى في الآية أنسب في سياقه من التذكر الذي جاء في الآية السابقة لها، وهى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾، لأن فيها الوعيد الشديد على ترك التوحيد واتخاذ الشركاء بعد الإقرار بما في السموات، مما يدل على ربوبيته - سبحانه - لما هو أعظم في نظرهم من الأرض وما عليها.

وحذف مفعول (تتقون) لتنزيل الفعل منزلة القاصر، لأنه دال على معنى خاص، وهو التقوى الشاملة التي تكون مطلوبة مع مثل هذا الإقرار من توحيده - جل وعلا - وامتنال المأمورات واجتناب المنهيات. ﴿٢﴾

وهكذا رأينا كيف ساق القرآن الكريم هذه الآيات التي يقر بها المخاطبون بدعوة الرسل، وسلك فيها سبيل الموعظة على لسان الرسل، لتكون من الأسباب والوسائل التي تحمل الناس على تقوى الله تعالى، وهى كذلك جديرة عند التأمل فيها أن تحمل كل أحد على تقوى الله تعالى، والقرآن الكريم ملئ بمثل هذه التقارير التي لا يلتفت إليها أحد ولا يتعظ منها مبصر أو مستمع. وصدق إذ يقول - سبحانه: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ ﴿١٠٥﴾ [يوسف: ١٠٥].

وهى في نفس الوقت زاد الدعاة المتفكرين في عظمة الله تعالى وحجتهم في الأخذ بأيدي الناس إلى طريق ربهم، ولكنها للأسف مع قوة برهانها ووضوح دلائلها طريق مهجورة لا يسلكها إلا النادر من العلماء العاملين.

وإذا كان كل ما سبق قد ذكره القرآن الكريم دلالة على التقوى، فقد تبقى ما

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٨ / ١١١).

(٢) المرجع السابق، (١٨ / ١١١).

التقوى في القرآن الكريم

وُصِفَ به القرآن من أنه هو نفسه بعربيته وما صرف فيه من الوعيد دليل على التقوى، وسبب لها، وبهذا المعنى جاءت الآيتان اللتان نختم بهما هذا المطلب.

الأولى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ۖ ﴾ [طه: ١١٣].

وهذه الآية الكريمة تبين أن الله تعالى أنزل القرآن الكريم بلسان عربى، المخاطبين به، ليفهموه، ويقفوا على ما فيه من النظم المعجز، الدال على كونه خارجاً عن طوق البشر، وليقطع عذرهم في عدم الإيمان به لو كان بغير لغتهم.

ولم يقتصر على ذلك بل ذكر لهم فيه ما ينبغى أن يكون سبباً لتقواهم، والتي هى طريق سعادتهم، من تكرار الوعيد وتنويعه.

وبالنظر في الآية نلاحظ:

١- منة الله تعالى في إنزاله القرآن الكريم، ليكون للناس نوراً يبتدون به في ظلمات الضلالة، وهادياً لهم من عمايات الجهل والغواية، وروحاً تحيا به قلوبهم لتسير على صراطه المستقيم، فتحقق به سعادتهم في الدنيا ونجاتهم في الآخرة ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴾ [النساء: ١٧٤]. متى التزموا تعاليمه ونفذوا أحكامه. وكان من تمام منته وعظيم حجته أن أنزله بلسان عربى مبين: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۚ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۚ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ ﴾ [فصلت: ٤٤].

٢- التنويه بشأن القرآن ونباهة قدره، حيث عطف ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ على ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءٍ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ [طه: ٩٩]، أى كما قصصنا عليك قصصاً لا يعادله في أسلوبه ومعناه ومقصوده قصص، أنزلنا إليك هذا القرآن العظيم، وأشار إليه بالضمير في ﴿ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ مع أنه لم يسبق له ذكر للإيدان

بنباهة شأنه، وكونه مركزاً في العقول، حاضراً في الأذهان. ^(١) ونكر ﴿قُرْءَانًا﴾ ليفيد الكمال، أى أكمل ما يقرأ حيث يسرت تلاوته، وما ذلك إلا لفصاحة تأليفه وتناسب حروفه.

كل ذلك ليتوصل منه إلى ما صرفه فيه مما يبعث على التقوى التي هى المقصود من إرسال الرسل وإنزال الكتب، حيث قال بعد ذلك: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾.

أما التصريف فهو التنوع والتفنين، وذكر بعضهم أنه التكرار ^(٢)، فأفاد بذلك أنه كرر لهم من الوعيد، أى التهديد بأمر البعث والنشر والحساب والجنة والنار والصراط والميزان ومن أهوال القيامة وأخبار المكذبين من الأمم السابقة وما فعل بهم ما يحملهم بعضه على الخوف الباعث على الإيمان وطاعة الله ورسوله ﷺ، فلم يترك سبيلاً لتخويفهم حملاً لهم على التقوى إلا وعظهم به وصرفه إليهم، وأفادهم منه خبراً.

والآية الكريمة تفيد وجوب اتباع هذا الأسلوب من أساليب القرآن الكريم في دعوة الناس إلى الله تعالى، وحملهم على تقواه، وفطمهم عن المعاصي، لأن معنى ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ - بحذف مفعولها - أى يتقون الكفر والمعاصي، وأسلوب التهيب عندما ينضم إلى ما ذكرنا من الترغيب قبل ذلك تكتمل به تربية النفوس، وتتوازن به الدعوة إلى الله تعالى، حيث جبلت النفوس على الانقياد لما يخوفها، وأنها إذا ما تركت بغير وعيد وتخويف انفلت زمامها، ولم

(١) انظر أبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (٣/ ٤٩٢). ومحمود الألوسى «روح المعانى»، مجلد ٩، (١٦/ ٣٩). والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٦/ ٣١٤).

(٢) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٦/ ٣١٤)، والألوسى «روح المعانى»، (١١١/ ١٦).

يسهل قيادها، فألفت المعاصي وركبت الشهوات، ولم ترعو إلا أن يأتيها النذير ويزلزلها التهديد، حينئذ تبدأ في التفكير والمراجعة، فالخوف يؤدب الجوارح، ويمنعها من الاستمرار في الغواية، ويكفها عن المحرمات.

فشمول الدعوة لهذا الأسلوب مما ينبغى المحافظة عليه، ولكن إلى الدرجة التي تؤتى ثمرتها، ويظهر فيه تأثير الموعظة، لا إلى الحال التي يعتاد فيها الناس سماع التخويف مع تبدل الإحساس وعدم الانتفاع به، خاصة عندما يقول الموعظة من لا يحسنها، أو لا تخرج من القلب، لذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ يتخولنا بالموعظة مخافة السامة»^(١).

٣- أما قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ تُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ ففيه:

أولاً: أسند التقوى لهم، وأسند أحداث الذكر للقرآن الكريم، لأن التقوى تسند للمكلف على أى معنى من معانيها، سواء الخوف أو ترك المعاصي، أو الالتزام بالأوامر والنواهي، أو الإيمان كما أشرنا إلى تلك المعانى، أما الذكر فلما كان هو الموعظة التي تحدث عند سماع القرآن، وكانت تتجدد بتكرار الوعيد، فناسب أن يسند إليه هذا الإحداث. وقد اختصر القاضى البيضاوى هذا المعنى في تفسيره، فقال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ المعاصي، فتصير التقوى ملكة لهم. ﴿أَوْ تُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ عظة واعتباراً حين يسمعونها، فتشبطهم عنها. ولهذه النكتة أسند التقوى إليهم والإحداث إلى القرآن^(٢). وعلى هذا الكلام جرى المفسرون من قبل البيضاوى وبعده^(٣)، وإن خالفوا في بعض الألفاظ.

(١) البخارى (٧٠)، وانظر ابن حجر «فتح البارى»، (١/١٦٣). ورواه مسلم (٢٨٢١)،

وانظر النووى «شرح صحيح مسلم»، (٩/١٧٩).

(٢) ناصر البيضاوى «أنوار التنزيل وأسرار التأويل»، (٤/٧٢).

(٣) ذكر ذلك العلامة الألوسى «روح المعانى»، وقال: «على أن في القلب من التعليل شيئاً»،

ثانياً: تقديم التقوى على حدوث الذكر. فإن جعلنا ﴿أَوْ﴾ بمعنى الواو للتنويع فيكون المعنى: لعلهم يتقون ويحدث لهم ذكراً، أى: يتقون المعاصي ويحدث لهم طاعة. على أن الذكر بمعنى الطاعة أو تذكراً يحمل على الطاعة، وهذا من باب التخلية والتحلية، حيث تقدم تخلية النفس عن المعاصي ثم تحليها بالطاعة، وهو معنى حسن أشار إليه العلامة الألوسى. ^(١) أو تكون ﴿أَوْ﴾ للتغاير، ويكون المعنى: لعلهم يؤمنون ويطيعون، أو يحدث لهم القرآن تذكيراً ونظراً فيما يحق عليهم أن يختاروه لأنفسهم. ^(٢) وتكون التقوى هنا أعم من ترك المعاصي فقط.

ثالثاً: قوله: ﴿تُحَدِّثُ﴾ عبر به لأن الذكر ليس من شأنهم قبل نزول القرآن، فالقرآن أوجد فيهم ذكراً لم يكن من قبل، قال ذو الرمة:
ولما جرت في الجزل جرياً كأنه سنا الفجر أحدثنا لخالقها شكراً ^(٣)
وهكذا رأينا كيف أنزل الله القرآن الكريم - المعجزة العظمى - وصرف فيه من الآيات - آيات الوعيد - ما يكون سبباً لتقواه - سبحانه، ليدل على عظيم منزلة التقوى، ولزوم التحلى بها، والدعوة إليها.

والآية الثانية: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٨]. أشارت الآية السابقة إلى أن الله تعالى أنزل القرآن عربياً، وصرف فيه من

(١) انظر: العلامة الألوسى «روح المعانى»، (١٦/٣٩١). وأبا حيان «البحر المحيط»،

(٧/٣٨٦). والفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١١/٥٠). والثعلبى «عرائس التفسير»

على هامش جامع البيان للطبرى، (١٦/١٣٦).

(٢) العلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٦/٣١٤).

(٣) المصدر السابق، (١٦/٣١٥)، «ديوان ذى الرمة»، طبعة المكتب الإسلامى،

الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً. أما في هذه الآية فقد امتن عليهم بالقرآن العربى نفسه لعلهم يتقون، ولكن بوصف جديد وهو كونه غير ذى عوج.

ونلاحظ على هذه الآية:

١- أن الآية الكريمة جاءت بعد قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧] ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾. ومن ثم لم يصرح بالتذكر مرة أخرى، وإن كان هنا عبر برجاء التذكر ﴿لَعَلَّهُمْ﴾، لأنه أنسب مع ضرب الأمثال، بخلاف التهديد في الأولى، حيث ناسب قوله: ﴿أَوْ تُحَدِّثْهُمْ ذِكْرًا﴾ [٣٣] إذ ذاك شأن الوعيد.

٢- ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾: جاءت ﴿قُرْءَانًا﴾ منصوبة على الحال من اسم الإشارة في الآية السابقة، أى حال كونه مقرؤاً عربياً، مما يدل على منة الله تعالى في تيسير قراءته للناس باللسان العربى، حتى يفهموا عن الله تعالى مراده، ويكون عونهم في تحقيق أسباب سعادتهم في الدنيا والآخرة.

وهناك معنى ثانٍ، وهو الثناء على القرآن باستقامة ألفاظه ونظمه، وإلا اختل المقصود من كونه ميسراً للتذكر أو مفيداً للتقوى.

وكذلك نزوله بلغة العرب نعى على المشركين الذين تلقوا القرآن تلقى من سمع كلاماً لم يفهمه كأنه بلغة غير لغته لا يعيره بالآ، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨]، مع تحديهم بمعارضته وعجزهم عن ذلك.

وأما وصف القرآن الكريم في هذه الآية بأنه ﴿غَيْرِ ذِى عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، فهو ثناء باستقامة معانيه. يقول الطاهر بن عاشور في «التحريض والتنوير» ما مختصره: «لأن العوج (بالكسر) يختص بالمعانى دون الأعيان»، كما

ذهب إليه أئمة اللغة مثل: ابن دريد^(١)، والزمخشري، والفيروزابادي^(٢)، وإن صحح المرزوقي في «شرح الفصيح» أنها سواء. ووجه العدول عن وصفه بالاستقامة إلى وصفه بانتفاء العوج أن عوج نكرة في سياق ما هو بمعنى النفي ﴿غَيْرَ﴾، فتفيد العموم، أى: ليس فيه عوج قط في أى معنى من معانيه، فيفيد ذلك استقامة معانيه وكما لها^(٣).

فاتضح بذلك أن القرآن الكريم قد أنزله الحق - جل وعلا - مستقيم اللفظ والمعنى، ومتى استقامت المعانى واتضحت كان العمل بما يدعو إليه أيسر، وهو تقوى الله - سبحانه، فكان مناسباً أشد المناسبة قوله: ﴿غَيْرِ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

(١) محمد بن الحسن أبو بكر بن دريد، له مجالس أدبية وعلمية، وله «ديوان ابن دريد»، تحقيق محمد بدر الدين العلوى، الجامعة الإسلامية، على كسره، ١٩٤٦ م.

(٢) هو محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن إدريس بن فضل الله الفيروزابادي ولد عام ٧٢٩ هـ، ١٣٢٩ م، لغوى مشارك في عدد من العلوم وتوفي عام ٨١٧ هـ، ١٤١٤ م، من تصانيفه الكثيرة القاموس المحيط والقاموس الوسيط الجامع لما ذهب من كلام العرب شاطيط. انظر الضوء اللامع للسخاوى (١٠/ ٧٩-٨٦).

(٣) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٣/ ٣٩٨-٣٩٩). والزمخشري «الكشاف»، (٣/ ٣٤٦). والفيروزابادي «بصائر ذوى التمييز»، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤١٢ هـ/ ١٩٩٢ م، تحقيق عبد العليم الطحاوى، (٤/ ١٠٧).

المطلب الرابع

مدى اتفاق أسلوب دعوة الرسل إلى التقوى واختلافه وأسباب ذلك

اتفقت دعوة الرسل جميعاً في الدعوة إلى تقوى الله تعالى، وجاء بعض الخلاف في سياق دعوتهم التي ذكرها القرآن الكريم، وإنما كان ذلك لاختلاف المدعويين في وقوعهم في مخالفات أخرى غير الشرك، فقص القرآن ذلك عبرة لمن بعدهم وإرشاداً لهم في دعوتهم.

ونبدأ بقصة نوح عليه السلام فلاحظ أنها ختمت بقوله تعالى مرة أخرى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ١٨٨﴾ [الشعراء: ١٠٨] على خلاف بقية القصص التالية من قصة هود وصالح وشعيب - عليهم السلام - حيث أخرجت هذه الجملة بعد جملة أخرى لها معانٍ متعلقة بطلب التقوى والحض عليها أيضاً.

أى أنه بعد أن قال تعالى في قصة نوح عليه السلام: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١١٦﴾ [الشعراء: ١٠٩] قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ١١٨﴾، أما بقية القصص فقال في قصة هود: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٢٧﴾ [الشعراء: ١٢٧] ثم جاء تعبير القرآن بقوله: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ ١٢٩﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٢٩]، ثم جاءت جملة الأمر بالتقوى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ١٣٠﴾، ثم استأنف الأمر بها مع علته، فقال: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ١٣٢﴾ [الشعراء: ١٣٢] إلى آخره. وفي قصة صالح وشعيب - عليهما السلام - فصل كذلك بينهما، وإن لم يعقبهما باستئناف الأمر بالتقوى، والسبب في ذلك أن دعوة نوح عليه السلام قومه إلى الله تعالى وإلى تقواه استغرقت زمناً طويلاً كما هو معروف، ولم يعلم عنهم ما أثر عن بعدهم من الأمم من المعاصي والذنوب، سوى الشرك، لذلك كانت قصته عليه السلام

كلها في الدعوة إلى توحيد الله تعالى ونبذ الشرك وعبادة الأوثان التي اشتهروا بها وقالوا فيها ما ذكره القرآن الكريم عنهم: ﴿وَقَالُوا لَا تَدْرُنَّ إِلَهَتَكُمْ وَلَا تَدْرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]، فكان أن جاء التأكيد مرة أخرى على تقوى الله وطاعة رسوله، أو بمعنى فاتقوا الله أى خافوا الله من عاقبة الإشرار به مؤكداً مرة أخرى على توحيده.

أما الأمم التالية فقد ظهر فيها - علاوة على الإشرار بالله تعالى والتكذيب بالبعث والحساب - أمراض أخرى كالظلم والبغى واللواط وتطيفيف الكيل، مما استدعى - إضافة إلى دعوتهم إلى الإيمان بالله - أمرهم بترك المعاصي والمنكرات، وتحذيرهم مغبة ذلك، وهو ما يتضح في قصة هود وصالح وشعيب - عليهم السلام.

ففى قصة هود عليه السلام نراه بعد دعوته قومه إلى الإيمان به - سبحانه - وتوحيده، وبعد إشارته إلى أنه - كما قال نوح عليه السلام عن نفسه - أمين في ذلك ولا يبغي مالا ولا غيره، منزّه عن الطمع في شىء من ذلك، رأيناه عليه السلام ينكر عليهم أموراً قبيحة يأتونها تستلزم أن يدعوه فيها إلى تقوى الله مرة أخرى، وينذرهم العذاب الأليم إن لم يتركوا ذلك، وهى في قوله: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ أى أتبنون في كل طريق من طرق السائرين في هذه الصحراء المهلكة بناء تعبثون منه بأبناء السبيل، بدلاً من هدايتهم في طريقهم ومعاونتهم بالضيافة وغيره إلى أن يصلوا سالمين إلى بلادهم وأهلهم، كى تنالوا بذلك رضا الله تعالى في الأولى والآخرة، وكذلك دعاء الناس وثناءهم.

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ : أى تشيدون تلك الصهاريج الضخمة تحت الأرض لتخزين الماء، على قول بعض أهل العلم، وعلى قول البعض الآخر أنها القصور المشيدة، تنسون بذلك الآخرة ولقاء الله تعالى، وترجون بذلك الخلود في الدنيا. وهو أسلوب تهكم بهم، إذ هم يرون

بأعينهم الموت وفعله بالناس، وأن ليس ثمَّ أحد مغلد فيها.

﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ : وإذا بطشتم بالسيف أو السوط بطشتم جبارين: بغشم بلا رأفة، ولا قصد تأديب، ولا نظر في عاقبة، بل باعتساف وظلم، لا يقدر لكل ذنب ما يستحق من العقوبة، وقد كرر جواب الشرط بلفظه لإظهار المبالغة.^(١)

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ : وكان الترتيب المنطقي لدعوة الحق، أنه بعد أن عدد لهم الموبقات التي يرتكبونها ونبههم إلى عاقبتها، أن يحذرهم منها، ويأمرهم بما يكون سبب نجاتهم من وبيل عذابها، وهو تقوى الله تعالى. فتقوى الله سبب النجاة وعنوان البقاء والظفر، وتركها سبب العذاب، حيث قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٣٥]. وهكذا يتعلم الدعاة إلى الله تعالى من الأنبياء منهج الدعوة إلى تقوى الله، وكيفية الحث عليها والأمربها، والتنبيه على ما يكون من منكرات تكون سبب غضب الله وعذابه في الدنيا والآخرة، وقد دل توبيخه عليه السلام إياهم بما ذكر من استيلاء حب الدنيا والكبر على قلوبهم، بأنه الذي أخرجهم عن عبوديتهم لله تعالى، ومقصود الدعوة والدعاة إرجاع الناس إلى عبودية الله تعالى.

لم يقف هود عليه السلام في أمرهم بتقوى الله عند حد الإنكار على المنكرات والمعاصي، بل تعدى ذلك إلى شيء مهم يدفع الناس إلى تقوى الله تعالى، وهو تذكيرهم بنعمته عليهم. فإذا كان قد خوفهم مغبة معصيتهم ليدفعهم إلى تقوى الله، فإنه هنا يذكرهم بنعمته سبحانه ليكون شكرها هو تقوى الله كذلك، خاصة وأن النفوس مجبولة على حب من أحسن إليها.

(١) انظر الألوسى «روح المعاني»، (١٢/١٦٥). والظاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»،

(١٩/١٦٨). وغيرهما.

وإن شكر هذه النعم يكون بتصريفها في مرضاة مسديها والمتفضل بها سبحانه، وفي ذلك بقاءها وزيادتها. وإن ترك الشكر يكون كفراً بهذه النعم يستوجب العقاب منه، مع ذهاب تلك النعم: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

من ثم وجدنا الآيات الكريمة تذكر ذلك بعد قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾، ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾، ولكنه بنى الكلام على عطف الأمر بالتقوى على الأمر الذي قبله، تأكيداً له واهتماماً بالأمر التقوى.

يقول العلامة الطاهر بن عاشور في تفسيره «التحرير والتنوير» بعد إirاده الكلام السابق: «وإنما أتى بفعل ﴿اتَّقُوا﴾ معطوفاً، ولم يؤت به مفصلاً، لما في الجملة الثانية من الزيادة على ما في الجملة الأولى من التذكير بإنعام الله عليهم فعلق بفعل التقوى في الجملة الأولى اسم الذات المقدسة للإشارة إلى استحقاقه التقوى لذاته، ثم بفعل التقوى في الجملة الثانية اسم موصول بصلته الدالة على إنعامه للإشارة إلى استحقاقه التقوى لاستحقاقه الشكر على ما أنعم به»^(١).

ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أن القرآن الكريم ذكر إمداده - سبحانه - لهم بالنعم إجمالاً: ﴿أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ ليهيئ كذلك السامعين لتلقى ما يرد بعده، ثم فصل تلك النعم مع إعادة الفعل «أمدكم» ليشعر بأهمية وعظيم هذا الإمداد منه تعالى، كي يتفكروا به في تقوى الله - جل علاه، ويكون عوناً لهم على ذلك.

وعلى عادة القرآن الكريم في ذكر الأمور المهمة تنبيهاً على غيرها، ذكر هذه النعم الثلاث: الأنعام والبنين والجنات والعيون من جملة النعم العظيمة عليهم. وابتدأ بذكر الأنعام لأنها أجل النعم عليهم، لأن منها أقواتهم ولباسهم

(١) انظر محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٩/١٦٩).

وعليها أسفارهم وهى دليل الغنى عند العرب، حيث تحصل بها الرئاسة في الدنيا والقوة على من عاداهم. وعطف بالبنين لأنهم عونهم على الحياة وكثرة أمتهم وذكرهم من بعدهم، ولأنهم يستعينون بهم في حفظها والقيام عليها. وعطف بالجنات والعيون، لأنها رفاهيتهم ورغدهم بعد ذلك حيث اتساع رزقهم وعيش أنعامهم وإتمام النعمة عليهم.

وجاءت جملة: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٣٥] مرة أخرى لتؤكد قيمة التقوى التي يدعوهم إليها وأهميتها، إذ أن هذه الجملة تعليل لإنكار عدم تقواهم، أى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم إذا لم تتقوا، وهى في نفس الوقت أمر بتقوى الله تعالى.

ووصف اليوم بالعظيم مجاز عقلى، أى إن ما يقع فيه من أهوال سيكون عظيماً، بمعنى أنهم لن يستطيعوا له رداً ولا دفعاً، وهذا من شأنه أن يدفعهم دفعاً ويسوقهم بكل الطرق إلى تقوى الله.^(١)

وضحت تلك الآيات الكريمة السبيل الذي سلكه أنبياء الله تعالى في دعوة الناس إلى تقوى الله، وهذا يحتاج منا إلى وقفة تأمل تبصرنا بهذا الطريق، لنهدى أنفسنا وغيرنا إلى تقوى الله، وتلك مهمة أتباع الرسل، التي يستنقذون بها أمتهم من الدمار الماحق الذي يحيط بهم.

وأما قصة ثمود فقد تكررت فيها الآيات الأولى الآمرة بالتقوى كقصة عاد، وهى تبين وحدة الرسل في الدعوة إلى توحيد الله - جل علاه - ونبذ الشرك مع الإنكار على كل معصية وقعت فيها كل أمة من هذه الأمم. ولكن في قصة عاد - كما ذكرنا - وبخهم هود عليه السلام على منكراتهم، وفرع على ذلك أمرهم بالتقوى، ثم

(١) انظر أبا حيان الغرناطى «البحر المحيط»، (٨/ ١٧٩). والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٩/ ١٧٠). وجار الله الزمخشري «الكشاف»، (٣/ ١٢٢).

أمرهم بالتقوى مرة أخرى لما أسدى لهم من نعم، إجمالاً وتفصيلاً. أما في قصة ثمود فقد أعلن رسولهم صالح عليه السلام بالتوبيخ على منكراتهم، وحذرهم مغبة التهادى في ذلك ثم أمرهم بتقوى الله وفي طي الإنكار عليهم كان تذكيرهم بالنعم التي لم يشكروها، إذ كانت سبب بطرهم وتكبرهم، وخروجهم عن أمر الله تعالى، فلم يستأنف لشكر النعم الأمر بالتقوى كما حدث في قصة عاد إذ كانت في طيها، وكان حديثه مهتماً بالسبب الذي جعلهم كذلك وهو طاعة المسرفين فركز عليه، وهذه الآيات هي قوله تعالى: ﴿ أَتَرَكُونَ فِي مَا ههْنَأَ ءَامِينَ ۚ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ۚ وَزُرُوعٍ وَخَلٍ طَلْعَهَا هَٰضِمٌ ۚ وَتَنَحُّتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ۚ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۚ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ۚ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۚ ﴾ [الشعراء: ١٤٦-١٥٢].

وهذه الأمور التي أنكرها عليهم منكرة في كل عصر وآن، وإن كان ظاهرها يوحي بالسؤال التالي: ما المنكر في ذلك؟ ولتقريب المعنى نسوق هذه الصورة المنكرة من عصرنا الحالى: فكلنا يعرف هذه الطبقة التي أغتنت فجأة في العقدين الأخيرين بشكل يثير التساؤل والحيرة، ثم بدأت في تصريف هذه الأموال في بناء القصور والفيلات الفخمة، وحشوها بما لم يسمع به معظم الناس، خاصة على الشواطئ، وأحاطوا ذلك بالجنات والعيون؛ صناعية وطبيعية، وتفننوا في اقتناء كل وسائل المتع والترفيه. لقد قرع آذاننا وصكها صكاً عنيفاً الطرق السفيهة التي تنفق فيها تلك الأموال، وتصرف فيها الأوقات من هو ومجون مما لا يخطر على بال.

وقد وقف أهل العقل والفكر والدين موقف المنكر، موقف المتحسر المتألم الذي يرى في ذلك وباءً شديداً ومنكراً خطيراً في محاولة منهم لوقفه أو حصر آثاره. كان موقف صالح عليه السلام إذن ضرورياً لوقف هذا البلاء الذي يأخذ الصالح

والطالح.

وقف إذن صالح عليه السلام وقفة المنكر المحذر، الذي يدعو إلى تقوى الله، أمرهم كذلك بأن يطيعوا رسولهم، وألا يطيعوا أمر المسرفين السفهاء الماجنين، الذين يظنون أنهم بأمورهم وما هم فيه من أمن ورفاهية خالدون مخلدون.

ألا يطيعوا أمر المسرفين، إذ هو أمر بالفساد لا صلاح معه. ولقد كان يكفي أن ينهاهم عن طاعة المسرفين، ولكنه أعقبه بقوله: ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ (١٢٦)، كأن فسادهم لا حيلة فيه، إذ لا وجه لأى خير أو صلاح منه، بل هو محض الفساد الذي يجب أن يجتنبوه، وأن يتوبوا إلى الله منه، حتى لا يحل عليهم غضبه، ويحقيق بهم عذابه.

إن استمرارهم في شركهم، وركوبهم تلك المعاصى التي نسوا بها آخرتهم، وهلوا بها عن الموت والحساب والاستعداد له، جعلهم مستحقين لعذاب الله، فحاق بهم ما كانوا به يستهزئون، وأخذهم عذاب يوم عظيم، وما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون.

إن الدعوة إلى الله تعالى مكلفون بالدعوة إلى تقوى الله وعدم الكف عن ذلك، وإن الدعوة إلى الله - سبحانه - في مثل تلك الأحوال هى من أهم الأمور لأن هذه الظواهر نذير شؤم ومقدمة سوء يخشى على الجميع من عاقبتها، كما أرشدت الآية الكريمة.

قصة شعيب عليه السلام :

بدأت قصة شعيب عليه السلام مع قومه كما بدأت القصص السابقة بأمرهم بتقوى الله تعالى وتوحيده، وترك الشرك به - سبحانه. والكلام فيها هو نفس الكلام في كل القصص. ^(١)

(١) يقول تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٢٧) إِذْ قَالَ هُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٨)

وكان قد انتشر فيهم ما ذكره الله تعالى عنهم من تطفيف الكيل، وبخس الناس أشياءهم، والإفساد في الأرض، علاوة على ما ذكر من شركهم وهى منكرات غير منكرات سابقهم، فاقضى أمر الله أن ينهاهم عنها، يقول الله - جل ذكره - عن شعيب عليه السلام وهو ينكر عليهم ويأمرهم بالحق بعد دعوتهم إلى توحيد الله: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَ الْأَوَّلِينَ (١٨٤) [الشعراء: ١٨١-١٨٤].

وقد رأينا في قصة هود عليه السلام قوله: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ مكرراً لهم الأمر بالتقوى، وقد ناسب ما هم فيه من العظمة والأبهة ليتقوا الله، إذ هو مصدر ذلك.

أما هنا مع أصحاب الأيكة فلم يتكرر معهم ما ذكر في قصة «عاد» من قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ (١٨٤) بل ذكرهم شعيب عليه السلام بالمناسب لما هم عليه من الأوصاف السيئة السابقة ليردعهم عنها لأنهم لم يكونوا في شيء من هذا، بل كانوا يطففون الكيل، ويسرقون الناس، ويقطعون الطريق،

إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨٥)، والكلام في التقوى كما هو في الكلام في قصة نوح عليه السلام، ولكن القرآن الكريم ذكر هنا شعيباً عليه السلام بغير وصفه بأنه أخوهم. والعلة - كما يقول الإمام ابن كثير - أن الأيكة هى شجرة كانوا يعبدونها، فلم يناسب أن يذكرهم بأخوتهم في ذلك، ولما جاء ذكر مدين قال: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ وهى أخوة النسب كما أسلفنا القول، وبناء على قول الإمام ابن كثير فإن أصحاب الأيكة هم أنفسهم أهل مدين، ولكن ذهب كثير من أهل العلم إلى أن أهل مدين غير أصحاب الأيكة، وأرسل شعيب عليه السلام إليهما معاً. انظر ابن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٦٩/١٩). وابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٣/٣٤٥).

ويعيرون على الآمنين سلباً ونهباً، فكان أن ذكرهم شعيب عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّ الْأُولِينَ﴾ أي الأولين الذين كالجبال في قوتهم وظنهم البقاء والخلود قد دمرهم ومحاهم، وأنتم لستم في شيء مثل ذلك، فأولى بكم تقوى الله وطاعته، وهو ما يفيد لفظ الجبل (المأخوذة من الجبل)، فانظروا ماذا فعل بهم، لتتقوا الله وترجعوا عما أنتم فيه، إذ يحمل الأمر بالتقوى هنا على التهديد بأن يلحقهم ما أصاب غيرهم ممن هم أشد منهم إذ لم يتقوا الله، ويتوبوا إليه ويتركوا ما يغضبه - سبحانه. وقد ذكرهم شعيب عليه السلام لذلك بقوم يعرفونهم يفعلون شيئاً من السوء مثلهم فأخذهم الله، وهم قوم لوط، فقال: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩] حيث كان من قبائحهم ما يفعل أهل مدين من الإفساد في الأرض، إذ يقول المولى عنهم: ﴿وَنَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، فارتقبوا عقاباً مثلهم إذا لم ترتدعوا وتوبوا إلى هداية الله وتقواه.

وفي النهاية بينت الآيات منكرات ينبغي التنبيه عليها من أهل الدين والإصلاح والإرشاد في كل زمان، خشية مغبتها وسوء عاقبتها، وأن يميز الدعاة كذلك كل دواء ليداوه بما يناسبه من العلاج.

قصة لوط عليه السلام :

بدأت القصة بما بدأ به غيرها من القصص السابقة عليها بدعوة لوط عليه السلام قومه إلى تقوى الله تعالى، ولكنها خالفتها في عدم تكرار الأمر بالتقوى البتة على خلاف كل القصص الأخرى، حيث قال الحق على لسان لوط عليه السلام بعد الآيات الأولى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَلَمِينَ﴾ ١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِّنْ أَرْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ١٦٦ [الشعراء: ١٦٥-١٦٦]. فبعد أن أمرهم بتوحيد الله وتقواه ثنى - كما رأينا من قبل - بإنكاره عليهم ما اختصوا به

من منكرات، وهى: مخالفتهم الفطرة بإتيانهم تلك الفعلة الشنيعة، فعلة إتيان الرجال من دون النساء، وهى جريمة لم يسبقهم بها أحد من العالمين، مع إفسادهم في الأرض، وإتيانهم المنكر في ناديتهم ومجتمعاتهم. وقد ذكر الله تعالى ذلك بقوله: ﴿أَنِتُّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

ولم يعد لوط عليه السلام إلى أمرهم مرة أخرى بتقوى الله تعالى، كما رأينا في قصص بعض الأنبياء قبله، ولعل ذلك يبينه سياق هذه الآيات وغيرها من الآيات في سور أخرى.

أما سياق هذه الآيات، فقد قال لهم الله تعالى بعد الأمر بالتقوى: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾، فلم يكن مناسباً بعد مجابتهم بأنهم معتدون يستحقون العقاب على عدوانهم أن يقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (١١٢)، خاصة وأن ردهم الفورى على ذلك كان: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧]، أما الرد الثانى، الذى قطعوا به كل سبيل فى الطمع فى تقواهم ورجوعهم إلى الله تعالى، والذى يمتنع معه أن يقول لهم مرة أخرى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (١١٢) فهو قولهم الآثم: ﴿أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، فكان جزاؤهم أسوأ جزاء أوقعه الله تعالى بقوم كافرين فاسقين، ولم يمهلهم - سبحانه - أكثر من ذلك، لأن أمثالهم لا يستحقون إلا سوء العذاب فى الدنيا والآخرة: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١]، علاوة على سخريه هؤلاء الأبخاس بأهل الطهارة والعفاف، والتي كانت سبباً كذلك فى زيادة وطأة العذاب عليهم، حيث قالوا مستهزئين: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

وقد ذكر الله تعالى أن هذا العذاب ليس بعيداً عن كل من يفعل هذه الفعلة

الشنعاء، خاصة أولئك المستهزئين اليوم بأهل الطهارة والعفة والصيانة فقال - جل ذكره: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوِّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [هود: ٨٢-٨٣]. ففي الآية الكريمة التحذير الشديد من هذه الجريمة النكراء، وأن عذاب الله ليس بعيداً من أصحابها في أى زمان ومكان.



الفصل الرابع

أسباب النقوى



بعد أن تبينت لنا أهمية التقوى، ورأينا الأمر بها بكل الأساليب التي تحض عليها، وتحمل المرء على التزامها، وأنها دعوة الرسل، والتي سلكوا كل السبل لدعوة الناس إليها، جاء هذا الفصل ليوضح لنا الطريق إلى تحقيق هذه التقوى. وهما هي ذى هذه الأسباب.

- | | | |
|---------------|---|-----------------------------------|
| المطلب الأول | : | الإيمان. |
| المطلب الثاني | : | العبادة. |
| المطلب الثالث | : | الأخلاق والسلوك. |
| المطلب الرابع | : | التقوى مبعث كل التصرفات المقبولة. |
| المطلب الخامس | : | صفات المتقين. |

المطلب الأول الإيمان

لاشك أن الإيمان بالله هو أول أسباب تقوى الله تعالى، خاصة وأن دعوة الرسل كانت للإيمان بالله - سبحانه، وقد رأينا أن عمادها الأول الدعوة إلى تقوى الله تعالى، وبها تبين أن الدعوة إلى التقوى هي الدعوة إلى الإيمان، وعليه فلا تقوى إلا بترك الشرك وعبادة غير الله تعالى، وهي أولى مراتب التقوى.

هذا هو الأمر الأول. والأمر الثاني أن الآيات قد دعت المؤمنين بعد ذلك إلى تقوى الله، مما يبين أن الإيمان المقصود لتحقيق التقوى إنما هو درجة فوق ترك الشرك، وهو المقصود الأصلي هنا، وهو الإيمان الذي يباشر القلب، ويخالط شغافه، فيفيض على الجوارح الطاعة والالتزام، والمسارة إلى الخير. هذا الإيمان الذي يزرع في القلب محبة الله تعالى، والخوف منه، والرجاء فيه، والطمأنينة بذكره، والأنس به، والشوق إلى لقائه. الإيمان الذي يملأ القلب بالتوكل والرضا، والثقة فيما عند الله، والصبر واليقين في الله تعالى، فيعصم الجوارح عن المخالفات والمعاصي، ويحملها على طاعة الله تعالى والإنابة إليه، والزهد في الدنيا، والاستعداد للآخرة. وقد دل على مثل ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢-٣]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحجرات: ١٥].

وفي حصر أسباب التقوى، أي الآيات التي تبين تلك الأسباب، وجدتها محصورة في صفات المتقين الذين ذكر الله تعالى في كتابه الكريم، فكان لازماً رصد ذلك، وتفصيل القول فيه. وكان نصيبه المطلب الأخير في هذا الفصل، وكانت

هذه المطالب كالمقدمة له.

وكما نوهنا أكثر من مرة فإن الإيمان هو الدرجة الأولى في التقوى، إذ لا يتقى المشرك النار إلا بالإيمان، ثم يرتقى بعد ذلك في درجات التقوى، ودرجة الدين العليا هي الإحسان، كما صرح ﷺ في حديث جبريل لما سأله عن الإسلام والإيمان والإحسان، ولما كان الإيمان والإحسان مرتبطين بالتقوى، كان لابد من توضيح ذلك.

ونبدأ بتعريف الإيمان والإحسان لغةً وشرعاً واصطلاحاً.

والإيمان لغةً: التصديق^(١)، قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]. وأما شرعاً: فهو تصديق النبي ﷺ فيما جاء به عن ربه، وقد عرفه النبي ﷺ كذلك بقوله: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره». وأما اصطلاحاً: فقد اصطلح أهل السنة على كونه قولاً وعملاً يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

أما الإحسان في اللغة فهو على وجهين: أحدهما: الإنعام على الغير، يقال: أحسن إلى فلان. والثاني: إحسان في فعله، وذلك إذا علم علماً حسناً، أو عمل عملاً حسناً.^(٢) وأما في الشرع، فقد عرفه النبي ﷺ بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». وهو متوافق مع المعنى الثاني في اللغة، وهو الإحسان في الفعل، وهو أن يصل في عبادته إلى تلك الدرجة الحسنة.

وأما عن حد الإيمان عند أهل السنة وعلاقته بالإسلام والإحسان، وأن ذلك اعتقاد المتقين، فقد ذهب جمهور أهل السنة إلى أن الإيمان قول وعمل، والمقصود بالقول: النطق بالشهادتين، وأما العمل فالمراد به ما هو أعم من عمل

(١) انظر الرازي «مختار الصحاح»، مادة أم ن. والاصبهاني «المفردات في غريب القرآن».

(٢) الأصبهاني «المفردات في غريب القرآن»، مادة ح س ن.

القلب والجوارح ليدخل الاعتقاد والعبادات، وبذلك يكون الإيمان تصديقاً بالجنان ونطقاً باللسان وعملاً بالأركان، ولكن العمل شرط في كمال الإيمان، ومن ثم كان الإيمان يزيد وينقص، ويعلم المرء ذلك من يقينه وتوكله وعبادته في اختلاف الأحوال.

وعليه لا يكون المرء مسلماً حتى يقر بلسانه مع التصديق بالقلب، فمن آمن بقلبه ولم يقر بلسانه فهو كافر في أحكام الدنيا، ومن أقر لسانه ولم يعتقد بقلبه فهو منافق تجرى عليه أحكام الإسلام في الدنيا، وهو في الدرك الأسفل من النار في الآخرة، ومن اعتقد الإيمان وأقر بلسانه دخل الإسلام ظاهراً وباطناً، ثم يرتقى في أعمال الإيمان بما يظهر صحة هذا الإقرار، ولكن انتفاء الأعمال لا ينتفى بها الإيمان بالكلية، لأن الرسول ﷺ كان يقبل الإسلام ممن جاء مقرأً به، ثم يتعلم الإيمان ويتدرج في مراتبه.

فارق بذلك أهل السنة فرق الضلال من المعتزلة والخوارج والمرجئة، أما المرجئة فقد قالوا الإيمان اعتقاد ونطق فقط، وإيمان من أتى بذلك كإيمان جبريل عليه السلام، وهو كما يظهر بين الخطأ، أما الخوارج والمعتزلة فقد اشترطوا العمل، فمن أقر بالشهادتين وترك العمل فهو كافر عند الخوارج مخلص في النار، وهو عند المعتزلة في منزلة الفسق بين المنزلتين، لا كافر هو ولا مؤمن، ولكنه مخلص في النار كاعتقاد الخوارج^(١)، وهو كلام مضمن في الضلال كما يظهر.

أما عند أهل السنة فإن مرتكب الكبيرة لا ينتفى عنه اسم الإيمان بالكلية، بل هو في مشيئة الله، إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، ومن ثم قال الرسول ﷺ: «شفاعتي

(١) انظر ابن أبي العز «شرح العقيدة الطحاوية»، (ص ٣١٣-٣٢٨). وابن حجر العسقلاني

«فتح الباري»، (١/٤٦-٤٧).

لأهل الكبائر من أمتي»^(١).

هذا الاعتقاد هو اعتقاد المتقين، بمعنى أن أهل التقوى كما ميزتهم الأعمال ميزهم الاعتقاد الحق، وإلا كانوا من أهل البدع، وهم كلاب أهل النار، لذلك كان مهماً ذكر هذا الاعتقاد، لأن من درجات التقوى تقوى البدعة، والتي شدد فيها العلماء تشديداً عظيماً، إذ هي خروج عن اعتقاد النبي ﷺ والسلف الصالح، والتي تبين أن أصحابها مهما أوتوا من علم وعمل فليسوا متقين، ولا يخفى ما قال النبي ﷺ في الخوارج مع ما كانوا عليه من الاجتهاد في العبادة، وفي القدرية وهم نفاة القدر «المعتزلة» مع كانوا عليه من العلم والعمل.

أما علاقة الإسلام والإحسان بالإيمان فتقدم تعريف الإسلام، ثم نوضح العلاقة بينهم بعد ذلك.

هذا تعريف الإسلام، وقد عرفنا الإيمان والإحسان من قبل، فحسب تعريف النبي ﷺ في حديث جبريل فإن كل مؤمن مسلم، وكل محسن مؤمن، وليس العكس، ولأن الله تعالى قال: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيْمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]. وكذلك: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، فإنه نفى عنه الإيمان الذي لا يبقى معه الإسلام، أي وهو مسلم، لأنه لو نفى أصل الإيمان لكان كافراً، وهذا ليس اعتقاد أهل السنة، إذ الزاني له حد في الشرع ولا يكفر.

فإن قيل: قد عرف النبي ﷺ الإيمان بما عرف به الإسلام، فقال لو فد بنى عبد القيس: «أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال:

(١) الحديث رواه الترمذی (٥٥٩٨) من حديث أنس، وابن ماجه (٥٥٩٩) من حديث جابر. انظر الإمام محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي «مشكاة المصابيح»، تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، ط. المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

«شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وأن تعطوا من المغنم الخمس»^(١)، فما علاقة الإسلام بالإيمان؟ أجاب أهل العلم بأن الإسلام والإيمان من الألفاظ التي إذا اجتمعت افترقت، بمعنى إذا أطلق الإسلام فإنه يدخل فيه الإيمان والإحسان، كما في قوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، والدين كما في حديث جبريل هو الإسلام والإيمان والإحسان. وإذا اجتمعا افترقا، كقوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، فإن الإيمان غير الإيمان هنا، وتفسيرهما في حديث جبريل.

تلك هي العلاقة بين الإسلام والإيمان والإحسان. فإن قيل: ما دخل ذلك بالتقوى؟ قلنا: المتقون لهم اعتقادات نظرية وأعمال ظاهرة، هذه هي اعتقاداتهم الباطنة التي لا بد من اعتقادها، لأن أى خروج عنها زيغ عن الصراط المستقيم، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فبينت الآية أن اتباع هذا السبيل وعدم الزيغ عنه إلى تلك السبل الخارجة يرجى به تقوى الله تعالى، ولا سبيل إلى ذلك إلا بتعلم الحق فيه.

ولا شك أن للإيمان نواقض، إذا أتاها المرء عالماً قاصداً مختاراً كفر وخرج عن الدين، ولما كان اختيار الباحث في فصل «التقوى ودعوة الرسل» أن التقوى هي الإيمان وترك الشرك، وأن الرسل عليهم السلام، دعوا أقوامهم أول ما دعوا إليها، فمعنى ذلك أن الكفر نقيض التقوى، وقد جاءت فعلاً آيات قرآنية عديدة تبين أن الكفر مقابل للتقوى، وأن الكافرين في مقابل المتقين، وها هي أمثلة لتلك المواضع دليلاً لهذا القول، وتعظيماً للتقوى وخطر شأنها:

(١) رواه البخارى (٥٣)، انظر ابن حجر العسقلانى «فتح الباري»، (١/١٢٩).

١. ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ أَنَارُ﴾ [الرعد: ٣٥].
٢. ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا﴾ [مريم: ٧٢].
٣. ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].
٤. ﴿يَوْمَ نَخْشِرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ [٨٥] وَنُسْوَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِثَةً [مريم: ٨٥-٨٦].
٥. ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

وضحت هذه الآيات الكريات أن الكفر والظلم والفجور والإجرام واللدن كل ذلك في مقابلة التقوى، وكأن ذلك دليل على ما وراءها من الصفات، وأن كل ذلك في مقابل التقوى وأن المرء لا يكون تقياً إلا بأن يتخلص من تلك الصفات. وقد بينت أيضاً أن عاقبة المتقين في مقابل عاقبة الكافرين المجرمين. كل ذلك حثاً على الإيمان والتقوى، وتحذيراً للكفار من التهادى في شركهم وظلمهم.

أما الآية الأولى فسياقها: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أَكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥].

فبعد أن مثل القرآن الكريم الجنة التي وعد المتقون، أكد بقوله تلك عقبى أى العاقبة الحسنة للذين اتقوا، وأظهر في مقام الإضمار حيث كان يمكن أن يقال تلك عقباهم، وذلك لإظهار شرف أهل التقوى، ولتمييزهم في مقابل الكافرين، فيظهر بذلك فضل التقوى وعاقبتها.

وأما الآية الثانية فهي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا﴾ [مريم: ٧٢]، وكذلك بينت هذه الآية عاقبة المتقين في النجاة من النار، وعاقبة الكفرة في بقائهم فيها، ووصفتهم بصفة من

أسوأ صفاتهم وهى الظلم تنبيهاً على أن الظلم كذلك في مقابلة التقوى وإن كان الظالمون هنا هم الكافرين وقد بسطنا شرح هذه الآية في موضعه.

وصفت سورة مريم الكفار قرب نهايتها بصفتين أخريين غير الظلم وكل ذلك في مقابل صفات التقوى هما الإجمام واللد، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَخْشِرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ۖ ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا ۖ﴾ [مريم: ٨٥]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ۖ ﴿٨٦﴾﴾ [مريم: ٨٥-٨٦].

والآية الأولى تبين شرف أهل التقوى وحسن ورودهم على الله تعالى، وأنهم يحشرون راكبين على هيئة الوفود المكرمة، والمجرمين يساقون إلى جهنم على هذه الهيئة المزرية عطاشاً.^(١)

والثانية تبرز البشارة لأهل التقوى، والإنذار الشديد لمقابلهم من أهل الخصومة الشديدة والعناد، وهى كذلك صفة الكفرة الذين تأبوا أشد الإبابة على الإيمان.

يقول الطاهر بن عاشور في تفسير الآية ما حاصله: وعبر عن الكفار بقوم لد ذماً لهم بأنهم أهل إيغال في المراء والمكابرة، والتصميم على الباطل وفي الحديث: «أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»، وقد حسن مقابلة المتقين بقوم لد، لأن التقوى امتثال وطاعة والشرك عصيان ولد.^(٢)

والموضع الأخير في سورة «ص» هو قوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ۖ﴾ [ص: ٢٨].

(١) انظر صديق خان «فتح البيان»، (٦/٥٦-٥٧).

(٢) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٦/١٦٧-١٧٧). و الحديث رواه

البخارى (٢٤٥٧) من حديث عائشة، ومسلم (٢٦٠٧).

وهذه الآية الكريمة سبقت مساق الرد على منكري البعث والحساب والثواب والعقاب، و«أم» منقطعة والاستفهام فيها للإنكار، والمراد لو بطل الجزاء كم يقول الكافرون لاستوت عند الله أحوال من أصلح وأفسد واتقى وفجر، ومن سوى بينهما كان سفيهاً.^(١)

وهذا ما يبين خلاف التقوى من الكفر والفجور إذ الفجار من شعارهم الفجور وهو أشد المعصية، والمراد به: الكفر وأعماله التي تراقب أصحابها التقوى، كان تبين حقيقة التقوى، وكذلك تبين أن من أضداد التقوى الكفر والظلم ... إلى آخره ليكون دافعاً جديداً لتقواه سبحانه، وتصحيح الإيمان، والترقى في درجات الإحسان، كما في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [عبس: ٤٢].

(١) انظر الزخشري «الكشاف»، (٣/ ٣٢٦).

المطلب الثاني

التقوى والعبادة

لاشك أنه بعد الإيمان بالله تعالى وتصحيحه اعتقاداً وعملاً، لابد للمؤمن من سلوك طريق العبادة ليتحقق بأسباب التقوى المفضية إليها، وليظهر بذلك حقيقة إيمانه، إذ لكل شيء حقيقة وحقيقة الإيمان أن يظهر على الجوارح أعمال الطاعة وأنوار العبادة لتصدق هذا الإيمان، فكانت العبادة السبب الرئيسي بعد الإيمان للوصول إلى تقوى الله تعالى.

وقد أشرنا في نهاية المطلب الأول أن قد أحرنا صفات المتقين لنهاية الفصل لنجمع بذلك كل ما أشار إليه القرآن الكريم من أسباب التقوى، ونفصل القول فيها. ولكن لابد مع ذلك من الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آعِبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

وبالنظر في الآية الكريمة لأول وهلة يرى المرء ما ظاهره التناقض عند تفسير الآية، إذ التقوى كما عرفناها في أول البحث إنها جانبها الأهم هو العبادة، فيكون معنى الآية الكريمة الأولى التي معنا: يا أيها الناس اعبدوا ربكم لعلكم تعبدون، أو: اتقوا ربكم لعلكم تتقون، على حد تعبير الفخر الرازي في تفسير الآية^(١)، وكذلك في مفردات العبادة، كقوله تعالى في الصيام: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

أو في الأمر بما هو أعم من العبادة على حد التقسيم الفقهي: العبادات والمعاملات.. الخ، كقوله تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣]. ومن فروع ذلك قوله - جل وعلا: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَأْتُولِي آلَآلِبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

(١) انظر الفخر الرازي «التفسير الكبير»، (١/ ٤٩٠-٤٩١).

ونطالع كلام أهل العلم الذين أشاروا إلى توضيح ما سبق، لأن بعض المفسرين قد ترك الحديث رأساً على التقوى ولم يشر إلى معناها، ظناً مثلاً أنها واضحة المعنى، كالحافظ ابن كثير.^(١)

ونبدأ بكلام الإمام الفخر الرازي، حيث هو من قد علمنا الذي أثار السؤال السابق، أعنى قوله: «اعبدوا الله لعنكم تعبدون»، وأجاب عليه، وها هو رده - رحمه الله تعالى، يقول:

«والجواب من وجهين: الأول: لا نسلم أن العبادة نفس التقوى، بل العبادة فعل يحصل به التقوى، لأن الاتقاء هو الاحتراز عن المضار، والعبادة فعل المأمور به، ونفس الفعل ليس هو نفس الاحتراز عن المضار، بل يوجب الاحتراز، فكأنه تعالى قال: اعبدوا ربكم لتحترزوا به عن عقابه، وإذا قيل في نفس الفعل إنه اتقاء فذلك مجاز لأن الاتقاء غير ما يحصل به الاتقاء، لكن لاتصال أحد الأمرين بالآخر جرى اسمه عليه. والثاني: أنه تعالى خلق المكلفين لكي يتقوا ويطيعوا على ما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فكأنه تعالى أمر بعبادة الرب الذي خلقهم لهذا الغرض، وهذا التأويل لائق بأصول المعتزلة».^(٢)

ونلتقط كلام الإمام الرازي في الوجه الثاني لنستكمل به توضيح المسألة، حيث إن قوله هذا التأويل لائق بأصول المعتزلة، ليس لائقاً فقط، بل هو كلام

(١) تفسير القرآن العظيم، الحافظ إسماعيل بن كثير، (١/)، عند تفسير قوله تعالى: (اعبدوا ربكم.. الآية). وفتح البيان، صديق خان، حيث لم يذكر كذلك معنى التقوى، (١/ ٨٥). وكذا المحرر الوجيز، ابن عطية، (١/ ١٠٥)، وغيرها.

وكأن قصد المفسرين جميعاً بتبيين معنى «لعل» التي للترجي، حيث لا تجوز في حق الله تعالى، وأهمل أكثرهم في غمار هذا البحث الكلام على التقوى والعبادة إلا من سنرى لهم ذلك.

(٢) الفخر الرازي «التفسير الكبير»، (١/ ٤٩٠، ٤٩١).

الزنجشري نفسه في «الكشاف»، وهو قد رد كذلك عليه في الوجه الأول بغير التصريح باسمه، إذ قد أورد الزنجشري أن التقوى هي العبادة. وأن (لعلكم تتقون) متعلق بـ(خلقكم)، لا بقوله تعالى: (اعبدوا)، الذي عليه جمهور المفسرين. وقد كفانا الإمام أبو حيان المسألة ذكراً ورداً، فبدل الخوض فيها، نشير إلى كلامه - رحمه الله، خاصة وقد استعان بكلام الفخر الرازي في الوجه الأول في رد كلام الزنجشري. يقول الإمام أبو حيان - رحمه الله: «ولما جعل الزنجشري (لعلكم تتقون) متعلقاً بالخلق قال: فإن قلت: فهلا قيل: تعبدون لأجل اعبدوا أو اتقوا لمكان (تتقون) ليتجاوب طرفا النظم؟^(١) قلت: ليست التقوى غير العبادة حتى يؤدي ذلك إلى تنافر النظم، وإنما التقوى قصارى أمر العابد ومنتهى جهده، فإذا قال: (اعبدوا ربكم الذي خلقكم) للاستيلاء على أقصى غايات العبادة كان أبعث على العبادة وأشد إلزاماً لها وأثبت لها في النفوس. انتهى كلامه. وهو مبني على مذهبه في أن الخلق كان لأجل التقوى، وقد تقدم ذلك.

وأما قوله: ليتجاوب طرفا النظم، فليس بشيء، لأنه لا يمكن هنا تجاوب طرفي النظم، لأنه يصير المعنى: اعبدوا ربكم لعلكم تعبدون، أو اتقوا ربكم لعلكم تتقون، وهذا بعيد في المعنى، إذ هو مثل: اضرب زيداً لعلك تضربه، أو: اقصد خالداً لعلك تقصده، ولا يخفى ما في هذا من غثاثة اللفظ وفساد المعنى، والقرآن متنزه عن ذلك. والذي جاء به القرآن هو في غاية الفصاحة، إذ المعنى أنهم أمروا بالعبادة على رجائهم عند حصولها حصول التقوى لهم.

ثم ذكر الوجه الأول الذي ذكره الإمام الرازي في أن التقوى ليست

(١) كأن تجاوب طرفي النظم عند الزنجشري هو اعبدوا لعلكم تعبدون، أو اتقوا لعلكم

تتقون، ولكن لما كانت العبادة هي التقوى، فلا تنافراً!

العبادة.. إلى آخره بحروفه، وإن لم ينسبها للإمام الرازي.^(١)
نصل حتماً، بعد هذه المقدمة، إلى تعريف العبادة لغةً واصطلاحاً في محاولة للمقارنة بين كلام الرازي وكلام غيره ليتضح الفارق، والقول المختار لنا في هذا الاختلاف.

يقول في مختار الصحاح: «العبد ضد الحر، وأصل العبودية الخضوع والذل والتعبد: التذليل. يقال: طريق معبد، والعبادة: الطاعة، والتعبد: التنسك». ويضيف الراغب الأصبهاني في «المفردات»: «والعبادة أبلغ منهما - أى من العبودية - لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى».

ويقول الإمام ابن تيمية، مضيفاً على المعنى السابق: «لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب». فأضاف معنى الحب لله تعالى على أن ذلك من لوازم العبادة، لذا يقول: «ومن خضع لإنسان مع بغضه له فلا يكون عابداً، ولو أحب شيئاً ولم يخضع له لم يكن عابداً له كما قد يجب ولده وصديقه. ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله، بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء، وأن يكون الله عنده أعظم من كل شيء، بل لا يستحق المحبة والذل التام إلا الله، فكل ما أحب لغير الله فمحبه فاسدة، وما عظم بغير أمر الله كان تعظيمه باطلاً».^(٢)

فكانت العبودية إذن اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال في الظاهر والباطن والبراءة مما يخالف ذلك.

(١) أبو حيان محمد بن يوسف «البحر المحيط»، (١/١٥٦).

(٢) شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية «العبودية في الإسلام»، سنة ٧٢٨هـ، الطبعة الرابعة ١٤٠٠هـ، دار الفتح، نشرها قصي محب الدين الخطيب.

وهذا ما يختاره الباحث من هذه التعريفات، وبالنظر فيما عرفنا به التقوى في أول البحث من دخول ترك الشبهات، وترك ما لا بأس به حذراً مما به بأس، فإن تعريف «الزحشرى» للعبادة بأنها التقوى لا يدخل فيه ذلك لكون العبادة كما أشرنا.

وبالنظر لتعريف «الرازي» ومن تبعه بأنها طاعة الأمر، فإن التعريف بذلك يكون قاصراً عن لزوم المحبة للطاعة لتكون عبادة، وكذلك البراءة مما ينافي ذلك، وغاية تعريف الرازي أن الطاعة اتباع الأمر أن يشمل الواجب والمستحب، والعبادة كما رأينا أعم من ذلك.

وللزوم العبادة للتقوى، وأن المرء المؤمن لابد. وأن يلزم العبادة وأن يستقيم عليها، وأن يسارع إليها ويزداد منها. لتحصيل درجات التقوى العالية، كان لابد من بعض تفصيل في الكلام على العبادة، وهو ما تركناه لصفات المتقين، إذ شملت أنواع العبادات المطلوبة للتقوى.

وإن كنا لابد أن نضرب مثلاً لكون العبادة سبباً للتقوى، فقوله تعالى: ﴿يَتَّقِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كَتَبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣] هو الدليل على ذلك، لأنها تدخل إلى موضوعنا مباشرة، حيث تبين أن الصيام، وهو أحد العبادات التي أمر الله سبحانه وتعالى بها، وندب إليها، بل وجعلها كفارة لكثير من المخالفات للشرع الشريف، تبين أنه سبيل لتقوى الله عز وجل، وهو دليل كذلك على أن غيره من العبادات طريق للتقوى بلا شك، حيث هناك مثلاً الصلاة وهي أهم منه، فتكون من باب الأولى سبباً لتقوى الله تعالى، وبقية العبادات سبيل إلى التقوى إذن.

ومعنى الآية الكريمة: أن الله يخاطب المؤمنين بأنه قد فرض عليهم الصيام، كما فرضه على الذين من قبلهم على السنة رسلهم، يرجون بتنفيذهم هذه

الفريضة أن يصلوا إلى مرتبة التقوى^(١)، وفي الصيام معان مهمة توصل إلى التقوى، من حيث كونه تهذيباً للنفس، وقمعاً للشهوات، وتصفية للروح والبدن بحيث تكون أقرب إلى الله سبحانه، وأسرع استجابة إلى أوامره، وبعداً عن نواهيه، مع إحساس الصائم بالفقراء والمساكين، فيكون أبر بهم، وأكثره إحساناً إليهم، كل ذلك تقوى الله الذي يؤدي إليه الصوم إلى غير ذلك من المعاني التي فيه التقوى.

وقبل أن نبين صفات المتقين هناك ملحوظة في آيات العبادة والتقوى، وهي في قوله تعالى: ﴿خُذُوا مَاءَ آتَيْنَكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣]، وهي أن يأخذ المؤمنون ما آتاهم من ربهم بقوة رجاء التقوى.

وتكررت كذلك في الآية الواحدة والسبعين بعد المائة من سورة الأعراف وهذه الآية الكريمة نزلت في اليهود بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَاءَ آتَيْنَكُمْ بِقُوَّةٍ...﴾ [الأعراف: ١٧١].

والمعنى أن الله تعالى أخذ عليهم العهد بطاعته والوفاء بما ألزمهم به من شريعته، ورفع فوقهم الطور آية لهم على ذلك، وتهديداً لهم إن لم يوفوا بالعهد، ثم أمرهم بأن يأخذوا ما آتاهم به موسى - عليه السلام - من عند ربهم بالقوة أي بالجد والعزيمة وترك التكاثر والتباطؤ رجاء أن ينتظموا في سلك المتقين^(٢) فيفوزوا في الدنيا والآخرة، والآية الكريمة تبين أخلاق اليهود، ونبذهم العهد، واعتراضهم على شريعة الله - سبحانه، ومحادثهم لرسوله عليه السلام إيذاءهم

(١) انظر أبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (١/٢٣٤): وصديق خان «فتح البيان في مقاصد القرآن»، (١/٢٩٠).

(٢) انظر أبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (١/١٣٣). وكذلك الفخر الرازي «التفسير الكبير»، (٢/١٥١).

له، حتى هددهم هذا التهديد الشديد برفع الجبل عليهم ليعاينوا بأنفسهم ما يجعلهم يسارعون بالتوبة والرجوع إلى الله تعالى، والوفاء بعهودهم، ويحملهم على أخذ كتاب الله - جل وعلا - بقوة.

والآية فيها تعريض كذلك باليهود، بأنهم لا يأخذون شرع الله بالجد والعزيمة، وهو تنبيه لأهل الإسلام ألا يكونوا كمثلمهم، لأن التقوى لا تتحقق يمثل هذه الأخلاق السيئة، والصفات الرذيلة.

ويكون المعنى المسوق لأهل الإيمان أن أخذ أوامر الله تعالى، وما أتى به النبي ﷺ بالجد والعزيمة وترك الكسل هو علة التقوى، فيجب عليهم، وهم أرق قلوباً، وأوفى عهداً أن يسارعوا إلى ما يرجى به أن يتنظموا في سلك المتقين.

المطلب الثالث الأخلاق والسلوك

وإذا كان الإيمان والعبادة سبيل بين لتحقيق التقوى، فإن مما يكمل ويرفع درجتها، السلوك الراشد والخلق القويم في ظاهر المرء، وباطنه، وكذلك في سره وعلايته، حيث كانت الدرجة العليا من الخلق للنبي ﷺ حيث قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝﴾ [القلم: ٤]، وهو أبقى العالمين لله تعالى فدل على ارتباط الخلق بالتقوى، ومن ثم قال ﷺ: «إن من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً»^(١).

فكان السلوك الرشيد والخلق الحميد سبيلاً إلى تقوى الله ﷻ، ويندب للمؤمن أن يترقى في سلوكه، وأن يجاهد نفسه على الأخلاق الحسنة، فكلما ترقى سلوكه، وحسن خلقه ازداد تقوى الله تعالى، وقرباً من النبي ﷺ ومحبة منه. فكان هذا المطلب لجعل السلوك أيضاً والخلق من سبل تحقيق التقوى وكما ذكرنا في المطللين السابقين نذكر في هذا المطلب بأن صفات المتقين والتي منها ما يتعلق بالسلوك والأخلاق قد حصرناها في نهاية الفصل لنستوفي الكلام عليها.

ولذلك فإن المؤمن باستعماله الأخلاق الحسنة، ورياضة نفسه عليها يتدرج في مدارج التقوى، وذلك كرياضة نفسه على الصبر والحلم، والسماحة وكظم الغيظ والعفو وغيرها من الأخلاق الحسنة، وأما السلوك الراشد: فمن تعود الصدق، فإن الرجل يصدق ويصدق، ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وكذا أداء الأمانة، وصلة الرحم، وبر الوالدين، والإحسان إلى الفقراء والعطف على اليتامى والأرامل، والسعى في مصلحة المسلمين، كل ذلك السلوك وغيره مما ينزل به المرء منزلة التقوى، وكلما ازداد تخلقاً بذلك وسوءاً

(١) الحديث رواه الترمذي (٢٠١٩) عن جابر بن عبد الله ﷺ،

ارتفعت درجته، وعلت رتبته بين المتقين الأخيار.
ذكر القرآن الكريم كل هذه الأخلاق والصفات، التي وُصف بها المتقون
لتكون مناراً للدارس، والسالك لهذه ليعلمها، ويتحقق بها.

المطلب الرابع

التقوى مبعث كل التصرفات المقبولة

لما ذكرنا أن التقوى ملاك الأمر، وأنها يجب أن تكون مقصد المرء في الدنيا، وأن يأخذ بالأسباب التي توصله إليها، فإنها ذلك لطلب، آخر، الذي نحن فيه، وهو أن التقوى إن صح التعبير سبب لمزيد التقوى، وأنه كلما أخذ المؤمن بأسبابها هيأته لدرجة أعلى من درجاتها.

فإذا ما حصل المرء شيئاً من الأسباب الآتفة في المطالب تلك، فتحصل له بذلك درجة من التقوى، من الإيمان، والعمل الصالح أو السلوك الراشد، والخلق القويم، كان تحققه بذلك طريقاً جديداً، وسبيلاً قوياً لجنى ثمرة درجة أكرم من درجات التقوى، ورتبة أفضل من رتبها.

ومن ثمَّ كانت التقوى مبعث كل التصرفات المقبولة من المرء المؤمن؛ لأنه كما ذكرنا كلما حصل شيئاً من التقوى بعثه ذلك على مزيد من الإيمان والعمل الصالح، هداة إلى كثير من الأخلاق الحسنة والصفات الحميدة، وفي نفس الوقت إذا ازدادت أخلاقه الحسنة، وسجاياه الكريمة خفت منه الأخلاق السيئة والصفات المردولة، وكان أفضل من ذى قبل، وأحب إلى الله تعالى، وهكذا يترقى المرء في درجات الكمال الإنساني، في اعتقاداته، وعباداته وسلوكه وأخلاقه، وبالتالي معاملاته، وصلاحه، مع الله - جل وعلا، ومع الناس، ويكون عنصراً صالحاً حينئذ لنفسه ومجتمعه فينشأ من ذلك صلاح المجتمعات الإسلامية، والإنسانية.

ويدل لذلك ويؤيده أن المرء إذا تخلف عن التقوى، وضعفت في قلبه مادتها، ظهر ذلك على الجوارح، فضعف الإيمان، وفقدت العبادة هيبتها ولم تؤت ثمرتها، وساءت الإخلاق، وأعوج السلوك. فانتشرت بذلك كافة الرذائل والموبقات، ومجتمعات المسلمين اليوم أجل شاهد وأصدق على تلك الحال

المرتدية، والتي وصلت إليها بجدارة بسبب التفريط في تقوى الله تعالى، وذلك على جميع الأصعدة وكافة المستويات.

كان هذا المطلب كذلك دليلاً على لزوم حصر صفات المتقين، لتوضح بها ما ذكره القرآن الكريم من سبل تحقيق التقوى، فكان ذلك المطلب وهو المطلب الأخير.

المطلب الخامس

صفات المتقين

ونبدأ بهذه المقدمة، وهى كذلك قائمة على موضع من مواضع التقوى، ألا وهو قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۗ﴾ [الشمس: ٧-٨].

كان من رحمة الله تعالى بالإنسان أن بين له طريق الخير وطريق الشر، ولم يتركه حتى هيا نفسه لقبول أى الطريقين، فألهم نفسه الفجور والتقوى، ومع ذلك لو تركت بغير تأثير الفجور عليها لاختارت التقوى وأرادتها؛ ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، ثم أرسل إليه الرسول ليبين له الطريق ويأخذ بيده فيه، ويقطع عنه العذر والحجة أمام الله تعالى.

كانت هذه الآية هى المدخل لأن يتصف المرء بالتقوى، ويجاهد نفسه على التخلق بصفات المتقين، يرجو بذلك الفلاح، ولذا جاء بالآية بعدها: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۖ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠].

ونستفتح من صفات المتقين بما استفتح به القرآن الكريم في أول آياته، وذلك في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۖ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۖ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١-٥].

حيث نبدأ رحلتنا في التعرف على صفات المتقين بتلك الآيات؛ بدءاً بما بدأ الله به، ولما في هذه البداية التي بدأ الله بها من تنويه بفضل التقوى والإشادة بقيمتها وعلو مكانتها، حيث افتتح الله بها كتابه الكريم، حتى تكون هدف المرء من أول لحظة، وسلوكه حتى آخر لحظة.

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه الآيات المباركات قد جسدت معالم الدين بما

انطوت عليه من معان وأحكام، فقد بينت أولاً: أن هذا الكتاب كتاب هداية بما احتوى من عقائد وعبادات ومعاملات وأخلاق، من تمسك بها هُدى إلى صراطٍ مستقيم، وهى الغاية التي أرسل الله تعالى بها رسله، وأنزل لها كتبه. ثم بين أن تلك الهداية إنما تكون لمن اهتدى بها إيماناً وعملاً وهم المتقون، ثم بين للناس صفاتهم ليَهتدى بها الخلق ويتسابقوا إليها، وقفى بعد ذلك بذكر عاقبتهم وثوابهم في الأولى والآخرة؛ ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، أى في الدنيا والآخرة.^(١)

ولذلك كانت هذه الآيات من عجيب النظم ومحكم الكلام في الدرجة العليا من البلاغة والوصف، كما قال الزمخشري في النص التالى في قوله تعالى: ﴿الْمَرْحُومُونَ﴾: «وَلَا تَكُنْ مِنَ الْكَافِرِينَ وَلَا مِنَ الْمُنَافِقِينَ».

«وقد أصيب بترتيبه مفصل البلاغة وموجب حسن النظم، حيث جرى بها متناسقة هكذا من غير حرف، نسق، وذلك لمجيئها متآخية آخذاً بعضها بعنق بعض، فالثانية متحددة بالأولى معتنقة لها، وهلم جرا إلى الثالثة والرابعة. بيان ذلك أنه نبه أولاً على أنه الكلام المتحدى به، ثم أشير إليه بالكتاب المنعوت بغاية الكمال فكان تقريراً لجهة التحدى وشداً لأعضاده، ثم نفى عنه أن يتشبث به طرف من الريب، فكان شهادةً وتسجيلاً بكماله، لأنه لا كمال أكمل مما للحق

(١) الأستاذ سيد قطب «في ظلال القرآن»، يقول مجملًا: «إن السمة الأولى للمؤمنين هي الوحدة الشعورية الإيجابية الفعالة، الوحدة التي تجمع في نفوسهم بين الإيمان بالغيب والقيام بالفرائض والإيمان بالرسول كافة واليقين بعد ذلك بالآخرة.. هذا التكامل تمتاز به العقيدة الإسلامية، وتمتاز النفس المؤمنة بهذه العقيدة، والجدير بأن تكون عليه العقيدة الأخيرة التي جاءت ليلتقى عليها الناس جميعاً ولتهيمن على البشرية جميعاً، وليعيش الناس في ظلها بمشاعرهم وبمنهج حياتهم حياة متكاملة، شاملة للشعور والعمل والإيمان والنظام»، (١/٣٩). سيد قطب «في ظلال القرآن»، (١/٣٩).

واليقين، ولا نقص أنقص نما للباطل والشبهة، ثم أخبر عنه بأنه هدى للمتقين، فقرر بذلك كونه يقيناً لا يحوم الشك حوله، وحقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ثم لم تخل كل واحدة من الأربع بعد أن رتبنا هذا الترتيب الأنيق ونظمت هذا النظم السرى من نكتة ذات جزالة، ففى الأولى الحذف والرمز إلى الغرض بالطف وجه وأرشفه، وفى الثانية ما فى التعريف من الفخامة، وفى الثالثة ما فى تقديم الريب على الظرف، وفى الرابعة الحذف ووضع المصدر - الذي هو هدى - موضع الوصف الذي هو هاد وإيراده منكرأ والإيجاز فى ذكر المتقين. زادنا الله اطلاعاً على أسرار كلامه وتبييناً لنكت تنزيله وتوفيقاً للعمل بما فيه»^(١).

وهنا سؤال، وهو لم خص المتقين بالهداية والقرآن هدى للناس أجمعين؟ كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ وكذلك المتقى مهتدى فكان تحصيلاً للحاصل.

والجواب: ذكر عدد من أهل التفسير أجوبة على هذا السؤال استوفاهم منهم جمعاً واختصاراً نظام الدين الحسن بن محمد النيسابورى فى كتابه «غرائب القرآن ورغائب الفرقان» على هامش من تفسير الطبرى، فقال - رحمه الله تعالى: «إن المتقين لما كانوا هم المنتفعين بالهداية خصوا بالذكر مدحاً لهم كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّن تَحْشَنُهَا﴾، وقوله - سبحانه: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ مع أنه منذر كل الناس وأيضاً قوله ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ كقولك للعزيز الكريم: أعزك الله وأكرمك، تريد طلب الزيادة واستدامة ما هو ثابت، وبوجه آخر ساهم عند مشارفتهم لاكتساء لباس التقوى «متقين» نحو «من قتل قتيلاً فله

(١) جار الله محمود بن عمر الزمخشري «الكشاف»، (١/ ٢).

سلبه»، فهذا من باب تسمية الشيء بما هو آيل إليه، واللطف فيه أنه لو قال: هدى للصائرين إلى التقوى بعد الضلال، كان إطناباً في غير موضعه، فإن تصدير السورة - التي هي أولى الزهراوين وسمام القرآن وأول المثاني - بذكر أولياء الله والمرتضين من عباده هو اللائق بالمقام فاختص الكلام بإجرائه على الطريقة المذكورة^(١).

(١) انظر الزمخشري «الكشاف»، (٢٠/١)، فقد بدأ الإجابة على هذا السؤال الزمخشري وتبعه معظم المفسرين وزاد بعضهم كالفخر الرازي، (٣٨٢/١). ثم جمع ذلك النيسابوري كما ذكرنا حيث نقل كلام الكشاف بحروفه، انظر النيسابوري «غرائب القرآن ورغائب الفرقان»، (١٢٨/١)، على هامش الطبري. وانظر النسفي «مدارك التنزيل»، (١٠/١). ود. محمد أديب الصالح «التقوى»، (ص ٢٢٢). والبيضاوي «أنوار التنزيل»، (١٠٣-١٠٤). وابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٣٩/١). وأنها «الزهراوان» ورد في حديث النبي ﷺ عن أبي هريرة ؓ: «اقرأوا الزهراوين، واقرأوا سورة البقرة..» الحديث، أخرجه البزار، والطبراني في «الأوسط»، وهو حديث حسن.

وسنام القرآن ورد في حديث عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ: «إن لكل شيء سناماً وسنام القرآن سورة البقرة..»، وقد رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي، وذكره الألباني في الصحيحة (١٣٥/٢). وانظر كتاب «الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن الكريم»، دراسة ونقد للدكتور إبراهيم على السيد، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، دار السلام للطباعة.

أما قول الزمخشري أنها أول المثاني فلعله سبق قلم؛ لأن البقرة أول الطوال السبع، ثم المثني ثم المثاني ثم المفصل. انظر السيوطي «الاتقان في علوم القرآن»، وكذا الزركشي في «البرهان»!!

ونعود إلى تعريف الهدى كما وعدنا. ولصاحب «التحرير والتنوير» العلامة محمد الطاهر بن عاشور فيه كلام نفيس، نشير إلى عيونه:

«وهو على التحقيق الدلالة التي من شأنها الإيصال إلى البغية، والهدى الشرعى هو الإرشاد

إلى ما فيه صلاح العاجل الذي لا ينقص صلاح الأجل، ويكون الإخبار عن الكتاب بأنه هدى إشارة إلى بلوغه الغاية في إرشاد الناس حتى كان هو عين الهدى على ما يقتضيه الإخبار بالمصدر من المبالغة. وفي بيان كون القرآن هدى للمتقين معان ثلاثة: الأول: أن القرآن هدى في زمن الحال لأن المتقين هم المتقون في الحال لأن زمن الحال هو الأصل في اسم الفاعل، والمراد حال النطق والمصدر عوض عن الوصف باسم الفاعل، ومعنى ذلك أن جميع من نزه نفسه وأعدّها لقبول الكمال يهديه هذا الكتاب أو يزيده هدى ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾.

الثاني: أنه هدى في الماضي بما نزل من الكتاب، فيكون المراد من المتقين من كانت التقوى شعارهم أى أن الهدى ظهر أثره فيهم فاتقوا، وعليه فيكون مدحاً للكتاب بمشاهدة هديه وثناءً على المؤمنين الذين اهتدوا به، وإن كان غير الغالب الوصف باسم الفاعل فيما مضى فإن قرينة السياق بمدح الكتاب تدل عليه.

الثالث: أنه هدى في المستقبل للذين سيتقون وتعين عليه قرينه الوصف بالمصدر الذي لا يدل على زمان.

حصل من وصف الكتاب بالمصدر من وفرة المعاني ما لا يحصل لو وصف باسم الفاعل، ف قيل: هادٍ للمتقين، فهذا ثناء على القرآن، وتنويه به، وتخلص للثناء على المؤمنين الذين انتفعوا بهديه، فالقرآن لم يزل ولن يزال هدى للمتقين، فإن جميع أنواع هدايته نفعت المتقين في سائر مراتب التقوى، وفي سائر أزمانه وأزمانهم على حسب حرصهم ومبالغ علمهم واختلاف مطالبهم، فمن منتفع بهديه في الدين، ومن منتفع به في السياسة وتدبير أمور الأمة، ومن منتفع به في الأخلاق والفضائل، ومن منتفع به في التشريع والتفقه في الدين، وكل أولئك من المتقين، وانتفاعهم به على حسب مبالغ تقواهم. وقد جعل أئمة الأصول الاجتهاد في الفقه من التقوى، فاستدلوا على وجوب الاجتهاد بقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾، فإن قصر بأحد سعيه عن كمال الانتفاع به، فإنما دل ذلك لنقص فيه لا في الهداية، ولا يزال أهل العلم والصلاح يتسابقون في التحصيل على أوفر ما يستطيعون من الاهتداء بالقرآن، الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/٢٢٦).

فكان البداية في كلام الله تعالى كانت بمدح المتقين، وتخصيصهم بالهداية، وذكر صفاتهم، ليكون كل أحد على ذكر من ذلك، وحصصاً للناس على سلوك هذا السبيل، ليفلحوا وليظفروا في الآخرة الأولى.

أما بقية السؤال، وهو كون القرآن الكريم هدى للناس كافة وفي الآية الكريمة هدى للمتقين خاصة، أو كما قال الزمخشري: هل قيل هدى للضالين؟ فالجواب أن الهدى يطلق في القرآن الكريم ويراد به معنيان: الأول: ما يقر في القلب من الإيمان، وهذا لا يقدر على خلقه إلا الله ﷻ. والثاني: يراد به بيان الحق وتوضيحه والدلالة عليه والإرشاد إليه. فعلى الثاني يكون القرآن الكريم هدى للناس أجمعين، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝﴾ [الشورى: ٥٣]، وقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧]، وعلى الأول يكون هدى للمتقين خاصة، وفيه قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، وقوله - جل ذكره: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾^(١).

وقد ذكر بعض أهل العلم لطيفة أشارت إليها الآية، وهى قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ مع قوله: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ أن الناس هم المتقون، وفيما عدا المتقين فليسوا أناساً، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل.^(٢) لتبين المكانة السامية التي أعطاها ربنا ﷻ للمتقين، فيكون باعثاً للمؤمنين أن يغذوا السير في طاعة

(١) وانظر ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (١/٤٢). والإمام ناصر الدين أحمد بن المنير الإسكندري المالكي «الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال»، طبعة دار المعرفة، بيروت، على هامش الكشاف، (١/٢٠). والقرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، (١/١٦٠).

(٢) الحسن بن محمد النيسابوري «غرائب القرآن ورغائب الفرقان»، على هامش تفسير ابن جرير، طبعة دار الحديث، القاهرة، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م، (١/٢٨).

الله، واجتناب كل ما من شأنه تعكير صفو السلوك إليه - سبحانه، كيما يفوزوا بما فاز به المتقون، فينتفعوا انتفاعاً حقيقياً بهدى الكتاب العزيز وبيانه من سنة النبي ﷺ ولا بد لذلك - بعد عون الله ﷻ - من عزائم الرجال وتشمير الصادقين. (١)

ونشرع الآن في تفسير ذكر صفات المتقين التي ذكرتها الآيات، إذ هي المقصود الأعظم التي تتطلع إليه النفوس، وتهفو إليه الأفئدة، إذ فلاح الأشخاص وسعادة الأمة إنما تتحقق بذلك، لتعود سيرتها الأولى التي ما برحت أمل المخلصين ونشيد الداعين إلى الله تعالى.

وأول ما يصادفنا من صفات المدح للمتقين قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ وهي إما صفة للمتقين - أى الذين - في محل جر، أو خبر لمبتدأ محذوف هم أو على تقدير - أعنى الذين - وهو على ارتباط هذه الآيات بالمتقين، وهو رأى جمهور المفسرين. (٢) ويكون المعنى: المتقون هم أولاء الذين يؤمنون بالغيب ويسيرون الصلاة.. إلى آخر الصفات. وقد ذكرنا صفة إيمان المتقين في

(١) د. محمد أديب الصالح «التقوى من هدى الكتاب والسنة»، (ص ٢٢٣-٢٤٤).

(٢) انظر الزنجشیری «الكشاف» مثلاً (١/ ٢١)، وتبعه جمع على ذلك، أما الوجه الثاني فجوز كون ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ...﴾ الخ مقتطعاً عن المتقين مبتدأ مخبر عنه بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ...﴾، ورده صاحب «التحرير» بقوله - رحمة الله: «وجوز صاحب الكشاف كونه كلاماً مستأنفاً مبتدأ، وكون ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى﴾ خبره. وعندى أنه تمجيز لما لا يليق، إذ الاستئناف يقتضى الانتقال من غرض إلى آخر، وهو المسمى بالاعتضاب. وإنما يحسن في البلاغة إذا أشبع الغرض الأول وأفيض فيه حتى أوعب أو خيفت سامة السامع، وذلك موقع أما بعد أو كلمة هذا ونحوهما، وإلا كان تقصيراً من الخطيب والمتكلم، لا سيما وأسلوب الكتابة أوسع من أسلوب الخطابة، لأن الإطالة في أغراضه أمكن». «التحرير والتنوير»، (١/ ٢٢٩).

مطلب «الإيمان» في أول الفصل.

﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾: والمراد بالغيب ما لا يدرك بالحواس مما أخبر الرسول ﷺ صريحاً بأنه واقع أو سيقع، مثل وجود الله وصفاته، ووجود الملائكة والشياطين، وأشراط الساعة وما استأثر الله بعلمه.^(١)

وقد عبر القرآن الكريم بالفعل المضارع ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ وجعله صلة الموصول ﴿الَّذِينَ﴾ لإفادة استمرار إيمانهم وتجده وأنه لذلك لا يطرأ عليه شك ولا ريب مما يمدح به هؤلاء المتقون ويشئ عليهم به، وهى صفة لازمة للمتقين تعنى أن إيمانهم شامخ ثابت راسي لا يزلزله شئ، ولا يفت في عضده شبهة، ولا تردد ولا تعصف به عوادي الفتن، ولا مضلات الهوى، وهو ما يحمل غيرهم على

(١) والغيب مصدر بمعنى الغيبة، كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾، وقوله جل شأنه: ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾، وربما قالوا: بظهر الغيب، قال الخطيئة:

كيف الهجاء وما تنفك صالحة من آل لام بظهر الغيب تأتيني

وفي الحديث «دعوة المؤمن لأخيه بظهر الغيب مستجابة». انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٢٩/١-٢٣٠).

قال الإمام ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤١/١): «وأما الغيب المراد هنا فقد اختلفت عبارات السلف فيه، وكلها صحيحة، ترجع إلى أن الجميع مراد». وهو ما سبق إليه ابن جرير، ولخصه ابن عطية في «المحرر الوجيز»، (٨٤/١)، فقال: «واختلفت عبارة المفسرين في تمثيل ذلك، فقالت فرقة: الغيب في هذه الآية هو الله - عز وجل، وقال آخرون: القضاء والقدر، وقال آخرون: القرآن وما فيه من الغيوب، وقال آخرون: الحشر والصراط والميزان والجنة والنار، قال القاضي أبو محمد: وهذه الأقوال لا تتعارض بل يقع الغيب على جميعها». وانظر الإمام فخر الدين الرازي «التفسير الكبير»، (٣٩٠/١)، وصديق حسن خان «فتح البيان»، (٦٩/١)، وابن جرير الطبري «جامع البيان»، (٧٨/١).

التأسي بهم، والسير في طريقهم، استمطاراً للهدى والرحمة والفلاح من الله - جل وعلا.

ونلاحظ أن القرآن الكريم خص الإيمان بالغيب دون غيره من مواضع الإيمان بالذكر والتقدم لحكمة جليلة، وهى أن الإيمان بالغيب أصل في اعتقاد صحة ما تخبر به الرسل، وإمكان وجوده سواء ما يتعلق بوجود الله أو العالم العلوى، فإذا آمن بذلك تصدى لسماع دعوة الرسول، والنظر فيم يبلغه عن الله تعالى.

وأما من يعتقد بأن ليس وراء عالم الماديات عالم آخر ما وراء الطبيعة، كهؤلاء الدهريين الذين وصفهم الله بقوله: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، فهؤلاء وطنوا أنفسهم وأغلقوا قلوبهم على الإعراض عن الدعوة إلى الإيمان بوجود الله تعالى وعالم الآخرة، ومن ثم رأينا إقامة الصلاة والإنفاق في سبيل الله بعد الإيمان بالغيب.

﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾: الصفة التالية للمتقين هى أنهم يقيمون الصلاة^(١)،

(١) والإقامة في اللغة مصدر أقام الذي هو معدى قام، عدى إليه بالهمزة الدالة على الجعل، أى جعلها قائمة مأخوذ من: قامت السوق، إذا نفقت وتداول الناس فيها البيع و الشراء. وأما الصلاة المقصودة في الآية فهى العبادة المخصوصة، المشتملة على قيام وقراءة وركوع وسجود وتسليم. والصلاة اسم جامد بوزن فَعْلَة، محرك العين، وقد جاء هذا اللفظ في كلام العرب بمعنى الدعاء، كقول الأعشى:

تقول بتى وقد يمت مرتحلا يارب جنب أبى الأوصاب والوجعا
عليك مثل الذي صليت فاغتمضى جفنا فإن لجنب المرء مضطجعا

يقول: عليك من الدعاء مثل الذي دعوتيه لى.

ويقول الرسول ﷺ: «إذ دعى أحدكم إلى طعام فليجب، وإن كان صائماً فليُصَلِّ»، أى ليدعُ لأهله، وإنما أطلقت على الدعاء لأنه يلزم الخشوع والانخفاض والتذلل. انظر الطاهر

وهي معطوفة على قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، فبعد أن مدحهم بأخص خصائص الإيمان - وهو الإيمان بالغيب - وصفهم برأس العبادات البدنية، التي هي العلاقة الخاصة بين المرء وربّه - سبحانه، وهي الصلاة، إذ هي عمود الدين، والفارق للإنسان بين الإيمان والشرك والكفر.

أما إقامة الصلاة فقد ذكر الإمام ابن كثير^(١) عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قوله: «إقامة الصلاة إتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع والإقبال عليها فيها»، وعن قتادة قوله: «إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها». ويوضح ذلك الإمام ابن القيم فيقول في كتاب «الصلاة وحكم تاركها»: «وأقيموا الصلاة» فأمرنا بإقامتها، وهو الإتيان بها قائمة تامة القيام والركوع والسجود والأذكار، وقد علق سبحانه الفلاح بخشوع المصلّي في صلاته، فمن فاتته خشوع الصلاة لم يكن من أهل الفلاح، ويستحيل الخشوع مع العجلة والنقر قطعاً. بل لا يحصل الخشوع قط إلا مع الطمأنينة، وكلما زاد طمأنينة ازداد خشوعاً. وكلما قل خشوعه اشتدت عجلته حتى تصير حركة يديه بمنزلة العبث الذي لا يصحبه خشوع ولا إقبال على العبودية ولا معرفة بحقيقة

=

بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٣٣/١). وقد تردد أئمة اللغة في اشتقاقها: ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤٢-٤٣)، والرازي «التفسير الكبير»، (٣٩٢/١-٣٩٤)، والبيضاوي «أنوار التنزيل»، (١١٨-١١٩)، والألوسي «روح المعاني»، (١٩٢-١٩٣)، وابن جرير «جامع البيان»، (٨٠-٨١)، والزنجشري «الكشاف»، (٢٢-٢٣)، والزاغب الأصبهاني «المفردات»، (ص ٤٢١).

(١) الحافظ إسماعيل بن كثير القرشي «تفسير القرآن العظيم»، (٤٢/١). وقد ذكر الراغب الأصبهاني في «المفردات» سبب تخصيص الصلاة بالإقامة، فقال: «وإنما خص لفظ الإقامة تنبيهاً أن المقصود من فعلها توفية حقوقها وشرائطها، لا الإتيان بهيئتها فقط، ولهذا روى أن المصلين كثير والمقيمين لها قليل». المفردات، (ص ٤٢١).

العبودية، والله - سبحانه وتعالى - قد قال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، وقال: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾، وقال: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾، وقال: ﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، وقال: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾، وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾، وقال لموسى عليه السلام: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ فلن تكاد تجد ذكر الصلاة في موضع من التنزيل إلا مقروناً بإقامتها، فالمصلون في الناس قليل، ومقيم الصلاة منهم أقل القليل^(١).

وهذا يبين أهم ما يكون عليه المتقون بعد الإيمان من صلة عميقة بالله تعالى، تظهر في سرعة إقبالهم على الوقوف بين يدي ربهم، بمجرد أن ينادى عليهم بذلك، فيأتون متطهرين، ويقفون خاشعين يناجون ربهم، ويتلون كتابه، ويتدبرون آياته، ليعلموا بذلك خضوعهم له، ومحبتهم إياه، وأن صلاتهم له هي قرة أعينهم، وسكينة نفوسهم، وطمأنينة قلوبهم، وسكون أفئدتهم، بها يواجهون حياتهم بهمة وقوة وانسراح، مع ما ينتظرهم من نعيم الله في الآخرة.

وقد استعمل القرآن الكريم كذلك الفعل المضارع يقيمون ليدل على محافظتهم على صلاتهم، وتكرر ذلك منهم، وليكون الثناء عليها بالمواظبة على الصلاة أصرح^(٢).

وقد صرح بالثناء عليهم في مواضع شتى، لمحافظتهم على الصلاة فقال: ﴿

(١) الإمام محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية «الصلاة وحكم تاركها»، المكتبة القيمة، (ص ١٢٣).

(٢) انظر العلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/ ٢٣٢). وجاءت بصيغة الجمع ﴿أَقِيمُوا﴾ و﴿أَقَامُوا﴾ و﴿يُقِيمُونَ﴾ و﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، كل ذلك ليدل على شرعية وأهمية الجماعة فيها، ليستشعر المرء منها تلك الحكم والعظات المقربة لله تعالى، الحاملة للمؤمنين على الوحدة والمساواة، وما يبنى على ذلك من التعارف والتآلف والمودة والتكامل.

وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ تَحَافِظُونَ ﴿١﴾ [المؤمنون: ٩]، و﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ تَحَافِظُونَ ﴿٢﴾ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَّمُونَ ﴿٣﴾﴾ [المعارج: ٣٤-٣٥]، فلا يسع امرأ يتقى الله أو يدعى ذلك إلا أن يكون على ذلك العهد مع الصلاة.

﴿وَبِمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ : كثيراً ما يقرن القرآن الكريم بين الصلاة والزكاة، امرأ بهما، مادحاً أصحابهما، معبراً بتعبيرات مختلفة عن حسن ذلك. والحث عليه ليكون المرء مؤمناً حقاً، وحكمة ذلك كما يشير الإمام ابن كثير أن الصلاة حق الله وعبادته، وهي مشتملة على توحيده والثناء عليه وتمجيده والابتغال إليه ودعائه والتوكل عليه، والإنفاق هو من الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدي^(١) أى التكامل الذي يصلح به حال الناس في الدنيا ويوم يقوم الأشهاد. فما إن يقوم المسلم بحق الله وبحق الناس، حتى يجوز بذلك الكمالات التي يستحق بها رضا الله تعالى، ويحصل بذلك سعادة الدنيا في مجتمع يسوده التكافل والتراحم، وهو نعيم الدنيا، مع ما يرجوه من نعيم الآخرة.

وأول ما تشير إليه الآية أنهم - هؤلاء المتقون - يعتقدون أن المال مال الله تعالى ﴿رَزَقْنَاهُمْ﴾، وأنهم مستخلفون فيه، ينفقونه فيما يرضى واهبه، ويصرفونه فيما أمرهم به من وجوه الإنفاق التي يجبها، ثم بفضلها يزيدهم منه في الحياة الدنيا «ما نقص مال من صدقة»^(٢)، ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾

(١) انظر ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤٢/١): «وأصل الإنفاق إخراج المال من اليد، ومنه نفق البيع إذا كثر المشترون له، ونفقت الدابة إذا خرجت روحها، نفق كنفد، وكل ما كان فائده نوناً وعينه فاء يدل على الخروج والذهاب». وانظر الزمخشري «الكشاف» (٢٣/١). والزمخشري «أساس البلاغة»، مادة نفق، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثالثة، ١٩٨٥ م. والرازي «التفسير الكبير» (٣٩٥/١). وصديق حسن خان «فتح البيان» (٦٨/١).

(٢) رواه مسلم (٢٥٨٨)، وانظر النووي «شرح صحيح مسلم»، (٣٨٦/٨)، بلفظ: «ما

التقوى في القرآن الكريم

[إبراهيم: ٧]، ثم يشيهم عليها أجزل الثواب وأكملة أحوج ما يكونون إليه: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا هُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: ٧].

يقول الأستاذ/ سيد قطب - رحمه الله تعالى: «ومن هذا الاعتراف بنعمة الرزق ينبثق البر بضعاف الخلق والتضامن بين عيال الخالق، والشعور بالأسرة الإنسانية وبالأخوة البشرية، وقيمة هذا كله تتجلى في تطهير النفس من الشح وتزكيتها بالبر. وقيمتها أنها ترد الحياة مجال تعاون لا معترك تطاحن، وأنها تؤمّن العاجز والضعيف والقاصر، وتشعرهم أنهم يعيشون بين قلوب ووجوه ونفوس، لا بين أظفار ومخالب ونيوب»^(١).

نرجع إلى الآية ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ صلة ثالثة في وصف المتقين، مما يحقق معنى التقوى وصدق الإيمان، من بذل عزيز على النفس في مرضاة الله، لأن الإيمان لما كان مقره القلب و مترجمه اللسان، كان محتاجاً إلى دلائل صدق صاحبه، وهى عظام الأعمال، من ذلك التزام آثاره في الغيبة الدالة عليه ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ ومن ذلك ملازمة فعل الصلوات، لأنها دليل على تذكر المؤمن من آمن به. ومن ذلك السخاء ببذل المال للفقراء امتثالاً لأمر الله بذلك، وعبر كذلك بالمضارع لاستمرار ذلك وتكرره، حتى صار صفة لازمة لهم يثنى عليهم بها.

وأريد بالإنفاق هنا بثه - أى المال - في الفقراء وأهل الحاجة، وتسديد نوائب المسلمين بقرينة المدح، ولا يمدح المرء بالإنفاق على نفسه وعياله، فلا يعتنى الدين بالتحريض عليه.^(٢)

نقصت صدقة من مال».

(١) الأستاذ سيد قطب، «في ظلال القرآن»، (١/ ٤٠).

(٢) والرزق ما يناله الإنسان من موجودات هذا العالم، يسد بها ضروراته وحاجاته، وينال به

ومن الإنفاق ما هو واجب وهو حق صاحب الرزق، للقرابة وللمحاويج من الأمة ونوائب الأمة كتجهيز الجيوش والزكاة وبعضه محدد وبعضه تفرضه المصلحة الشرعية.

ومن الإنفاق ما هو تطوع من نفع ما دعا الشرع إلى نفعه لقوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ وأراد به الصدقة لقوله تعالى: ﴿فَأَصَّدَّقْ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

وكل هذه الإنفاقات داخلية تحت الآية، وإليه أشار ابن جرير - رحمه الله - بعد ذكر الأقوال الواردة في ذلك فقال: «فكان معلوماً أنه إذا لم يخص مدحهم ووصفهم بنوع من النفقات المحمود عليها صاحبها دون نوع بخبر ولا غيره

ملائمه، فيطلق على كل ما يحصل به سد الحاجة من الطعام والثياب والحيوان والشجر والتقد وبما يزيد على ذلك. قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ أي مما تركه الميت، وقال في قصة قارون: ﴿وَيَكُنَّ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ وذلك في كنوز قارون، وقوله: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ﴾ والرزق شرعاً عند أهل السنة كالرزق لغة فيطلق على الحلال والحرام، وخالف الزمخشري في ذلك ممثلاً لرأى المعتزلة الباطل في المسألة. والإنفاق إعطاء الرزق فيما يعود بالمنفعة على النفس والأهل والعيال، ومن يرغب في صلته أو التقرب لله بالنفع له من طعام أو لباس. وعرف الفخر الرازي الرزق، (٣٩٤/١)، من «التفسير الكبير»، بأنه الحظ ولم يرتض رأى الجمهور. انظر العلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٣٤-٢٣٦). والألوسی «روح المعاني» (١٩٣-١٩٦). وصديق خان «فتح البيان» (٦٨/١). وانظر البيضاوي، «أنوار التنزيل» (١١٩/١)، حيث وافق الفخر في المعنى اللغوي ووافق الجمهور من المفسرين على كون العرف خصصه بما ينتفع به، وجار الله الزمخشري «الكشاف»، (٤٣/١).

أنهم موصوفون بجميع معاني النفقات المحمود عليها صاحبها من طيب ما رزقهم ربهم من أموالهم وأملاكهم»^(١).

واهتماماً بالرزق في عرف الناس وماله من المعزة على النفس قدم المفعول على الفعل ﴿يُنْفِقُونَ﴾ كقوله تعالى في إظهار تلك المعزة: ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ إيداناً بأنهم ينفقون مقدمين رضا الله - سبحانه - على ميل أنفسهم وهوأها، مما يستحقون معه المدح بالتقوى.

ولما كان مبنى الشريعة على رفع الحرج النفس وعدم تكلفتهم إياه جئ بمن التبعية إشارة إلى أن المطلوب شرعاً إنفاق بعض المال وهو يقل ويزداد بحسب حال المكلفين فالواجب ما قدرت الشريعة مقاديره، وأنصبته من الزكاة، والإنفاق على الزوجة والولد، وما زاد على الواجب لا ينضبط، بل كلما زاد فهو خير.^(٢) وهو متروك لحبهم للخير ومسارعتهم إليه تشبهاً بالنبي ﷺ حيث كان

(١) ابن جرير الطبري «جامع البيان»، (١ / ١). وانظر الرازي «التفسير الكبير»، (١ / ٣٩٤ - ٣٩٦). والعلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١ / ٢٣٥).

(٢) هذا ما رجحه بعض المفسرين وهو ما نعتقه حقاً في من التي للتبعض، وإن ذهب بعضهم أنها للتبعض نعم ولكن فائدتها الكف عن الإسراف والتبذير المنهى عنه، وهو قول الزمخشري ومن تبعه كالفخر الرازي والنسفي والبيضاوي. وإن قال باحتمال العموم كذلك فقال: «ويحتمل أن يراد به الإنفاق من جميع المعادن التي آتاهم الله من النعم الظاهرة والباطنة ويؤيده قوله ﷺ: «فإن علماً لا يقال به ككنز لا ينفق منه». وإليه ذهب من قال ومما خصصناهم به من أنواع المعرفة يفيضون»، وذهب الأكثرون إلى العموم كابن جرير وابن كثير وصديق خان وابن عطية والألوسي حيث رد القول الأول صريحاً في «روح المعاني» فقال: «وأما إذا كان المراد الإنفاق مطلقه الأعم فائدة إدخالها الإشارة إلى أن إنفاق بعض المال يكفي في اتصاف المنفق بالهداية والفلاح، ولا يتوقف على إنفاق جميع المال، وقول مولانا البيضاوي تبعاً للزمخشري: «إنه للكف عن الإسراف المنهى عنه» مخصوص بمن لم يصبر على الفاقة ويتجرع مرارة الإضافة! وإلا

أجود بالخير من الريح المرسلة، ويعطى عطاء من لا يخشى الفقر.^(١) فأريحية المتقين وجبههم للإنفاق لا يقف عند حد. وهم درجات عن الله.

ونختم هذه الصفات بشيء مما ختمه بها أهل العلم ونلخص ما ذكره العلامة الطاهر بن عاشور - رحمه الله تعالى - في «التحرير والتنوير» حيث هو أوفاهها، فقال - رحمه الله - ما ملخصه: وإنما اختير ذكر هذه الصفات لهم دون غيرها لأنها أول ما شرع من الإسلام فكانت شعار المسلمين وهي الإيمان الكامل وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ولأن هذه الصفات دلائل إخلاص الإيمان، لأن الإيمان بما لا يصل إليه الحسُّ أدل دليل على قوة اليقين حتى إنه يتلقى من الشارع ما لا قبل للرأى فيه. وشأن النفوس أن تنبؤ عن الإيمان به لأنها

=

فقد تصدق الصديق ﷺ عنه بجميع ماله ولم ينكره عليه ﷺ لعلمه بصبره وإطلاعه على ما وقر في قلبه. ومن ها هنا لما قيل للحسن بن سهل: لا خير في الإسراف. قال: «لا إسراف في الخير»، وإن كان احتجاجه بالصبر على الفاقة فيه نظر لأن الصديق لم يكن كذلك بل كان مستيقناً بما عند الله أكثر مما في يده.

انظر جاز الله محمود الزخشري «الكشاف» (٢٣/١)، وعبد الله بن عمر البضاوي «أنوار التنزيل»، (١٢١-١٢٢). والفخر الرازي «التفسير الكبير»، (٣٩٥/١). وعبد الله بن أحمد النسفي «مدارك التنزيل»، (١٢/١). وابن جرير الطبري «جامع البيان»، (٨١/١)، وإسماعيل ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤٢/١)، والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٣٦/١). والألوسي «روح المعاني»، (١٩٥-١٩٦). صديق خان «فتح البيان»، (٦٨/١). وأبأ السعود «إرشاد العقل السليم»، (٣٨/١) بنفس حروف البضاوي.

(١) أما حديث «كان أجود بالخير من لريح المرسلة» فقد رواه البخاري (٣٥٥٤)، ومسلم (٢٣٠٨)، وحديث «يعطى عطاء من لا يخشى فاقه» رواه مسلم (٢٣١٢). وانظر القاضي عياض اليعصبى «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» وشرحه لملا على القاري، دار الكتب العلمية، بيروت، (٢٥٠-٢٥١).

تميل إلى المحسوس فالإيمان به على علاته دليل قوة اليقين بالمخبر وهو الرسول ﷺ، ولأن الصلاة كلفة بدنية في أوقات لا يتذكرها مقيمها أى محسن أدائها، إلا الذي امتلأ قلبه بذكر الله تعالى على ما فيها من الخضوع وإظهار العبودية ولأن الزكاة أداء المال وقد علم شح النفوس، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۖ﴾ [المعارج: ٢١].

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]: ومازلنا نتشرف بكلام الله تعالى في ذكر صفات المتقين^(١)، فبعد أن بين - سبحانه - دلائل تقواهم بأركان الإيمان، عطف بصفة أخرى لا يتم إيمانهم إلا بها، وهى الإيمان بما أنزل على الرسول ﷺ من عند الله - جل وعلا، وكذلك بما أنزل من قبل على رسل الله المتقدمين، تنبيهاً على وحدة المصدر وعلى وحدة أصول العقيدة المنزلة على جميع الرسل، وأن الدين الذي ارتضاه الله للناس كافة دينٌ واحد ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿شَرَعَ لَكُمْ

(١) يقضى المقام أن يُذكر أن الإمام ابن جرير اعتمد وجهاً آخر غير ما ذهبنا إليه من أقوال أهل العلم في تفسير الآية في كونها صفة للمتقين، من قبل وتبعه على ذلك جمع من أهل العلم، حيث ذكر أنها نزلت في أهل الكتاب الذين آمنوا بالكتاب المنزل من قبل، كعبد الله بن سلام من يهود، وصهيب الرومى من النصارى، ثم آمنوا بالنبى ﷺ. ونسب هذا القول لابن عباس - رضى الله عنهما - ورجحه ونصره بالأدلة وذكره الفخر الرازى قولاً واحداً، وذكره الزمخشري، وإن قال: «يحتمل الوجه الذي ذكرنا»، ورجحه الألوسى، وكذلك هو ترجيح العلامة الطاهر بن عاشور، وذهب ابن كثير وغيره من المحققين إلى الذي ذكرنا، وهو قول تؤيده الأدلة. انظر ابن جرير الطبرى «جامع البيان»، (١/ ٨١). والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/ ٢٤) وما بعدها. والفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١/ ٣٩٦). ومحمود الألوسى «روح المعانى»، (١/ ١٩٧). وإسماعيل بن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (١/ ٤٣-٤٤). وصديق خان «فتح البيان»، (١/ ٧٠-٧١). وجار الله الزمخشري «الكشاف»، (١/ ٢٣).

مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّي بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴿[الشورى: ١٣]، وأنه لا يتم إيمان المرء إلا أن يؤمن بهم جميعاً ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦] وأن تكذيب أحدهم أو التفريق بينهم تكذيب لجميعهم ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]. ولم يكن لهم رسول إلا هو، فدل على أن تكذيبه تكذيب لجميع المرسلين، وكأنه كان تنبيهاً منذ فجر الدنيا على هذه الحقيقة الخالدة والباقية ما بقيت البشرية، والتي تبين سمو الإسلام وارتفاع عظمتة وأنه فعلاً الدين الخالد والرسالة الخاتمة الصالحة لكل زمان ومكان.

﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ : ختم بهذه المنقبة العظيمة الحاملة على فعل الخير والمسارة إلى أبواب البر المانعة من الشر والعدوان والإثم. فالمؤمن بقاء الله - سبحانه - الذي وصل إيمانه إلى درجة اليقين، لا شك يخاف ربه، قد قام في قلبه رقيب عليه من نفسه يحسن له صورة الخير والطاعة والأخلاق الفاضلة، ويقبح له صورة المعصية والمخالفة والأخلاق السيئة، فكان يلزومه ذلك تقياً ممدوحاً عند الله - جل وعلا.

والآخرة صارت علماً بالتغليب على الدار الآخرة، وهي وصف مؤنث لمقدّر هو الحياة، وسميت كذلك لإتيانها بعد الحياة الدنيا متأخرة عنها. والمعنى أنهم يوقنون بالبعث والحياة بعد الموت^(١)، وما يترتب على ذلك من الحساب والجزاء،

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/ ٢٤٠). والفخر الرازي «التفسير الكبير»، (١/ ٣٩٨). والعلامة الألوسي «روح المعاني»، (١/ ٢٠١). وصديق خان «فتح البيان»، (١/ ٧٠). والنسفي «مدارك التنزيل»، (١/ ١٢). والزحمرى «الكشاف»، (١/ ٢٤)، والطبري «جامع البيان»، (١/ ٨١-٨٢).

وأمر الآخرة الثابتة بالكتاب والسنة الصحيحة.

قال ابن عباس - رضى الله عنهما: «أى يصدقون بما جئت به من الله، وما جاء به من قبلك من المرسلين، لا يفرقون بينهم، ولا يجحدون ما جاءهم من ربهم ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾، أى بالبعث والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان»^(١).

التعبير بـ﴿يُوقِنُونَ﴾ دون يؤمنون وبناءؤه على الضمير ﴿هُمْ﴾ له معان جميلة يفيدها هذا التركيب القرآنى البديع:

فاليقين أولاً هو العلم بالشئ عن نظر واستدلال، أو بعد شك سابق مشترك بين ذلك، أو هو ما غلب على القلب واستولى عليه، على اختيار الغزالي في الإحياء^(٢)، فيكون اليقين أخص من الإيمان والعلم، لذلك لا يطلقونه على

(١) ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (١/٤٣). والطبرى «جامع البيان»، (١/٨٢). وكأنه إشارة ما سينزل أيضاً لصحة يقينهم وقوة إيمانهم: (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى عيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه).

(٢) انظر ابن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/٢٤٠). والألوسى «روح المعانى»، (١/٢٠١). والإمام الغزالي حجة الإسلام (ت: ٥٠٥) «إحياء علوم الدين»، طبعة الشعب، (١/١٢٣-١٢٤). والرازى «التفسير الكبير» (١/٣٩٨). أمّا اختيار الغزالي في الإحياء فقال في «روح المعانى»: والقلب يميل إليه (١/٢٠١). أما العلامة ابن عاشور فقال مستطرداً في تعريف اليقين: «وقد يطلق على الظن القوى إطلاقاً عرفياً حيث لا يخطر بالبال أنه ظن ويشبهه بالعلم الجازم، فيكون مرادفاً للإيمان والعلم». «التحرير والتنوير». (١/٢٤٠). ولهذا التعريف الأخير قال محمود الألوسى في «روح المعانى»: «فعبّر باليقين بدل الإيمان دفعاً للتكرار» والتعريف الذي أشرنا إليه هو ما اعتمدنا، لكونه اللائق بالتعبير القرآنى الحكيم. محمود الألوسى «روح المعانى»، (١/٢٠١).

علم الله ولا على العلم الضروري.

فالتعبير عن إيمانهم بالآخرة بـ﴿يُوقِنُونَ﴾ المضارع لثبات ذلك ودوامه، ثم استخدم لفظ اليقين يشعر بأنه علم حاصل عن طريق التأمل وغوص الفكر في الاستدلال، لأن الآخرة غائبة عن المشاهدة غريبة بحسب المتعارف، فلكثرة غرائب متعلقات الآخرة وما أعد الله فيها من الثواب والعقاب وتفاصيل أنواع النعيم والتعذيب، ونشأ أصحابها على خلاف النشأة الدنيوية مع إثبات المعاد الجسماني مما هو أغرب من الإيمان بالكتب المنزل حتى أنكره ونفاه كثير من الناس كالمشركين والدهريين، ناسب أن يقرن هذا الأمر المهم الغريب الذي حارت عقول الكثيرين في إثباته بالإيقان، إظهاراً لكمال المدح وإبداءً لغاية الثناء لهؤلاء المتقين الأبرار.^(١)

أما تقديم المجرور ﴿وَبِالْآخِرَةِ﴾ على ﴿يُوقِنُونَ﴾ وهو عامله للاهتمام بهذا الأمر الجلل كما أشرنا ورعاية للفاصلة، ويقول العلامة الطاهر بن عاشور في «التحرير والتنوير» رداً على ما ذكره الزمخشري ومتابعوه من أن التقديم يفيد الحصر أى حصر اليقين على حقيقة الآخرة لا يتعداها إلى خلاف حقيقتها كما يزعم اليهود مثلاً حيث قالوا: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى﴾ [البقرة: ١١١] وقولهم: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ [آل عمران: ٢٤]، وزعموا أن التلذذ حسى بالنسيم والأرواح، يقول - رحمه الله تعالى: «وأرى أن في هذا التقديم ثناء على هؤلاء بأنهم أيقنوا بأهم ما يوقن به المؤمن. فليس هذا التقديم بمفيد حصر، إذ لا يستقيم معنى الحصر هنا بأن يكون المعنى أنهم يوقنون بالآخرة دون غيرها، وقد تكلف صاحب الكشف

(١) انظر محمود الألوسى «روح المعانى»، (١/٢٠٢).

وشارحوه لإفادة الحصر»^(١).

أما تقديم ﴿هُمَّ﴾ على ﴿يُوقِنُونَ﴾ أى تقديم المسند إليه على المسند، فهو لإفادة تقوية الخبر، أى يوقنون إيقاناً قوياً جازماً، لا مرية فيه ولا تردد ولا شك، وهو كذلك من علامات الثناء.

كما أنه إشارة إلى أن اعتقاد مخالفهم في الآخرة جهل محض، أى أن اعتقادهم هم يقين، فغيرهم ومخالفوهم ليسوا على يقين، بل هم في أدنى درجات الشك جهلاً وتخيلاً^(٢).

ونختم الكلام في هذه الآية بقول الفخر الرازى: «إن الله تعالى مدحهم على كونهم متيقنين بالآخرة، ومعلوم أنه لا يمدح المرء بأن يتيقن وجود الآخرة فقط، بل لا يستحق المدح إلا إذا تيقن وجود الآخرة مع ما فيها من الحساب والسؤال وإدخال المؤمنين الجنة والكافرين النار. روى عنه ﷺ: «يا عجباً كل العجب من الشاك في الله وهو يرى خلقه، وعجباً ممن يعرف النشأة الأولى ثم ينكر النشأة الآخرة، وعجباً ممن ينكر البعث والنشور وهو في كل يوم وليلة يموت ويحيا - يعنى النوم واليقظة - وعجباً ممن يؤمن بالجنة وما فيها من النعيم ثم يسعى لدار الغرور، وعجباً من المتكبر الفخور وهو يعلم أن أوله نطفة مذرة وآخره جيفة قدرة»^(٣).

وننتقل إلى الموضع الثانى من مواضع ذكر صفات المتقين، وهو قوله تعالى:

(١) العلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/ ٢٤٠).

(٢) بتصرف من الألوسى «روح المعانى»، (١/ ٢٠٢). وابن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/ ٢٤١).

وقال في الكشف: «هو تعريض بأهل الكتاب وبما كانوا عليه من إثبات أمر

الآخرة على خلاف حقيقته وأن قولهم ليس بصادر عن إيقان»، (١/ ٢٤).

(٣) الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١/ ٣٩٨).

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ لَمَغْرِبٍ أَوْ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ لِلَّهِ بِالْإِيمَانِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَأَتْكِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَى السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٧٧].

نزلت هذه الآية الكريمة بعد أن غيرت القبلة من بيت المقدس - حيث كان يصلي المسلمون إليه - إلى الكعبة المشرفة، وشغب سفهاء أهل الكتاب على هذا الأمر، وشق على نفوس طائفة من المسلمين.

نزلت ليبين لهم المولى سبحانه أن البر ليس في التوجه شرقاً أو غرباً، وإنما البر والتقوى في طاعة الله وامتنال أوامره مما أشار الله - جل وعلا - إلى تفصيله في الآية كما قال - سبحانه وتعالى - في شأن الأضاحي: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

يقول الإمام ابن كثير فيما يرويه عن الإمام سفيان الثوري - رحمه الله - في تفسير الآية: «هذه أنواع البر كلها»، ثم يعقب فيقول: «وصدق - رحمه الله - من اتصف بهذه الآية فقد دخل في عرى الإسلام كلها، وأخذ بمجامع الخير كله»^(١). ومعنى هذا القول قد ذكره الإمام القرطبي من قبل حيث يقول: «الخامسة: قال علماؤنا هذه آية عظيمة من أمهات الأحكام، لأنها تضمنت ست عشرة قاعدة: الإيثار بالله وبأسائه وصفاته - وقد أثبتنا عليها في «الكتاب الأسنى» - والنشر والحشر والميزان والصراط والحوض والشفاعة والجنة والنار - وقد أثبتنا عليها في كتاب «التذكرة» - والملائكة والكتب المنزلة وأنها حق من

(١) الحافظ إسماعيل بن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (١/٢٠٧).

عند الله كما تقدم والنيين وإنفاق المال فيما يَعْنُ من الواجب والمندوب وإيصال القرابة وترك قطعهم وتفقد اليتيم وعدم إهماله والمساكين كذلك ومراعاة ابن السبيل - قيل: المنقطع به وقيل الضيف - والسؤال وفك الرقاب والمحافظة على الصلاة وإيتاء الزكاة والوفاء بالعهود والصبر في الشدائد، وكل قاعدة من هذه القواعد تحتاج إلى كتاب^(١).

ولم يترك أحد من المفسرين وأهل العلم ممن تكلم في الآية من الإشارة إلى كونها جامعة لكل الكمالات البشرية تصريحاً أو تلويحاً. ونذكر قول بعض منهم لنفاسته - وإن كان كله نفيساً - ونشير إلى الباقي في مواضعه - إن شاء الله تعالى. يقول العلامة الطاهر بن عاشور - رحمه الله تعالى: «فلله هذا الاستقراء البديع الذي يعجز عنه كل خطيب وحكيم غير العلام الحكيم، وقد جمعت هذه الخصال جماع الفضائل الفردية والاجتماعية الناشئ عنها صلاح أفراد المجتمع، من أصول العقيدة وصالحات الأعمال، فالإيمان وإقام الصلاة هما منبع الفضائل الفردية، لأنها ينبثق عنهما سائر التحليات المأمور بها، والزكاة وإيتاء المال أصل نظام الجماعة صغيرها وكبيرها، والمواساة تقوى عنها جانب الأخوة والاتحاد، وتسدد مصالح للأمة كثيرة، وببذل المال في الرقاب يتعزز جانب الحرية المطلوبة للشارع، حتى يصير الناس كلهم أحراراً، والوفاء بالعهد فيه فضيلة فردية وهي عنوان كمال النفس، وفضيلة اجتماعية، وهي ثقة الناس بعضهم ببعض، والصبر فيه جماع الفضائل وشجاعة الأمة، ولذلك قال تعالى هنا: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿ فحصر فيهم الصدق والتقوى حصراً ادعائياً للمبالغة، ودلت على أن المسلمين قد تحقق فيهم معنى البر، وفيه تعريض بأن أهل الكتاب لم يتحقق فيهم، لأنهم لم يؤمنوا ببعض الملائكة وبعض النبيين،

(١) الإمام أبو عبد الله محمد أحمد القرطبي «الجامع لأحكام القرآن» (٢/ ٢٤١).

ولأنهم حرموا كثيراً من الناس حقوقهم، ولم يفوا بالعهد، ولم يصبروا، وفيها أيضاً تعريض بالمشركين، إذ لم يؤمنوا باليوم الآخر والنيين والكتب، وسلبوا اليتامى أموالهم ولم يقيموا الصلاة ولم يؤتوا الزكاة»^(١).

وبعد.. نبدأ في التعرف على هذه الجوانب المضئئة للمتقين، والتي ذكرتها الآية حتى يُتبع المؤمن القول بالعمل، ليتصف بهذه الصفات، فيتحقق له صدق إيمانه وأسباب سعادته في الدنيا والآخرة، ولتحقق للمجتمع ما يرجو من تقدم ورقى ورحمة وتكافل.

وكلمة البر عند ذكر صفات المتقين في هذه الآية الكريمة تذكر بما أسلفنا من القول بأن البر عند إفراده هو التقوى كما ذكر الله تعالى ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى﴾ فكان الآية معناها: ولكن من اتقى صفته كيت وكيت، بدليل ختم الآية بقوله - جل وعلا: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

وأول ما تعودنا عليه أن يصادفنا من صفات المتقين هو الإيمان الحق، الذي بنى عليه بعد ذلك الإتيان ببقية الأوصاف، تصديقاً لهذا الإيمان، ودليلاً على ثباته وقوته، حيث لا يقبل عمل إلا بعد الإيمان، فهو أساس الأعمال وقاعدتها، وقد ذكرنا معناه في الآية الأولى.

وإن كان في هذه الآية ذكر تفصيل الإيمان الوارد في حديث جبريل أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر لما سأل رسول الله ﷺ عن الإيمان. وفي هذه الآية هنا قدم اليوم الآخر بعد الإيمان بالله مباشرة، على غير ما ورد في آيات أخرى، وعلى غير ما ورد كذلك في حديث جبريل، لأنه المناسب لحال المتقين الأبرار. يقول الراغب الأصبهاني في «المفردات»: «ولما ذكر حال المؤمنين، والمؤمن أقرب الأشياء إليه أمر الآخرة، فكل ما يفعله ويتحراه فإنه يقصد به

(١) العلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير» (٢/ ١٣٢).

وجه الله تعالى، ثم أمر الآخرة، فقدم ذكره تنبيهاً على أن البر مراعاة الله، ومراعاة الدار الآخرة، ثم مراعاة غيرهما^(١).

والتفصيل مناسب هنا دون آية البقرة، لأنه لما نفى أن يكون التوجه في ذاته قبل الشرق والمغرب برأ، شرع في ذكر البر الحق، الذي ينبغى أن يحرص عليه المؤمنون، فكان لائقاً أن يوضحه لهم بهذه الطريقة، التي تزيل عنهم ما اعتقدوا مما لا ينبغى، وتفصل الحق وتبينه فيما يجب أن يعتقدوا.

ولذلك كان قوله: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ﴾^(٢) تحقيقاً للحق بعد إبطال الباطل، وتفصيلاً لخصال البر، مما يختلف باختلاف الشرائع، ومما لا يختلف، أى ولكن البر بر من آمن بالله وحده إيماناً بريئاً من شائبة الإشراك، لا كإيمان اليهود والنصارى والمشركين... إلخ ما ذكر، وكلها تعريض بالإيمان الباطل لبقية الفرق.

﴿وَأَتَى أَلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ : فبعد أن ذكر ما ينبغى في حق الله تعالى من

(١) انظر أبا حيان الأندلسي «البحر المحيط»، (١٣٤/٢)، حيث ذكر كلام الراغب.

(٢) والبر هنا منصوب خبر ليس مقدم كما في قوله:

سلى إن جهلت الناس عنا وعنهم فليس سواء عالم وجهول

وأخر الاسم وهو المصدر المؤول؛ لأن فيه طولاً، لو روعي الترتيب لفات تجابو أطراف
النظم الكريم. وعبر بالبر للمبالغة، أى البر كل البر يؤدى إلى الثواب العظيم هو بر من آمن. والبر أشرنا إليه من قبل، وهو سعة الإحسان وشدة الرضا والخير الكامل الشامل، ولذلك توصف به الأفعال القوية الإحسان، فيقال: بر الوالدين، وبر الحج، وقال تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبِّبْتُمْ﴾، وذكر أهل التفسير واللغة وجوه القراءات والبلاغة والنحو في الآية وترجيح كل. انظر محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير» (١٢٨-١٢٩)، والفخر الرازى «التفسير الكبير» (١٣/٣-١٤)، والعلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم» (٢٢٧-٢٢٨)، والزنجشى «الكشاف» (١/ ١٠٩)، والقرطبي «الجامع لأحكام القرآن» (٢/ ٢٣٨-٢٣٩).

الإيمان الصحيح بأن يعبدوه لا يشركوا به شيئاً وأن يؤمنوا بسائر مواضع الإيمان انتقل إلى حق الخلق يستكمل معاني البر وصفات المتقين وهو إتمام الكمالات البشرية التي يسعد بها الناس أفراداً وجماعات وتستقيم بها أحوالهم مع ما يرجون بذلك من ثواب الله في الآخرة.

فأول ما بدأ به قوله: ﴿وَأَتَى آلَمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ وهو إعطاؤه المال، وبذله مع حب المال إذ الضمير يعود عليه^(١)، وتمكن هذا الحب من سويداء القلب بدليل المجاز في قوله على حبه التي تدل على التمكن من هذا الحب كقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥] فيكون هذا الإعطاء مع الحب وعدم الزهادة فيه ثناء عليهم بأنهم يفعلون ذلك ابتغاء مرضاة الله تعالى ورجاء أجره، إذ لا يُقَدَّم على حب المال إلا محبوباً أعظم ومطلوباً أجل وهو حب الله تعالى وطلب رضوانه. وبهذا نفهم كيف صدقوا وصاروا متقين؟ وكيف كان فعلهم برآء؟ وفيه حث لغيرهم أن يتخلقوا بأخلاقهم، ويبادروا إلى الاتصاف بشئائهم وسجايهم.

وقوله: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ في الآية التي معنا مثل قوله تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ آلَطَعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا﴾، ويسمى في البلاغة احتراساً وتتميماً يحسن المعنى، كقول زهير:

(١) الضمير يعود على المال لا محالة كما ذكر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير» (١٣٠/٢)، وذكر الرازي والقرطبي والألوسي وغيرهم وجهين آخرين معه، والأول قول ابن عباس - رضي الله عنهما. راجع الفخر الرازي «التفسير الكبير» (١٦/٣)، والإمام محمد بن أحمد القرطبي «الجامع لأحكام القرآن» (٢/٢٤٢-٢٤٣)، والعلامة محمود الألوسي «روح المعاني» (٧٠/٢)، وصديق حسن خان «فتح البيان» (٢٨٠/١)، وأبو حيان «البحر المحيط» (١٣٥-١٣٦) وغيرها.

من يلق يوماً على علاقته هراً
وكقول عنتره:

أثنى علي بما علمت فإنني سهل مخالفتي إذا لم أظلم
والشاهد في الأول قوله: «على علاقته»، وفي الثاني قول عنتره: «إذا لم أظلم». وقد ثبت من قوله ﷺ: «أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتحشى الفقر»^(١) والشاهد في قوله ﷺ: «وأنت صحيح شحيح».

بدأت الآية بذكر أصناف هؤلاء الذين يؤتون المال على حبه لأن إتيانهم المال لا شك يأتي بخير ومصلح، فكانت أن افتتحت بذوى القربى، أى ذوى قرابة المعطى، فالألف واللام في القربى عوض عن المضاف إليه، وقدم ذوى القربى لأن إتياءهم أفضل، كما قال - عليه الصلاة والسلام: «صدقتك على المسكين صدقة وعلى ذوى رحمك اثنتان صدقه وصلة»^(٢). وهذا على قول من قيد ذوى

(١) انظر الإمام محمد بن أحمد جرير الطبري «جامع البيان» (٢/٥٦)، والحافظ إسماعيل بن كثير «تفسير القرآن العظيم» (١/٢٠٨)، والحديث أخرجه البخارى (١٤١٩).

(٢) قال صديق خان في «فتح البيان»: «أخرجه أبى شيبه، وأحمد، والترمذى وحسنه، والنسائى، وابن ماجه والحاكم، والبيهقى في سننه من حديث سلمان بن عامر الضبى». وقد ذكره الإمام أبو زكريا يحيى بن شرف النووى في «رياض الصالحين» من كلام سيد المرسلين، دار إحياء الكتب العربية، ص ١٥٩، باب بر الوالدين وصلة الأرحام، وقال: رواه الترمذى وقال: حديث حسن. وبذلك يتبين وهم محققو تفسير البيضاوى «أنوار التنزيل وأسرار التأويل»، حيث نسبوه للصحيحين، وبالمراجعة تبين أنه حديث آخر. انظر فتح البيان (١/٢٨٠)، رياض الصالحين (١٥٩)، أنوار التنزيل (١/٤٥٣)، روح المعانى (٢/٧٠)، أما حديث الصحيحين وغيرهما من حديث زينب امرأة أبى مسعود أنها سألت رسول الله ﷺ هل تجزئ عنها من الصدقة النفقة على زوجها وأيتام في حجرها فقال: «لك أجران أجر الصدقة وأجر القرابة»، وأخرج الطبرانى والحاكم والبيهقى في سننه من حديث أم كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله ﷺ

القريب بالمحاييج منهم، وإن كانت الآية عامة لا تختص بمساكينهم على رأى بعض أهل العلم، لما في ذلك من التحابب والتثام الشمل وتحقيق مقصود الشرع من المودة، يقول العلامة الطاهر بن عاشور: «أمر بالإحسان إليهم لأن مواساتهم تكسبهم محبتهم إياه والتثامهم. وهذا التثام القبائل الذي أراده الله بقوله: ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ فليس مقيداً بوصف فقرهم كما فسر به بعض المفسرين، بل ذلك شامل للهدية لأغنيائهم وشامل للتوسعة على المتضائقين وترفيه عيشتهم إذ المقصود هو التحابب»^(١).

وذوى القربى، وما عطف عليه من بقية المعطوفات هو المفعول الأول، والمال هو المفعول الثانى، وقدم الثانى اعتناءً به، لأن المقصود الأعظم إيتاء المال على حبه.^(٢) وذهب بعضهم إلى أن المال هو المفعول الأول.

﴿وَالْيَتَامَى﴾: الذين لا كاسب لهم، وقد مات آباؤهم، وهم ضعفاء صغار دون البلوغ، وكذلك لا قدرة لهم على التكسب، وهم الصنف الثانى الذي وصى الله - سبحانه - به لنرى بذلك مجتمع المؤمنين لا يضيع فيه أحد لضعفه وصغره بل الكل مكفول له حقه في حياة كريمة ملؤها الرحمة والإحسان، حقاً واجبا، وفضلاً لازماً، لا منة فيه ولا تكبر.

وبذلك ترى الإسلام قد سبق دعاة حقوق الإنسان بقرون متطاولة، في إقامة مجتمع الود والتراحم، الذي لا حقد فيه ولا تناحر ولا صراع بين طبقاته ولا تفكك وأنانية بين أبنائه، بل كلهم جسد واحد، إذا اشتكى فيه عضو تداعى

يقول: «أفضل الصدقة على ذى الرحم الكاشح». انظر فتح البيان لصديق خان (١/ ٢٨٠)، وروح المعانى للعلامة محمود الألوسى (٢/ ٧٠).

(١) انظر العلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير» (٢/ ١٣٠-١٣١).

(٢) انظر أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسى «البحر المحيط» (٢/ ١٣٦).

له سائر الجسد بالحمى والسهر.

بل رأى بعض العلماء إعطاء اليتيم ولو لم يصل إلى حافة الفقر لفقده ما كان ينيله أبوه من رفاهية عيش فيأتاؤهم المال يجبر صدع حياتهم.^(١)
وقد حمل بعضهم - كما قال في «البحر المحيط» - اليتامى على حذف أى ذوى اليتامى إذ لا يحسن إعطاء المال اليتيم الصغير الذي لا يميز، ولا يعرف مصلحته، أما إن كان مرافقاً والصدقة مما يؤكل أو يلبس وهو يعرف مواقع حقه جاز دفعها إليه هذا لمن خص اليتيم بغير البالغ. أما من لم يخص فإن الصدقة تدفع للبالغ أو لوليه.^(٢)

﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ : وما زال البر يأتى على كل ما يمكن أن يوجد في مجتمع الإيمان، مما يعكر صفوه، ويذهب سلامه، فجاء دور المساكين لينتشلهم من الحاجة، ويسد خللتهم، ويقيم أودهم، ويجعلهم أفراداً صالحين، يخافون على وطنهم، ويفتدونه بأرواحهم، لما رأوا من قيامه بحقوقهم وعدم تركهم نهياً للجوع والذل، بينما يرفل غيرهم في الشهوات والملذات في حياة ناعمة، خاصة وأن المسكين لا يقطن له ولا يسأل كغيره ممن ستأتى صفته فإذا وجد من يسأل عنه ويتفطن له ويواسيه ويهيئ له الحياة الكريمة، فانظر إلى صلاح مثل هذه النفس واستقامتها.

يقول الرسول ﷺ فيما يرويه أبو هريرة رضى الله عن ﷺ: «ليس المسكين الذي

(١) انظر الحافظ إسماعيل بن كثير «تفسير القرآن العظيم» (٢٠٨/١)، والعلامة محمود

الألوسى «روح المعانى» (٧٠/٢)، وأبا حيان محمد بن يوسف الأندلسى «البحر

المحيط» (١٣٦/٢)، والعلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير» (١٣١/٢).

(٢) أبو حيان الأندلسى «البحر المحيط» (١٣٦/٢)، الإمام الفخر الرازى «التفسير الكبير»

(١٩/٣).

يطوف على الناس ترده اللقمة واللقتان والتمرّة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفتن له فيتصدق عليه».

فالمسكين من السكون أى أسكنته الحاجة، وهى كذلك من الذلة والضعف، أى الذي أذله الفقر، وهو على وزن (مفعيل) للمبالغة، ولم يكن ليتركه الإسلام على هذا النحو فراعى الإسلام هؤلاء ولم يطق أن يرهّم في مجتمع المسلمين حتى أخرج لهم حقوقاً غير الزكاة - إذا لم تكف الزكاة - ليكفل لهم حياة كريمة وعيشة مستقرة بين هؤلاء الأبرار الأتقياء ليصير المجتمع كله مجتمع الأبرار الأتقياء.^(١)

﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ : جمع سائل، والسؤال عنوان الحاجة، لأن شأن المرء أن تمنعه نفسه أن يسأل من غير حاجة غالباً، والبر ألا يترك السائل هكذا يريق ماء وجهه، يتكفف الناس، يعطونه مرة ويردونه أخرى، بل من صفات المتقين أن يعطوه مما يحبون من أموالهم بمجرد أن يعلموا بحاله وقد كنى بالسائل هنا عن الفقير لأن آيات القرآن الكريم كثيراً ما تجمع بين الفقراء والمساكين في لزوم رعايتهم ومواساتهم، وإنما قدم المسكين لأنه لا يُتفطن إليه كما ذكرنا والسائل قد عرفنا حاله من سؤاله وكذلك لان المسكين في رأى جمهور أهل اللغة أسوأ حالا

(١) انظر العلامة محمود الألوسى، «روح المعانى» (٢/ ٧٠-٧١)، والعلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير» (٢/ ١٣١)، و الحافظ إسماعيل بن كثير «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٢٠٨)، الإمام محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى «مختار الصحاح»، عنى بترتيبه محمود خاطر بك، المطبعة الأميرية، ١٣٤٠هـ، باب سكن، والحافظ أبى الفرج عبد الرحمن بن على بن الجوزى «زاد المسير» (١/ ١٠٩). أما الحديث «ليس المسكين..» فقد رواه البخارى (١٤٧٦)، وانظر الحافظ ابن حجر العسقلانى، «فتح البارى» (٣/ ٣٤٠-٣٤١)، ورواه مسلم (١٠٣٩)، انظر الإمام النووى «شرح صحيح مسلم»، (٤/ ١٣٩).

من الفقير فوجدنا الآية الكريمة تراعى كل حال ليتحقق مقصود الشرع الشريف.

﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ : هو المسافر كما قال مجاهد في تفسيره، وسمى بذلك لملازمته الطريق في السفر، أو لأن الطريق تبرزه فكأنها ولدته، ويطلق كذلك على الضيف ينزل على المسلمين كما روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما، وأفراد في السياق لانفراده عن أحبابه ووطنه وأصحابه.^(١)

وها قد رأينا عظمة الإسلام في هذا التشريع، كما هو الحال في كل تشريع، أن لابن السبيل حقاً في أموال المسلمين يبلغه داره ووطنه سليماً معافاً مطمئناً، له في كل طريق أهل وأخوان يقومون بمؤنته، ويؤنسون وحشته، ويخففون عنه آلام الغربة وأوجاع الفراق، علاوة على بذلهم أموالهم ليصل إلى مقصوده. وقد قام بهذا الخلق النبيل الأوائل من أهل الإسلام، حيث، كانت دولته تسهر على شئون أبنائها وشئون رعاياها، كما ذكره د. يوسف القرضاوى^(٢)،

(١) انظر العلامة الألوسى «روح المعانى» (٢/ ٧٠)، والحافظ بن كثير «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٢٠٨)، والعلامة ابن عاشور «التحرير والتنوير» (٢/ ١٣١).

(٢) يقول د. يوسف القرضاوى: «إن عناية الإسلام بالمسافرين الغرباء والمنقطعين هى عناية فذة لم يعرف لها نظير في نظام من الأنظمة أو شريعة من الشرائع. وهى لون من ألوان التكامل الاجتماعى فريد في بابه... وفي الواقع العملى نجد ابن سعد يروى لنا أن عمر بن الخطاب ؓ اتخذ في عهده داراً خاصة أطلق عليها «دار الدقيق» وذلك أنه جعل فيها الدقيق والسويق والتمر والزبيب وما يحتاج إليه، يعين به المنقطع به، والضيف ينزل بعمر، ووضع عمر في طريق السبل ما بين مكة والمدينة ما يصلح من ينقطع به، ويحمل من ماء إلى ماء.

وفي عهد خامس الخلفاء الراشدين عمر بن العزيز كتب ابن شهاب الزهرى له السنة في الصدقة فكان منها ابن السبيل حيث يقول: «وسهم ابن السبيل يقسم لكل طريق على قدر من يسلكها ويمر بها من الناس، لكل رجل راحل من ابن السبيل ليس له مأوى ولا أهل يأوى

فكانت الخانات والنُّزل موجودة في كل طريق المسلمين، مفتوحة ليلاً ونهاراً، تستقبل الطارقين، وتأوى النازلين، تستضيفهم، وتزودهم بما يتمكنون به من مواصلة السير وإكمال الرحلة، كل ذلك من بيت المسلمين حقاً لهم مبدولاً بروح المحبة والمودة، بل كذلك يستقبلون ويستضيفون كل أحد ولو كان على غير ملتهم، وانظر حالنا الآن! وحتى لما أن اندثرت تلك المعالم كان واجبا على المسلمين في البوادي وغيرها حق الضيافة لمن مر بهم من هذا شأنه.

ويقول العلامة الألوسي في «روح المعاني»: «ولأنه لما لم يكن بين أبناء السبيل والمعطى تعارف غالباً يهون أمر الإعطاء ويرغب فيه، أفردهم ليهون أمر إعطائهم وليشير إلى أنهم وإن كانوا جمعاً، ما ينبغي أن يُعتبروا كنفسٍ، فلا يُضجر من إعطائهم لعدم معرفتهم، وبُعد منفعتهم»^(١).

﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ : ولما كانت الحرية هدفاً مقدساً من أهداف الإسلام - ليخرج الناس من عبادة الناس لعبادة رب الناس، وليكون الناس أحراراً كما ولدتهم أمهاتهم - كان أن أمر بإيتاء المال على حبه في تخليصهم من رق العبودية المنتشر تلك الأيام، بعد أن أكد بتشريعات كثيرة على فك الرقاب وإعتاقها كالكفارات وغيرها بل بين في تلك الآية الكريمة أن شأن المتقين ومن أحاسن صفاتهم بذلهم محبوب أمواهم في إعتاق الرقاب وتحرير الأسرى بل وفي شراء العبيد وعتقهم وجعلهم أحراراً ابتغاء وجه الله - تعالى، وقد رأينا مثالا لذلك أبا

إليهم فيطعم حتى يجد منزلاً أو يقضى حاجته ويجعل في منازل معلومة على أيدي أمناء، لا يمر بهم ابن سبيل له حاجة إلا آووه وأطعموه وعلفوا دابته حتى ينفد ما بأيديهم إن شاء الله». د. يوسف القرضاوي «فقه الزكاة دراسة مقارنة لأحكامها وفلسفتها في ضوء القرآن والسنة»، طبعة دار الرسالة، ١٤١٢-١٩٩١، (٢/ ٦٧٤-٦٧٥).

(١) العلامة محمود الألوسي «روح المعاني» (٢/ ٧١).

بكر الصديق ﷺ.

﴿ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ متعلق بقوله تعالى: ﴿ ءَاتَى ﴾ أى آتى المال في تخلص الرقاب والرقبة مجاز عن الشخص إذ هى مؤخر أصل العنق وإيراد كلمة ﴿ فِي ﴾ للإيدان بأن ما يعطى لهؤلاء مصروف في تخلصهم لا يملكونه كما في المصارف الأخرى؛ إذ المقصود للشرع هو حصولهم على حريتهم.^(١)

﴿ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ ﴾ : وقد تكررت لأنها أهم صفات المتقين بعد الإيمان إذ منها تخرج الأعمال الصالحة ويكف بها المؤمن عن الأعمال السيئة إذ هى صلة العبد بربه وعبوديته وخضوعه ومظهر استسلامه لأوامره ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥] علاوة على طمأنينته وسكونه وانسراح صدره «وجعلت قرّة عيني في الصلاة» وقد ذكرنا معنى إقامتها في الآية الأولى.

﴿ وَءَاتَى الزَّكَاةَ ﴾ : والزكاة في الإسلام قرينة الصلاة إذ تلك رأس علاقة الإنسان بخالقه والزكاة رأس علاقة المسلم بأخيه، ودليل العدالة الاجتماعية

(١) ذكر أبو حيان سبب اختيار ترتيب الأصناف المذكورين في الآية على هذا النحو الحسن ثم أورد ملخصاً: قال الراغب: اختير هذا الترتيب لما كان أولى من يتفقد الإنسان لمعرفته أقاربه فكان تقديمه أولى، ثم عقبه باليتامى والناس في المكاسب ثلاثة: معيل غير معول، ومعول معيل، ومعول غير معيل. واليتيم معول غير معيل فمواساته بعد الأقارب أولى، ثم ذكر المساكين الذين لا مال لهم حاضراً ولا غائباً، ثم ذكر ابن السبيل الذي يكون له مال غائب، ثم ذكر السائلين الذين منهم صادق وكاذب، ثم ذكر الرقاب الذين لهم أرباب يعولونهم فكل واحد من آخر ذكره أقل فقراً ممن قدم ذكره عليه اهـ، ثم قال: «وأجمع المسلمون على أنه إذا نزل بالمسلمين حاجة وضرورة بعد أداء الزكاة فإنه يجب صرف المال إليها. وقال مالك: «يجب على الناس فك أسراهم وإن استغرق ذلك أموالهم.» انظر أبا حيان، «البحر المحيط»، (١٣٨/٢).

ومصدر السلام الاجتماعى وينبوع تكافل الأمة وتماسكها وعنصر هام من عناصر تطورها ورفقيها. ولقد أتى بها بعد ذكر إيتاء المال على حبه ليبين أن في المال حقا سوى الزكاة،^(١) ولأن من أتى بتلك المكرمات من أنواع البر فلأن يأتي بالزكاة الواجبة أوكد. فجعل ذلك مقدمة لإيتاء الزكاة والحرص عليها إذ تلك شيم المتقين وبهم.

يقول أبو حيان، في «البحر المحيط» - يعقب على هذه الآيات من كلام الحق سبحانه - يبين مناسبة ترتيبها، وكيف ذكر إيتاء المال بعد الإيمان: «وثنى بإيتاء المال لأن ذلك من أثر الأشياء عند العرب ومن مناقبها الجليلة ولهم في ذلك أخبار وأشعار كثيرة يفتخرون بذلك حتى هم يحسنون للقرابة وإن كانوا مسيئين لهم».^(٢)

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بَعَثَهُمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾: وحادى الإيمان لازال يجدونا بصفات المتقين، ويظهر كرم النفوس وسيرها على الجادة ويطهرها من النفاق

(١) الأصح من قول أهل العلم أن في المال حقا سوى الزكاة لحديث فاطمة بنت قيس الذي أخرجه ابن ماجه والترمذى والدارقطنى وإن كان إسناده ليس بذلك ولكن تؤيده الآية الكريمة التي معنا، وذهب الآخرون إلى حديث على ؓ: «نسخت الزكاة كل صدقة» وكذلك هو ضعيف ويرجح القول الأول قوله تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾، وقوله ؓ: «لا يؤمن بالله واليوم الآخر من بات شبعاً وجاره طاو إلى جنبه»، وكذلك احتجوا بالإجماع أنه إذا انتهت الحاجة إلى الضرورة وجب على الناس أن يعطوا مقدار دفع الضرورة وذلك بعد الزكاة.، انظر للإمام محمد بن أحمد القرطبي «الجامع لأحكام القرآن» (٢/ ٢٤١-٢٤٢)، للعلامة محمود الألوسى «روح المعانى» (٢/ ٧١-٧٢)، والإمام الفخر الرازى «التفسير الكبير» (٣/ ١٧)، وابن جرير الطبرى «جامع البيان»، وجار الله محمود الزمخشري «الكشاف» (١/ ١٠٩-١١٠)، وفي المسألة بحث طويل، انظر للدكتور يوسف القرضاوى في «فقه الزكاة»، (٢/ ٩٦٤-٩٩٢).

(٢) انظر أبا حيان «البحر المحيط»، (٢/ ١٣٨-١٣٩).

ومقبوح الأخلاق. «آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان».^(١)

﴿وَالْمُوفُونَ﴾ معطوف على ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ أى البر المؤمنون والموفون وغير أسلوب الوصف فلم يقل: من أوفى للدلالة على مغايرة الوصفين فالأول متعلق بحقوق الله تعالى وأصول الدين. والثانى من حقوق العباد هذا ما ذهب إليه العلامة ابن عاشور.^(٢)

لكن ذهب الفخر الرازى وتبعه جماعة إلى كون الآية عامة تشمل الوفاء بكل الحقوق: حقوق الحق سبحانه، وحقوق الخلق. يقول - رحمه الله تعالى: «واعلم أن هذا العهد يكون بين العبد وبين الله، أو بينه وبين رسول الله ﷺ أو بينه وبين سائر الناس، أما الذي بينه وبين الله فهو ما يلزمه بالنذور والإيمان. وأما الذي بينه وبين رسول الله ﷺ فهو الذي عاهد عليه الرسول ﷺ عند البيعة من القيام بالنصرة والمظاهرة والمجاهدة وموالاته من والاه ومعاداة من عاداه، وأما الذي بينه وبين سائر الناس فقد يكون ذلك من الواجبات مثل ما يلزمه في عقود المعاوضات من التسليم والتسليم وكذا الشرائط التي يلتزمها في السلم والرهن، وقد يكون ذلك من المندوبات مثل الوفاء بالمواعيد في بذل المال والإخلاص في المناصرة.

فقوله تعالى: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ يتناول كل هذه الأقسام فلا معنى لقصر الآية على بعض هذه الأقسام دون بعض وهذا الذي قلناه هو الذي عبر عنه المفسرون فقالوا: هم الذين إذا وعدوا أنجزوا، وإذا

(١) الحديث: «آية المنافق..» رواه البخارى (٢٣)، انظر ابن حجر العسقلانى «فتح البارى»،

(١/٨٩)، ومسلم (١٠٧)، انظر الإمام النووى، «شرح صحيح مسلم»، (١/٣٢٢).

(٢) العلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢/١٣١)

حلفوا ونذروا وفوا، وإذا قالوا صدقوا، وإذا اتتمنوا أدوا»^(١).

وكذلك هم أسرع الناس وفاءً بما عاهدوا لذلك قيده بالظرف ﴿إِذَا﴾ ليدل على عدم تأخيرهم عن الوفاء طرفة عين، وإشارة أخرى في قوله: ﴿إِذَا عَاهَدُوا﴾ أنهم ما يعاهدون إلا وقد تحققوا بأنهم يستطيعون الوفاء بالعهد فإن علموا ألا

يفوا فلا يعاهدوا فكان خلقهم على كل حال من أعظم أخلاق المتقين^(٢).

﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ : وصلنا في صفات المتقين إلى جماعها والتي غيرها لا يتحقق شيء ذا أثر مما سبق من الخلال العظيمة وتلك المكرمات الجليلة.

والصبر عرفه الغزالي في الإحياء^(٣) بأنه ثبات باعت الدين في مقابلة باعث الشهوة. والصبر لغة: حبس النفس عن الجزع^(٤)، وزاد بعضهم: وحبس اللسان عن التشكى، والجوارح عن لطم الحدود وشق الجيوب.

أما أنواع الصبر: فهو على ثلاثة أقسام: صبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها، وصبر عن المناهى والمخالفات حتى لا يقع فيها، وصبر على الأقدار من

(١) التفسير الكبير (٣/٢١-٢٢) ومن تبعه الألوسى في «روح المعانى»، حيث يقول: «والظاهر حمل العهد على ما يشمل حقوق الحق وحقوق الخلق وحذف المعمول يؤذن بذلك»، الألوسى «روح المعانى» (٢/١٧٧).

(٢) انظر العلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير» (٢/١٣١).

(٣) انظر الإمام أبى حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي، «إحياء علوم الدين»، مجلد ٤، (١٢/٢١٧٣).

(٤) انظر الزخشري، «أساس البلاغة» مختار الصحاح مادة «صبر»، لسان العرب «صبر»، (٣/٢). والإمام ابن القيم ابن محمد بن أبى بكر الزرعى الدمشقى (ت ٧٥٩هـ) «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين»: دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة أولى، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، (ص ١٢).

المصائب والآلام حتى لا يتسخطها. ^(١)

أما حكم الصبر فإنه واجب على المؤمن أن يصبر على ما يصيبه، قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]، يقول الحافظ ابن رجب الحنبلي في «جامع العلوم والحكم»: «والصبر واجب على المؤمن حتم، وفي الصبر خير كثير، فإن الله ﷻ أمر به ووعد عليه جزيل الأجر، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يُؤَفِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾» ^(٢).

والشكوى والتسخط والتبرم مما نزل بالمرء ينافي الصبر ولما كان الأصل في الكلام على الصبر منبن على الاختصار حيث المقصود علاقته بالتقوى فنشير فقط إلى مهم من آيات الصبر توضح أهميته، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِعَايَتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، فجعل الإمامة في الدين منوطة بالصبر واليقين، وبشر الصابرين بثلاث، كل منها خير مما عليه أهل الدنيا يتحاسدون، فقال تعالى: ﴿وَكَشِّرَ الصَّابِرِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ ۝ وَهُمْ فِي عِلِّيِّينَ ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْتَخِرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٧٥]، ثم أمر رسوله ﷺ بحكمه، وأخبر أن صبره إنما هو به - سبحانه - وبذلك تهون جميع المصائب، قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۖ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧-١٢٨].

اقتصرنا على هذه المواضع الثلاث من أكثر من نيف وسبعين موضعاً

(١) انظر ابن القيم «الوابل الصيب من الكلم الطيب»، المطبعة السلفية، القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٤٠٠هـ، (ص ٣).

(٢) ابن رجب الحنبلي «جامع العلوم والحكم» (١/٤٨٨).

للصبر^(١) تبين قيمة التقوى عند الكلام على العلاقة بينهما.

أما علاقة التقوى بالصبر فإن دراسة مواضع التقوى توضح أن الصبر من صفات المتقين، ولكن نبادر فنفرد تلك المواضع هنا للنظر فيها، وها هي ذى:

١. قوله تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

٢. قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوْنِيْكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ إلى قوله: ﴿الصَّابِرِينَ

وَالصَّادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٥-١٧].

٣. قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧-١٢٨].

مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٧-١٢٨].

ذكرت الآية الأولى - وهى الآية التى معنا - أن من المتقين أولئك الصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس، يعنى أن من التقوى صبراً مخصوصاً وهو الصبر فى البأساء، أى فى الفقر والشدة، والضراء أى المرض والزمانة، وحين البأس أى حال جهاد العدو، وإذا كان الصبر لاشك أعم من ذلك كما عرفناه، فما وجه مدح المتقين بذلك؟ خاصة والسياق يذكر صفات أخرى كثيرة أهم من ذلك للمتقين، كالإيمان والصلاة، وهى تحتاج لصبر كذلك أعم مما ذكرنا.

والإجابة أن مدح القرآن الكريم لهم على صبرهم فى هذه المواطن فى الشدة والمرض وقتل النفس وفى ملاقات العدو دليل على مدحهم فيما دونه، لأن الصابرين فى مثل ذلك يسهل عليهم الصبر فيما هو أخف من المواطن والأعمال، فمثلهم لا يشق عليه الصبر فى العبادات وبذل الأموال وسائر أعمال الطاعة،

(١) أبو حامد الغزالي «إحياء علوم الدين»، مجلد ٤، (١٢/٢١٧٣).

التقوى في القرآن الكريم

فضلاً عن الصبر في كافة مواطن المعصية، لذلك كانوا داخلين في قوله: ﴿الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فكان اختيار القرآن الكريم للتعبير عن صبرهم بهذه الصفات دقيقاً وبديعاً، ليدل على أن صبرهم أكد في السراء والغنى والصحة وحال السلم والراحة. أى يدل بذلك على أنهم متحققون بالصبر في كافة أحوالهم، وكافة مواطن الصبر.

أما الآية الثانية في سورة آل عمران عند وصف المتقين قال: ﴿الصَّابِرِينَ﴾ وهى من صفات المتقين، ولكن جاء الوصف هنا على إطلاقه، يشمل كل أنواع الصبر، وأن الصبر صار صفة لازمة لهم، وهيئة راسخة فيهم، وأنهم قد بلغوا كذلك الدرجة العليا في تلك الصفة على ما ذهب إليه الزمخشري^(١)، وهذه الآية ستأتى في موضعها فيما بعد.

أما الموضع الأخير فقوله ﷺ: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧-١٢٨].

وظاهر الآية الكريمة أن الله تعالى أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بالصبر، واعلمه أن صبره إنما يكون بعون الله له ومدده إياه، والا لم يستطع، ونهاه عن الحزن على الكفار ولا الضيق من مكرمهم، لأن ذلك من صفات المتقين، الذين فازوا بمعية الله لهم، والتي من مقتضاها حفظهم والدود عنهم، وتأيدهم ونصرهم.

يقول العلامة ابن عاشور في «التحرير والتنوير» في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]:

تعليل للأمر بالاقتصاد على قدر الجرم في العقوبة، وللترغيب في الصبر على

(٢) انظر جار الله الزمخشري «الكشاف»، (١/ ٢٧٨)

الأذى، والعفو عن المعتدين، ولتخصيص النبي ﷺ بالأمر بالصبر، والاستعانة على تحصيله بمعونة الله تعالى، ولصرف الكدر عن نفسه من جراء أعمال الذين لا يؤمنون به. ^(١)

وهذا التعليل السابق دليل على الصبر وما تبعه من صفات المتقين، لذا أتى بجانب التقوى بصلة فعلية ماضية ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ للإشارة إلى لزوم حصولها وتقررها من قبل. ^(٢)

وقد رأينا آيات لعاقبة التقوى المحمودة معطوفة على الصبر، مرتبطة به، وما ذلك إلا لتبين قيمة الصبر من صفات المتقين، وأهميته في ذلك الموضع حتى نص عليه بخصوصه، وهاكم هذه المواضع - وقد جاءت في مواضعها:

١. قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

٢. قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

٣. قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

٤. قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجَرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

وقد ذكرنا التفصيل لهذه المواضع في أماكنها.
فمعظم الفضائل ملاكها إذا الصبر، إذ تنبعث عنه مكارم الأخلاق والمكارم

(١) الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير» (٣٣٨/١٤).

(٢) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير» (٣٣٨/١٤).

راجعة إلى قوة الإرادة وكبح جماح النفس في الاسترسال مع شهواتها بإرجاع القوتين الشهوية والغضبية عما لا يفيد كمالاً أو عما يورث نقصاناً فكان الصبر ملاك الفضائل في التحلم والتكرم والتعلم والتقوى والشجاعة والعدل والعمل في الأرض ونحوها إلا من ضروب الصبر. ومما يؤثر عن علي عليه السلام: «الشجاعة صبر ساعة».

وإذا رجعنا إلى الآية نستوضح هديها ونستجلي معانيها نرى عند أول تأمل: نصيب الصابرين بالمخالفة للمعطوفات قبلها بما يوحى بمزيتها والاهتمام بها وذلك من عادة العرب في كلامها تخالف في مثل ذلك للاختصاص بالمدح أو الذم والسياق هو الذي يحدد. والمعنى: وأخص بالمدح الصابرين.^(١)

فبينت الآية الكريمة أن المتقين في أعلى درجات الصبر وأنه ملازم لهم لذلك اختصهم بالثناء والمدح في نفس الوقت الذي بين فيه قيمة صبرهم وعلو مرتبتهم. فكان المدح والثناء داعياً أهل الإيمان لتفقد صبرهم في تلك المواطن وحضاً لهم على التخلق بتلك الأخلاق والتشبث بكل الصفات وبترويض النفس عليها رجاء تحصيل مكارم الأخلاق، فكانت الآية دقيقة في اختيار صفات بعيدة عن السياق لتدل على صفات السياق من باب الأولى.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (١١٠) : صح لأولئك السابقين أن يشار إليهم بالصدق وأن يوصفوا به، والصدق يشمل الصدق في القول والصدق في الأحوال فالصدق في القول مقابل الكذب أى طابقت أقوالهم ما انطوت عليه قلوبهم من الإيمان والخير فإذا أخبروا بشيء كان صدقاً

(١) راجع جار الله محمود الزمخشري «الكشاف»، (١/١١٠). والإمام الفخر الرازي «التفسير الكبير»، (٣/٢٢). والعلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير» (١/١٣٣)، (٢/١٣).

لا يتطرق إليه الكذب وهو مثل قوله ﷺ: «لا يزال الرجل يصدق حتى يكتب عند الله صديقاً» والصدق في الحال مقابل الرياء فعملوا أفعالهم لله تعالى لا رياء فيها ولا سمعة، قصدوا بها وجه الله تعالى وكانوا عند الظن بهم^(١).
يقول أبو حيان: «وقد أخبر عن أولئك الأولى بالماضي ﴿الَّذِينَ صَدَقُوا﴾^ع لتحقق اتصافهم به وأن ذلك وقع منهم وثبت واستقر. وأخبر عن أولئك الثاني بموصول صلته اسم الفاعل ﴿الْمُتَّقُونَ﴾ ليدل ذلك على الثبوت وأن ذلك وصف لهم لا يتجدد بل صاشر سجية ووصفاً لازماً»^(٢).

الموضع الثالث من صفات المتقين في قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوْنِتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾^{١٥} الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ^{١٦} الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَنِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ^{١٧}
[آل عمران: ١٥-١٧].

وإذا كان للشهوات المزينة من النساء والأولاد وأنواع الأموال والمتاع المختلف في هذه الحياة الدنيا بريقها الجذاب وسحرها الأخاذ، الذي يجعل الناس يلهثون في تحصيلها ويقتتلون على حوزها وجمعها، ولا يبالون بأى وسيلة يركبون في الازدياد منها، مع علم العقلاء بل قل علمهم هم بقلة هذا المتاع مهما جمعوا، وبقصر وقت الاستمتاع به مهما عاشوا فيها وعملوا، وأنهم سرعان ما يتركونها

-
- (١) انظر أبا حيان محمد بن يوسف الأندلسي «البحر المحيط»، (٢/١٤١-١٤٢). وأما الحديث «ولا يزال الرجل يصدق..» فقد رواه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧).
(٢) انظر أبا حيان محمد بن يوسف الأندلسي «البحر المحيط»، (٢/١٤٢). والعلامة محمود الألوسي «روح المعاني»، (٢/٧٢).

التقوى في القرآن الكريم

إلى مثواهم الأخير بغير أهل ولا ولد أيضاً. إذا كان ذلك كذلك فإن للمتقين شأنًا آخر، شأن من لم تلهه الدنيا عن الآخرة، شأن من لم يشغله الحطام الفانى عن تحصيل الزاد الباقى.

وقبل أن يذكر المولى صفات المتقين أولئك في هذه الآيات الجديدة، أمر النبى ﷺ أن يخبر الناس بصيغة الاستفهام عن جزاء المتقين، وما أعد لهم أولاً بهذه الصيغة المشوقة للناس لهذا الجزاء العظيم من الجنات والأزواج المطهرة، وأعلى ذلك كله رضوان الله الذي لا يسخط عليهم بعده أبداً، حتى يحثهم على السؤال عن صفاتهم ليتخلقوا بها، وعن أحوالهم المرضية ليسيروا عليها، وأشار إلى شىء آخر أن ما ذكر من حسن جزائهم خير مما ذكر من قبل بلا شك من ملذات الدنيا، وهى كقوله سبحانه: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٧]، خير مما هو كائن في الدنيا من أنواع النعيم كما قال الرسول ﷺ فيما يرويه عن ربه: قال الله تعالى: «أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»^(١)، حتى يعظموا هذا النعيم ويعملوا له ويستصغروا في جنبه كل نعيم فلا يلهيهم عنه.

وحينئذ يبحثون عن صفات أصحاب النعيم المقيم والسرور الدائم، فيقال لهم في هذه الآية الكريمة أول صفاتهم الإيمان.

ونلاحظ بمقارنة ما ورد عن الإيمان هنا بالآيتين من قبل، نرى في الأولى الإيمان بالغيب والإيمان بالآخرة، والثانية الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله

(١) الحديث رواه البخارى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه (٣٢٤٤)، وانظر الحافظ بن حجر العسقلانى «فتح البارى»، مجلد ٦ (ص ٣١٨) وما بعدها، ورواه مسلم من حديث أبى هريرة أيضاً (٢٨٢٤)، وانظر شرح أبى زكريا النووى على مسلم، مجلد ٩، (ص ١٨٢) وما بعدها.

واليوم الآخر. والأولى في المضارع والثانية في الماضي ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ...﴾ أما هنا فقد جاء التعبير بقولهم: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا ءَامَنَّا...﴾ مطلقة هكذا عامة تشمل الإيمان بكل مواضع الإيمان فكأنهم يقولون ربنا إننا آمنّا بكل تأكيد ويقين، بكل ما أمرتنا أن نؤمن به.

ونرى دوام لهجهم بذلك من المضارع ﴿يَقُولُونَ﴾ كأنهم لا يفترون عن هذا القول، ولا يملون من ترديده مؤكدين ذلك بالنداء، وإنّ المفيدة لتوكيد هذا الإيمان.

وهم يرفعون أيديهم بذلك ضارعين إلى مولاهم وربهم كأنهم يتلون الآية الأخرى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣].

ونحس من ندائهم بهذا الإيمان المطلق الاستسلام التام منهم لربهم جل وعلا فيما أمرهم به، فكان مناسباً في هذه الآية الكريمة أن يدعوا ربهم بعدما استجابوا له أن يستجيب لهم، فكان دعاؤهم بالمغفرة والنجاة من النار أنسب الأدعية بعد الإيمان ﴿إِنَّا ءَامَنَّا فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ لذلك يتضرعون إلى الله ﷻ وهم ينسبون ويضيفون أنفسهم إلى ربهم ﴿رَبَّنَا﴾ تحنناً واستعطافاً أن يغفر لهم ويقيهم عذاب النار، إذ تلك رحمته وذلك فوزهم ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وننظر في الآيات:

فقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ مازال فيه معنى وهو أنه ليس قولاً باللسان وإنما إخبار عن واقع صحيح لهذا الإيمان يستدعى الأخذ بالأسباب الداعية لطلب المغفرة والنجاة من النار. يقول العلامة بن عاشور: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ عطف بيان للذين اتقوا. وصفهم بالتقوى وبالتوجه إلى الله تعالى بطلب المغفرة. ومعنى القول هنا الكلام المطابق للواقع في الخبر، والجاري على

فرط الرغبة في الدعاء في قولهم: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ ... إلخ، وإنما يجري كذلك إذا سعى الداعي في وسائل الإجابة وترقبها بأسبابها التي ترشد إليها التقوى، فلا يجازى هذا الجزاء من قال ذلك بفمه»^(١).

ويؤيد هذا القول ما ذكر من صفاتهم بعد ذلك الصابرين والصادقين... إلى آخره. إذ تلك الصفات تؤكد تحققهم وليس تلفظهم فقط بهذا القول.

زادت صفات المتقين هنا عن الآيتين السابقتين صفات، الأولى: الدعاء بالمغفرة والوقاية من النار، والثانية: القنوت، والثالثة: الاستغفار بالأسحار. أما الأولى فهي أنهم دائمو الدعاء إلى الله تعالى أن يغفر لهم، وأن يقيهم عذاب النار، وتلك من أهم صفات المتقين التي تبين خوفهم من لقاء ربهم، الخوف المحمود، الذي يلزم الأخذ بالأسباب ليتحقق الدعاء، ويبين دعاؤهم كذلك عبوديتهم لربهم ودوام صلتهم به سبحانه مع لزوم الخشية والتضرع وطول الوقوف بباب الله تعالى لا تغرهم عبادتهم عن خوفهم من العاقبة والمصير، بحيث يظنون ناظرين إلى فضل الله ورحمته لا إلى أعمالهم وهو مصداق قول الرسول ﷺ: «واعلموا أنه لن ينجى أحداً منكم عمله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»^(٢).

ويحتمل كذلك هذا الدعاء المبارك بالنجاة من النار طلب الجنة من الله تعالى إذ هو تمام المراد وأعلى المقاصد وهو ما يدندن حوله المتقون في كل تصرفاتهم ظاهراً وباطناً داعين به في كل حين. يقول الإمام القرطبي: «ويحتمل أن يكون

(١) العلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير» (٤/ ١٨٤-١٨٥).

(٢) رواه البخاري في كتاب «الرقائق»، (٦٤٦٧). وانظر الحافظ بن حجر العسقلاني «فتح الباري»، مجلد ١١، (ص ٢٩٤). ومسلم (٢٨١٦) كتاب «المنافقين». وانظر النووي «شرح صحيح مسلم» (٩/ ١٧٤) وما بعدها.

دعاءً مؤكداً لطلب دخول الجنة، لتكون الرغبة في معنى النجاة والفوز من الطرفين، وهو كما قال بعض أصحاب النبي ﷺ عندما سأله ﷺ: كيف تقول في صلاتك؟ قال: أتشهد وأقول: اللهم إني أسألك الجنة وأعوذ بك من النار، أما أني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ، فقال ﷺ: «حولها ندندن»^(١)، رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه.

جاءت بعد ذلك الصفات الطيبات التي يزدان بها سلوك المتقين ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَنِيتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾، وجاءت باسم الفاعل مع العطف لتدل على أن هذا المعنى صار عاداتهم وخلقهم وأنهم لا ينفكون عنها وبذلك كان التعبير به أكمل من قوله الذين يصبرون ويصدقون... إلخ^(٢)، لأن يصبرون تفيد التكرار فقط، أما اسم الفاعل كونها صارت عادة لهم وسجية فيهم.

أما العطف فللزمخشرى - وتبعه جمع - رأى في أن عطف النصفات الأصل فيها ترك الواو، لأنها لذات واحدة فإذا عطف بالواو كانت كل صفة كأنها ذات مستقلة، ولا يعدل إليها البليغ إلا لنكتة، وهى كون المرء قد بلغ الكمال في هذه الصفة ومعنى ذلك أن المتقين قد بلغوا الكمال في هذه الصفات التي اتصفوا بها لهذا كان التعبير بهذه الصيغة أبلغ^(٣).

(١) الإمام محمد بن أحمد القرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، (٤/٣٨).

(٢) انظر الرازى «التفسير الكبير»، (٤/١٢٩).

(٣) انظر جار الله محمود الزمخشرى «الكشاف»، (١/١٣٨). والعلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (١/٣٣٩)، وزاد: أو لتغاير الموصوفين. والإمام الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٤/١٣)، وقال: «كل من كان معه واحد من هذه الخصال دخل تحت المدح». وأبى البركات النسفى «مدارك التنزيل»، (١/١٦). واعترض أبو حيان قول الزمخشرى ومن تبعه بقوله: «ولا نعلم العطف في الصفة بالواو يدل على الكمال،

التقوى في القرآن الكريم

أما مقارنة الصبر بما ورد قبل ذلك فهنا ذكر الصابرين كما ذكرنا مطلقاً أى الصابرون على كل ما يكون الصبر فيه مدحاً وكمالاً وهو أشمل من قوله: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ إذ الصابرون يشمل صبرهم على الطاعة وصبرهم عن المعصية كذلك.

وقد وردت هنا كلمة ﴿الْمُنْفِقِينَ﴾، وفي الآية الأولى ﴿يُنْفِقُونَ﴾، وفي الثانية ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾، فكانت ﴿الْمُنْفِقِينَ﴾ هنا كذلك شاملة لكل وجوه الإنفاق من واجب ومستحب، فيدخل في ذلك إنفاق المرء على نفسه وأهله وأقاربه وصلة رحمه وفي الزكاة والجهد وسائر وجوه البر^(١)، مع كون الإنفاق صار سجية لهم.

وجدنا بذلك حسن التعبيرات القرآنية واتساقها في كل موضع لتحمل تلك المعاني المضیئة.

وأما الصفة الثانية في الآية ولم تذكر في الآيتين من قبل وزادتنا علماً بصفة جديدة من صفات المتقين فهي القنوت^(٢)، والقنوت كما يقول ابن عطية - رحمه

«البحر المحيط»، (٥٨/٣)، وإليه مال الطاهر بن عاشور حيث يقول: «ولا أحسب لهذا الكلام تسليماً»، ونبه كذلك على أن الزمخشري قد أحال على تفسير آية البقرة حيث ذكر ذلك هنا، ولم يذكر هنالك شيئاً. العلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٨٥/٤).

(١) الإمام الفخر الرازي «التفسير الكبير»، (١٢٨/١). ولما كان ذكرهم على سبيل المدح دل كذلك على أنهم متفوقون للمال على حبه لا يتركون باباً يجب أن ينفق فيه لله إلا أنفقوا.

(٢) يقول أبو حيان في «البحر المحيط»، (٥٨/٣): «وقالوا في القانتين: الحافظين للغيب. وقال الزجاج: «القائمين على العبادة. وقيل: القائمين بالحق. وقيل: الداعين المتضرعين. وقيل: الخاشعين. وقيل: المصلين».

الله: «الطاعة والدعاء وبكل ذلك يتصف المتقي»^(١) وبالجمله فهى كما يقول الفخر الرازى: «عبارة عن الدوام على العبادة والمواظبة عليها»^(٢) وكل ذلك حق فى القنوت. فأهل التقوى لا شك وصلوا بتقواهم إلى ذلك وإلا لما سموا متقين فخصوعهم لربهم ودوام صلتهم به سجية وخصلة فيهم غير منفكين عنها ارتباطاً بربهم ومحبة له طالما أرواحهم فى أجسادهم كما قال الحق: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

والصفة الثالثة المزيده عما قبل من صفات المتقين هى الاستغفار بالأسحار و«الاستغفار» طلب المغفرة من المولى الكريم الغفار سبحانه. و«السحر» الثلث الأخير من الليل. فالتقوى دائمو الاستغفار يلحون على ربهم فى أن يغفر لهم وليس ذلك حال كونهم متصفين بالمعاصى قائمين عليها، وإنما رغم اتصافهم بهذه الأوصاف الشريفة المتقدمة، لا يرون اتصافهم بهذه الصفات مما يسقط عنهم طلب المغفرة. ولا يسقط عنهم استغفارهم فى كل وقت كما ورد عن الرسول ﷺ، وإنما خص السحر بالذكر وإن كانوا مستغفرين دائماً، لأنه مظنة الإجابة حيث صح فى الحديث عن النبى ﷺ أنه قال: «ينزل ربنا ﷻ كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى الثلث الليل الآخر فيقول: من يدعونى فأستجيب له؟ من يسألنى فأعطيه؟ من يستغفرنى فأغفر له؟ فلا يزال كذلك حتى يطلع الفجر»^(٣).

(١) انظر أبى محمد عبد الحق بن غالب بن عطية «المحرر الوجيز»، (١/٤١١).

(٢) انظر الإمام الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٤/١٢٨).

(٣) انظر أبا حيان الأندلسى «البحر المحيط»، (٣/٥٧-٥٨). وابن عطية «المحرر الوجيز»،

(١/٤١١). والحافظ إسماعيل بن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (١/٣٥٣). والعلامة

محمود الألوسى «روح المعانى»، (٣/١٦٥-١٦٦). والحديث أخرجه البخارى

(١١٤٥). وانظر ابن حجر العسقلانى «فتح البارى»، مجلد ٣ (ص ٢٩). ورواه مسلم

رقم (٧٥٨) (١٧٠) و (١٧٢) فى «صلاة المسافرين».

أشرقت الآية الكريمة بحرص أهل التقوى على التعرض لهذا العطاء الرباني المتجدد في كل ليلة، وأنه ديدن كبار الصحابة والتابعين لهم بإحسان رضوان الله عليهم تأسيساً بسيدنا محمد ﷺ في حضور هذه النفحات القدسية الغامرة بمعاني القرب والأنس بالله تعالى في هذه الساعات من ساعات الصفاء، والتي تكون العبادة فيها أشق إذ إغفاءة الفجر ألد النوم، فإذا ما قام المرء لربه في هذا الوقت تكون النفس أصفى والبدن أقل تعباً والذهن أرق، وذلك دليل محبتهم لربهم وتقديمها على راحتهم، ولا جرم أنهم يقدمون بين يدي استغفارهم قيامهم الطويل لله تعالى يناجون ربهم ويتلون آياته ويتضرعون له، كما قال تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات: ١٧-١٨].

قال الزمخشري: «لأنهم كانوا يقدمون قيام الليل فيحسن طلب الحاجة بعده ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾»^(١). إن وقوفهم بباب الله في السحر دليل من أكبر الأدلة على اهتمامهم بأمر آخرتهم، وعلى إدراكهم أثر الاستغفار في زيادة قوة الإيمان وكمال العبودية، حيث يهتم الكثير براحة بدنه وشهواته في هذا الوقت، وهم في واد والمتقون يستقون من معين الرحمة ونفحات القدس حيث العبادة أشد إخلاصاً ومكابدة^(٢)، وحيث ربهم أقرب إليهم، وجوده أغدق عليهم. وهكذا شاركت الآية الثالثة في إضافة صفه للمتقين، ولنا عود إلى مثله.

(١) انظر الزمخشري «الكشاف»، (١٧٨/١)، والآية من سورة فاطر: آية (١٠).

(٢) وانظر الإمام الفخر الرازي «التفسير الكبير»، (١٢٩/٤)، والعلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٨٥/٤)، ود. محمد أديب الصالح «التقوى»، (٥٦٦/٢).

وأما الموضع الرابع فهو قوله تعالى:

﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [١٣٣] الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَنَظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ [١٣٤] وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ [١٣٥] أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ [١٣٦] ﴿ [آل عمران: ١٣٣-١٣٦]:

ما زال القرآن الكريم يستحث الهمم للتخلق بصفات المتقين. فإذا كانت الآية السابقة قد بينت بعض صفات المتقين، مقدمة لهذه الصفات بأنواع النعيم الجسدي، والروحي الذي أعده عنده - سبحانه - لهم، مسوقاً في صيغة الاستفهام، ﴿ قُلْ أُوْنِيْكُمْ ﴾ المشوقة لهذا النعيم، ليكون دافعاً للناس، وملهماً لهم للاتصاف بهذه الأخلاق، فإنه سبحانه في هذه الآية الكريمة التي معنا أمر الناس بالمسارعة إلى هذا الثواب العظيم بصيغة الأمر التي لا تحتمل إلا الطاعة والاستجابة، بل والمسابقة والمبادرة إليه، التي تتضمن في نفس الوقت التحذير من مغبة مخالفة هذا الأمر، إذ في مخالفة أمر الله تعالى سخطه وعذابه. وعدم المسارعة إلى الاتصاف بصفات المتقين مخالفة لأمره، وبالتالي التعرض لعذابه، لأنه إعراض عن سبيل الجنة التي هي مستقر رحمته - جل وعلا.

وقد عرضت الآية السابقة ثواب الله تعالى متمثلاً في الجنات، والأزواج المطهرة، والرضوان الأكبر من الله تعالى، أما هذه الآية فذكرت أن الجزاء الذي يجب المسارعة إليه هو المغفرة والجنة، هكذا مجملاً، وبالنظر فيه، نجد أن المغفرة أحد أسباب دخول الجنة، وأن الجنة هي مستقر رحمة الله - جل وعلا، التي فيها يكرم عباده المتقين بكافة أنواع النعيم، بما في ذلك الأزواج المطهرة، الممثلة لغاية

التقوى في القرآن الكريم

السعادة الحسية، ورضوان الله الذي هو نهاية نعيم الروح وسعادتها. فكان الإجمال في الآية الكريمة التي معنا متناسباً مع صيغة الأمر، وكان تفصيل النعيم في الآية السابقة متناسباً مع صيغة الاستفهام ﴿قُلْ أَوْفُوا بِوَعْدِي﴾ من ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ﴿كذا، وكذا، وكذا مما أعد الله تعالى. مما يبين دقة التعبير القرآني، وجماله، مع حسن التأثير الذي يحمل النفس على الاستجابة له، والتفاعل معه بسبب تنوع الأساليب، وتعدد المعاني.^(١) ونستكمل مقارنة الآيات:

(١) وتنكير مغفرة ووصلها بقوله: «من ربكم»، مع تأتى الإضافة بأن يقال مغفرة ربكم، لقصد الدلالة على التعظيم. أى المغفرة العظيمة المتناهية في العظم، فحسن حينئذ أن تطلب بالمسارعة. والمسارعة وإن كانت بصيغة المفاعلة من الجانبين، إلا أنها جاءت مجردة من ذلك، أى مطلوبة من جانب واحد، للمبالغة في طلب الإسراع، والتأكيد عليه. انظر الإمام فخر الدين الرازي «التفسير الكبير»، (٤/٤٥٣). والعلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٤/٨٩)، وذلك ما يؤكد قيمة التقوى، وأهمية الاتصاف بصفات المتقين، والإسراع المؤكد لتحقيق ذلك، خاصة وأن الإسراع المطلوب مجاز في الحرص والمنافسة، الذي يجب أن يكون عادة المؤمنين، وشأن عباد الله المخلصين. ويمكن أن تكون السرعة هنا حقيقة، وهى سرعة الخروج إلى الجهاد عند النفير، كقوله ﷺ في الحديث: «وإذا استنفرتم فانفروا». والمسارعة بعد ذلك على كل التقادير تتعلق بأسباب المغفرة، لا بذاتها. فعندنا مرة أخرى إلى المسارعة إلى التقوى بتعريفها الذي ذكرناه.

ملحوظة: وردت ﴿وَسَارِعُوا﴾ بإثبات الواو وبحذفها في القراءات القرآنية، فتكون بإثبات الواو عطفاً على ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ﴿وَسَارِعُوا﴾، على تأويل المسارعة إلى المغفرة والجنة بالمسارعة إلى أسبابها، وهى طاعة الله ورسوله ... إلخ. وبحذف الواو، تنزل جملة ﴿وَسَارِعُوا﴾ منزلة البيان، أو بدل الاشتغال لجملة ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾، لأن طاعة الله ورسوله مسارعة إلى المغفرة والجنة فلذلك فصلت. انظر العلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٤/٨٨).

فلاحظ هنا عدم التصريح بذكر الإيمان في صفات المتقين، كما جاء مصرحاً به في الآيات السابقة، والظاهر أنه قد استغنى عن ذكره بذكر المسارعة إلى الجنة والمغفرة، لأنه لا يعمل لذلك فضلاً عن المسارعة إليه إلا خيار أهل الإيمان، الذين امتلأت قلوبهم منه، إلى درجة المسارعة إلى الفوز بنعيم الله - جل وعلا - ورضائه.

ونلاحظ كذلك أن الصفات التي أجريت على المتقين تنوياً وثناءً، ليست جماع التقوى، ولكن اجتماعها مؤذن بأن هؤلاء قد استكملوا ما به التقوى، لأن هذه الصفات من الإنفاق في السراء والضراء، وكظم الغيظ ... إلى آخره، إذا تحققت في شخص فمن باب الأولى أن تكون قد سبقتها صفات التقوى الأصلية، والتي هي الأساس لمثل هذه الأخلاق، والباعث عليها.

ثم رأينا أن أول صفة من صفات المتقين هنا هي الإنفاق وقد تقدم غير مرة ولكن بتعبيرات مختلفة: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾، ﴿وَأَتَى آلَ مَالٍ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾، ﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾ وقد ذكرناها في مواضعها، وفي نفس الوقت لم تكن مذكورة كهنا أول صفة.

وننظر أولاً في كونها جاءت بهذا التعبير، وهو قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾، أي إن هؤلاء المتقين مداومون على الإنفاق في حالتي الاتصاف بالفرح والحزن، والرخاء واليسر، وحال الضيق والعسر، فلا يخلون في كلتا الحالتين من الإنفاق بما قدروا عليه كثيراً كان أو قليلاً، أو أنهم ينفقون في جميع أحوالهم، لأنها لا تخلو من حال مسرة ومضرة، لا تمنعهم حال فرح وسرور، ولا حال محنة وبلاء من المعروف، وسواء عليهم كان الواحد منهم في عرس، أو في حبس فإنه لا يدع الإحسان، وكأن الجمع بينهما أن السراء فيها ملهاة عن الفكر في شأن غيرهم، والضراء فيها ملهاة وقلة موجدة، منكباً فيها

التقوى في القرآن الكريم

على نفسه، ما يحتاجه البيت يحرم على المسجد^(١)، فملازمة الإنفاق في هذين الحالين تدل على أن محبة نفع الغير بالمال، الذي هو عزيز على النفس، قد صارت لهم خلقاً لا يجبرهم عنه حاجب، ولا ينشأ ذلك إلا عن نفس طاهرة.^(٢) وأما كون صفة الإنفاق قد ذكرت هنا أولاً، فقد ذكر الزمخشري ومن تبعه سبب ذلك فقال: «وافتح بذكر الإنفاق لأنه أشق على النفس، وأدله على الإخلاص، ولأنه كان في ذلك الوقت أعظم الأعمال للحاجة إليه في مجاهدة العدو ومواساة فقراء المسلمين».^(٣) وفي هذا الكلام من الزمخشري نظر، لأنه لو كان كذلك لافتتح بذكر الإنفاق في الآيات السابقة، لأن العلة في تقديمه المشقة على النفس، والدلالة على الإخلاص، ومواساة الفقراء، كل ذلك كان موجوداً لم يتخلف في أى وقت، والآيات الأولى كان الإيمان مذكوراً فيها وهو الأحق بالتقديم، لأنه الأصل في قبول هذه الأعمال. ولعله يقصد هذا السياق بالذات، ولكن السياق يعكس على هذا التعليل.

وهناك تعليل آخر لتقديم الإنفاق على بقية الأوصاف وهو سياق الآيات

(١) قال ابن الجوزي: «ومعنى الآية: أنهم رغبوا في معاملة الله، فلم يبطروهم الرخاء، فينسيهم، ولم تمنعهم الضراء فييخلوا». جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي «زاد المسير في التفسير»، (١/ ٤٦٠).

(٢) انظر جار الله الزمخشري «الكشاف»، (١/ ٢١٧). والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٤/ ٩١). والفخر الرازي «التفسير الكبير»، (١/ ٤٥٦). وذكر كما سبقه الزمخشري عن بعض السلف: أنه ربما تصدق ببصلة أو روى عن عائشة - رضي الله عنها - أنها تصدقت بحبة عنب.

(٣) انظر جار الله الزمخشري «الكشاف»، (١/ ٢١٧). وأبا حيان محمد بن يوسف «البحر المحيط»، (٣/ ٣٤٧). وذكر بنصه لأبي البركات النسفي «مدارك التنزيل وحقائق التأويل»، (١/ ١٤٢).

قبل هذه الآية ذلك أن الله - جل وعلا - نهى المؤمنين عن أكل الربا بقوله: ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ إلى قوله: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾، ثم قوله - جل اسمه: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾، فأمر - سبحانه - بالحد من النار التي أعدت للكافرين، والمساورة إلى الجنة التي أعدت للمتقين. وكان من صفات أهل النار أكل الربا الذي يدل على الحرص والشح، واستغلال حاجة الآخرين، وامتصاص دمهم بغير رحمة ولا شفقة، الأمر الذي يصل إلى تدميرهم وخراب بيوتهم. وكان من صفات المتقين الإنفاق في السراء والضراء، وكأنه نعى على آكل الربا الذين ينهبون أموال الناس في الضراء، وهم - أى آكل الربا - ميسورون يزدادون غنى على حسب هؤلاء المضرورين، أما المضرورون المتقون فهم ينفقون ويبدلون لله تعالى فهذه صورة جميلة، وتلك صورة في نهاية القبح.

كانت المقابلة إذن بين آكل الربا، والمنفقين في السراء والضراء كما أشرنا السبب في تقديم الإنفاق، على عادة القرآن الكريم في المقابلة لיתمايز العمل، والتقدير والنتيجة.

لم أر لمن قرأت من المتقدمين الالتفات إلى هذا المعنى، حتى رأيت الأستاذ سيد قطب أشار إليه رحمه الله سريعاً في الكلام على الآية بقوله: «فبعد النهى عن أكل الربا والتحذير من النار التي أعدت للكافرين، والدعوة إلى التقوى رجاء الرحمة والفلاح، بعد هذا يجيء الأمر بالمساورة إلى المغفرة، وإلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، ثم يكون الوصف الأول للمتقين هو: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ فهم الفريق المقابل للذين يأكلون الربا أضعافاً مضاعفة، ثم تجيء بقية الصفات والسمات»^(١).

(١) انظر سيد قطب «ظلال القرآن»، (١/٤٧٤). وفي «التفسير الوسيط» بإشراف مجمع

التقوى في القرآن الكريم

وإذا كان القرآن الكريم قد أثنى على المتقين بإنفاقهم في كل الأحوال كما رأينا، فقد أثنى عليهم كذلك بأنهم ينفقون كل شيء يصلح للإنفاق، وهو ما يدل عليه حذف مفعول ينفقون. فلو قيل ماذا ينفقون في السراء والضراء؟ لكان الجواب ينفقون كل شيء، وما يدفع النفس إلى الإنفاق في كل حال وبكل شيء إلا دافع أقوى من شهوة المال، وربقة الحرص، وثقله الشح، دافع التقوى. ذلك الشعور العميق الذي تشف به الروح، وتخلص، وتنطلق من القيود والأغلال.^(١)

وكان الصحابة - رضى الله عنهم - المثل الأعلى، فقال: ﴿يُؤَثِّرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، قدوتهم في ذلك صاحب الخلق العظيم، سيدنا رسول الله ﷺ، حيث وصفه بهذا كل من عرفه معرفة مشاهدة ومعانية، أو معرفة شهرة ومطالعة. فقد قال جابر ؓ: «ما سئل النبي ﷺ شيئاً فقال: لا»، بل كان يعطى أو يعد بالعطاء، وكان أجود بالخير من الريح المرسلة، على عادة العرب في ضرب المثل بها.^(٢)

﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾: وهى صفة جديدة تضاف إلى صفاتهم، تمدنا بها الآيات، حيث لم تذكر من قبل، وهى سمة في غاية الأهمية، بها تظهر إرادة النفس وقوتها، في كبح جماح القوة الغضبية. إذ هى أصعب قوى النفس وأشدّها، لأن أثرها يظهر في الانتقام والعدوان، أو يخفى ويكتم في الضغن والحقد، والثانى شر

البحوث الإسلامية، (٢/٦٥٨)، إشارة إلى ذلك بقوله: «ولأن النهى عن الربا يستدعى بديلاً عنه. ولذلك يقترن النهى عن الربا - في القرآن - بالحث عن الصدقة».

(١) وانظر كذلك العلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (١/٤١٦).

(٢) وحذفنا ما كنا ذكرنا من آيات كرمه ﷺ وثوقاً بمعرفة القارئ.

من الأول وأسوأ.^(١)

وكظم الغيظ: إمساكه حتى لا يظهر عليه، مأخوذ من كظم القربة إذا ملأها وأمسك فمها. قال المبرد: «فهو تمثيل للإمساك مع الامتلاء».^(٢) أى أن المتقين أخذوا بحظ وافر من هذا الخلق الجميل، إذ قد امتلأت صدورهم غيظاً يريد التنفيس والانتقام مع قدرتهم على إنفاذه، ولكنهم أمسكوا وصبروا ووقفوا عند حدود الله تعالى، يرجون ما أعد الله - جل وعلا - من ثواب على ذلك. وإن دل ذلك على شيء دل على عزيمة راسخة في النفس، من تقوى الله تعالى، وخشية غضبه وخوف انتقامه، وهو من أكبر قوى الأخلاق الفاضلة. ويروى عنه ﷺ: «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً». وعن عائشة - رضى الله عنها - أن خادماً لها غافلها فقالت: «لله در التقوى ما تركت لذى غيظ شفاء». وروى عنه ﷺ: «ما من جرعة يتجرعها العبد خير له وأعظم أجراً من جرعة غيظ في الله».^(٣)

(١) ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ معطوف على الموصول الذين ينفقون، وعدل عن العطف بالفعل يكظمون ويعفون إلى اسم الفاعل مع أنه السياق للدلالة على الاستمرار وأن الكظم والعفو صارت حالة لا تفارقهم كأنها خلق وسجية متأصلة فيهم، وأما الإنفاق لما كان أمراً متجدداً عبر عنه بما يفيد الحدوث والتجدد والتكرار. بتصرف من: العلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (١/٤١٦).

(٢) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٤/٩١).

(٣) انظر ابن جرير الطبري «جامع البيان»، (٤/٥٩). وقد ذكرت حديث «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه... الخ» مع ضعفه كما سنين لاتفاق معظم المفسرين على إirاده وعلى تلك المعانى كما ذكر ابن جرير من قبل وكذا الزخشرى «الكشاف»، (١/٢١٧). والفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٤/٤٥٧). والبيضاوى «أنوار التنزيل»، (٢/٩٣). والألوسى «روح المعانى»، (٤/٩٢). وأبو حيان الأندلسى «البحر المحيط»، (٣/٣٤٧). و صديق حسن خان «فتح البيان» (٢/١٣٢)، ولكن أورده برواية

التقوى في القرآن الكريم

﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ : وهى الصفة الثالثة في هذا السياق من صفات المتقين، وهى كسابقتها صفة جديدة تضاف إلى جملة صفات المتقين، لتزداد تلك الصورة للتقوى وضوحاً حتى تكتمل هذه اللوحة المضيئة لهم.

وكظم الغيظ وإن كان من أعظم الأخلاق - كما أشرنا - إلا أنه المرحلة الأولى^(١) التي تكمل بالعفو، لذلك يستمر النص الكريم ليقرر النهاية الطليقة لذلك الغيظ العظيم في نفوس المتقين، إنها العفو والسحابة والانطلاق.

﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ أى المتجاوزين عن عقوبة من استحقوا العقاب

الترمذى وأبى داود هكذا: «من كظم غيظاً وهو يستطيع أن ينفذه، دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يخيره في أى الحور شاء». وغيرهم من المفسرين. أما الحديث السابق فقد ذكره ابن الجوزى في العلل المتناهية (١٣٢/٢)، والعقيلي في الضعفاء (١٠٣/٣)، وذكره في كنز العمال المتقى الهندى رقم (٥٨٢٢) وعزاه لابن أبى الدنيا في ذم الغضب من حديث أبى هريرة. وانظرها من البيضاوى (٩٣/٢).

(١) يقول الأستاذ سيد قطب: «وهى وحدها لا تكفى، فقد يكظم الإنسان غيظه ليحقد ويضعن، فيتحول الغيظ إلى أحنة غائرة..» إلى آخر ما قال. وهذا كلام فيه نظر، مع أنه يبدو مقبولاً لأول وهلة، ولكن ليس كذلك مع التدقيق، لأنه يخالف لما قبله، بل ومخالف للمعنى الصحيح، لأن كظم الغيظ سيق مساق المدح، وعظم الشارح أمره، وأثنى على أصحابه، فكيف لا يكفى، وكيف يتحول إلى أحنة غائرة تخالف ما عليه المتقون من سلامة الظاهر والباطن، لذلك عبرت بهذا التعبير على أنه الأصح. وانظر الأستاذ/ سيد قطب، «في ظلال القرآن»، (١/ ٤٧٥).

يقول العلامة الطاهر بن عاشور في كتابه «التحرير والتنوير»: «الصفة الثالثة: العفو عن الناس فيما أساءوا به إليهم، وهى تكملة لصفة كظم الغيظ بمنزلة الاحتباس، لأن كظم الغيظ قد تعترضه ندامة فيستعدى على من غاظه بالحق، فلما وصفوا بالعفو عمن أساء إليهم دل على أن كظم الغيظ وصف متأصل فيهم، مستمر معهم، وهو كلام قوى يؤكد ما ذهبنا إليه في كلام الأستاذ/ سيد قطب.

إذا لم يكن في ذلك إخلال بالدين، وقيل العفو عن الخدم والأرقاء إذا أساءوا وذلك لجهلهم وملازمتهم، والعموم في الآية أولى، ليكون ذلك مناسباً للتعبير أى العافين عن كل أحد لبيان سلامة صدورهم وسماحة أنفسهم.

هذا وقد نظر بعض أهل العلم - كما ذكر الإمام الفخر الرازي عن الإمام القفال - إلى سياق الآيات لبيان شيئاً من خصوصية العفو، حيث نزلت الآيات في ذكر موقعة أحد، وتضمنت كذلك الحديث عن الربا فقال ما حاصله: يحتمل أن يكون مدح العفو هنا بعدما ذم المشركين في أكلهم الربا أضعافاً مضاعفة، فنهى المؤمنين عن ذلك، بل ودلهم إلى العفو، كما جاء ذلك عقيب قصة الربا والتداين في سورة البقرة، حيث قال - جلّ وعلا: ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

والمثل الثاني في غزوة أحد تنمة السياق لما مثل المشركون بحمزة بن عبد المطلب ﷺ، فغضب رسول الله ﷺ وقال: «لأمثلن بهم»، فندب إلى العفو، فكان تركه التمثيل بهم عفواً منه - صلوات الله وسلامه عليه.

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾: ختمت هذه الآيات بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، وهو تذييل معناه أنهم بتحقيق هذه الصفات فيهم يكونون محسنين، وهو دال على أنه بجمع هذه الصفات يجتمع كمال الإحسان ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١).

وقد ذهب جمع من أهل العلم إلى أن (ال) في (المحسنين) يمكن أن تكون للجنس، فتكون محبة الله تعالى لكل المحسنين والمذكورون منهم، أو أنها للعهد إشارة للمذكورين فقط مع توضيح معنى كل.

يقول العلامة محمود الألوسي في «روح المعاني»: (ال) في (المحسنين): إما

(١) وانظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/ ٩١).

التقوى في القرآن الكريم

للجنس والمذكورون يدخلون فيه دخولاً أولياً، وإما للعهد، وعبر عنهم بالمحسنين على ما قيل إيداناً بأن النعوت المعدودة من باب الإحسان، الذي هو الإتيان بالأعمال على الوجه اللائق الذي هو حسنها الوصفى المستلزم لحسنها الذاتى، وقد فسرهُ النبي ﷺ بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن تكن تراه فإنه يراك». ويمكن أن يقال: إن الإحسان هنا بمعنى الإنعام على الغير على وجه عار عن وجه القبح، وعبر عنهم بذلك للإشارة إلى أنهم في جميع تلك النعوت محسنون إلى الغير لا في الإنفاق فقط»^(١).

وفي نهاية الآية، لا يسعنا إلا أن نقف مشدوهين لهذا التعبير القرآنى البليغ الفذ، إذ جمعت هذه الآية جميع وجوه الإحسان إلى الغير في الدنيا والآخرة. يقول الفخر الرازى في «التفسير الكبير»:

«واعلم أن الإحسان إلى الغير إما أن يكون بإيصال النفع إليه، أو بدفع الضرر عنه، أما إيصال النفع إليه فهو المراد بقول تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾، ويدخل فيه إنفاق العلم، وذلك بأن يشتغل بتعليم الجاهلين وهداية الضالين، ويدخل فيه إنفاق المال في وجوه الخيرات والعبادات.

وأما دفع الضرر عن الغير فهو إما في الدنيا، وهو أن لا يشتغل بمقابلة تلك الإساءة بإساءة أخرى، وهو المراد بكظم الغيظ، وإما في الآخرة وهو أن يبرئ ذمته في الدنيا عن التبعات والمطالبات في الآخرة، وهو المراد بقوله: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ فصارت هذه الآية من هذا الوجه دالة على جميع جهات الإحسان إلى الغير، ولما كانت هذه الأمور الثلاثة مشتركة في كونها إحساناً إلى الغير ذكر ثوابها فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، فإن محبة الله للعبد أعم

(١) انظر العلامة محمود الألوسى «روح المعانى»، (٤/ ٩٣-٩٤).

درجات الثواب»^(١).

ثم تنتقل إلى صفة أخرى من صفات المتقين، وهى في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ ذُنُوبَهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(٢):

ذكرنا أن هذه الآية من صفات المتقين، وهذا ما ذهب إليه الإمام ابن جرير الطبرى، والفخر الرازى، وأطال في الاستدلال له الأستاذ/ سيد قطب، وهو قول الدكتور/ أديب الصالح^(٣) وغيره. وسنذكر ترجيح هذا القول - إن شاء الله تعالى - مما يقتضينا الآن ذكر بقية أقوال أهل العلم في الآية، لتوضح قوة القول الأول، ولتكتمل وجوه التفسير للآية الكريمة. وهامى أقوالهم:

ذهب الزمخشري إلى أن قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا...﴾ معصوف على قوله تعالى: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾، أى أن الجنة أعدت للمتقين وللذين إذا فعلوا...، أى أعدت للمتقين وللتائبين، وجوز أن يكون ﴿الَّذِينَ﴾ مبتدأ خبره ﴿أُولَئِكَ﴾. ذكر ابن عطية أن هؤلاء - أى الذين إذا فعلوا... - صنف دون الأول، ولكن الله تعالى ألحقهم بهم برحمته منه، وهو قول القرطبى بحروف ابن عطية ذاتها.^(٣)

وأما العلامة أبو السعود فذكر في تفسيره «إرشاد العقل السليم» أن ﴿وَالَّذِينَ﴾ مرفوع على الابتداء، فوافق وجهاً عند الزمخشري، ثم أردف

(١) الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٤/٤٥٨).

(٢) ابن جرير الطبرى «جامع البيان»، (٤/٦٢). والفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٤/٤٥٩). والأستاذ/ سيد قطب «في ظلال القرآن»، (١/٤٧٦). ود/ أديب الصالح

«التقوى في هدى الكتاب والسنة»، (ص ٥٦٩).

(٣) عبد الحق بن عطية «المحرر الوجيز»، (١/٥١٠). وأبو عبد الله محمد القرطبى «الجامع

لأحكام القرآن»، (٤/٢٠٩).

قائلاً: «وقيل: مجرور معطوف على ما قبله من صفات المتقين. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ اعتراض بينهما يشير إلى ما بينهما من التفاوت، فإن درجة الأولين من التقوى أعلى من درجة هؤلاء وحظهم أوفى من حظهم». فيكون بذلك موافقاً لابن جرير ومن أخذ برأيه في كونهم متقين، ولكن خالفهم في أن درجتهم وحظهم من التقوى دون الأولين، ثم زاد وجهاً ثالثاً وهو: «أو معطوف على المتقين فيكون التفاوت أكثر وأظهر». فوافق بذلك قول الزمخشري وإن زاد عليه كون البون بينهما - أى المتقين والتائبين - أوضح وأكثر أى كأنهما مشتركان في التقوى، وهو ما لم يذكره الزمخشري. وقد ذكر الألوسي كلام أبى السعود بنصه كأنه نقله.^(١)

وفسر الآية على أنها جملة مستأنفة وجهاً واحداً للإمام ابن كثير، والبيضاوى، وصديق حسن خان^(٢)، وغيرهم.

ونعود إلى الوجه الأول لنتبين أسباب ترجيحه، ونبدأ بكلام الفخر الرازى، حيث نص صراحة على وجه الترجيح، يقول - رحمه الله:

«الوجه الأول: أنه تعالى لما وصف الجنة بأنها معدة للمتقين، بين أن المتقين قسمان؛ أحدهما: الذين أقبلوا على الطاعات والعبادات، وهم الذين وصفهم الله بالإنفاق في السراء والضراء، وكظم الغيظ والعفو عن الناس. وثانيهما: الذين إذا أذنبوا ثم تابوا وهم المراد بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً...﴾،

(١) العلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (١/٤١٦). والأولسى «روح المعانى»، (٩٥/٤).

(٢) انظر الحافظ عماد الدين إسماعيل بن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (١/٤٠٦). والبيضاوى «أنوار التنزيل وأسرار التأويل»، (٢/٩٣). وصديق حسن خان «فتح البيان»، (٢/١٣٣).

وبين تعالى أن هذه الفرقة كالفرقة الأولى في كونها متقية، وذلك لأن المذنب إذا تاب عن الذنب صار حاله كحال من لم يذنب قط، في استحقاق المنزلة والكرامة عند الله»^(١).

وإن كان في هذه المسألة خلاف نذكره أولاً - وهي مسألة: هل يرجع العبد إلى الدرجة التي كان عليها قبل الذنب، أم لا؟ - لتبين ترجيح الفخر الرازي من عدمه.

يقول الإمام ابن القيم في مدارج السالكين ما ملخصه: اختلف في ذلك، فقالت طائفة: يرجع إلى درجته، لأن التوبة تجبُ الذنب بالكلية، وتصيره كأن لم يكن، والمقتضى لدرجته ما معه من الإيثار والعمل الصالح، فعاد إليها بالتوبة. قالوا: لأن التوبة حسنة عظيمة وعمل صالح، فإذا كان ذنبه حطه عن درجته، فحسنته بالتوبة رفته إليها، وهذا كمن سقط في بئر، وله صاحب شفيق أدلى إليه حبلًا، تمسك به حتى رقى منه إلى موضعه. فهكذا التوبة والعمل الصالح مثل هذا القرين الصالح.

وقالت طائفة: لا يعود إلى درجته وحاله، لأنه كان في صعود، فبالذنب صار في نزول وهبوط، فإذا تاب نقص عليه ذلك القدر الذي كان مستعداً به للترقى، وكذلك الأول، يسير بقوة أعماله وإيمانه، وكلما ازداد قوته، وذلك الراجع قد ضعفت قوة سيره وإيمانه بالرجوع.

ويقول الإمام ابن القيم إنه سمع شيخ الإسلام ابن تيمية يحكي هذا الخلاف ثم قال: والصحيح أن من التائبين من لا يعود إلى درجته، ومنهم من يعود إليها، ومنهم من يعود إلى أعلى منها، وهذا بحسب حال التائب بعد توبته وجده وعزمه وحذره وتشميره، فإن كان ذلك أعظم عاد بعد الذنب خيراً مما كان، أو

(١) الفخر الرازي «التفسير الكبير»، (٤/٤٥٩).

كان مثله عاد إلى مثل حاله، وإن كان دونه لم يعد لدرجته. يقول الإمام ابن القيم: «وهذا فصل النزاع في هذه المسألة»^(١)، والواقع من حال المرء مع الله تعالى يؤيد ما ذهبنا إليه.

فإذا عدنا لكلام الفخر الرازي رأيناه اختار رجوع التائب بعد الذنب إلى درجته قبلها. وأوصاف هؤلاء التائبين، التي ذكرها الله تعالى في الآية، تقوى ما ذهب إليه، بل ولعل هذه الأوصاف تصل بهم أو يبعثهم إلى أعلى من درجته، خاصة وأن الله تعالى ذكر ثوابهم، وعاقبتهم بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (٢٥) فلم يكن ليصلوا إلى هذا الجزاء إلا وقد تحققوا بتوبة صادقة تجب ما قبلها، ويمكن أن تزيد عليه، يرجع بها التائب إلى درجته أو أعلى منها.

ونبين معنى التوبة، ومدى انطباقها على التائبين، والتي ساقتها الآية ليكون دليلاً وبرهاناً على صحة هذا القول وترجيحه من ناحية، ومن ناحية أخرى يكون تفسيراً للآية الكريمة، حيث أننا سنفسرها على كل حال، فكان إلحاقها بهذا الكلام أولى وألصق.

لقد ذكر الإمام أبو حامد الغزالي في كتاب «إحياء علوم الدين» معنى التوبة، فقال: «وهي علم وحال وفعل، فالعلم هو معرفة ضرر الذنوب، وكونها حجاباً بين العبد وبين ربه، فإذا علم ذلك بيقين ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات ما يحبه من القرب من ربه ورضاه عنه، وذلك الألم يسمى ندماً، فإذا غلب هذا الألم على القلب انبعث من القلب حالة، تسمى إرادة وقصداً إلى فعل له تعلق بالحال والماضي والمستقبل، فتعلقه بالحال هو ترك الذنوب «الإقلاع»،

(١) أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية «مدارج السالكين»، طبعة دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى الحلبي، (١/٣١٧-٣١٨).

وتعلقه بالمستقبل هو العزم على ترك الذنب في المستقبل «نفى الإصرار» وتعلقه بالماضي بتلافي ما فات». ^(١)

ويشرح العلامة ابن عاشور كلام الإحياء مع تطبيقه على الآية، فيقول ما ملخصه: وقد انتظم تلك الأركان الثلاثة لمعنى التوبة في كلام أبي حامد قوله تعالى في الآية: ﴿ذَكِّرُوا اللَّهَ فَأَسْتَغْفِرُوا﴾، وقوله: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا﴾، وقوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

فقوله تعالى: ﴿ذَكِّرُوا اللَّهَ﴾ إشارة إلى انفعال القلب الذي هو التألم والندم، لأن ذكر اللسان لا يترتب عليه ذلك، وذكر الله هنا ذكر الوعد والوعيد، والأمر والنهي، أو ذكر جلاله الموجب للحياء منه.

وقوله: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا﴾ إشارة إلى الفعل، وهو الإقلاع والعزم على عدم العود، لأن الإصرار هو الاستمرار على الذنب ففيه، هو الإقلاع والعزم، إذ لا يستقيم الإقلاع مع البقاء على الذنب أو العزم على العود، فكان التعبير على قصره مفيداً للمعنى من كل جوانبه.

وأما قوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فهو إشارة إلى العلم المثير للانفعال النفساني، وهو واقع قبل حصول الذنب، إذ لولاه لما كانت الفعلة معصية، وهذا العلم المثير للانفعال هو العلم بقبح الذنب في حق الله سبحانه وأن الإصرار ضار به، وأن الذنوب حجاب عن ربه ورضاه ومحبته.

وإن تأخر ذكر العلم في الآية، مع أنه متقدم على الذنب، لأن ترتيب الأركان في الآية بحسب شدة تعلقها بالمقصود، لأن ذكر الله يحصل بعد الذنب، فيبعث على التوبة والندم، وهذا هو المقصود المطلوب. ^(٢)

(١) حجة الإسلام الغزالي «إحياء علوم الدين»، مجلد ٣، (١١/ ٢٠٧٠) وما بعدها.

(٢) وانظر العلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٩٣-٩٤).

التقوى في القرآن الكريم

فكانت دلالة الآية على تحقق أركان التوبة الصادقة من أوضح الأدلة التي تبين أن هؤلاء قد تابوا توبةً نصوحاً، عادوا منها إلى سابق حالهم، لأن الآية الكريمة لم تذكر أى صنف من التائبين، ولكن من تحققت بتوبتهم مغفرة الله وجناته، وهى أعظم التوبة التي يكون أصحابها فعلاً وحالاً من المتقين.

وهذا الدليل والبرهان يدعم كلام الإمام الفخر الرازى، ومن ذهب مذهبه. وثمة دليل آخر يرجح كونهم متقين، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾، وهؤلاء الذين غفر لهم وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار، ومدح عملهم بمدح أجرهم وثوابهم، لاشك هم أولئك الذين يحبهم المولى - جل وعلا، فإذا كان جزاء التوابين المحبة من الله تعالى، وكان هو نفس جزاء المتقين في الآية: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ دل ذلك على أنها سواء، وهذا الدليل يؤكد كذلك ما نحن بصددده من ترجيح القول الآخر.

ونعود إلى تفسير الآية:

ذكرنا أن العطف في قوله: ﴿وَالَّذِينَ﴾ على ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ ويكون المعنى: ومن صفات المتقين أيضاً أنهم إذا فعلوا فاحشة - وهى الفعل المتجاوزة للحد من الفساد - أو غيرها من الذنوب ظلموا بها أنفسهم، ذكروا الله سبحانه وتعالى ذكر القلب الذي يتفرع عنه طلب المغفرة، الذي معناه: ذكروا أمره ونبيه ووعدته ووعيده وما أوصاهم به، لأن ذكر اللسان لا يترتب عليه ذلك، حيث استشعروا عظيم ما اقترفوا وشدة عذابه سبحانه، وموقفهم بين يديه، وسؤالهم عما قدموا وأخروا، مع تعظيمه - جل وعلا، وكمال جلاله الباعث على الخوف والخشية والحياء - دفعهم ذلك إلى استغفار ربهم، أى طلب المغفرة منه، وترك المؤاخذة على ما جنوا وركبوا من المعاصي، وقد حلوا عقدة الإصرار على تلك الذنوب الخطايا، وتوجهت نياتهم إلى الله ﷻ بالعزم على عدم العود إليها، عالمين بقبح جرائمهم ومضرتها عليهم في الدنيا والآخرة، مستيقنين بإطلاع الله ﷻ عليهم،

خائفين من حجبهم عن ربهم، وتعذيب الله ﷻ لهم. (١)
وجملة ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ معترضة بين قوله تعالى ﴿فَاسْتَغْفِرُوا
لِذُنُوبِهِمْ﴾ وقوله ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا﴾، والاستفهام مستعمل في النفي،
بدليل الاستثناء منه.

ونختم الآية بمختصر لكلام الأستاذ/ سيد قطب، حيث يقول - رحمه الله
تعالى - ما حاصله: يا لساحة هذا الدين! إن الله - سبحانه وتعالى - لا يدعو
الناس إلى الساحة فيما بينهم، حتى يطلعهم على جانب من سماحته - سبحانه
وتعالى - معهم، ليتذوقوا ويتعلموا ويقتبسوا، إن المتقين في أعلى مراتب المؤمنين،
ولكن ساحة هذا الدين تسلك في عدادهم: الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا
أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم، والفاحشة أبشع الذنوب وأكبرها، ولكن
ساحة هذا الدين لا تطرد من يهون إليها من رحمة الله، إنما ترتفع بهم إلى مرتبة
المتقين، على شرط واحد يكشف عن طبيعة هذا الدين ووجهته: أن يذكروا الله
فيستغفروا لذنوبهم وألا يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أنه الخطيئة، وألا
يتبجحوا بالمعصية في غير تخرج ولا حياء، إلى آخر ما قال. (٢)

(١) انظر العلامة الطاهر بن عاشور في «التحرير والتنوير»: (٩٢/٤). وانظر مختار
الصالح، مادة: ف ح ش.

وذكر المفسرون معنى الفاحشة، فقيل: الفاحشة المعصية الكبيرة، وظلم النفس الكبيرة
مطلقاً، وقيل: الفاحشة المتعدية للغير، وظلم النفس الكبيرة القاصرة، وقيل: الفاحشة
الزنا، وهذا تفسير لها بالمثل والذنب ما دون الزنا، وقيل غير ذلك. وانظر الزنجشري
«الكشاف»، (٢١٧/١). وصديق خان «فتح البيان»، (١٣٣/٢). وأبو حيان محمد بن
يوسف «البحر المحيط»، (٣٤٨/٣). والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»،
(٩٢/٤).

(٢) انظر سيد قطب «في ظلال القرآن» (٤٧٦/١).

الموضع التالى من صفات المتقين هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات: ١٥-١٩]:

قدمنا هذه الآيات عن ترتيبها في آيات المصحف الشريف المتعلقة بصفات المتقين، لأنها متعلقة بما سقنا من قبل من آيات، ولتكتمل الصورة بضم الصفات المتشابهة، حتى تستضيء صورة المتقين، وتتم معالم التقوى.

بدأت الآيات بجزء التقوى، وما أعده الله - جل وعلا - للمتقين، كما بدأت بذلك الآيتان السابقتان، وإن كان التعبير عن الثواب يحمل مفردات جديدة، سنشرحها - بإذن الله تعالى - في موضعها من فصل جزاء التقوى وعاقبتها.

عللت الآيات استحقاق المتقين لموعود الله تعالى بالجنات والعيون، وما آتاهم فيها من نعيم بكونهم كانوا قبل دخولهم الجنة محسنين، ثم فسرت الآيات الكرييات إحسانهم بأنهم كانوا قليلي الهجوع «النوم» من الليل، وأنهم يستغفرون في الأسحار، وقد جعلوا من أموالهم حقاً يبذلونه للسائل والمحروم.

وقد بينت الآية السابقة الإحسان بأنه الإنفاق في السراء والضراء وكظم الغيظ، والعفو عن الناس أى أن الآية أتت بجماع الإحسان المتعلق بالناس، وكذلك أفادت المعنى العام بأن يعبد المرء ربه كأنه يراه، فإن لم يكن يراه، فإنه يراه، وهو الإحسان المطلوب في كافة الأعمال، على تفسير بعضهم كما أشرنا إليه.

وأما هذه الآيات فإن المعنى أنهم كانوا في الدنيا محسنين في الدرجة العليا من عبادة الله، وهى الإحسان في الحديث السابق، ثم ذكر بعض طاعتهم وهو القيام بالليل، والاستغفار بالأسحار، والبذل للسائل والمحروم.

ولما لم تكن هذه الأعمال هى كافة الحسنات والطاعات التي يجب على المرء

أو يستحب أن يأتيها ليكون تقياً، كان قوله تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ الْإِلِّ﴾ ... إلى آخره، بدلاً من ﴿قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ بدل بعض من كل. وإنما عبر بالإحسان لبيان أنهم في هذه الصفات في الذروة والدرجة العليا، بمعنى أنهم تحققوا فيها بما يجب الله من الإحسان، وهو عبادته كأنه يراه.

أما تخصيص هذه الأعمال بالذات لتكون سبب إحسان المتقين، وكونهم يستحقون بفضل الله جزاءه، مع أنها ليست كل الحسنات ولا عظيمها فللآتي:

أولاً: أنها دليل على غيرها من الأعمال الصالحة، فهذا الذي يكابد الليل بمشقته قياماً لله تعالى، وهو مستحب، لاشك أنه محافظ على صلاة الفرائض وبقية أمور الدين من باب الأولى، إذ لا يَمْدَحُ الله - جل وعلا - على المحافظة على النوافل والنصب فيها، مع تضييع ما هو أهم منها من الفرائض، بل هم في الدرجة العليا من إحسان الفرائض التي ينتها درجتهم العليا في إحسان النوافل، وكذلك إن كان يبذل للسائل والمحروم، بل ويجعل له حقاً في ماله تطوعاً - لأن هذه السورة مكية فلم تكن قد فرضت الزكاة بعد - فمن باب الأولى أن يسارع إلى الزكاة الواجبة.

وكذلك استغفارهم بالأسحار بعد طول صلاتهم بالليل يبين تقواهم، وحسن صلتهم بالله تعالى، لأنه إذا كان العبد بعد الصلاة والقيام وطول النصب لله تعالى ساجداً وقائماً يستغفر، ويدعو الاستغفار في أفضل وقت الإجابة والتوبة، فكيف به، وماذا تراه يصنع بعد المعصية والذنوب؟

ثانياً: أن هذه الخصال الثلاث كالمثال لأعظم إحسانهم يقول الطاهر بن

عاشور:

«فإن ما ذكر من أعمالهم دال على شدة طاعتهم لله، ابتغاء مرضاته، ببذل أشد ما يبذل على النفس، وهو شيثان: أولهما: راحة النفس في وقت اشتداد حاجتها إلى الراحة، وهو الليل كله وخاصة آخره، إذ يكون فيه قائم بالليل، قد تعب

واشتد طلبه للراحة. وثانيهما: المال، الذي تشج به النفوس غالباً^(١).
ثالثاً: وهو معنى جميل وراء هذه الصفات، يؤكد قيمتها واستحقاق أهلها مرتبة التقوى العالية، وهو أن هذه الآيات تضمنت ما يطالب به الشرع من تكليفات تهدف إلى إصلاح النفس وإصلاح الناس، فإن صلاح النفس بتزكيتها ظاهراً وباطناً، وفي قيام الليل الإشارة إلى تزكية النفس باستجلاب رضا الله تعالى، وفي الاستغفار تزكية النفس بتنقيتها مما يغضب الله، وتهذيبها من ذلك، لتكون أقرب وأحب إلى مولاهما، مع صعود الكلم الطيب من الاستغفار والتوبة الجالب لمرضاته.

وفي جعلهم الحق في أموالهم للسائل والمرحوم إصلاح للناس^(٢)، فكان فيها قوام النفس والمجتمع، ألا يستحق أهلها وصفهم بالتهمى المحصلة لسعادة الدنيا والآخرة؟ وألا تستحق هذه الصفات المسارعة إلى الظفر بها ونيل مقصودها؟

ونعود إلى تفسير وتحليل تلك الآيات:

صورت الآيات الكرييات المتقين، وما أعد الله لهم من النعيم، وذلك في مقابلة المتخرصين الشاكين، وما أعد الله لهم من العذاب.

وكان مما ذكر الله - سبحانه وتعالى - من صفات المتقين أنهم ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾^(٣)، وهى الأولى من حسناتهم وطاعاتهم، أنهم يكابدون

(١) الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٦ / ٣٤٨).

(٢) المصدر السابق، (٢٦ / ٣٤٨).

(٣) (الهجوع): النوم الخفيف وهو الغرار. ﴿قَلِيلًا﴾: منصوب على الظرف، لأنه وصف بالزمان بقوله: ﴿مِّنَ اللَّيْلِ﴾ والعامل فيه يهجعون. و﴿مَا﴾: زائدة للتأكيد وشاعت زيادة ﴿مَا﴾ بعد اسم قليل وكثير، وقل، وطلال. والمعنى: يهجعون زمناً قليلاً من الليل.

العبادة في أوقات الراحة وسكون النفس، ولا يستريحون من مشاق النهار إلا قليلاً. قال الألوسي في «روح المعاني المعاني»: قال عبد الله بن رواحة ؓ: «هجعوا قليلاً ثم قاموا»، فهم الأيقاظ في جنح الليل والناس نيام، يأنسون برهم في جوف الليل، فتجافي جنوبهم عن المضاجع، ويخف بهم التطلع فلا يثقلهم المنام، يصفون له أقدامهم، يسبحونه ويدعونه ويتلون آياته، ويناجونه ويتملقونه، ويرفعون إليه حوائجهم، ويسألونه طلبتهم، ذلك نعيمهم، وتلك سعادتهم التي تخفف عليهم سهرهم وقيامهم، بل تلذذ لهم وقوفهم ونصبهم بين يدي محبوبهم - جل وعلا.

كل ذلك اقتداءً بأمر الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۖ نَبِّئْهُمْ وَأَوْعِظْهُمْ مِّنْهُ قَلِيلًا ۖ﴾ [المزمل: ٢-٤] وقد مدح عباده المستجيبين بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيلًا ۖ﴾ [الفرقان: ٦٤]، وبقوله - جل ذكره: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦-١٧].

وكانت سيرته ﷺ مصداق ذلك، ففي الصحيحين من حديث المغيرة بن شعبة ؓ قال: قام النبي ﷺ حتى تورمت قدماه، فقيل له: قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟»^(١).
وساعات قيامهم هي التي تكون قبل استغفارهم بالسحر - وهو الثلث

وذكر الألوسي وغيره أن ﴿مَا﴾ يمكن أن تكون نافية، نقلاً عن بعضهم وقد ذكر اثر ابن رواحه، انظر «روح المعاني»، (١٣/١٥)، والزخشرى ينفي ذلك من قبل. انظر الزخشرى «الكشاف» (٤/ ٢٨).

(١) رواه البخاري (٤٨٣٧)، وانظر: ابن حجر العسقلاني «فتح الباري»، (٨/ ٥٨٤).
ورواه مسلم (٢٨٢٠)، انظر النووي «شرح صحيح مسلم»، (٩/ ١٧٨).

التقوى في القرآن الكريم

الأخير من الليل - وهو ذلك الوقت المشهود الذي يقرب فيه المولى - سبحانه وتعالى - من عباده، وقد دل النبي ﷺ أهل الإيمان وأرشدهم للصلاة وذكر الله تعالى في تلك الساعة. روى الترمذى وصححه من حديث عمرو بن عبسة رضي الله عنه سمع النبي ﷺ يقول: «أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل الآخر، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في هذه الساعة فكن».

وكان من أول ما أمرهم به الرسول ﷺ عنده وصوله المدينة قيام الليل. يروى الترمذى وغيره عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه يقول: «أول ما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس، أى أسرعوا إليه ومضوا كلهم، قال: فكنت فيمن جاءه، فلما تأملت وجهه واستبته، عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، قال: فكان أول ما سمعت من كلامه أن قال: أيها الناس! أفسحوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام».

وقد حث النبي ﷺ المؤمنين على قيام الليل، ومن ذلك ما رواه أبو أمامة وسلمان الفارسي - رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم، وقربة إلى ربكم، ومكفرة للسيئات، ومنهارة عن الإثم»، زاد حديث سلمان: «ومطرده للداء عن الجسد» رواه الترمذى والحاكم وصححه وغيرهما. ولذلك رأينا النبي ﷺ يرغب ترغيباً شديداً في قيام الليل، فيروى الطبراني وأبو يعلى من قوله ﷺ: «لا بد من صلاة ليل، ولو ركعة، ولو فواق حلب شاة».

يقول العلامة محمد السفاريني - رحمه الله - في كتابه شرح ثلاثيات مسند أحمد، «قال علماؤنا: كان قيام الليل واجباً على النبي ﷺ ولم ينسخ. قالوا: ولا ينبغي أن يقوم الإنسان كل الليل إلا ليلة عيد وقدر ونحوهما. قالوا: ويكره مداومة قيامه كله، ويستحب أن يكون له تطوعات يداوم عليها، وإذا فاتت يقضيها»، ثم أردف قائلاً: «وقد استحب الإمام أحمد رضي الله عنه أن يكون له ركعات

معلومة من الليل والنهار، فإذا نشط طولها وإذا لم ينشط خففها»^(١).

وللعلامة أبي الحسن الندوى كلام حسن في قيام الليل، وحرص الأئمة عليه، في كتابه «تأملات في القرآن الكريم»^(٢) يحسن نقل شئ منه، يقول - حفظه الله: «إن أقوى وسيلة لتغذية الروح وشحن (بطارية) القلب: قيام الليل، الذي أكثر القرآن من الحث عليه، والترغيب فيه، ومدح أصحابه، حتى كأنه ملحق بالفرائض وتابع لها، ولذلك سمى نافلة»، إلى أن يقول: «ويعرف المتبع لأخبار الصحابة عليهم السلام، والذي يتتبع دواوين الحديث وكتب السيرة والتاريخ، أن قيام الليل كان فاشياً منتشرأ فيهم، حتى أصبح شعاراً لهم، وقد وصفوا أمام «هرقل» وقادته بأنهم بالليل رهبان وبالنهار فرسان».

وهكذا كان أئمة المسلمين وقادتهم، وزعماء الإصلاح والتجديد، ورجال التعليم والتربية، ومن نفع الله بنفوسهم وأنفاسهم، وكتب لمآثرهم وآثارهم الانتشار الواسع والبقاء الطويل، والقبول العظيم، والذكر الجميل، من أصحاب العبادة، والسهر في الليالي، والقيام بالأسحار، وأصحاب الصلة الروحية بالله تعالى، وهكذا كان وسيظل، فلا تنشأ يقظة عن غفلة، ولا نهضة عن جمود وخود، ولا حياة من موت ولا انتباه وانتعاش من قساوة وفتور»^(٣).

﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾^(٤): بعد أن وصف المولى - جل وعلا - المتقين بقله الهجوع وكثرة التهجد، مادحاً لهم بذلك، وصفهم بوصف جديد من

(١) انظر لما سبق العلامة الشيخ / محمد السفاريني الحنبلي «نفثات صدر المكمد وقرة عين المسعد لشرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد»، (١/٦٠٨)، الطبعة الثانية ١٣٩١هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.

(٢) انظر أبا الحسن الندوى «تأملات من القرآن الكريم»، دار دمشق، الطبعة الأولى ١٤١١هـ / ١٩٩١م، (ص ٥٧) وما بعدها.

(٣) انظر الندوى «تأملات في القرآن الكريم»، (ص ٥٧).

التقوى في القرآن الكريم

أوصاف المتقين، وهو أنهم إذا أذن الليل بالانصرام، وأصاب التعب قائم الليل، وكان النوم أحب إليه مما يعدل به، جلسوا يستغفرون الله تعالى في الأسحار، كأنهم أسلفوا الجرائم في ليلهم، ولم يتفرغوا فيه للعبادة. وذلك يشير إلى مزيد خشيتهم، وعدم اغترارهم بعبادتهم^(١)، وهذه سيرة الكريم، يأتي بأبلغ وجوه الكرم ويستقله ويعتذر عن التقصير، واللثيم يأتي بالقليل ويستكثره ويمن به.

والأسحار: جمع سحر، وهو آخر الليل، وخص هذا الوقت بالاستغفار لكونه يكثر فيه أن يغلب النوم على الإنسان، فصلاهم واستغفارهم فيه أعجب منه في أجزاء الليل الأخرى. وجمع الأسحار باعتبار تكرار قيامهم في السحر ودوام الاستغفار فيه. وفي بناء الفعل «يستغفرون» على الضمير «هم»^(٢) إشعار

(١) جار الله الزمخشري «الكشاف»، (٢٨/٤). والفخر الرازي «التفسير الكبير»، (٤٩٨/١٤). والعلامة محمود الألوسي «روح المعاني»، (١٥/١٣-١٤). والعلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٧/٣٥٠-٣٥١). وكذلك ذكر البيضاوي وأبو السعود وغيرهم.

(٢) يقول الفخر الرازي: «وقوله تعالى ﴿هُم﴾ غير خال عن فائدة:

قال الزمخشري: فائدته انحصار المستغفرين، أى لكاهم في الاستغفار، كأن غيرهم ليس بمستغفر، فهم المستغفرون لا غير، يقال: فلان هم العالم، لكاهه كأنه تفرد به وهو جيد. ولكن فيه فائدة أخرى، وهى أن الله تعالى لما عطف ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ على قوله تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ فلو لم يؤكد معنى إثبات بكلمة ﴿هُم﴾ يصلح أن يكون معناه: وبالأسحار قليلاً ما يستغفرون، تقول: فلان قليلاً ما يؤذى وإلى الناس يحسن، قد يفهم أنه قليل الإيذاء قليل الإحسان، فإذا قلت: قليلاً ما يؤذى وهو يحسن، زال ذلك الفهم، وظهر فيه معنى قوله: قليل الإيذاء كثير الإحسان».

وقد راجعت تفسير الزمخشري للآية مرة أخرى، لأنى أشرت إليه قبلاً، وكذلك مظان وجود هذا الكلام، فلم أجده بحروفه التي ذكرها الفخر الرازي، فلعله قالها فهماً من كلام الزمخشري، وبكن التصدير بـ «قال الزمخشري» يبعد هذا الاحتمال، فلعله قالها في مكان

بالاعتناء بهم، أى أنهم الأحقاء بأن يوصفوا بالاستغفار، كأنهم المختصون به، لاستدامتهم له وإطناهم فيه وكان يمكن أن يقال: وبالأسحار يستغفرون. والاستغفار على حقيقته المشهورة هو طلب المغفرة من الله تعالى، وبذلك قال الحسن البصرى. أخرج الإمام ابن جرير في «جامع البيان» عن الحسن قال: «صلوا، فلما كان السحر استغفروا». وقيل: المراد طلبهم المغفرة بالصلاة، وعليه ما أخرج ابن المنذر وجماعة عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أنه قال: ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ يصلون.^(١)

وللأسحار خصيصة أخرى لدى المتقين تحيا بها قلوبهم، وتقوى بها على تحمل النصب أبدانهم أفئدتهم، ويزيد فيها نعيم روحهم وسرور نفوسهم، ذلك قول النبى ﷺ: «إن الله ينزل في الثلث الأخير من الليل إلى السماء الدنيا، فيقول هل من سائل فأعطيه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ حتى يطلع الفجر».

فهذا النزول الإلهى - الذي لا يشبهه شئ - جعل تلك القلوب والأبدان تتحمل في سبيله كل مشقة وتعب، وتستعين بكل بذل وجهد، وتعلم جزاء ذلك وحسن عاقبته، فقل ليلة هجعوها إلى الصباح لم يأخذوا منها نصيباً. وإذا كانت تلك الصفة الجليلة من صفات المتقين - وهى أنهم كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون - صفة جديدة أضفناها بذلك إلى ما سبق من صفات المتقين، لتزداد صورتهم وضوحاً، فإن استغفارهم بالأسحار قد ورد شبيهه

آخر، وإن كان ذكره في هذا المكان لا يوهم بغير هذه الآية.
(١) ابن جرير الطبرى «جامع البيان»، (١٢١/٢٧-١٢٣). والعلامة الألوسى «روح المعانى»، (١٤/١٥). وابن عطية «المحرر الوجيز»، (١٧٥/٥). وجار الله الزخشرى «الكشاف»، (٢٨/٤).

التقوى في القرآن الكريم

من قبل في قوله تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾، وبالمقارنة بينهما نجد أن القرآن عبر هنا بصيغة اسم الفاعل للتناسب بينها، وبين ما قبلها من الصفات: الصابرين والصادقين والقانتين والمستغفرين بالأسحار. وتبين الآية الكريمة أيضاً بهذا التعبير أن الاستغفار صار لهم عادة، وأنهم قد بلغوا فيه الغاية القصوى، وأن هناك إما أن يسبقه صلاة، أو يعبر به عن صلاة، كما ذكرنا أقوالاً في ذلك لأهل العلم. وأما الآية التي معنا فقد عبر فيها بالمضارع، ليبين تكرار ذلك منهم، مع اختصاصهم بذلك، وقدم الأسحار هنا للاهتمام بهذا الوقت، وفائدة الذكر فيه وظهور المقربين من النائمين، وتمايز درجات المحيين المتقين، خاصة وقد سبقه مكابدة للصلاة، ممدوحين بها، ومثنى عليهم بالمثابرة عليها.

﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾: فإذا كان ما سبق هو حالهم مع الله - جل وعلا - فإن هذه الآية الكريمة تبين حالهم مع الناس، ومع المال، فإذا بهم قد تخلصوا من أوضاع الشح، وثقل الحرص والبخل، فقد حددوا في أموالهم - من غير أن يفرض عليهم - مقداراً معلوماً لا ينزلون عنه ولا يساومون عليه، أخرجوه طيبة به نفوسهم، من غير قسر ولا إكراه، وما ذلك إلا لشفافية نفوسهم، ورهافة إحساسهم، ونبيل مشاعرهم، إذ كيف يكون من إخوانهم السائل المحتاج والمحروم المستحق المتعفف، وهم لا يبالون بذلك، ولا تتحرك له شعورهم، بل سارعوا لإعطاء السائل المتعرض وبحثوا عن الحيى المتعفف، الذي لا يفتن إليه، فيتصدق عليه. والحق أنهم ازدادوا على ذلك، فقد جعلوه حقاً لإخوانهم في أموالهم، وليس مجرد صدقة وعطية، إن شاءوا منحوها، وإن شاءوا منعوها، هؤلاء هم المتقون حقاً.

والسائل: هو الفقير المظهر فقره، فهو يسأل الناس، والمحروم^(١): الفقير

(١) يقول ابن عطية: وهو يشير إلى هذا المعنى: «واختلف الناس في ﴿وَالْمَحْرُومِ﴾ اختلافاً

الذي لا يعطى الصدقة، لظن الناس أنه غير محتاج من تعففه عن إظهار الفقر، وهو الصنف الذي قال الله تعالى في شأنهم: ﴿تَحَسَّبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣]. ولما كان المحروم من سبق، كان إطلاق الاسم عليه ليس حقيقة، فهو لم يسأل وحرّم، وإنما لما كان مأكله إلى ما يؤول إليه المحروم أطلق عليه اللفظ. وفي اللفظ ترقيق لقلوب المؤمنين، وحث على البحث عنه ليضعوا صدقاتهم حيث يحب الله تعالى.

وإذا كانت صفة الإنفاق من صفات المتقين قد أخذت تعبيرات متنوعة من قبل، لتفيد معان جمة وجميلة، فإن التعبير عنها هنا - بمقارنته بما سلف - يزيدنا معاني آخر من الحسن بمكان، رأينا قبل ذلك قوله - جل وعلا: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾، و﴿وَأَتَى الْآلَمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ في سورة البقرة، و﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾، و﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ في آل عمران، وقد أشرنا إلى معانيها وقمنا بالمقارنة بينها من قبل. أما هذا التعبير الدقيق فيرشدنا - علاوة على ما سبق - إلى أنهم لا ينفقون أى شئ، بل أنهم قد جعلوا من أموالهم حظاً وافراً معلوماً للسائل والمحروم، وهذا المعلوم قد ألزموا به أنفسهم تكافلاً مع إخوانهم ورحمة بهم وشفقة عليهم، بحيث لا يفرطون فيه تحت أى ظرف، إذ هم ممدوحون عليه، ولا يمدح المرء على القيام بالواجب، ومن ثم فهو ليس زكاة، على عكس ما ذهب إليه البعض. والتعبير بـ ﴿السَّائِلِ﴾ وإن كان قد مر مثله، فإن التعبير بـ ﴿الْحَرُومِ﴾ لم يسبق ذكره، وهو إشارة إلى أن المتقين مهتمون بالبحث عن أحوال المسلمين، والمشاركة في إصلاحها، إذ من

هو عندي، تخطيط من التأخرين إذ المعنى واحد، وإنما عبر علماء السلف في ذلك بعبارات على جهة المثالات، فجعلها المتأخرون أقوالاً. انظر ابن عطية «المحرر الوجيز»، (١٧٥/٥).

التقوى في القرآن الكريم

لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، وهم رأسهم والمقدمون فيهم، فكانت الصفة جديدة في التعبير عنها، جديدة في مدلولاتها ومعانيها.

وفي إضافة المال إليهم في الآية ﴿أَمْوَالُهُمْ﴾ مع أن القرآن الكريم أضافه إلى الله تعالى في غيرها من المواضع، كقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]، ﴿وَأَتَوْهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣]، ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]، إشارة إلى كرمهم وجودهم، إذ لما كان الحرص موجوداً، وكان الحث على الإنفاق مطلوباً، أمرهم أن ينفقوا من مال الله الذي ليس بملكهم على الحقيقة، حملاً على البذل والعطاء، لأنه ليس مالكم فتمسكوه، أما وقد أنفقوا من تلقاء أنفسهم بغير أمر ولا فرض، لم يكن للحث موضع، وكذلك فيه إشارة عظيمة المبالغة بمدحهم، لأنه لو قال: في أموال الله، لم يكن هناك مدح ولا ثناء، فلما أضاف الأموال إليهم كأنه يشير إلى حب المال وتملكه، والمحافظة عليه ونمائه وزيادته، الذي يمنع المرء من بذله وإخراجه لغيره، أي جعلوا في أموالهم التي يحبونها ويمتلكونها، وينبغي أن يكون همهم المحافظة عليها وزيادتها بعدم التفريط فيها لغيرهم، جعلوا منها حظاً وافراً، وحقاً معلوماً لغيرهم.

ونلخص ما ذكره الدكتور/ محمد أديب الصالح في معنى الآيات حيث يقول: إنها صفات تدل بسناها المشرق على أن هؤلاء البررة لا تنسيهم شدة حب المال أن ينفقوا في سبيل الله، ويدل على أن هؤلاء البررة الأصفياء ليسوا في عزلة عن المجتمع، ولكنهم فيه ومنه يخالطون الناس ويبعثون كوامن الخير في أنفسهم وفي الآخرين، مع التعاون على البر والتقوى، ومعاونة من هو بحاجة إلى المعاونة، إسهاماً في إحكام البنية الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع المسلم.^(١)

(١) د. محمد أديب الصالح «التقوى في هدى الكتاب والسنة»، (ص ٥٤٩).

﴿ وَسَيَجْزِيهَا الْآتِقَى ۝ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ۝ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ۝ إِلَّا أَتْبَغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ۝ ﴾
[الليل: ١٧-٢١]:

وما زلنا في تحرير بقية صفات المتقين، حتى صادفتنا هذه الآيات الكريمة، لتعطينا توضيحاً لما سبق، ولتزداد صورة المتقين جلاءً وزهواً.
هذه الآيات الكريمة أشرقت علينا بصورة الأتقى، لا كما كانت تبين الآيات السابقة أوصاف المتقين فقط، مما يدعونا للنظر في سبب هذا التكريم البالغ لهؤلاء الأتقياء البررة، مع مقارنة ذلك بما سبق في الآيات، لتبرز لنا درجة التقوى العليا، ولنرى تلك القمم السامقة التي سمت إلى هذه المنازل العلا من منازلها، وليكون نبراساً يهتدى به السائرون من المصلحين، والهداة الداعين، والمرشدين المربين، إذ في مثل ذلك فليتنافس المتنافسون، وليتسابق المتسابقون، كيف لا، وعاقبته رضا الله الأكبر؟

ونلاحظ:

أولاً: أن الآيات قد أتت بصفة من صفات المتقين التي ذكرت من قبل، وهي صفة البذل والإنفاق، وإن كانت التعبيرات عنها قد تنوعت لتعطي معاني جديدة ومختلفة، وتوحى بإيحاءات أكثر جدة، كلما توغلنا مع الآيات كما أشرنا، إلا أنها لم تعط لنا كون المتصف بذلك هو الأتقى. وهنا لم تعبر الآيات بتلك التعبيرات الجميلة السابقة، ومع ذلك كان صاحبها هو الأتقى. والسر - والله أعلم - وراء ذلك أن التقوى درجات، وأن أعلاها هي درجة الأتقى، وصفة الأتقى أنه يؤتى ماله يتزكى، فكانت الفارق بين التقى والأتقى هو التزكى، أى أن يكون بفعله زاكياً عند ربه، فالتقى يؤتى ماله على الإخلاص والصدق، نعم يريد ما عند الله، والأتقى يؤتى ماله كذلك ولكنه يريد ربه ذاته، أن يكون زاكياً عنده، ولو كان يؤتى ماله فقط، لكان كمن سبق من المتقين بلا مزيد فضل، فكان

التقوى في القرآن الكريم

قوله ﴿يَتَزَكَّى﴾ الحد الفاصل بين الوصفين والعاقبتين. لذلك كانت الجملة في محل حال من ضمير ﴿يُؤْتَى﴾ أى يؤتیه يتزكى، أى يريد به أن يكون زاكياً عند الله، لا يريد غير ذلك، ولم أر من أشار إلى شبيه هذا المعنى إلا العلامة أبا السعود، حيث ذكر درجة من درجات التقوى سماها التقوى عما سوى الله تعالى، ومن ثم كان قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنُّكُمْ﴾، يعنى المتقى كريم، ولكن الأتقى أكرم، ولا شك أنها مشتركان في التقوى وصفاتها، ولكن الأتقى يزيد كرمًا عند الله بشيء آخر ظنى هو ما ذكرت. ^(١)

ثانياً: وهى ملحوظة غريبة، أن الله تعالى لما ذكر جزاء المتقين في الآيات السالفة ^(٢) ذكر الجنات، وما أعد فيها لهم. وأما في هذه الآيات التي هى في ذكر الأتقى الأعلى منزلة ودرجة، فقد ذكر أول ما ذكر من أن جزاءهم الإبعاد عن النار التي تلظى، حيث أن معنى قوله ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾ أى سيبعد عنها ^(٣)، فكيف تكون أول عاقبة الأتقى الأكرم تجنب النار، وعاقبة التقى دخول الجنة وبقيّة النعيم مع أنه الأدنى منزلة؟

والجواب بتوفيق الله تعالى أن مفهوم ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتَقَى﴾ ^(٤) أن التقى لا يجنبها - أى النار - لأنه لما كانت التقوى درجات، دخل في التقوى من اتقى الشرك - مثلاً - ولم يتق المعاصى، فيجوز أن يدخلها ويعذب بها، ولكن لا يصلها صلاء الأتقى، لأن الأتقى من كذب الحق وتولى معرضاً عن الطاعة، وهو الكافر. والأتقى - كما ذكرنا - سيبعد عنها فلا يدخلها أصلاً، فاتضح

(١) انظر العلامة أبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (١/٣٣).

(٢) كقوله تعالى ﴿قُلْ أُوْنِتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَالِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ...﴾ وقوله جل وعلا: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾.

(٣) وإن كان قد ذكر في نهاية الآيات تنمة الجزاء، بقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾.

بذلك علو درجة الأتقى. وظهرت دقة التعبير عن جزاء الأتقى في هذه الآية، في مقابلة جزاء المتقين في الآيات السابقة، خاصة وأن جزاء الأتقى - لا شك - الفردوس الأعلى، مع تجنب النار. وهذا يبين لنا قيمة الإخلاص، ولزوم أن يحرص المرء في أقواله وأفعاله، في ظاهر وباطنه عليه، وإلا تعرض للتمحيص في نار جهنم إذا شاب أقواله أو تصرفاته شئ لغير الله تعالى. كما ذكر النبي ﷺ في الحديث السابق.

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ (١٢)
 وَلَسَوْفَ يَرْضَى (١٣) :

وهي الصفة التالية لهذا البار الأتقى، أنه يعطى ويبدل من ماله ابتغاء وجه ربه المتعالى - سبحانه، لا مكافأة على صنيع ولا رداً لجميل، ولا مقابلة لنعمة، بل لا يكون هو الأتقى حتى يكون كذلك، لا ينفق ويجود لنعمة يجازى بها، لا لأى نعمة كانت صغيرة أو كبيرة، وهو ما تقيده ﴿مِنْ﴾ المزيدة لتأكيد هذا النفى، ليدل على كل عمله يقصد به وجه الله تعالى، لا يشرك معه أحداً. ومن كان كذلك، دل سلوكه على شدة الخشية لربه، وكمال المراقبة له، بحيث لا يفرط منه عمل - وإن دق - لغير وجه الله يكون به غير مخلص لربه.

وتشير الآية إلى أن الأتقى دائماً هو المعطاء المتفضل، المكثّر من الإنعام والإكرام المبتدئ بذلك، وأن يده هي اليد العليا دائماً، كما يحب الله تعالى، علاوة على أن ذلك كله ابتغاء وجهه - سبحانه، لا يريد من أحد جزاء ولا شكوراً، إنما ينتظر ذلك من ربه الشكور أكرم الأكرمين - جل وعلا.

وكان أعظم مثال لتطبيق الآية بعد الرسول ﷺ أبا بكر الصديق ؓ حتى ادعى بعضهم كالفخر الرازى^(١) الإجماع على أنها نزلت فيه ؓ، وإن كانت

(١) الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٤٥٩/١٦)، أما سبب النزول فقد ذكر كغيره من المفسرين أن بلالاً ؓ كان يعذب في الله على رمضاء مكة، يعذبه المشركون ليرجع عن

التقوى في القرآن الكريم

الآيات عامة في كل من اتصف بذلك، ولكنه ﷺ يعطينا الصورة الصادقة، التي يتطلع إليها الأتقياء البررة. يقول الإمام ابن كثير: «ولاشك أنه داخل فيها، وأولى الأمة بعمومها، فإن لفظها لفظ العموم، ولكونه مقدم الأمة وسابقتها في جميع الأوصاف، وسائر الأوصاف الحميدة، فإنه كان صديقاً تقياً كريماً جواداً بذالاً لأمواله في طاعة مولاه ونصرة رسول الله ﷺ، فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم، ولم يكن لأحد من الناس عنده منة يحتاج أن يكافئه بها، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل، ولهذا قال له عروة بن مسعود الثقفي، وهو سيد ثقيف يوم صلح الحديبية: أما والله لو لا يد لك عندي لم أجرك بها لأجبتك، وكان الصديق قد أغلظ له في المقالة، فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل، فكيف بمن عداهم؟ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا أَتْبَغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ (١) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (٢)». وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «من أنفق زوجين في سبيل الله دعت خزنة الجنة: يا عبد الله هذا خير» فقال أبو بكر: يا رسول الله: ما على ما يدعى منها ضرورة، فهل يدعى منها كلها أحد؟ قال: «نعم

دينه، وهو يقول: أحد أحد، فمر به رسول الله ﷺ وهو يقول: أحد أحد، فقال: ينجيك أحد أحد، فأخبر أبا بكر أن بلالاً يعذب في الله، ففهم أبو بكر مراد النبي ﷺ فحمل أبو بكر رطلاً من ذهب فابتاعه به، فقال المشركون: ما فعل ذلك أبو بكر إلا ليد كانت لبلالاً عنده، فنزل: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا أَتْبَغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ وقال ابن الزبير، وهو على المنبر: كان أبو بكر يشتري الضعفة من العبيد فيعتقهم، فقال له أبوه: يا بني لو كنت تبتاع من يمنع ظهرك؟ فقال: منع ظهري أريد. انظر الفخر الرازي «التفسير الكبير»، (١٦/٤٦١). وابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤/٥٢١). والعلامة الألوسي «روح المعاني»، (١٦/٢٧٤). والقرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، (٢٠/٨٨).

وأرجو أن تكون منهم»^(١).

فهذا المثل المشرق الوضيء لتلك النفوس الطاهرة التي بذلت لله وضحت له، فكان جزاؤها الرضا.

وننظر في كلام المفسرين للآيات:

وأول ما يصادفنا هو محاولة التوفيق بين قوله تعالى: ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ وقوله - جل وعلا: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾^(٢) إذ معنى ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ الحصر الذي يفيد أن غير الأشقى لا يصلها، أى لا يصلها المؤمن العاصي النار، وأن مفهوم ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ أن غير الأتقى لا يجنبها، بل يصلها، فبين الحصر في الأولى والمفهوم في الثانية اختلاف.

ونلخص هنا كلام العلامة الألوسي، حيث كان أجمع من رأينا للأقوال في هذه المسألة. يقول - رحمه الله^(٣): «وأجيب بأن الصلي ليس مطلق مقاساة حرها، بل هو مقاساته على وجه الأشدية، فقد نقل ابن المنير عن أئمة اللغة أن الصلي أن يحفروا حفيرة، فيجمعوا فيها جمرأ كثيراً ثم يعمدوا إلى شاة فيدسوها وسط أطباقه».

وبناء على هذا الكلام يكون المعنى أن الأشقى يعذب بين أطباقها، وأما الأتقى فيبعد عنها، فلا يصلها رأساً. وأما غير الأشقى وغير الأتقى، وهو

(١) ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤/ ٥٢١).

(٢) انظر العلامة الألوسي «روح المعاني»، كذلك إلى اختيار الزمخشري «الكشاف»، وهو أن الآية واردة في الموازنة بين حالتي عظيم من المشركين وعظيم من المؤمنين، فأريد أن يبالغ في صفتيهما المتناقضتين، فقليل: الأشقى، وجعل مختصاً بالصلي، كأن النار لم تخلق إلا له، وقيل: الأتقى، وجعل مختصاً بالنجاة، كأن الجنة لم تخلق إلا له، وقيل: هما أبو جهل أو أمية بن خلف، وأبو بكر رضي الله عنه واستحسن الألوسي هذا الكلام تبعاً لصاحب الكشاف بشرط ألا يقول بقول المعتزلة الباطل بتخليد عصاة المؤمنين في النار.

التقوى في القرآن الكريم

المؤمن العاصي، فلا يجنبها تجنب الأتقى، ولا يصلها صلي الأشقى، فيجوز أن يعذب بعصيانها، ولكن لا يعذب عذاب الأشقى الكافر بين أطباقها، ولكن ورود على وجهها، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ۖ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثْيًا ۖ﴾ ﴿٧٦﴾ فالؤمن الفائز يردّها ولا يجد ألمها وعذابها، والعاصي يعذب وينجو بعد ذلك والأشقى بين أطباقها، وتلك عقيدة أهل السنة.

وذكر العلامة أبو السعود وتبعه الألوسي، في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا أَتْبَغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ۖ﴾. أنه استئناف مقرر لمضمون ما سبق في قوله: ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَرَكَّى ۖ﴾ ﴿٧٨﴾.

وبتدقيق النظر، يظهر أن المعنى الثاني غير المعنى الأول. إذ معنى الأولى أنه يؤتى ماله ليكون زاكياً عند الله، ومعنى الثانية أنه هو المبتدئ بالنعم والأفضال، بغير تقدم نعم من أحد إليه لتكون مكافئته عليها، بل ابتغاء لوجه ربه الأعلى، فيكون المعنى الثاني أن يريد أن يكون مخلصاً في عمله، والأول يريد أن يكون زاكياً عند ربه، وهو من باب تكثير المعاني في النظم المعجز.

فالأتقياء إذا ليس همهم العمل فقط، بقدر ما يهمهم أن يكونوا مخلصين فيه لله تعالى، ولا يهمهم ثناء الناس وثناؤهم، وإنما يهمهم أن يكونوا أزكياً عند ربه.

لا جرم كانت هاتان الصفتان أهم صفات المتقين، التي إذا لم تتوافر مع بقية الصفات كانت عديمة الأثر، ليس أصحابها من المؤمنين الصالحين فضلاً عن كونهم أتقياء محسنين.

وهذه صفة جديدة من صفاتهم في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ۖ﴾ ﴿٣٣﴾ هُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ [الزمر: ٣٣-٣٤].

والقرآن الكريم ما زال زاخراً بصفات المتقين، يمدنا بالواحدة تلو الأخرى، ليكتمل لنا الصورة المشرقة لهؤلاء الأتقياء، ولتنجذب إليها تلك القلوب الملهفة على رضا الله تعالى، المتطلعة إلى قربهِ ومحبتِهِ، فتحذو حذوها، وتسلك سبيلها، وفي ذلك سعادتها في الدنيا والآخرة.

ومن تلك المناقب العظيمة - بل هي أولى مناقبهم - التي يبنى عليها تحققهم ببقية صفات التقوى، وشعائر المتقين، هي تصديقهم بما جاء به الرسول ﷺ من عند الله تعالى وحملهم هذا الصدق لغيرهم، وهو الحق والنور والخير، ليكونوا بذلك هداة مهتدين، يستحقون بذلك عظيم الجزاء عند ربهم. وللعلماء آراء كثيرة في تعريف من جاء بالصدق وصدق به، يحسن أن نذكرها لنتخَبَ الرأي المناسب للآيات من ناحية، ومن ناحية أخرى المناسب لصفات المتقين.

وقد جمع الإمام ابن جرير الطبري - رحمه الله تعالى - تلك الأقوال بأسانيدها، وتبعه عليها جمع من المفسرين، نحن نلخصها للوصول إلى المقصود. يقول الإمام ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في الذي جاء بالصدق وصدق به. فقال بعضهم: الذي جاء بالصدق رسول الله ﷺ. قالوا والصدق الذي جاء به: لا إله إلا الله، والذي صدق به أيضاً هو رسول الله ﷺ. ثم ذكر أن الذي قال ذلك من أهل العلم هو الإمام ابن عباس - رضى الله عنهما. واستطرد في ذكر بقية الأقوال، وهى أن آخرين قالوا: الذي جاء بالصدق رسول الله ﷺ، والذي صدق به أبو بكر ؓ. وهذا القول ينسب إلى علي بن أبى طالب ؓ. وقال آخرون: الذي جاء بالصدق رسول الله ﷺ، والصدق القرآن، والمصدقون به المؤمنون، وهو قول قتادة. وقال آخرون: الذي جاء بالصدق جبريل، والصدق القرآن الذي جاء به من عند الله، وصدق به رسول الله ﷺ، وهو قول السدى. وآخر قول ذكره عن مجاهد أن الذي جاء بالصدق المؤمنون، والصدق القرآن،

التقوى في القرآن الكريم

وهم المصدقون به، قال: الذين يحيئون بالقرآن يوم القيامة، فيقولون: هذا الذي أعطيتمونا، فاتبعنا ما فيه. (١)

والناظر في هذه الأحوال يستبعد القول القائل بأن جبريل هو الذي جاء بالصدق، لأنه لا يستقيم وسياق الآيات بعد ذلك في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾، إذ لا يليق ذلك بجبريل عليه السلام إذا قلنا إن ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ تعود على الذي جاء بالصدق وصدق به، لأنه سيدخل في قوله: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾، وكذلك لا يليق بالرسول ﷺ، لأن هذا القول صاحبه يزعم أن الذي صدق به هو الرسول ﷺ فكيف ينطبق عليه، لهذا الدليل رددت هذا القول، وهو مردود حتى لو قلنا إن ﴿أُولَئِكَ﴾ تشمل الذي صدق به فقط، لأنها وإن أخرجت جبريل عليه السلام من هذا التأويل الباطل، فقد أدخلت فيه الرسول ﷺ على أنه الذي صدق به، وهو باطل لا يليق به ﷺ.

أما القول القائل بأنهم المؤمنون، فهو القول العام الذي تشير إليه الآيات، ويكون هذا القول هو الملائم، المتناسب معها، وبالتالي يجوز أن يكون الرسول ﷺ أحد أفراد هذا العام، بل هو الأعظم ﷺ، وكذلك أبو بكر رضي الله عنه، بل هو أفضل المصدقين بالنبي ﷺ وأعلاهم درجة، وبذلك تجتمع هذه الأقوال. وفي اختيار هذا القول العام يقول أيضاً الإمام ابن جرير ما حاصله (٢):

(١) الإمام محمد بن جرير الطبري «جامع البيان»، مجلد ١١، (١٤/٣-٤).

وقد ذكر هذا الأقوال معظم المفسرين. انظر على سبيل المثال الزمخشري «الكشاف»، (٣٤٧/٣٦) و محمود الألوسي، «روح المعاني»، (١٣/٤-٥). وأبا حيان الأندلسي

«البحر المحيط»، (٩/٢٠٣-٢٠٤). وأبو الفرج ابن الجوزي «زاد المسير»، (٧/١٨٢).

(٢) انظر ابن جرير الطبري «جامع البيان»، مجلد ١١، (٤/٢٤).

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره عنى بقوله، والذي جاء بالصدق وصدق به، كل من دعا إلى توحيد الله وتصديق رسوله، والعمل بما ابتعث به رسوله ﷺ، وذلك يشمل الرسول ﷺ ومن قام بذلك من أتباعه، والصدق هو القرآن وشهادة أن لا إله إلا الله، والمصدق به المؤمنون بالقرآن من جميع خلق الله كائناً من كان، من نبي الله وأتباعه، وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب، لأن قوله تعالى ذكره جاء بعد ذم المكذبين بالصدق، المفتريين على الله، الجاحدين لوحدانتيته. فالواجب أن يكون عقيب ذلك مدح لمن كان بخلاف صفة هؤلاء المذمومين، والذين كانوا كذلك يوم نزلت هذه الآية رسول الله ﷺ وأصحابه. ويدخل في جملة الآية القائمون بذلك بعدهم، لأن الله تعالى مدح على الاتصاف بهذه الصفات، فمن اتصف بها في أى زمان كان منهم، وذلك على ما ذهب إليه - رحمه الله تعالى - بقراءة ابن مسعود رضي الله عنه: (وَالَّذِي جَاءَ بِالصُّدُقِ وَصَدَّقُوا بِهِ)، وبما ذهب إليه بعض أهل العربية من البصريين، بأن الذي بمعنى الجمع، كما ورد قول من قال: إن الذي جاء بالصدق غير المصدق به، لأنه مخالف لمفهوم السياق، إذ المفهوم من الكلام أن الذي جاء بالصدق هو المصدق به، لا وجه للكلام غير ذلك، لأنه لو كان غيره لتكررت الذى، أى الذي جاء بالصدق والذي صدق به، وهو بعيد المفهوم كما أشار. ^(١)

وإذا كنا قد اعتمدنا قول الإمام ابن جرير بالعموم، لأنه لا يتعارض مع حمل الآية على الرسول ﷺ وأبى بكر، أو الرسول ﷺ والمؤمنين. فلا بد أن نذكر أن قوله: «لا وجه للكلام غير ذلك» فيه نظر، لأن بعض أهل العلم، كالفخر الرازى والعلامة ابن عاشور، جعلاً للكلام وجهاً غير ذلك، مقبولاً في رأيها على الأقل، وهو أن قوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ جملة الصلة لموصول محذوف

(١) انظر المصدر السابق، مجلد ١١، (٢٤/٤).

التقوى في القرآن الكريم

الذي، ويكون الكلام: والذي جاء بالصدق والذي صدق به أولئك هم المتقون، وأن الحذف للإيجاز. ويكون الذي جاء بالصدق هو الرسول ﷺ والذي صدق به المؤمنون. بل قد ذكر ذلك العلامة ابن عاشور وجهاً واحداً معتمداً عنده، وأن ﴿الَّذِي﴾ هنا على معنى الجمع. ^(١)

ونلاحظ أن جملة ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ خبر عن اسم الموصول، والتعبير بـ ﴿أُولَئِكَ﴾ لتمييزهم أشد التمييز. وما يكون ذلك إلا لأنهم قد تحققوا مما جاء به النبي ﷺ علماً وعملاً ودعوة، إذ لا يعقل أن نشير إليهم بأنهم المتقون لا متقين غيرهم - وهو ما يفيد ضمير الفصل ﴿هُمُ﴾ من القصر عليهم - ويكون حظهم من ذلك مجرد التصديق، بل صدقوا بكل ما جاء به النبي ﷺ وآمنوا، وصدق فعلهم وسلوكهم إيمانهم وتصديقهم، ثم جاءوا غيرهم بهذا الهدى والنور ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وليس ذلك فقط، وإنما تنبئ الآية كذلك أنهم قد أخذوا الكتاب بقوة، حيث صدقوا به كله، وعملوا به كله، ودعوا إليه كله، لم يفرطوا في شيء، ولم يقصروا في شيء ظاهراً وباطناً، وإلا لما كانوا هم المتقين، الذين قصرت عليهم التقوى، ولما كانوا الممدوحين الأخيار، إذ كيف يكون تقياً ممدوحاً صالحاً من شك فيما جاء به الرسول الأعظم ﷺ، أو قصر في العمل، أو فرط في العمل، أو فرط في حمل

(١) الفخر الرازي «التفسير الكبير»، (١٣/ ٤٤٠). وعنده أن أبا بكر هو الذي صدق به. والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٧٤/ ٧-٨). وقد ذهب جملة من العلماء إلى أن حذف الموصول لا يجوز، فلعل هناك وجهاً أخذ به الفخر الرازي والعلامة ابن عاشور، خاصة مع تيقن اطلاعهما عليه، إذ هو مذكور فيما ينقلان عنه من كتب التفسير والعربية. العلامة محمود الألوسي «روح المعاني»، مجلد ١٣، (٢٤/ ٥).

مسؤولية تبليغه والدعوة إليه؟!

وذكرنا أن ضمير الفصل ﴿ هُمْ ﴾ يفيد القصر في قوله ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾، أى هم لا أحد غيرهم، فيفيد قصر جنس المتقى على الذي جاء بالصدق وصدق به. ولم يكن يوم نزول الآية إلا النبي ﷺ وأصحابه، فيكون المعنى أنه لا متقى إلا الرسول ﷺ وأصحابه، وأن أصحابه كلهم متقون، فتكون الآية واضحة الدلالة على أن رتبة صحبة النبي ﷺ عظيمة، وأن منزلتهم في التقوى أعلى المنازل، فإنهم لما أشرقت على نفوسهم أنوار الرسول ﷺ فظهرت ضمايرهم مما كانوا فيه، وصاروا موصوفين من الله بالتقوى، وتحقق فيهم ما أريد من إنزال القرآن في قوله: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ في نفس السورة.

لذلك رأينا رسول الله ﷺ ينبه على مكانتهم ﷺ أجمعين بقوله: «لا تسبوا أصحابي، فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»^(١).

وكأنه ﷺ يستشف الغيب ليرى أناساً منحرفين، يسيئون إلى الصحابة ﷺ يراهم وقد طعنوا بذلك في القرآن الذي شرف قدرهم وأعلى منزلتهم، حيث خالفوهم ووقعوا فيهم. والآيات والأحاديث غير ما ذكرنا كثيرة تدل على هذا المعنى.

لذلك أوصى أئمة السلف الصالح ألا يذكر أحدٌ من أصحاب النبي ﷺ إلا بأحسن الذكر، وبالإمساك عما شجر بينهم، وأنهم أحق الناس بأن يلتبس لهم أحسن المخارج فيما جرى بين بعضهم البعض، ويظن بهم أحسن المذاهب، فإنهم جميعاً قدوتنا، وواسطة تبليغ الشريعة إلينا، والطعن في بعضهم يفضي إلى الطعن

(١) رواه مسلم (٢٥٤٠). وانظر أبى زكريا النووى «شرح صحيح مسلم»، (٨/ ٣٣٢).

التقوى في القرآن الكريم

في القرآن، ولذلك أثبت علماؤنا عدالة جميع أصحاب النبي ﷺ، إذ هم المتقون البررة، أصحاب الرسول العظيم، الذي لم يكن الله - جل وعلا - ليختار له إلا أحسن الاختيار ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهِجْرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

ولما قصر القرآن الكريم على هؤلاء الأصفياء جنس المتقين، وأثنى بذلك عليهم هذا الثناء البالغ، كان يقتضى ذلك أن يسأل السامع عن جزاء هذه المزية العظيمة. ومعناها أن لهم كل ما يتمنون ويريدون في الجنة، وهو كناية عن سعة العطاء، الذي يقول فيه الرسول ﷺ: «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»^(١)، وهو كما يقول من أسديت إليه عملاً عظيماً: لك عندي ما تسأل، وأنت تريد غاية الإحسان إليه. والمؤمن خير بعظم جزاء قد التزمه له ربه، وأي جزاء أعظم من أن يلتزم لهم بكل ما يشاءون، ومن أصدق من الله قيلاً؟ ومن أعظم منه عطاءً وكراماً؟ وقد أضيف إلى الربوبية لينوه بعظيم ما أعد لهم - جل وعلا، وبالعندية للتشريف لهم ورفع منزلتهم.

ثم أشار إلى ما يشاءون باسم الإشارة ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ لتضمنه كذلك تعظيم شأن المشار إليه.^(٢)

لم يكن الغرض فيما سبق هو ذكر جزاء المتقين، فله فصل خاص، وإنما الوصول إلى تلك الصفة من صفات المتقين، التي وصفهم بها القرآن الكريم مع

(١) رواه البخارى (٣٢٤٤) وانظر الحافظ بن حجر العسقلانى، «فتح الباري»، (٦/٣١٨).

ورواه مسلم (٢٨٢٤). وانظر أبى زكريا النووى «شرح صحيح مسلم»، (٩/١٨١) كلاهما عن أبى هريرة ؓ.

(٢) انظر العلامة ابن عاشور «التحرير والتنوير»، (٨/٢٤).

التقوى في أكثر من موضع، وهى صفة الإحسان، كقوله في سورة آل عمران: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، وقوله في سورة الذاريات: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: ذلك جزاؤهم، فأظهر وصفهم في مقام الإضمار، وأظهره بالإحسان وليس بالتقوى، ليفيد الثناء عليهم بهذه الدرجة العليا من درجات الدين، وهى أن تعبد الله كأنك تراه، وهى كمال التقوى. فكل صفات التقوى السابقة لا يصل أهلها إلى ذروة سنامها إلا بالإحسان، وهم تبوءوا هذه المكانة وتلك القمة، فاستحقوا بذلك الثناء والجزاء.

فأى إحسان وأى تقوى أعظم من نبذ الصحابة ما نشأوا عليه من عبادة الأصنام، ومن تحملهم مخالفة أهليهم وذويهم وعداوتهم وأذاهم، ومن صبرهم على مصادرة أموالهم ومفارقة نسائهم، تصديقاً للذى جاء بالصدق، وإيثاراً لرضا الله على شهوة النفس ورضا العشيرة. (١)

وإلى الموضع التالى من صفات المتقين حيث يقول الرب - جل وعلا: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ هُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّيْهُمْ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [النحل: ٣٠-٣٢]:

كانت الآيات السابقة تبين لنا ما اتصف به المتقون مما يجب الله تعالى من صفات. أما هذه الآيات الكريمة فهى توضح لنا هؤلاء المتقين، واعتقادهم فيما أنزل الله - جل وعلا، وما جاء به النبى ﷺ، وأنه اعتقاد جازم لاشك فيه ولا

(١) انظر الطاهر بن عاشور التحرير والتنوير، (٩/٢٤).

التقوى في القرآن الكريم

تردد مع الانسراح به والمحبة له، حيث لم يتلعثموا ولم يترددوا عندما سئلوا عما أنزل ربهم أن قالوا: أنزل خيراً في الدنيا والآخرة، خيراً تصلح به أحوال المرء والمجتمع والدنيا بأسرها، رحمة وبركة لمن تبعه في الأولى ويوم القيامة. فكانت إجابتهم مطابقة للسؤال سبكاً، ومطابقة للواقع مضموناً.

والآيات - كما نقرأ - معطوفة على ما قبلها، حيث ذكر القرآن الكريم صفات الظالمين الكافرين الجاحدين، الذين لما سئلوا نفس السؤال قالوا: أساطير الأولين «برفع أساطير»، أى هو أساطير الأولين وليس من الإنزال في شيء. وهو الفارق بين النصب في إجابة المتقين والرفع في إجابة الجاحدين.^(١)

ذكر أهل التفسير أن هذه الآيات نزلت عندما وقف كفار مكة للمؤمنين بالإيذاء، فتنة لهم عن دينهم، وصدأً لغيرهم عن الإيمان، حيث أرصدوا رجالهم ليعترضوا الوافدين إلى مكة المكرمة أيام الموسم، ليحذروهم من النبي ﷺ ومن الإيمان بما جاءهم به من عند الله، قائلين لهم: إنه مجنون وساحر، وما يتلوه أساطير الأولين، فيرجع الوافدون بذلك إلى أقوامهم. ومن حاول منهم أن يستطلع أمر النبي ﷺ والمؤمنين، وأن يسمع قولهم ويعلم شيئاً عن دينهم، حتى لا يكون شر وافد لقومه إذا رجع بغير مقابلة الرسول ﷺ والمؤمنين، فإنه يقابل المؤمنین لیسلم منهم، فإذا إجابتهم أن الله أنزل خيراً للناس في الدنيا والآخرة - إن هم أطاعوه واتبعوه - فيكون ذلك سبب إسلام بعضهم.^(٢)

والذى يعيننا في هذا الخبر هو مدى تصديق المتقين الجازم بما أتاهم به النبي

(١) انظر جار الله الزخشري «الكشاف»، (٣٢٧/٢). والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٤١/١٤). وأبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (٢٦٠/٣). وابن جرير الطبري «جامع البيان»، مجلد ٧، (٦٩/١٤)، وغيرها.

(٢) انظر ابن جرير الطبري «جامع البيان»، مجلد ٧، (٦٩/١٤).

﴿والتمسك به، والجهر به، وإعلانه في مثل تلك الظروف السيئة وتلك الأيام العصبية، مع وصفهم إياه بأنه الخير الذي لا خير سواه، سواء في توحيدهم ونبذهم الأصنام، أو في عبادتهم ومعاملاتهم وأخلاقهم، وكذلك فيما ينتظرهم من الجزاء الذي هو من جنس اعتقادهم الجميل﴾ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ.

وأشارت الآية في جواب المؤمنين إلى معنى يهم كل أحد، وهو سؤاله عن دنياه وحاله فيها إذا هو آمن؟ فكان ردهم أن للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة. وعبر بالإحسان- كما هو شأن القرآن الكريم كما أشرنا من قبل في الإشادة بالمتقين - إذ الإحسان أعلى درجات التقوى، وهو عمودها، والمهم فيها.

وحسنة الدنيا التي تهمهم تشمل كل ما تكون، به حياتهم حسنة، أى تلك الحياة الطيبة الرضية مع ما يضيفه سبحانه إليه من نصر وفتح، أو من رزق ومتاع، أو من زوجة تقية وأولاد صالحين، أو رفعة وذكر حسن وثناء جميل. فتلک حسنة المتقين في الدنيا، الذين حسن اعتقادهم فيما أنزل ربهم، وقابلوه بالطاعة والانقياد، والتسليم والرضا.

ولا يظن ظان أن ذلك منهم كان مجرد التصديق بغير عمل التقوى، بل لو كان كذلك لكان المشركون أول الناس إنكاراً عليهم بقولهم: إذا كان ذلك خيراً فلم لا تعلمون به ولا تقومون عليه؟

ونلاحظ في الآية أيضاً أن السؤال كان للمؤمنين في مكة المكرمة: ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾، وإنما عبر القرآن الكريم بـ ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾، ولم يقل للذين آمنوا مثلاً، لأن جوابهم هذا الجميل كان ناشئاً عن أعظم صفاتهم، وهى صفة التقوى. فكانت التقوى مصدر تسليمهم وإذعانهم وصبرهم ودعوتهم.

وهذا المعنى بمفهومه يجرنا إلى قضية مهمة وخطيرة هذه الأيام، وهى قضية الطعن في الشريعة والإسلام من المتسمين بأسماء إسلامية وتحت مسميات براءة: التنوير، وجعل الشريعة متوائمة مع العصر، وتأويل الأحكام التي لا تتفق مع

التقوى في القرآن الكريم

الحداثة، والعمل بروح الشرع، وفصل الدين عن الدنيا أو الدولة، والاعتراض على أحكام الدين اعتراضاً ظاهره الرحمة وباطنه الكفر، وكل ذلك ليس من استقبال ما أنزل الله وما جاء به رسوله ﷺ بالتسليم وبكونه خيراً في شيء، بل للأسف هو أشبه بقول الظلمة الجاحدين: أساطير الأولين، وذلك دلالة على أنهم ليسوا متقين، لأننا علمنا رأى المتقين فيما جاء به الرسول ﷺ، فمن قال فيه غير ذلك فليس من التقوى في شيء. فتيقنا بذلك أن هؤلاء ليسوا متقين مع حسن الظن بهم، فما بالك لو ذكرنا فيهم ما يستحقون، أقله العمالة الفكرية، وتنقص الشريعة، كآسأتهم من المستشرقين والمستغربين، ليسوا كأسلافهم مؤمنين.

وأفادت الآيات علو مكانة الصحابة مرة أخرى عند الله - جل وعلا، لأن الآيات نزلت فيهم، فكان المعنى أن أصحاب النبي ﷺ هم الأتقياء المحسنون، الذين كانت عقيدتهم أن ما جاء به الرسول من عند الله تعالى هو الخير، وكذلك كان تطبيقهم لذلك الخير، حيث تمثلوه سلوكاً واقعاً، ونشروه علماً ودعوة، مع تحملهم في سبيل الله - سبحانه - كل أنواع الأذى، فصاروا بذلك قدوة المؤمنين المتقين، ومثلهم الأعلى المنشود.

ثم استطردت الآيات - بعد ذكر ما أعد الله للمتقين من ثواب، جنات لهم فيها ما يشاءون - إلى وصف آخر من أوصاف المؤمنين المتقين، وهو أنهم تتوفاهم الملائكة طيبين، على عكس الظالمين الجاحدين الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم، فهم يخالفونهم عقيدة وسلوكاً، وعاقبة ووفاة.

والطيب: بزنة (فَيْعِل)، مثل: قِيم، ومَيِّت. وهو مبالغة في الاتصاف بالطيب، وهو حسن الرائحة. ويطلق على محاسن الأخلاق وكمال النفس، على وجه المجاز، فتوصف به المحسوسات كقوله تعالى: ﴿حَلَلًا طَيِّبًا﴾ [البقرة: ١٦٨]، والمعانى والنفسيات، كقوله تعالى: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ [الزمر: ١٦٨].

[٧٣]، وقولهم: طبت نفساً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ [الأعراف: ٥٨]، وفي الحديث: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً»^(١)، أى: ما لا طيباً حلالاً.

فقوله تعالى هنا: ﴿طَيِّبِينَ﴾ يجمع كل هذه المعاني، أى: تتوفاهم الملائكة منزهين من الشرك والدنس ومن كل سوء، فرحين مطمئنين ببشارة الملائكة إياهم بالجنة، قد وصفوا اعتقاداً وعملاً وخلقاً ونفساً وظاهراً وباطناً بأحسن الصفات وكريم السجايا.

وتشير الآية إلى الأهم في هذه الصفة وهى أن ما هم فيه من طهارة ظلوا عليه حتى وفاتهم، أى عاشوا دنياهم مطهرين من كل ما أشرنا، متصفين بكل ما ذكرنا، إلى أن جاءتهم ملائكة الموت يسلمون عليهم، ويبشرونهم برضا الله عنهم، ويدخلوهم الجنة.

فكانت تلك البشريات لأهل الإيمان الأتقياء حثاً^(٢) للمؤمنين أن يتطهروا بالتقوى، وأن تطيب نفوسهم وأعمالهم، ثابتين على ذلك حتى الممات، عندما يقال له: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طَبْتُمْ فَادْخُلُوهَا﴾ [الزمر: ٧٣].

فراينا هذه الصفة الجديدة تضاف لصفات المتقين التي يجب أن يحرص عليها المؤمنون، أن تطيب جوارحهم وقلوبهم وأبدانهم بأعمال التقوى وأقوالها، واعتقاداتها وأخلاقها، لا أن يتصفوا بها فقط، وكذلك ألا يتمللوا من حلها، بل يكونوا ثابتين عليها، متمسكين بها، إلى بشارة الملائكة لهم عند قبض أرواحهم: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾

(١) الحديث رواه مسلم (١٠١٥). وانظر النووى «شرح صحيح مسلم»، (١٠٧/٤).

ورواه الترمذى (٢٩٨٩).

(٢) انظر العلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (٣/٢٦١).

[فصلت: ٣٠].

يقول الإمام الفخر الرازي: «وقوله تعالى: ﴿طَيِّبِينَ﴾ كلمة مختصرة جامعة للمعاني الكثيرة، وذلك لأنه يدخل فيه إتيانهم بكل ما أمروا به، واجتنابهم عن كل ما نهوا عنه، ويدخل فيه كونهم موصوفين بالأخلاق الفاضلة، مبرئين عن الأخلاق المذمومة، ويدخل فيه كونهم مبرئين عن العلائق الجسائية، متوجهين إلى حضرة القدس والطهارة، ويدخل فيه أنه طاب لهم قبض الأرواح، وأنها لم تقبض إلا مع البشارة بالجنة، حتى صاروا كأنهم مشاهدون لها، ومن هذه حاله لا يتألم بالموت»^(١).

وإلى موضع آخر من صفات المتقين وهو قوله تعالى:

﴿لَا يَسْتَعْذِرُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤٤]:

وجاء دور الجهاد بالمال والنفس، وهو ذروة سنام الإسلام، حيث نرى المتقين وقد تبوءوا الدرجة العالية منه، وحازوا فيه قصب السبق. وصفات المتقين السابقة كالنوطنة والتمهيد لهذه السجية الحسنة من سجاياتهم، فإنه لا يستطيع المؤمن أن يجاهد عدوه الخارجى ويثبت له إلا أن يكون قد جاهد عدوه من داخله، نفسه وهواه وشيطانه، إذ كل أولئك من عوامل التثييط والهزيمة والفرار أمام العدو الخارجى. فمتى انتصر المؤمن على هؤلاء الأعداء - بتحقيق صفات التقوى السابقة - فإنه جدير أن ينتصر على عدوه المتربص به أو الغازى له، لأنه إذا ما انهارت خطوط الدفاع الأولى بهبوط المعنويات، وتزلزل الإيمان، وضعف القوى الدافعة، فإن الهزيمة أقرب شىء لمثل هؤلاء، وإن نصر أعدائهم عليهم هو الراجح. وقد رأينا مصداق ذلك وبرهانه فيما وصل إليه حال

(١) الفخر الرازي «التفسير الكبير»، (٩/٥١٨).

المسلمين اليوم، لما فقدوا مقومات النصر - وهى ملخصة في قوله تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ - خذلهم الله تعالى، وترك نصرهم، فتمكن منهم عدوهم.

إن بذل المال والنفس في سبيل الله تعالى هو التجارة الربحية: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ - وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

والمثقون لما علموا ذلك ضربوا في هذه التجارة بأوفر سهم، وإلا لم يستحقوا أن يكونوا هم المتقين، أولياء - جل وعلا، إذ لا يبخل عليه - سبحانه - بما وهب متقياً أبداً، وهو بخل على نفسه وعلى نجاتها.

ونستطلع الآية الكريمة فإذا هى تبين أن المتقين على خلاف المنافقين، فإن المنافقين يستأذنون النبى ﷺ ليس ليجاهدوا بل ليتخلفوا عن الجهاد، وذلك دأبهم أبداً. أما المثقون فإنهم لا يستأذنون في الجهاد، ولا ينتظرون السماح لهم به، بل يخرجون زُرَافَاتٍ ووحداً بمجرد سماعهم «حى على الجهاد»، يطلبون إحدى الحسين: النصر أو الشهادة. ويكون معنى الآية على هذا التفسير: إن المتقين لا يستأذنون في أن يجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، بل يبادرون إليه بدون توقف على الإذن، وأما التفسير الثانى فهو أن المتقين لا يستأذنون في التخلف وترك الجهاد، ويكون المعنى: لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر لئلا يجاهدوا، وذلك كقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَضِلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦]، أى: لئلا تضلوا، ودل على ذلك سياق الآيات من قبل ومن بعد، إذ هى في ذم التخلف.

والمعنيان حق، لأن المتقين لا يستأذنون في الجهاد، فضلاً عن الاستئذان

التقوى في القرآن الكريم

للتخلف ولا يتوقفون في بذل أنفسهم وأموالهم لله تعالى على إذن، بل يبادرون ويتسابقون ويسارعون. وكان الأكابر من المهاجرين والأنصار يقولون: لا نستأذن النبي ﷺ في الجهاد، فإن ربنا ندبنا إليه مرةً بعد أخرى، فأى فائدة في الاستئذان؟ وكانوا بحيث لو أمرهم الرسول ﷺ بالعودة لشق عليهم ذلك. فهذا على بن أبى طالب، لما أمره رسول الله ﷺ في غزوة تبوك بأن يبقى في المدينة شق عليه ذلك، ولم يرض إلى أن قال له الرسول ﷺ: «أنت منى بمنزلة هارون من موسى». (١)

روى أبو هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «من خير معاش الناس رجل أمسك بعنان فرسه في سبيل الله يطير على متنه، كلما سمع هَيْعَةً أو فرعاً طار على متنه يبتغى القتل أو الموت مَطَانَةً». (٢)

والآية الكريمة ابتدأت بنفى المضارع الدال على الاستمرار، فلا يبعد أن يكون المعنى أن تلك عاداتهم في عدم الاستئذان، كما قال الحماسى:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا^(٣)

وأساس الجهاد والدافع له والحامل عليه أشار إليه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، وهو كذلك ما جعل المنافقين لا يجاهدون لخلو قلوبهم منه. وذكر الإيمان بالله واليوم الآخر من دون بقية عناصر الإيمان، لأنها ركيزته وأصله الذي تنبنى عليه الطاعة والعمل الصالح، فإن الإيمان بالله يحث المرء على العمل محبةً لله تعالى، ورجاءً فيه، وخوفاً منه، وطلباً لرضاه،

(١) صديق خان «فتح البيان»، (٤/١٣٧).

(٢) رواه مسلم (١٨٨٩)، وانظر النووي «شرح صحيح مسلم»، (٧/٤١).

(٣) انظر العلامة الألوسى «روح المعانى»، (٦/١٥٨-١٥٩). وكذا: الفخر الرازى

«التفسير الكبير»، (٨/٢٣-٢٤).

والإيمان باليوم الآخر يسوق المؤمن إلى الطاعة والمصارعة إليها خشية العرض على الله تعالى، وخوفاً من الحساب والعقاب، وطمعاً في الأجر والثواب. علاوة على أن العمل بسبب الإيمان بالله واليوم الآخر دليل الإخلاص، فإن المخلص يعمل يريد بعمله وجه الله والدار الآخرة، وهي صفة مهمة كما ذكرنا من قبل في صفات المتقين، لا يقبل عمل غيرها، بل على العكس إذا لم تتحقق فإن عقاب الله هو الجزاء حيثئذ. وهي في الجهاد لا بد أن تكون أشد وضوحاً: أن يجاهد المرء يريد الله تعالى والدار الآخرة، لا يريد بجهاده بنفسه وماله شيئاً آخر، كما سئل النبي ﷺ: الرجل يقاتل حمية، ويقاتل شجاعة، ويقاتل رياءً، أى ذلك في سبيل الله؟ قال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»^(١). فكان التنصيص على الإيمان بالله واليوم الآخر لتلك المعاني، ولا متلاء قلوب المتقين منها.

ونعود إلى الكلام على المتقين، حيث نرى الآية وقد ختمت بقوله - جل شأنه: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾، لتكون شهادة لأولئك السابقين بالتقوى، لوضع المظهر موضع المضمّر، إذ السياق: والله عليم بهم، فلما قال: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ دل على تلك المنقبة العظيمة لهم. وتحتل الآية جنس المتقين، ويكون المذكورون داخلين فيهم دخولاً أولاً. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ عدة لهم بالثواب الجزيل، فإن قولنا: «أحسنتم إلى فأنا أعلم بالمحسن» وعدُّ بأجزل الثواب، و«أسأت إلى فأنا أعلم بالمسيء» وعيدٌ بأشد العقاب.

ويمكن أن نقول أيضاً: إن قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ تقرير لمضمون ما سبق، كأنه قيل: والله عليم بأنهم كذلك.^(٢)

(١) الحديث رواه البخارى (١٢٣)، ومسلم (١٩٠٤)، وأبو داود (٢٩١٧)، والترمذى

(١٦٤٦)، والنسائى (٢٣/٦)، وابن ماجه (٢٧٨٣).

(٢) انظر لما سبق العلامة الألوسى «روح المعانى»، مجلد ٦، (١٠/١٥٩-١٦٠).

التقوى في القرآن الكريم

وفيه أمر مهم ينبئ عن التقوى ذاتها وما يصدر عنها من خير، وهو أن ما صدر منهم من المسابقة إلى الجهاد وغيره إنما هو معلل بالتقوى^(١)، بكونهم متقين. ويكون معناه أن تقواهم سبب تلك الأخلاق الفاضلة، والأعمال الجليلة، والصفات الحسنة التي رأيناها منهم.

ونلاحظ في الآية الكريمة أنها لم تذكر في صفات المتقين أنهم يجاهدون بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، بل قالت: ﴿لَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾^(٢)، وكأنه معلوم قصدهم ووجهتهم من أحوالهم الحسنة، أنهم لا يجاهدون إلا في سبيل الله تعالى، ليس لهم هدف إلا رضاه - جل وعلا. ويؤيد هذا أنهم لا يستأذنون، بل يسارعون بغير توقف على إذن إلى الجهاد بأموالهم وأنفسهم. ولا تكون المسارعة من هؤلاء الأتقياء إلا في سبيل الله تعالى، لا لشهوات النفس وحظوظها. فكان هذا الإضمار في غاية المدح لهم والثناء عليهم.

وهذا على عكس المنافقين، حيث صرح القرآن الكريم بكرهاتهم للجهاد في سبيل الله، وليس للجهاد فقط، فقال تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلَفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، أي: كأنه يقول: وكرهوا أن يجاهدوا في أعظم سبيل وأشرفه وأكرمه. وهذا يبين لنا درجة المتقين وثناء الله عليهم وحسن عاقبتهم.

والموضع التالي من صفات المتقين:

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَافٍ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

(١) انظر العلامة الألوسي «روح المعاني»، (٦/١٥٩). وكذلك أبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (٢/٤١٢-٤١٣).

وإذا كان المتقون - كما ذكرنا من قبل - قد اتصفوا بتلك الصفات النبيلة والأعمال الحسنة، فإنهم في نفس الوقت ليسوا معصومين من الخطأ، ولا منزهين كمال التنزه من الوقوع في المخالفة، بمقتضى بشريتهم. ولكنهم لتقواهم ليسوا كغيرهم من البشر الخاطئين، ولا كغيرهم من المؤمنين المذنبين، سواء في وسوسة الشيطان لهم ومحاولة الإيقاع بهم، أو في استجابتهم لكيدته ونزغته.

إن الآية الكريمة تبين لنا ذلك من خلال التقرير والتأكيد لقيمة التقوى، فالمتقون يطيف بهم الشيطان، يريد انتهاز الفرصة ليقعهم في المعصية، يحاول جهده أن يصل إليهم، وإذا وصل فإنما هو مس لا يصل إلى درجة التمكن وحقيقة الهلاك. ومع ذلك لا يطول بهم مسه، إذ سرعان ما يتذكرون ربهم وأمره ونهيه، وجلاله وعظمته، وعذابه ونقمته، ليرجعوا إلى الله، فتزول عنهم تلك الغشاوة، وتنقشع عن بصائرهم هذه الظلمة، ليبصروا بسرعة طريق الله وسنة نبيه مرة أخرى، فيزيجوا عنهم خواطر الشيطان ويرجعوا إلى سبيل ربهم، ويستعينوا بما طاف بهم من وساوس الشيطان، ويتوبوا مما يكون قد مسهم من كيدته لهم بالمعصية والمخالفة.

كل ذلك على خلاف غيرهم - الذين ذكرهم الله بعد ذلك - بأن الشياطين إخوانهم، أى ملازمون لهم لا ينفكون عنهم، لشدة تمكّنهم منهم، يوقعونهم في الأهواء والمعاصي والشهوات، وفي نفس الوقت لا يبصرون ولا هم يذكرون ليرجعوا أو يتوبوا، بل كما ذكر الله تعالى: ﴿يَمُدُّوهُمْ فِي أَغْيَى ثَمَرٍ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٢] وهذه الحالة ابتداءً وانتهاءً قد صورها القرآن الكريم في قوله: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ۖ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٧].

أما المتقون الخالص من عباد الرحمن، فقد ذكر المولى - سبحانه وتعالى - حسن حالهم على لسان الشيطان نفسه، فقال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا أُغْوِيَنَّهُمْ

التقوى في القرآن الكريم

﴿أَجْمَعِينَ﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٢﴾ [ص: ٨٢-٨٣]. وهذا يبين لنا بوضوح وجلاء قيمة التقوى في حفظ أهلها من نزغ الشيطان ووسوسته وإغوائه، وأنها الحصن الآمن لهم من ذلك، وفي نفس الوقت هي قوى الإيمان الكامنة في قلوبهم، التي سرعان ما تعود بهم إلى طريق الحق، وإبصار الصواب، والتحرز من مكاييد الشيطان ومواطن الخطأ.

ويبين لنا صفة مهمة من صفات المتقين، وهي سرعة تذكرهم وإبصارهم ورجوعهم إلى الحق وإلى الطريق المستقيم.

يقول صاحب «روح المعاني» العلامة محمود الألوسي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ استئناف مقرر لما قبله - أى في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ - من الأمر ببيان أن الاستعاذة سنة مسلوكة للمتقين، والإخلال بها شنشنة الغاوين، أى إن الذين اتصفوا بتقوى الله تعالى إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا، أى لمة منه - كما روى عن ابن عباس، وتنوينه للتحقير، والمراد وسوسة ما، وهو اسم فاعل من طاف بالشئ إذا دار حوله.

وجعل الوسوسة طائفاً للإيذان بأنها وإن مست لا تؤثر فيهم، فكأنها طافت حولهم ولم تصل إليهم. وجوز أن يكون من طاف طَيفَ الخيال إذا ألم في المنام، فالمراد به الخاطر «الشیطاني». وذهب غير واحد إلى أن المراد بالطائف الغضب.

والمراد بالشيطان الجنس، لا إبليس فقط، ولذا جمع ضميره فيما سيأتى. فإذا حدث لهم شئ مما سبق تذكروا ما أمر الله تعالى به ونهى عنه، أو الاستعاذة به تعالى والالتجاء إليه سبحانه، أو عداوة الشيطان وكيد، فإذا هم بسبب ذلك التذكر مبصرون مواقع الخطأ ومناهج الرشد، فيحترزون عما يخالف أمر الله، وينجون عما لا يرضيه سبحانه وتعالى. (١)

(١) انظر العلامة محمود الألوسي «روح المعاني»، (٦/ ٢١٥).

ونلاحظ على الآية:

أولاً: أن كلمة ﴿إِذَا﴾ من قوله: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ﴾ مع التعبير بفعل ﴿مَسَّهُمْ﴾ الدال على إصابة غير مكينة - كما ذكرنا - إشارة إلى أن الفزع إلى الله من الشيطان، عند ابتداء إلام الخواطر الشيطانية بالنفس، لأن تلك الخواطر إذا أهملت أو أهملت وتمادى معها المرء لم تلبث أن تصير عزمًا ثم عملاً، لذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ﴾ [البقرة: ١٦٨]، لأنه كل ما يقع المرء فيه من الموبقات مبتدأه الاسترسال مع تلك الخواطر الشيطانية، لأن الشيطان لا يأمر بالزنا والسرقة مباشرة، ولكنه يوسوس ويزين خطوة خطوة، حتى يقع المرء في شركه وأذاه.

لذا كانت منقبة عظيمة من مناقب المتقين أن -نرسوا خواطرهم، ولم يسترسلوا فيها مع الشيطان، بل لجأوا إلى الله تعالى، واعتصموا به عند أول كيد له وخواطر منه، وصدوا تلك الوسوس مبصرين مناهج الرشد ورضا الله تعالى، وهو ما ينبغي أن يقوم به المؤمن في تلك الأحوال.

ثانياً: أن الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ للتعقيب، وهى لتفريع الإبصار على التذكر. وقد أكد معناها بـ ﴿إِذَا﴾ الفجائية الدالة على حصول جملتها دفعة بدون تريث، أى تذكروا تذكر ذوى عزم، فلم تترث نفوسهم أن تبين لها الحق الوازع عن العمل بالخواطر الشيطانية فابتعدت عنها، وتمسكت بالحق، وعملت بما تذكرت، فإذا هم ثابتون على هداهم وتقواهم.

ثالثاً: أن الإبصار هنا استعير للاهتمام، كما يستعار العمى - وهو ضده - للضلال، أى: فإذا هم مهتدون ناجون من تضليل الشيطان وغشاوته وإظلامه طريقهم، لأن الشيطان أراد إضلالهم فسلموا من ذلك. ووصفه باسم الفاعل دون الفعل للدلالة على أن الإبصار ثابت لهم من قبل، وليس شيئاً متجدداً، ولذلك أخبر عنهم بالجملة الاسمية الدالة على الدوام والثبات، ويقوى هذا

التقوى في القرآن الكريم

المعنى قوله تعالى: ﴿تَذَكَّرُوا﴾، والتذكر استحضار المعلوم السابق الذي يدل على تقواهم. ^(١)

فكانت الآية الكريمة دالة على عدة مناقب للمتقين المحسنين، تبين حسن صلتهم بالله تعالى، مع عناية الله - جل وعلا - بهم، بسبب ما قدموا من تقوى كانت السياج الواقى الذي كان لا يتمكن بسببه الشيطان منهم والنور الذي تنقشع به الظلمة، والبصيرة التي تزول بها الغشاوة عن عيونهم وقلوبهم. وهاتان صفتان أخريان من صفات المتقين:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنبياء: ٤٨-٤٩]:

ذكرت الآية الكريمة صفتين من صفات المتقين، وهى وإن نزلت في اليهود، فإن تقوى الله لا تختلف صفاتها، حيث هى دعوة الرسل جميعاً إلى الله تعالى، ومصداق ذلك من الآية الكريمة الأولى حيث وصفت التوراة بما وصف الله جل وعلا به القرآن الكريم من كونها فرقاناً وضياءً وذكراً، وهى بعينها من أوصاف القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ١]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] وهذا يدل على وحدة مصدر الرسالات الصحيحة إلى الإنسانية، وعلى أن هذه الرسالات كلها فرقان بين الحق والباطل، وبين الهدى والضلال.

ونعود إلى ما ذكرت الآية من صفات المتقين، فكانت الصفة الأولى لهم هى

(١) وانظر العلامة محمد طاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٩/ ٢٣٢-٢٣٣).

أنهم يخشون ربهم بالغيب، وإن قلنا إن هذه الصفة هي أعظم مناقب المتقين بعد الإيمان بالله لم نبعد، لكونها الحاملة لهم على كافة الصفات السابقة؛ فإن خشية الله تعالى تحمل على الصلاة والزكاة وأداء بقية أركان الدين، وكذلك تحمل على التوبة والاستغفار والإنابة إلى الله - سبحانه وتعالى، كما تحمل بلا شك على الصدق والإخلاص وأداء الأمانة، وترك الغش والكذب والخديعة، وتحث على المعاملة الحسنة والأخلاق الراشدة إذ هي منبئة عن مراقبة الله - سبحانه وتعالى.

ونلاحظ أن الآية ذكرت خشية المتقين لله تعالى بالغيب، أى خوفهم منه، حيث لا يطلع عليهم أحد، إذ في عدم وجود الخلق يسهل ارتكاب المعصية، والوقوع فيما يغضب الله تعالى أو تحملهم خلوتهم على الكسل عن الطاعة والتفريط في أوامر الله، إذ المرء يخشى ذلك عند رؤية الناس له. فما بالك بخشيتهم لله تعالى في العلانية. فهم يخافون ربهم في خاصتهم، لا يريدون بذلك رياء، ولا لأجل خوف الزواجر الدنيوية، والمذمة عند الناس^(١) فمن باب الأولى يخشون ربهم في علانيتهم.

هؤلاء المتقون إذن يكون القرآن الكريم لهم فرقاناً وضياءً وذكرًا فهم مختصون بذلك كما ذكرنا في سورة البقرة تخصيص المتقين بالهداية.

وأما الصفة الثانية لهم هنا فهي الإشفاق من الساعة، وهو الخوف والحذر منها، إذ هي الطامة الكبرى، التي لا يغنى فيها مولى عن مولى شيئاً، ولا يدفع فيها سلطان ولا جاه ولا مال، والتي لا يغنى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً، بل على العكس يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه، يوم يقوم الناس لرب العالمين، وذلك لما يغشى الناس من الأهوال والكرب، ولا يدرى المرء أين يذهب به، المتقون تقوم بقلوبهم

(١) انظر العلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٧/ ٩٠).

تلك الشواهد من شواهد الآخرة تدفعهم إلى دوام تذكر ذلك اليوم، الذي لا ينجى فيه إلا العمل الصالح وتقوى الله تعالى، فيبعثهم على الاستعداد له، وحسن الورود عليه بما يقيمهم تلك الأهوال، وأن التقصير والتفريط، أو المعصية والمخالفة يزيد عليهم تلك الأهوال والكرب، التي لا قبل لأحد بشيء منها.

ونلاحظ في الآية استخدام المضارع ﴿تَخْشَوْنَ﴾ في الغيب، وهو يدل على تكرار ذلك منهم، فما يكونون في الغيب إلا وخشية الله تعالى تحوطهم، أى يخشونه في كل غيب.

وأما الإشفاق من الساعة فقد أثر القرآن الكريم الجملة الاسمية وذلك للدلالة على ثبات الإشفاق ودوامه، أى إن وصفهم الملازم لهم هو الخوف من القيامة، وهذا يبين تلك المنزلة الرفيعة التي لا يصل إليها إلا من وصل إلى درجة عالية من التقوى، بحيث لا تغيب الساعة عن خاطره، مما يدل على تمام التحرز وكمال الاستعداد، وهذا يدل على أن المتقين في واد والناس في واد آخر.

ونلاحظ أن الآية بعدما بينت خشيتهم على الإطلاق، خصصت الساعة بإشفاقهم، وفي ذلك يقول العلامة أبو السعود في تفسيره «إرشاد العقل السليم: «وتخصيص إشفاقهم منها بالذكر بعد وصفهم بالخشية على الإطلاق للإيدان بكونها معظم المخوفات، وللتخصيص على اتصافهم بضد ما اتصف به المستعجلون»^(١) ويقصد بـ«المستعجلون» الذين جاء ذكرهم في قوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨]، والمستعجلون أى الذين يطلبون تعجيل قيام الساعة والإسراع بذلك من النبى ﷺ ليبين صدقه، وما قالوا ذلك إلا

(١) العلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (٣/ ٥٢٢)، وكذلك الألوسى «روح المعاني» بنصومه (١٧/ ٦٨).

تهكماً واستهزاء، وكناية عن اتخاذهم تأخرها دليلاً على عدم وقوعها وهم آيسون منها كما دل عليه القول المقابل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾: فكان ذلك برهان تقوى المؤمنين إيماناً وعملاً.

وهكذا ترى القرآن الكريم يسوق تلك الصفات كلها لتكون سبل أهل الإيمان ليتحلوا بها، وليجاهدوا أنفسهم على التخلص بتلك الأخلاق والاهتداء بذلك السلوك.

ونختم الفصل بهذا الدعاء: ﴿وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٤٦٢]: ويحق لنا أن نختم به لبيان أن المتقين همتهم أعلى من الوصول إلى التقوى، بل الوصول إلى الإمامة فيها وكذلك ليكون هذا الدعاء هجير المرء حال بحثه في التقوى وصفات المتقين.

وهذا الدعاء في سياق قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]. ولتفسير الآية نسوق قول العلامة بن عاشور في «التحرير والتنوير»: «وكما سألوا التوفيق والخير لأزواجهم وذرياتهم سألوا لأنفسهم بعد أن وفقهم الله إلى الإيمان أن يجعلهم قدوة يقتدى بهم المتقون»^(١).

وهذا يعني أن المتقين بعد إيمانهم يطلبون من الله تعالى أن يوفقهم لأعلى درجات العلم النافع والعمل الصالح، التي يصلون بها إلى درجة القدوة والأسوة.

وكذلك يطلبون من الله تعالى أن يكونوا دعاة إلى الخير هادين لغيرهم لأن القدوة من يقتدى به الناس ويرغبون بسببه في الدخول إلى الإسلام، أو الرقى في درجات الإيمان.

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٩/٨٣).

وتجدر الإشارة إلى أن الآية قد أفردت لفظ ﴿إِمَامًا﴾، والمعنى: واجعل كل واحد منا إماماً يقتدى به ويمكن أن يكون على إرادة الجنس. يقول العلامة أبو السعود في تلك المعاني ما ملخصه: اجعلنا بحيث يقتدون بنا في إقامة مراسم الدين بإفاضة العلم وتوفيق العمل وتوحيده للدلالة على الجنس كقوله: ﴿خُزِّجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: ٥]، وكقوله - سبحانه: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦]، أو لأنهم كنفس واحدة لاتحاد طريقهم واتفاق كلمتهم، وقيل إمام جمع أم كصيام^(١).

ورأينا إعادة الموصول في الآيات (والذين و... والذين)، مع كفاية ذكر الصلات بطريق العطف على صلة الموصول الأول، للإيذان بأن كل واحد مما ذكر في حيز صلة الموصولات كقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ... وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ إنه وصف جليل على حياله، له شأن خطير حقيق بأن يفرد له موصوف مستقل، ولا يجعل شيء عن ذلك تنمة لغيره.^(٢)

وهذا يدل على خطر طلب التقوى وعلو شأنه حتى يدعو المرء بهذا الدعاء، مع إفادة المضارع يقولون لتكرار ذلك منهم، واستمرارهم عليه. انتهى بذلك الفصل الرابع.

(١) ضعف ابن القيم القول الأخير سواء كان جمع أم أو مصدرًا واحتج بالآية «إنا رسول رب العالمين» وقول الشاعر:

يا عاذلاتي لا تترن ملامتي إن العواذل لسن لي بأمر

وكلامه أقرب للدليل، انظر ابن القيم «رسالة إلى كل مسلم»، دار الفتح، الطبعة الأولى، ١٤٠٤ هـ، راجعها وعلق عليها د. أسامة عبد العظيم، (ص ١٣-١٥).

(٢) انظر العلامة أبي السعود «إرشاد العقل السليم»، (٤/ ١٥١). والعلامة الألويسي «روح المعاني»، مجلد ١١ (ص ٧٨-٧٩).



الفصل الخامس

عاقبة النُّقوى



ولما كانت التقوى ملاك كل خير، جعل الله - عز ذكره - العاقبة في الدين والدنيا والآخرة للتقوى والمتقين. وهذا حصر لهذه الآيات المشيرة لذلك الموضحة له تمهيداً لتفسيرها وتحليلها:

آيات ثمرة التقوى في الدنيا:

١. ﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُوهُمْ وَإِنْ تَصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

٢. ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

٣. ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

٤. ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً لَّحْنُ نَزْرُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

٥. ﴿وَأُنَجِّنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٥٣].

٦. ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ آهُونَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [نوح: ١٧-١٨].

٧. ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

٨. ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِّنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾ [الطلاق: ٤].

عاقبة التقوى في الآخرة:

١. ﴿زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا

وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ [البقرة: ٢١٢].

٢. ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سِيَئَاتِهِمْ وَلَآدْخُلْنَاهُمْ جَنَّةَ النَّعِيمِ ﴾ [المائدة: ٦٥].

٣. ﴿ وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٢].

٤. ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۗ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

٥. ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٥٦-٥٧].

٦. ﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٩].

٧. ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ [النحل: ٣٠-٣١].

٨. ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا ﴾ [مريم: ٧٢].

٩. ﴿ يَوْمَ نَخْشِرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴾ [مريم: ٨٥-٨٦].

١٠. ﴿ وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا ۖ وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٣٥].

١١. ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَنِيكَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ۖ وَوَقَّعْنَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [الدخان: ٥١-٥٧].

١٢. ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَيَكْهِنُونَ بِمَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ ۖ وَوَقَّعْنَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الطور: ١٧-١٩].

١٣. ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ ۖ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾ [الطلاق: ٥].

١٤. ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذْبًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [النبا: ٣١-٣٦].

عاقبة التقوى على دين المؤمن:

فإذا كان للتقوى عاقبتها الحسنة للمؤمنين في آخرتهم، فإن لها كذلك العاقبة الحسنة على دين المرء، ليزداد بذلك قرباً إلى الله ، وبصيرة بدينه. وهذه هي الآيات التي تشير إلى ذلك:

١. ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَٰغِيفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا ۖ فَإِذَا هُم مُّبْصُرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

٢. ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُم سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الن

[الأنفال: ٢٩].

٣. ﴿وَإِنَّهُ لَتَذِكْرٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الحاقة: ٤٨].

٤. ﴿الَّذِينَ هُدُوا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١-٢].

٥. ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٦].

٦. ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

وقبل البدء في تحليل الآيات وتفسيرها لابد من النظر في آيات أخرى - لم نذكرها فيما سبق - تتعلق بأهم عواقب التقوى وثمرها، والتي تظهر بوضوح أهمية التقوى، لأنها تتعلق بالله وما يقبل به على المتقين، وفيما يغدق عليه من محبته، ويشملهم بمعيته وولايته، وهذه هي:

١. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

٢. ﴿إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

٣. ﴿فَاتَّبِعُوا إِلَهُمَّ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مَدِينَةٍ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤].

٤. ﴿إِلَّا إِنْ أَوْلِيَائِهِ اللَّهُ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣].

٥. ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

٦. ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَائُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٩].

وهذا أوان وقت الشروع في المقصود، ونبدأ بذكر المحبة، أي محبة الله للمتقين، إذ هي الثمرة العظمى للتقوى، والغاية التي انتهى إليها المؤمنون، وقبل الخوض في حديث المحبة فإننا نذكر بأننا سنورد زبدة كلام معظم من تكلم في موضوع المحبة، وليس هذا خروجاً عن الموضوع، بل هو لب الموضوع، وجوهر البحث.

لقد انقسم الناس في إثبات محبة الرب لعبده أو محبة العبد لربه. فمنهم^(١) من أثبت ذلك، إذ الله تعالى أهلٌ يحبهم ويحبونه، وأن محبة العبد لربه فوق كل محبة تقدر، ولا نسبة لسائر المحاب إليها، وهي حقيقة «لا إله إلا الله». وكذلك عندهم محبة الرب لأوليائه وأنبيائه ورسله صفة زائدة على رحمته وإحسانه وعطائه، فإن ذلك أثر المحبة وموجبها، فإنه لما أحبهم كان نصيبهم من رحمته وبره وإحسانه أتم نصيب.

وعكس هؤلاء - وهم الجهمية المعطلة - فعندهم أنه - سبحانه - لا يُحِب ولا يُحَب. ولما لم يمكنهم تكذيب النصوص أولوا محبة العباد له على محبة طاعته وعبادته والازدياد من الأعمال لينالوا بها الثواب، وكذلك أولوا نصوص محبته لهم بإحسانه إليهم وإعطائهم الثواب، وربما أولوها بشئائهم ومدحه لهم. وجميع طرق الأدلة - عقلاً ونقلاً وفطرةً وقياساً واعتباراً وذوقاً ووجداً - تدل على إثبات محبة العبد لربه والرب لعبده.

أما أدلة القرآن الكريم على المحبة فأولها: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فأخبر - سبحانه - أن من أحب شيئاً من دون الله كما يحب الله تعالى فهو ممن اتخذ من دون الله أنداداً، وهذا نذٌ في المحبة، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾، وفي تقدير الآية قولان:

أحدهما: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ من أصحاب الأنداد لأننادهم التي يحبونها ويعظمونها من دون الله.

الثاني: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ من محبة المشركين بالأنداد لله، فإن محبة المؤمنين خالصة، ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بقسطٍ منها.

(١) انظر: الإمام محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية «مدارج السالكين»، (٦/٣) وما بعدها.

وأما الدليل الثاني فقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، وهى التي تسمى آية المحبة. يقول الإمام ابن القيم: «قال أبو سليمان الداراني: لما ادعت القلوب محبة الله أنزل الله لها محنة ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾»^(١).

وهذه الآية الكريمة ردت على مدعى محبة الله تعالى، الذين إذا نصحت أحدهم باتباع السنة أو التزام ظواهر الشرع ادعى بأن قلبه عامر بينه وبين الله تعالى، مع أن طريق المحبة الحقيقية لله تعالى هى التزام سنة النبي ﷺ، فقوله تعالى: ﴿يُحِبُّكُمْ اللَّهُ﴾ إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها وفائدتها، فدليلها وعلامتها اتباع الرسول ﷺ، وفائدتها وثمرتها محبة المرسل لكم، فما لم تحصل المتابعة فليست محبتكم له حاصلة، ومحبتة لكم منتفية. ولذلك رد الله على من ادعى أنه حبيب الله بقوله: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ [المائدة: ١٨].

الدليل الثالث: قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِمْ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

أوضحت الآية الكريمة أن هناك قوماً يحبهم - سبحانه - ويحبونه، هم الذين يأتى بهم - جل وعلا - في الوقت الذي ينكص فيه على عقبه أقوام ما استشعروا محبة الله، فارتدوا عن دينه، إذ العناية محض فضل الله ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

فأثبتت الآية الكريمة محبة الله تعالى، وأنها سابقة لهم على محبتهم، إذ بها أحبوا ربهم وأقبلوا عليه، وضحوا بأنفسهم وأموالهم في سبيله - سبحانه وتعالى.

(١) الإمام ابن القيم «مدارج السالكين»، (٣/ ٢٢).

ثم ذكر لهم - سبحانه - أربع علامات: أنهم أدلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين، أى رحاء أرقاء مشفقين على بعضهم البعض، في الوقت الذي هم فيه أشد البأس على الكافرين. ولعل وجه الربط بين ﴿تُحِبُّهُمْ وَتُحِبُّونَهُمْ﴾ وبين ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أنه لما كان المؤمنون محبوبين من الله تعالى أحبهم، فكان من آثار المحبة الذلة للمحبوب، ولما كان الكفار مبغوضين منه - سبحانه - أبغضهم، وظهر ذلك في الشدة عليهم، وتلك من أوصاف المحبين. وأما الوصف الثالث، وهو من أوضح أدلة المحبة، فهو كونهم يجاهدون في سبيل الله، يبذلون أموالهم وأنفسهم ويفتدون محبوبهم بكل ما يملكون، وإلا كانت المحبة ناقصة.

أما العلامة الرابعة: فهي أنهم لا يخافون لومة لائم في محبتهم لربهم. والقرآن الكريم مملؤ من ذكر من يحبه الله - سبحانه - من عباده المؤمنين، وذكر ما يحبه من أعمالهم وأقوالهم وأخلاقهم، كقوله - سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، و﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، و﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، و﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتُلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَتْهُمْ بَنِينَ مَرْصُوصِينَ﴾ [الصف: ٤].

ولقائل أن يقول في الآيات السابقة التي ذكرت: وردت محبة الله تعالى لموصوفين بصفات أخرى غير التقوى، فلم تكن محبة الله مقصورة إذن على المتقين، فليس ثم مزية زائدة لهم أو فضل.

والجواب: أن هذه الصفات - كما ذكرنا هي صفات المتقين أنفسهم، فكان الله - سبحانه - قد جعل محبته جزاء لمن اتصف بشيء من صفات المتقين، وحسب التقوى شرفاً إذاً أن تكون بعض صفاتها جالبة لمحبة الله تعالى، فكيف إذا اجتمعت معظم صفاتها في بعضهم؟

والدليل: أن قوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ من صفات المتقين، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ ءِهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الذاريات: ١٥-١٦]، وكذلك قوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ فإنها من صفاتهم، لقوله تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ؕ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقد جاءت السنة المشرفة بذكر ما يحب الله تعالى من الأقوال والأفعال والأشخاص، ففي صحيح البخارى عن أبى هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدى بشيء أحبَّ إلى من أداء ما افترضته عليه، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشى بها، ولئن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذنى لأعيذنه»^(١).

والحديث يثبت محبة الله لمن سلك طريقها، وكذلك يبين ثمرة هذه المحبة من أن العبد بربه، يسمع وبه يبصر.. الخ، مع إجابة سؤاله وإعادته إذا ما استعاذ به. يقول الإمام أبو حامد الغزالى، في إحياء علوم الدين: «وقال زيد بن أسلم: إن الله ليحب العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول: اعمل ما شئت فقد غفرت لك»^(٢).

(١) حديث: «من عادى لى ولياً..» رواه البخارى (٦٥٠٢). وانظر ابن حجر العسقلانى «فتح الباري»، (٣٤٠/١١-٣٤١).

(٢) حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى «إحياء علوم الدين»، (٢٦٢٦/١٤)، ط. دار الشعب.

ومصدق هذا الكلام فيما ورد في أصحاب بدر، حيث قال النبي ﷺ فيهم: «لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم قد غفرت لكم»^(١).
ويكثر في الأحاديث قوله - عليه الصلاة والسلام: «أحب الأعمال إلى الله.. كذا وكذا؛ «أحب الأعمال إلى الله: الصلاة على وقتها، ثم بر الوالدين، ثم الجهاد في سبيل الله»^(٢)، وقوله: «أحب الأعمال إلى الله: الإيمان بالله، ثم الجهاد في سبيل الله، ثم حج مبرور»، وكقوله: «أحب الدين إلى الله: ما داوم عليه صاحبه»^(٣).

تعريف المحبة :

سبق أن رأينا من أنكروا المحبة لله أو محبة الرب لعبده، وأولوا النصوص الواردة لذلك، ورأينا من أثبت المحبة وجعلها حقيقة الإسلام، كما ذكرنا، ومن ثم ذهب آراءهم شتى في تعريف المحبة، خاصةً محبة الرب لعبده.
وإن كان الإمام ابن القيم، في كتابه مدارج السالكين، يرى أنها: «لا تحد المحبة بحد أوضح منها، فالحدود لا تزيدها إلا خفاءً وجفاءً، فحدها وجودها، ولا توصف المحبة بوصف أظهر من (المحبة)»^(٤).
ثم قال: «وإنما يتكلم الناس في أسبابها وموجباتها وعلاماتها وشواهداها

(١) رواه البخارى (٣٠٠٧)، وانظر ابن حجر «فتح البارى»، (٦/١٤٣).

(٢) رواه البخارى (٥٢٧). وانظر ابن حجر العسقلانى «فتح البارى»، (٩/٢). ورواه

مسلم (٨٥). وانظر النووى «شرح صحيح مسلم»، (١/٣٥٠-٣٥١).

(٣) الحديث رواه البخارى (٤٣)، وانظر ابن حجر «فتح البارى»، (١/١٠١).

(٤) الإمام ابن القيم «مدارج السالكين»، (٣/١٠). وانظر الإمام الغزالى «إحياء علوم

الدين»، مجلد ٤، (١٤/٢٥٧٤) وما بعدها، حيث أفاض حجة الإسلام في شرح ذلك

على ما ذهب إليه في بحث طويل. وذكره في الشفا عند الكلام على محبة الرسول ﷺ

القاضى عياض اليحصبى، (١/٤٣) وما بعدها.

وثمراتها وأحكامها، فحدودهم ورسومهم دارت على هذه الستة، وتنوعت بهم العبارات وكثرت الإشارات، بحسب إدراك الشخص ومقامه وحاله وملكه للعبارة»^(١).

وآن لنا أن نذكر الأسباب الجالبة لمحبة الله تعالى.

أسعد الناس حالاً في الآخرة أقواهم حباً لله تعالى، فإن الآخرة معناها القدوم على الله تعالى، ودرك سعادة لقاءه، وما أعظم نعيم المحب إذا قدم على محبوبه بعد طول شوق وتمكن من دوام مشاهدته أبد الآباد من غير منغص ولا مكدر، ومن غير رقيب ومزاحم، ومن غير خوف انقطاع، إلا إن هذا النعيم على قدر قوة الحب، فكلما ازدادت المحبة ازدادت اللذة^(٢).

ولحجة الإسلام كلام قوى ونفيس في الأسباب المقوية لمحبة الله تعالى ينبغي مطالعته، نلخص عيونه، مع التذكر الدائم أن كل ذلك إنما هو متحقق في صفات المتقين، كل ذلك لهم.

يقول الإمام أبو حامد الغزالي ما ملخصه: إن أصل المحبة لا ينفك عنه مؤمن، لأنه لا ينفك عن أصل المعرفة. أي لا بد أن توجد محبة الله تعالى يصح بها الإيمان، وإلا فإن الإنسان يظل كافراً بالله العظيم، أما قوة المحبة واستيلاؤها فذلك ينفك عنه الأكثرون، وإنما يحصل ذلك بشيئين:

أحدهما: قطع علائق الدنيا وإخراج حب غير الله من القلب.

وكمال الحب في أن يحب الله ﷻ بكل قلبه، وما دام يلتفت إلى غيره فزاوية من قلبه مشغولة بغيره.

فأحد أسباب ضعف حب الله في القلوب، قوة حب الدنيا، ومنه حب

(١) الإمام ابن القيم «مدارج السالكين»، (٣/١٠).

(٢) انظر الغزالي «إحياء علوم الدين»، (١٤/٢٦٠٦ وما بعدها).

الأهل والمال والولد والأقارب، والعقار والدواب والبساتين والمنتزهات، وكل ذلك متعرض لنقصان حب الله بسببه.

وسبيل قلع حب الدنيا من القلب سلوك طريق الزهد، وملازمة الصبر والانقياد إليهما بزمام الخوف والرجاء.

فما ذكر من المقامات كالتوبة والصبر والزهد والخوف والرجاء هي مقدمات ليكتسب بها أحد ركني المحبة، وهو تخلية القلب عن غير الله، وأوله الإيمان بالله واليوم الآخر، والجنة والنار، ثم يتشعب منه الخوف والرجاء، ويتشعب منهما التوبة والصبر عليهما، ثم يبحر ذلك إلى الزهد في الدنيا، وفي المال والجاه، وكل حظوظ الدنيا، حتى يحصل من جميعه طهارة القلب عن غير الله، حتى يتسع بعده لنزول معرفة الله وحبه، فكل ذلك من مقدمات تطهير القلب، وهو أحد ركني المحبة، وإليه الإشارة بقوله - عليه الصلاة والسلام: «الطهور شطر الإيمان».^(١)

الثاني: قوة معرفة الله تعالى واتساعها، واستيلائها على القلب، وهو يجري مجرى وضع البذر في الأرض بعد تنقيتها من الحشيش.

ومهما حصلت هذه المعرفة تبعثها المحبة - ولا يوصل إلى هذه المعرفة بعد قطع شواغل الدنيا من القلب - إلا الفكر الصافي، والذكر الدائم، والجد البالغ في الطلب، والنظر المستمر في الله تعالى وصفاته، وفي ملكوت سمواته وسائر مخلوقاته.

ونشير إلى مجمل ما يترتب على محبة الله للمتقين، لنختم به هذا الموجز من عاقبة التقوى، وبه يعرف العبد أنه حبيب الله من ذلك. وعلامته أن الله تعالى يؤحشه من غيره ويحول بينه وبين غيره، ويجعل له واعظاً من نفسه، وزاجراً من

(١) رواه مسلم، من حديث أبي مالك الأشعري (٢٢٣).

قلبه، يأمره وينهاه، كما ورد في حديث رسول الله ﷺ. ^(١)

وكذلك إذا أحبه الله تولاه ونصره على أعدائه، وإنما عدوه نفسه وشهوته.
قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤٥].

من هذه العلامات محبة لقاء الحبيب في دار السلام، فلا يتصور أن يحب القلب محبوباً إلا ويجب مشاهدته ولقاءه. قال ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه» ^(٢)، وقال حذيفة ؓ: «عند الموت: «حبيبٌ جاء على فاقة». وقد شرط الله - سبحانه - لحقيقة الصدق في الحب القتل في سبيل الله، حيث قالوا: إنا نحب الله، فجعل القتل في سبيل الله وطلب الشهادة علامته، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ [الصف: ٤]، وقال معها: ﴿يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١].

ومنها - أى علامات المحبة - أن يكون مؤثراً ما أحبه الله تعالى على ما يحبه في ظاهره وباطنه، فيلزم مشاق العمل، ويجتنب اتباع الهوى، ويعرض عن دعة الكسل، ولا يزال مواظباً على طاعة الله، ومتقرباً إليه بالنوافل، وطالباً عنده مزيد الدرجات.

ومنها - أى علامات المحبة - دوام ذكره لله تعالى، لا يفتر عنه لسانه، ولا يخلو عنه قلبه، فمن أحب شيئاً أكثر بالضرورة من ذكره.
وقال ابن مسعود ؓ: «لا ينبغي أن يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن، فإن

(١) روى أبو منصور الديلمي في «مسند الفردوس» من حديث أم سلمة بإسناد حسن عن النبي ﷺ: «إذا أراد الله بعيداً خيراً جعل له واعظاً من نفسه.. الحديث». وانظر تخريج الإحياء، (٢٦٢٩/١٤).

(٢) متفق عليه، من حديث أبي هريرة وعائشة ؓ. سبق تخريجه.

كان يجب القرآن فهو يجب الله ﷻ، وإن لم يكن يجب القرآن فليس يجب الله». ومنها أن يكون أنسه بالخلوة ومناجاة الله تعالى وتلاوة كتابه، فيواظب على التهجد، ويغتنم هدوء الليل وصفاء الوقت بانقطاع العوائق. ومنها ألا يتأسف على ما يفوته مما سوى الله ﷻ ويعظم تأسفه على كل ساعة خلت عن ذكر الله وطاعته، فيكثر رجوعه عند الغفلات بالاستعطاف والاستعتاب والتوبة.

ومنها أن يتنعم بالطاعة ولا يستثقلها، بل يسقط عنه تعبها، وقال الجنيد^(١): علامة المحب دوام النشاط والدؤوب بشهوة، يفتر بدنه ولا يفتر قلبه. ومنها أن يكون مشفقاً على جميع عباد الله، رحيماً بهم، شديداً على جميع أعداء الله، وعلى كل من يقترف شيئاً مما يكرهه، كما قال - سبحانه وتعالى: ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩]، ولا تأخذه لومة لائم، ولا يصرفه عن الغضب لله صارف، وبذلك وصف الله تعالى أحباءه: ﴿ تُحِبُّهُمْ وَتُحِبُّونَهُمْ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ تُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ [المائدة: ٥].

هذه بعض علامات المحبة، اختصرناها - كما وعدنا في بداية الكلام - من أقوال أهل العلم.

نتقل إلى المسألة التالية من ثمرات التقوى وعاقبتها، وهى معية الله تعالى للمتقين.

ومعية الله للمتقين من أعظم المواهب والمنن والعطايا التي تحفل بها هذه اللفظة، إذ من كان الله معه فمن يكون عليه؟ وقبل النظر في معنى هذه المعية المباركة نشير إلى:

(١) الجنيد سيد الطائفة.

أولاً: أن هذه المعية للمتقين جاءت في أربعة مواضع من القرآن الكريم، ثلاثة منها بقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾، والموضع الرابع بقوله - جل وعلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ (١٢٨).

ثانياً: نلاحظ أن المواضع الثلاثة الأولى كانت جميعها في قتال الكفار ورد الاعتداء، فالآية الأولى هي قوله - سبحانه وتعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ١٩٤). والثانية: قوله - تباركت أسماؤه: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة: ٣٦)، والموضع الثالث قوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة: ١٢٣).

أما المواضع الرابع والأخير فعلى عكس ما سبق، فإنه يحض على الصبر وترك المعاقبة. قال - جل شأنه: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (١٢٦) وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (١٢٨) [النحل: ١٢٦-١٢٨].

ثالثاً: رأينا المواضع الثلاثة في الأمر بالقتال ورد الاعتداء تنتهي بقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾، مع زيادة في آية البقرة - وهي الأولى - بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا﴾.

أما الموضع الرابع وهو تفضيل الصبر وترك المعاقبة، فهي تختم بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾، وزادت قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾. ونبدأ في النظر في تفسير تلك المواضع بعون الله تعالى. بدايةً نقول: إن المعية في كتاب الله تعالى على نوعين:

الأولى: معية عامة، وهى أن الله مع كل أحد، ولا يخفى عليه شىء في السموات ولا في الأرض، ولا في السر ولا أخفى، وهذه المعية المذكورة في قوله تعالى: ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ [المجادلة: ٧]، وكذلك قوله تعالى: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنْ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ ﴾ [النساء: ١٠٨]، وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾^(١). وهى مما تؤمن بها كما جاءت.

أما الذي يهنا هنا فهو ما يترتب على هذه المعية من آثار. يقول الحافظ ابن رجب في شرح جامع العلوم والحكم: «فإن هذه المعية تقتضى علمه واطلاعه ومراقبته لأعمالهم»^(٢).

أما المعية الأخرى - وهى التى يطلق عليها المعية الخاصة - فهى المذكورة في قوله تعالى في قصة الغار حال هجرة النبى ﷺ: ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠]، وذلك لما قال أبو بكر الصديق ؓ للنبي ﷺ: لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا، وقد قال له المصطفى ﷺ ردأ على ذلك: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما»^(٣).

وكذلك قوله تعالى لموسى وهارون: ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [طه: ٤٦]، وكذلك قوله - جل شأنه - عن موسى ﷺ: ﴿ إِنْ مَعِيَ رَنْقُ سَيْدَيْنِ ﴾ [الشعراء: ٦٢].

وهذه المعية الخاصة تقتضى النصر والتأييد والحفظ والإعانة.

(١) انظر الحافظ إسماعيل بن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (ج ٤).

(٢) انظر الحافظ ابن رجب الحنبلى «جامع العلوم والحكم»، (١/ ٤٧١).

(٣) الحديث رواه البخارى (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١).

نعود إلى الآيات وتحليلها مرة أخرى.

ونلاحظ أن الآيات الثلاث الأولى بدأت بقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا﴾، وفيه إشارة إلى أنه لا حاجة إلى النظر وإعمال الفكر، فهي مقطوع بوجودها على وجه لا يقبل الاحتمال، والعلم بذلك يقينى.

وتفيد هذه الكلمة من ثم الاهتمام بما تتضمنه الجملة، وحث المخاطبين على التأمل فيما بعده، وذلك من أساليب الكلام البليغ أن يفتح بعض الجمل المشتمة على خبر أو طلب فهم بـ «اعلم» أو «تعلم» لفتاً للذهن.

وفى التعبير بـ «اعلم»^(١) تعريض غالباً بغفلة المخاطب عن أمر مهم، فمن المعروف أن المخبر أو الطالب ما يريد إلا علم المخاطب، فالتصریح بالفعل الدال على طلب العلم مقصود للاهتمام. من ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨].^(٢)

وكان هؤلاء المتقين قد ساورهم هاجس الضعف أو التردد أمام عدوهم الأكثر عدداً وعدة، وغفلوا عن عوامل النصر المؤكد، وهو كون الله تعالى مع المتقين، فتأتى ﴿وَأَعْلَمُوا﴾ لتثبيت أقدامهم بعد أخذهم كذلك بكافة الأسباب المادية المطلوبة.

(١) وقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَهُوَ وَزِينَةٌ...﴾. وفى الحديث أن النبى ﷺ قال لأبى مسعود الأنصارى: «اعلم أبا مسعود، اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام»، لما رآه يضرب غلاماً له. وقد يفتحون بـ «تعلم» أو «تعلمن». قال زهير:

قلت تعلم أن للصيد غرة وإلا تضيعها فإنك قاتله

و«أن» بعد هذا الفعل مفتوحة الهمزة حيثما وقعت، والمصدر المؤول يسد مسد مفعولى «علم» مع إفادة «أن» للتأكيد.

(٢) انظر لما سبق الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٩/ ٣١٤).

ونلاحظ في الآية الأولى - آية البقرة - أن ﴿وَأَعْلَمُوا﴾ مسبوقه بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.

ولها مناسبة حسنة، وهي أن الله ﷻ لما أمر برد الاعتداء بالمثل، قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، حيث لا يؤمن على المرء أن يزيد في اعتدائه، خاصة وقد تمكن من عدوه، فجاء التوجيه القرآني بالأمر ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، حتى لا يجوروا ولا يعتدوا في حقهم وقصاصهم.

وقد تدفع النفس المرء في مثل هذه الظروف إلى أن يكسر عدوه، حتى لا تقوم له قائمة، خشية أن يعاوده القتال، وأن يتجهز له بما يبيد شأفته، وأنه يمكن ألا يستطيع بعد ذلك له رداً ولا دفعاً، فجاء قوله: «واعلموا» ليزيل هذه الغفلة بقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾، فمتى لزموا حدود الله وأقاموا أوامره وانتهوا عن نواهيه وكانت تقوى الله شعارهم ودينارهم، فلا يخافوا حينئذ أحداً، ولا يهابوا الدنيا بأسرها، لأن مالکها ومصرفها معهم - سبحانه وتعالى.

ومن الجدير تسجيله هنا أن ذكر المتقين في هذه الآيات، عند رد الاعتداء، أو مقاتلة المشركين كافة كما يقاتلون المسلمين كافة، أو مقاتلة الكفار والإغلاظ لهم ممن يلي المسلمين، مؤذن بضرورة القتال بنية صحيحة حسنة، لا رياء فيها ولا سمعة، ولا طلب مغنم عاجل أو ثناء فارغ، أو غير ذلك من النوايا التي لا تليق بالتقوى وأهلها. قال أبو حيان في تفسيره البحر المحیط: «ثم قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ لينبه على أن يكون الحامل على القتال ووجود الغلظة إنما هو تقوى الله تعالى، ومن اتقى الله كان الله معه بالنصر والتأييد، ولا يقصد بقتاله الغنيمة ولا الفخر ولا إظهار البسالة»^(١).

(١) انظر أبا حيان الغرناطي «البحر المحیط»، (٥/ ١١٥). والدكتور/ محمد أديب الصالح «التقوى»، (١/ ٢٨٦) ما قبلها وما بعدها.

أما آية النحل، وهى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾، فهى كما نرى مؤكدة بحرف التوكيد لتأكيد معية الله - جل شأنه - مع الذين اتقوا، وهى مناسبة كل المناسبة لما قبلها من الآيات، حيث أمر الله المؤمنين بأن يعاقبوا بمثل ما عوقبوا به، وأن الصبر وترك المعاقبة خير، بهذا التعبير الجميل، فالصبر وترك المعاقبة من أعمال التقوى، فلم يكونوا بحاجة إلى تنبيههم إلى معية الله للمتقين، إذ هم ما فعلوا، بل ما يفعل ذلك إلا الأتقياء، فكان التأكيد على معية الله لأولئك الذين اتقوا هو المناسب.

ونلاحظ أن الآية زادت: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾، وهو من عطف الخاص على العام، تنبيهاً على ميزة الخاص والاهتمام به في هذا المكان وهذا السياق، وهو ما يتسق أشد الاتساق مع ما سبق من الآيات، فلما حضهم على الصبر وترك المعاقبة، وهو عفو وإعراض، فإن الدرجة الأعلى من درجات المتقين - والتي طالما نبه على وجودها فيهم - هى درجة الإحسان، فأكد على معية الله لمن هو أعلى من الصابرين، حضاً لأهل التقوى على ألا ينسوا أهم صفاتهم، وهى الإحسان، ولو لمن أساء إليهم، فإن ذلك أجمل في هدايته، ورجوعه عن غيه وظلمه، وهو من مقاصد الشرع الذي لا تقوى عليه إلا قلوب أهل التقوى فعجل لهم هذه العاقبة، مع ما ينتظرهم من ظفرهم وفوزهم في الآخرة.

العاقبة التالية لما ذكرنا من المحبة والمعية للمتقين هى الولاية.

بمعنى أن المؤمنين متى ما تحققت فيهم تقوى الله تعالى صاروا أولياءه - جل وعلا، وصار هو - سبحانه - وليهم، والولاية من أعظم ما يتطلع إليه المرء المؤمن، ولفهم ذلك ومعرفته نطالع هذه الآيات الكريمة التى اشتملت على ولاية الله تعالى للمتقين، وعلى حسن عاقبة ذلك وعظيم مآله. هذه الآيات هى:

الآية الأولى: قوله - سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ

يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۚ إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا
الْمُتَّقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ [الأنفال: ٣٤].

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ﴾ [الذين آمنوا وكانوا يتقون] ﴿٣٥﴾ [يونس: ٦٣].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ
الْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٩].

ونبدأ بالآية الثانية، لأنها بينت أن المتقين هم أولياء الله تعالى، وزادت
فأثبتت ما لهم عند الله تعالى من عظيم الأجر.

وأول ما يصادفنا في الآية أنها عرفت الأولياء، وهم الذين آمنوا وكانوا يتقون،
والإيمان شرط لصحة أى عمل، فأوضحت الآية أن الأولياء هم المتقون، وينبغى
ألا يغيب عن الذهن أن التقوى درجات، والولاية من أعظم ثمرات التقوى، ومن
ثم فإن الأولياء في المنزلة العليا من التقوى، وأن الأولياء - الذين هم في الدرجة
العليا - هم خلاصة المؤمنين الصادقين، وزبدة الطائعين المخلصين.

وقد افتتحت الآية بـ ﴿أَلَا﴾، وهى أداة التنبيه، إيماءً إلى أهمية شأن هذا
الكلام ليكون التنبيه حاثاً لهم على التفكير في هذا الكلام، ثم العمل بمقتضاه،
ليفوزوا بالبشريات التي حملتها الآية لهم.

والأولياء جمع «ولى»، وهو المولى، أى: المحالف والمناصر، وكلها ترجع إلى
معنى الولى «بسكون اللام»، وهو القرب، وهو مجاز في معنى الولى، وهو قرب
من الجانبين، وعلى ذلك يكون تفسيره: الذي يتولى الله تعالى بالطاعة، ويتولاه الله
تعالى بالكرامة. ^(١) يقول الطاهر بن عاشور في كتابه «التحرير والتنوير» ما

(١) يقول القاضي عبد الحق بن غالب بن عطية في تفسيره «المحرر الوجيز»، (٣/١٢٨):
«وأولياء الله هم المؤمنون الذين والوه بالطاعة والعبادة، وهذه الآية يعطى ظاهرها أن

ملخصه: وقد بين أولياء الله في هذا الآية بأنهم الذين آمنوا واتقوا، فاسم الموصول وصلته خبر، وما بينهما اعتراض، أو يجعل جملة ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، ويجعل اسم الموصول خبر مبتدأ محذوف حذفاً جارياً على الاستعمال. كما سماه السكاكي في حذف المسند إليه. وأياً ما كان، فهذا الخبر يفيد أن يعرف السامع كنه معنى ﴿أَوْلِيَاءَ اللَّهِ﴾ اعتناء بهم.^(١)

وأما قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ فبين:

أولاً: أن التقوى ملازمة لهم أخذاً من صيغة ﴿كَانُوا﴾، وأن التقوى متجددة منهم، بما يدل عليه المضارع في قوله ﴿يَتَّقُونَ﴾، ومن ثم كانت الآية الكريمة الأساس الذي يبين حقيقة الولي شرعاً، إذ لما كانت الولاية هي الغاية القصوى التي ترنو إليها أفئدة المؤمنين وجوارحهم، فلا شك أنها لا تحصل إلا بملازمة التقوى وتجدها في كل حين، أى هي حية في أقوالهم وأفعالهم وأخلاقهم وعباداتهم ومعاملاتهم في الظاهر والباطن، لا ينفكون عنها، ولذا لا يمكن القول عن شخص إنه ولي الله تعالى وهو غير ملازم للتقوى، فضلاً عن الوقوع في المعاصي، فضلاً عن سقوط التكليف إذا بلغوا اليقين، كما يزعم بعض الصوفية.

من آمن واتقى فهو داخل في أولياء الله، وهذا النص تقتضيه الشريعة في الولي، وإنما نبهنا هذا التنبيه حذراً من بعض الوصفية، وبعض الملحدّين في الولي. يقول أبو حيان في تفسيره «البحر المحيط» موضحاً هذا القول: «وإنما قال حذراً من بعض الصوفية (صحة اللفظ)، لأن بعضهم نقل عنه أن الولي أفضل من النبي، وهذا لا يكاد يخطر في قلب مسلم. ولابن العربي الطائى كلام في الولي وغيره نعوذ بالله منه». أبو حيان «البحر المحيط»، (٦/ ٨١).

(١) الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١١/ ٢١٨).

ثانياً: أن اختيار لفظ التقوى في هذا السياق اختيار قرآني دقيق، فبدلاً من «المحسنين» مثلاً أو غير ذلك من صفات المؤمنين كان اختيار التقوى للولاية، لبيان - سبحانه - أن الأولياء ملازمون لأوامر الشرع وممتهون بنواهيه، وأنهم كذلك تاركون للمكروهات، محافظون على المستحبات، متجنبون للشبهات، يتركون ما لا بأس به حذراً مما به بأس، مع تمام المحافظة على ذلك.

والجدير بالإضافة - لما سبق - هو الإشارة إلى الحديث القدسي الخاص بالولي، لأنه بوضعه مع الآية الكريمة تتضح حقيقة الولاية. ولفظ الحديث، وهو عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، وإن استعاذني أعذته، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأكره إساءته».

بدأ الحديث بذكر صنيع الله للولي، وإحسان المولى - سبحانه وتعالى - إليه، وذلك بقوله أنه يعلن بالحرب من حارب ولياً لله تعالى أو عاда، وكفى الأولياء بذلك شرفاً ومفخرة في الأولى والآخرة، وكفى من يحاربه الله بذلك ذلاً وخزياً وهواناً وانكساراً في الأولى والآخرة إذا لم يتوبوا ويطلبوا الصفح من أوليائه - سبحانه. وهذا ينبهنا إلى احترام أوليائه، وإنزالهم المنزلة اللائقة بهم والتي أنزلهموها مولاهاهم - جل وعلا^(١) - والتحسب لذلك أشد التحسب.

ونختصر شيئاً مما ذكره الإمام محمد بن علي الشوكاني عن الولي، فقد أفرد

(١) ويستثنى ما إذا كانت الحال تقتضي نزاعاً بين وليين في خاصمة أو محاكمة ترجع إلى استخراج حق أو كشف غامض، كما جرى بين أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما. انظر ابن حجر «فتح الباري شرح صحيح البخاري»، (١١/٣٤٢)، ط. السلفية.

حديث الولي بالشرح في مصنف مستقل. يقول ما ملخصه: فأولياء الله هم خلص عباده، القائمون بطاعته، المخلصون له. وأفضل الأولياء هم أنبياء الله، وأفضل الأنبياء هم المرسلون، وأفضل الرسل هم أولو العزم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ، وأفضل أولى العزم هو نبينا محمد ﷺ الذي قال الله تعالى فيه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، فجعل - سبحانه - صدق محبة الله ﷻ متوقفة على اتباعه، وجعل اتباعه سبب حصول المحبة من الله - سبحانه.

ثم ينقل عن الإمام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية في «طبقات الأولياء» قوله - من كتابه «الفرقان بين أولياء الله وأولياء الشيطان» - ما حاصله أن أولياء الله على طبقتين: سابقون مقربون وأبرار أصحاب يمين مقتصدون.

ولكن الأولياء غير معصومين، بل يجوز عليهم ما يجوز على سائر عباد الله المؤمنين، لكنهم صاروا في رتبة رفيعة ومنزلة عليّة، فقل أن يقع منهم ما يخالف الصواب أو يناقض الحق، فإذا وقع ذلك فلا يخرجهم عن كونهم أولياء الله، كما يجوز أن يخطئ المجتهد وهو مأجور على خطئه حسب الحديث: «إذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر». وقد تجاوز الله لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان.

وهذا يعود بنا إلى آية الولاية التي معنا، لنستكمل النظر فيما أعد الله تعالى من الكرامة لأوليائه المتقين، حيث يقول - جل شأنه: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، وذلك بعد البشارة الاعتراضية في الآية، وهي قوله: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

يقول الإمام ابن جرير، في قوله تعالى: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: «ألا إن أنصار الله لا خوف عليهم في الآخرة من عقاب الله؛ لأن

الله رضى عليهم فآمنهم من عقابه، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من الدنيا». وبمثل ذلك قال الحافظ ابن كثير في تفسير القرآن العظيم^(١).

وهذا إيجاز لطيف لفهم الآيات والأساليب القرآنية، ولكن المحققين والمهتمين بالأسلوب العربى للقرآن الكريم زادوا في البحث عن هذا التفسير. يقول الفخر الرازى في «التفسير الكبير»:

«قال بعض المحققين: إن نفى الحزن والخوف إما أن يحصل للأولياء حال كونهم في الدنيا، أو حال انتقالهم إلى الآخرة.

والأول باطل من وجهين:

الوجه الأول: أن هذا لا يحصل في دار الدنيا، لأنها دار خوف وحزن، والمؤمن خصوصاً لا يخلو من ذلك، على ما قاله الرسول ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»، وعلى ما قال: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات».

والوجه الثانى: أن المؤمن - وإن صفا عيشه في الدنيا - لا يخلو من هم بأمر الآخرة شديد، وحزن على ما يفوته من القيام بطاعة الله تعالى.

وإذا بطل هذا القسم وجب حمل قوله تعالى: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على أمر الآخرة، فهذا كلام محقق^(٢).

ولكن العلامة أبا السعود، في «إرشاد العقل السليم»، ونقله بنصه عنه في «روح المعاني» العلامة محمود الألوسى، يقرر نفس الأدلة، ولكن النتيجة أن ذلك لهم في الدارين، يقول - رحمه الله تعالى:

(١) الإمام محمد بن جرير الطبرى «جامع البيان في تفسير القرآن»، (١١ / ٩١). وانظر الإمام

إساعيل بن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٢ / ٤٢٢).

(٢) فخر الدين محمد بن عمر الرازى «التفسير الكبير»، (٨ / ٤٠١-٤٠٢).

«لا خوف عليهم في الدارين من حقوق مكروهه، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ من فوات مطلوب، أى: لا يعترهم ما يوجب ذلك، لا أنه يعترهم، لكنهم لا يخافون ولا يحزنون، ولا أنه لا يعترهم خوف وحزن أصلاً، بل يستمرون على النشاط والسرور، كيف لا واستشعار الخوف والخشية لجلال الله - سبحانه - وهيبته، واستقصاراً للجد والسعى في إقامة حقوق العبودية من خصائص الخواص والمقربين. والمراد بيان دوام انتقائهما، لا بيان انتفاء دوامهما، كما يوهمه كون الخبر في الجملة الثانية مضارعاً، لما مر مراراً من أن النفى - وإن دخل على نفس المضارع - يفيد الاستمرار والدوام بحسب المقام، وإنما لا يعترهم ذلك؛ لأن مقصدهم ليس إلا طاعة الله، ونيل رضوانه المستتب للكرامة والزلفى، وذلك مما لا ريب في حصوله، ولا احتمال لفواته بموجب الوعد بالنسبة إليه تعالى.

وأما ما عدا ذلك من الأمور الدنيوية بين الحصول والفوات، فهي بمعزل عن الانتظام في سلك مقصدهم وجوداً أو عدماً، حتى يخافوا من حصول ضارها، أو يحزنوا بفوات نافعها»^(١).

ويتوسط العلامة الطاهر بن عاشور في كتابه «التحرير والتنوير»، ليجمع بين الأقاويل، ويبعد عن التأويلات البعيدة؛ حلاً لما رأى من التفسيرات التي لا تلائم العربية - من وجهة نظره - فيقول - رحمه الله - ما حاصله: والخوف توقع حصول المكروه للمتوقع، فيتعدى بنفسه، فيقال: خاف الشيء، قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾، وإذا كان توقع حصول المكروه للغير يقال: خاف عليه، كقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

وقد اقتضى نظم الكلام القرآنى نفى جنس الخوف - لأن «لا» نافية للجنس

(١) العلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (٢/٥٠٩). والعلامة محمود الألوسى

«روح المعانى»، مجلد ٧، (١١/٢١٤-٢١٥).

- هنا، وقد دخلت على النكرة، فمعنى ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أنهم بحيث لا يخاف عليهم خائف^(١)؛ لأن الخوف - وهو مصدر في الآية - يقدر مضافاً إلى فاعله، وهو غيرهم لا محالة، أى: هم بمأمن من أن يصيبهم مكروه يخاف من إصابة مثله، فهم - وإن كانوا يهجم في نفوسهم الخوف - جبلة، لكن غيرهم ممن يعلم حالهم لا يخاف عليهم؛ لأنه ينظر إلى الأحوال نظراً سليماً من التأثير بالمظاهر. وهم أنفسهم إذا اعتراهم الخوف لا يلبث أن ينقشع، وتحل محله السكينة، كما قال تعالى: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿[التوبة: ٢٥-٢٦]، وقال موسى ﷺ: ﴿لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾ [طه: ٧٧]. وكان النبي ﷺ يوم بدر يدعو الله بالنصر، ويكثر من الدعاء، ويقول: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لم تعبد في الأرض بعد اليوم»، ثم خرج وهو يقول: ﴿سَيُزْمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۝﴾^(٢).

ولهذا المعنى تغير الأسلوب في قوله: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ عن قوله: ﴿لَا خَوْفٌ﴾، فأسند فيه الحزن المنفى إلى ضمير ﴿أَوْلِيَاءَ اللَّهِ﴾ مع الابتداء به، وإيراد الفعل بعده مسنداً مفيداً تقوى الحكم، لأن الحزن هو انكسار النفس من حصول أثر المكروه عندها، ولا يوجد إلا بعد حصول حقيقته، ثم هم وإن كانوا يحزنون كقول النبي ﷺ: «وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون»، فذلك حزن وجداني

(١) قال العلامة محمود الألوسى في «روح المعاني»، مجلد ٧، (١١/٢١٥): «ذهب بعض الجلة إلى أنه - الخوف - مسند إلى غيرهم، أى غيرهم لا يخاف عليهم، ولا يلزم من ذلك أنهم لا يخافون، ليحجى حديث لزوم الأمن، أى لو لم يخافوا لأمنوا، وهو منفى كذلك عنهم، وجعل ذلك نكتة اختلاف أسلوب الجملتين». إلى أن قال: «والأوجه عندي ما نقل عن بعض الجلة من أن معنى ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾: لا يخاف عليهم».

(٢) حديث قصة بدر، انظر المباركفوري «الرحيق المختوم»، (ص ٢٤٢).

لا يستقر، بل يزول بالصبر، ولكنهم لا يلحقهم الحزن الدائم، وهو حزن المذلة، وغلبة العدو عليهم، وزوال دينهم وسلطانهم، والمعنى لا يحصل لهم حزن دائم متمكن ثابت يبقى فيهم، ولا يحدث له تخلصاً.

أما بقية ما ذكرته الآيات من كرامات المتقين الأولياء، فهو قوله ﷺ: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

والبشرى تعريف الجنس، فهو صادق ببشارات كثيرة، والبشارة خبر سار يظهر أثره في بشرة الوجه، والمعنى: أنهم يشرون بخيرات قبل حصولها: في الدنيا بما يتكرر من البشارات الواردة في كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ، وفي الآخرة بما يتلقونه من الملائكة، حيث يتلقونه ويسلمون عليهم كما ذكر الله تعالى، ويسمعونهم كلام الله بالأمر بهم إلى النعيم المقيم، كقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥].^(١)

ويحسن بنا أن نذكر تفصيل هذا الكلام، حيث فصل أهل التفسير في هذه البشارات. وقد جمع الرازي أقوال هذا التفسير، ثم ذكر أن ما كان متعلقاً من هذه الوجوه بالدنيا فهو داخل في قوله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، وكل ما يتعلق بالآخرة فهو داخل تحت قوله تعالى: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾. وسنزيد من كلام غيره ما يكون توضيحاً لهذه الأوجه.

الوجه الأول: أن البشرى هي الرؤيا الصالحة، يراها المؤمن أو ترى له. قال ﷺ: «ذهبت النبوة وبقيت المبشرات، وعنه: «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة». ومن ثم إذا حملنا قوله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾ على الرؤيا الصادقة، فظاهر هذا أنها لا تكون إلا للأولياء المتقين، والعقل يدل عليه

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١١/٢١٩).

أيضاً، وذلك لأن ولي الله هو الذي يكون مستغرق القلب والروح بذكر الله، ومن كان كذلك فلا يبقى عند النوم في روحه إلا معرفة الله، ومعلوم أن معرفة الله ونور جلاله لا يفيد إلا الحق والصدق، أما من يكون متوزع الفكر على أحوال هذا العالم الكدر المظلم، فإذا نام يبقى كذلك، فلا جرم لا اعتماد على رؤياه، فلهذا السبب قال تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ على سبيل الحصر والتخصيص.

الثاني: أنها عبارة عن محبة الناس له، وعن ذكرهم إياه بالثناء الحسن؛ عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، إن الرجل يعمل العمل ويمجده الناس عليه، ويشنون عليه به، فقال رسول الله ﷺ: «تلك عاجل بشرى المؤمن»^(١). واعلم أن المباحث العقلية تقوى هذا المعنى، وذلك أن الكمال محبوب لذاته، ومن اتصف بصفته من صفات الكمال، صار محبوباً لكل أحد، ولا كمال للعبد أعلى وأشرف من كونه مستغرق القلب بمعرفة الله، مستغرق اللسان بذكره، مستغرق الجوارح بعبوديته، فإذا ظهر عليه أمر من هذا الباب صارت الألسنة جارية بمدحه، والقلوب مجبولة على حبه.

الثالث: بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالرحمة والمغفرة، كقوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]، وفي حديث البراء رضي الله عنه: أن المؤمن إذا حضره الموت، جاءه ملائكة بيض الوجوه بيض الثياب، فقالوا: اخرجي أيتها الروح الطيبة، إلى روح وريحان ورب راضٍ غير غضبان، فتخرج من فمه كما تخرج القطرة من فم السقاء.

وأما بشرهم في الآخرة فأمنهم من الفزع، وسلام الملائكة عليهم: قال

(١) الحديث رواه مسلم.

تعالى: ﴿ لَا تَحْزَنْهُمْ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّهُمْ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، وسلام الله عليهم: ﴿ سَلَّمَ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَّحِيمٍ ۝ ﴾ [يس: ٥٨]، ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ ۝ ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤]، وكقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكَمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ ﴾ [الحديد: ١٢].

ويندرج في هذا الباب ما ذكره الله في هذا الكتاب الكريم من بياض وجوههم، وإعطاء الصحائف بأيمانهم، وما يقرأونه فيها من الأحوال السارة.

الرابع: أن ذلك عبارة عما بشر الله عباده المتقين - في كتابه وعلى السنة رسله - من جنته وكريم ثوابه، ودليله قوله تعالى: ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ۝ ﴾ [التوبة: ٢١].

وختمت الآيات بقوله ﷻ: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [يونس: ٦٤]. وجملة ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ مبينة لمعنى تأكيد الوعد الذي تضمنه قوله ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾، تذكيراً لهم بأن ما وعدهم الله به من البشائر - مثل النصر و حسن العاقبة - أمر ثابت لا يتخلف؛ لأنه من كلمات الله التي هي الأقوال التي أوحى الله بها إلى رسوله ﷺ في الوعد المشار إليه، والتي لا تغيير لها ولا إبطال.

وجملة ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ مؤكدة لجملة ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى ﴾، ومقررة لمضمونها، فلذلك فصلت ولم تعطف. والإشارة بـ ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إلى المذكور من مضمون الجمل المقدمة. وذكر ضمير الفصل ﴿ هُوَ ﴾ بعده؛ لزيادة التأكيد ولإفادة القصر، أي: هو الفوز العظيم لا غيره ما يتقلب فيه المشركون في الحياة الدنيا من الرزق والمنعة والقوة؛ لأن ذلك لا يعد فوزاً، إذ عاقبته المذلة والإهانة

في الدنيا، وبعده العذاب الخالد في الآخرة، كما أشار إليه قوله - سبحانه وتعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ (١٦) مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (١٧) [آل عمران: ١٩٧].^(١)

ونعود إلى الآيتين الباقيتين في ولاية المتقين لله تعالى، وهما ذواتا نسب أصيل بما مر بنا، لنربط بينهم على وجه السرعة.

أولاً: قوله تعالى: ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾.

وهذه الآية الكريمة تؤكد بما سبق من أن أولياء الله ليسوا إلا المتقين، بهذا الأسلوب من أساليب القصر، الذي يقصر ولاية الله تعالى على أهل التقوى، لا غيرهم. يقول الزمخشري في «الكشاف»: ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ من المسلمين، ليس كل مسلم أيضاً ممن يصلح أن يلي أمره، إنما يستأهل ولايته من كان برّاً تقيّاً.^(٢)

فلا طريق إذاً لهذه الدرجات العلا من الولاية، مع ما يترتب على ذلك من الثواب والأجر إلا التقوى، لينغلق الباب بذلك على الأدعاء.

ولابد من الإشارة إلى أن الآية لها معنى آخر، وهو ولاية البيت الحرام، إذ سياق الآية في هذا المعنى بقوله تعالى عن المشركين: ﴿وَمَا لَهُمْ آلًا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١١/٢٢٥). وانظر لما سبق التفسير الكبير، محمد بن عمر الرازي، (٨/٤٠٣-٤٠٥). والحافظ ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٢/٤٢٢-٤٢٤). وابن جرير الطبري «جامع البيان»، مجلد ٧، (١١/٩١-٩٧). وجار الله محمود الزمخشري «الكشاف»، (٢/١٩٥-١٩٦). والعلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (٢/٥٠٨-٥١٢). والعلامة محمود الألوسي «روح المعاني»، (٧/٢١٤-٢٢٢).

(٢) جار الله محمود الزمخشري «الكشاف»، (٢/١٢٥).

الْمُتَّقُونَ ﴿[الأنفال: ٣٤].

وذلك حين قال المشركون ما قالوا من أنهم أولياء البيت الحرام، يُدخلون من شاءوا ويمنعون من شاءوا، فرد عليهم القرآن بدمهم بأن أولياءه هم المتقون، وأنتم لستم كذلك، فلا ولاية لكم عليه لشرككم وظلمكم وفسقكم، والمتقون أولياء الله وأهل طاعته، فهم أولى بولاية البيت، بل هم أولياؤه حقاً.

وإن كان هذا التفسير يعود في مآله إلى التفسير الأول، لأن ولاية المسجد الحرام لا تكون إلا تبعاً لولاية الله تعالى، لذا نفى ولاية المشركين عن المسجد الحرام، لأنهم ليسوا أولياء الله - جل وعلا.

والآية الثالثة والأخيرة هي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾، وبهذا التقرير وذلك الفصل حسم القرآن الكريم قضية ولاية الله للمتقين، فذكر بهذا الأسلوب الذي لا ريب فيه ولا تردد أن الله ولي المتقين لا يتولى أحداً غيرهم، وهو ما بينه السياق، إذ تقول الآية: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾، فوضحت وأشارت إلى أكثر من معنى.

الأول: وهو المحسوم بقوله: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

الثاني: لا ولاية من الله تعالى للظالمين، فكل ولاية لغير المتقين مقطوعة.

الثالث: أن الله - جل وعلا - بذلك جعل المؤمنين بعضهم أولياء بعض،

ومنع كذلك بالتالي ولاية المؤمنين لغيرهم، فضلاً عن الظالمين. يقول تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١]، وقال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥١]،

وقال - جل وعلا: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً

وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۖ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ [آل عمران: ٢٨].
وهكذا بينت آيات الولاية للمتقين هذه كل ما يتعلق بموضوعها من
الولاية وطريقها، وبين من تكون، وعواقبها الحسنة، وكل ذلك للمتقين.

المطلب الأول	:	آثار التقوى على دين المؤمن.
المطلب الثاني	:	عاقبة التقوى في الدنيا.
المطلب الثالث	:	عاقبة التقوى في الآخرة.

المطلب الأول

آثار التقوى على دين المؤمن

ذكرنا عاقبة التقوى في الآخرة والأولى، وجاء وقت الكلام عن أثرها على دين المؤمن، وزيادة يقينه، وحسن توكله على الله تعالى.

وقد أحصينا الآيات الدالة على ذلك في أول الفصل، ونبدأ بـ:

أ. التقوى والفرقان.

ب. التقوى سبب الهداية.

ج. الانتفاع بالآيات المتلوة والمشاهدة لأهل التقوى.

أ. التقوى والفرقان :

وتحته قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ تَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].
ونقتصر هنا على قوله تعالى: ﴿تَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ حيث سيأتى الكلام على بقية الآية في موضعه.

نقل الحافظ ابن كثير وغيره^(١)، عن أئمة التفاسير كابن عباس وعكرمة وغيرهم، أن معنى الفرقان هو النجاة والنصر والمخرج في الدنيا والآخرة.
فمن اتقى الله بفعل أو امره وترك زواجه وفق لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سبب نصره ونجاته من أمور الدنيا وسعادته يوم القيامة.^(٢)

(١) يقول العلامة ابن عاشور في «التحرير والتنوير»، (٣٢٦/٩): «الفرقان أصله مصدر كالشكران والغفران والبهتان، وهو ما يفرق أى يميز بين شيئين متشابهين، وقد أطلق بالخصوص على أنواع من التفرقة، فأطلق على النصر، لأنه يرق بين حالين كانا محتلين قبل ظهور النصر، ولقب القرآن بالفرقان لأنه فرق بين الحق والباطل، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾» ١. هـ. وانظر مختار الصحاح، مادة فرق.

(٢) ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٣٠١-٣٠٢).

فالفرقان إذن من أعظم أجزية التقوى التي يهبها الله - جل وعلا - وذلك لخيرها في نفسها، ولعظم ما يترتب عليه، كما أشار الإمام ابن كثير. ويكفى المتقين أن لهم عند ارتباك الناس وتحيرهم، واشتداد ظلام الشبهات والشهوات حولهم نوراً يمشون به، يضيء لهم طريقهم، ويميز لهم الحق من الباطل، وقد فصل الإمام الرازي في ذلك تفصيلاً حسناً، ينبغي الإشارة إليه فقال - رحمه الله تعالى: «هذه القضية الشرطية شرطها شيء واحد، وهو تقوى الله تعالى..»، إلى قوله: «وأما الجزاء المرتب على هذا الشرط فأمر ثلاثاً»، نذكر الأول منها لأنه المتعلق بما نحن بصددده.

«الأمر الأول: قوله تعالى: ﴿تَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾، والمعنى أنه تعالى يفرق بينكم وبين الكفار. ولما كان اللفظ مطلقاً وجب حمله على جميع الفروق الحاصلة بين المؤمنين والكفار. فنقول: هذا الفرقان إما أن يعتبر في أحوال الدنيا، أو في أحوال الآخرة.

أما في أحوال الدنيا: فإما أن يعتبر في أحوال القلوب، وهي الأحوال الباطنة، أو الأحوال الظاهرة.

وأما في أحوال القلوب، فأمر: أحدها: أنه تعالى يخص المؤمنين بالهداية والمعرفة. وثانيهما: أنه يخص قلوبهم وصدورهم بالانسراح، كما قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾. وثالثهما: أنه يزيل الغل والحقد والحسد عن قلوبهم، ويزيل المكر والخداع من صدورهم، مع أن المنافق والكافر يكون قلبه مملوءاً من هذه الأحوال الخسيسة والأخلاق الذميمة.

والسبب في حصول هذه الأمور أن القلب إذا صار مشرقاً بطاعة الله تعالى زالت عنه كل هذه الظلمات، لأن معرفة الله نور، وهذه الأخلاق ظلمات، وإذا

ظهر النور فلا بد من زوال الظلمة»^(١).

وأما في الأحوال الظاهرة، فإن الله تعالى يخص المسلمين بالعلو والفتح والنصر والظفر، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وكما قال تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣].

ب. التقوى سبب الهداية : (الهداية والموعظة والتذكير للمتقين)

من عواقب التقوى على دين المرء أن تكون سبباً لهدايته، ولما كانت الموعظة والتذكير كذلك، لا ينتفع بها إلا المتقون. إذ هي من أسباب الهداية وتمامها. أثرت أن يكون الكلام على كل منها، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في الآيات التالية، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١-٢]، وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٦]، وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [النور: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَذِكْرٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الحاقة: ٤٨].

وأولى هذه الآيات الكريمات قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(٢)، وقد ذكرنا شرحها في صفات المتقين.

وهذه الآية توضح قيمة التقوى في ثبات هداية أصحابها، وازديادهم من الهداية والنور، ومزيد انتفاعهم بآيات الله المتلوة، وأن ذلك شفاء لما في صدورهم من الشبهات والحيرة، أو من الأمراض التي تتمثل في الشهوات والأخلاق

(١) انظر الرازي «التفسير الكبير»، (٧/ ٤٨١-٤٨٢).

المذمومة والصفات المرذولة.

وفي نفس الوقت، فإن عدم التقوى يمنع الانتفاع بما في هذا القرآن الكريم من الهدى والنور، بل يزيد على ذلك أن يكون هذا القرآن عليهم عمى، وفي آذانهم وقر، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

ج. الانتفاع بالآيات المتلوة والمشاهدة لأهل التقوى:

الموعظة للمتقين:

لأنهم لا غيرهم كذلك يقبلون الموعظة، ويتأثرون بها. بل إن تأثرهم بالموعظة، وامتثالهم لها عامل من عوامل هدايتهم، وترقيهم في طريق الوصول إلى ربهم فلو قلنا: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، فلا جرم لكونهم قبلوا المواعظ والتزموا بها، وأفادتهم بالتفكر وإمعان النظر فيها معرفة بالله تعالى، وتدبيره للكون، ولقضائه وقدره، ولأسائه وصفاته، التي تظهر آثارها في الحياة والإنسان والكون، مما يزيد إيمانهم، وتسمو به تقواهم.

خاصة إذا علمنا أن المواعظ إما متلوة في كلام الله تعالى ورسوله ﷺ، وإما مواعظ مشاهدة، يراها المرء في نفسه وغيره من البشر، وفي الكون، والموت والحياة من حوله، تدعوه للتأثر والانفعال والمشاركة والتفكر.

وبقية الآيات الكريمة تجمع بين الموعظتين: المرئية، والمتلوة، ليكون للمتقين معينهم المستمر المتجدد من المواعظ التي تثبت أقدامهم على طريق الحق، وتقدمهم بما يشرح صدورهم، وترق له قلوبهم، فيزدادون هداية، ومسارعة إلى الخير.^(١)

(١) والموعظة مأخوذة من الوعظ والانزجار. والوعظ: التخويف، وهو ما يلين القلب، ثواباً كان أو عقاباً يحذر من لحاق ضرر في العاقبة، أو التحريض على جلب نفع.. انظر

فَالْآيَةُ الْأُولَى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٦]. جاءت في سياق قصة القتل في بنى إسرائيل، وأن موسى عليه السلام أمرهم أن يذبحوا بقرة، ويضربوه ببعضها ليعرفوا القاتل، هذه المعجزة المشهورة ختمت القصة بكونها موعظة للمتقين في كل زمان.

يقول الإمام الرازي في «التفسير الكبير»: «أما قوله: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾، ففيه وجهان: أحدهما: أن من عرف الأمر الذي نزل بهم يتعظ به، ويخاف إن فعل مثل فعلهم أن ينزل به مثل ما نزل بهم، وإن لم ينزل عاجلاً فلا بد من أن يخاف من العقاب الآجل، الذي هو أعظم وأدوم. وأما تخصيصه المتقين بالذكر، فكمثل ما بيناه في أول السورة عند قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، لأنهم إذا اختصوا بالاتعاظ والانزجار والانتفاع بذلك صلح أن يخصوا به، لأنه ليس بمنفعة لغيرهم. الثاني: أن يكون معنى قوله تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أن يعظ المتقون بعضهم بعضاً، أى جعلناها نكالاً وليعظ به بعض المتقين بعضاً، فتكون الموعظة مضافة إلى المتقين، على معنى أنهم يتعظون بها، وهذا خاص لهم دون غير المتقين.»^(١)

أما الآية الثانية فهي قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨]. يقول الزمخشري في «الكشاف»: «﴿هَٰذَا

القرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، (١/٤٤٤). والعلامة الألوسي «روح المعاني»، (١/٤٤٩). والعلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٩/٩٨). مختار الصحاح، مادة وعظ.

(١) محمد بن عمر الرازي «التفسير الكبير»، مجلد ٢، (٣/١٥٧-١٥٨). وانظر الألوسي «روح المعاني»، (١/٤٤٩). والقرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، (١/٤٤٤). وصديق خان «فتح البيان»، (١/١٥٨).

بَيَانٌ لِلنَّاسِ ﴿إيضاح لسوء عاقبة ما هم عليه من الكذب، يعنى حثهم على النظر في سوء عواقب المكذبين قبلهم، والاعتبار بما يعاينون من آثار هلاكهم. وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يعنى أنه مع كونه بياناً وتنبيهاً للمكذبين، فهو زيادة تثبيت وموعظة للذين اتقوا من المؤمنين»^(١).

ويبين الحافظ ابن كثير أن كون المراد بالبيان: القرآن الكريم، فيقول: «ثم قال تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾، يعنى: القرآن فيه بيان الأمور على جليتها، وكيف كان الأمم الأقدمون مع أعدائهم. ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يعنى: القرآن فيه خبر ما قبلكم، وهدى لقلوبكم، وموعظة أى: زاجر عن المحارم والمآثم»^(٢).

التذكيرة للمتقين:

أى أن هذا القرآن الكريم هو التنبيه الذي يذكر المتقين ويُصم عنه غيرهم لذا جاء قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَذِكْرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾، وقد جاءت هذه الآية بعد إبطال طعن المشركين في القرآن بأنه قول شاعر أو كاهن، لتبين شرفه ونفعه، إمعاناً في بطلان كلامهم، بالتفرقة بينه وبين شعر الشعراء وسجع الكهان وزمزماتهم، إذ هو تذكرة ولكن للمتقين، لا سواهم.

وقد توسع العلامة بن عاشور بعض الشيء في تفسير الآية عن غيره ممن رأينا، يقول - رحمه الله تعالى - مختصراً: والتذكيرة اسم مصدر التذكير، وهو التنبيه إلى مغفول عنه، والإخبار بأنه تذكرة إخبار بالمصدر للمبالغة في الوصف. والمعنى أنه مذكر للناس بما يغفلون عنه من العلم بالله، وما يليق بجلاله، لينتشلهم من هوة التهادى في الغفلة حتى يفوت الفوت، فالقرآن في ذاته تذكرة

(١) جار الله الزمخشري «الكشاف»، (١/٢١٨).

(٢) الحافظ إسماعيل بن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (١/٤٠٨).

لمن يريد أن يتذكر، سواء تذكر أم لم يتذكر، وقد تقدم تسمية القرآن بالذكر والتذكير في آيات عديدة، منها قوله في سورة طه: ﴿إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ في سورة الحجر.

والمراد بالمتقين المؤمنون، فإنهم المتصفون بتقوى الله، لأنهم يؤمنون بالبعث والجزاء، دون المشركين. فالقرآن كان هادياً إياهم للإيمان، كما قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، وكلما نزل منه شيء أو نُئِيَ منه شيء ذكرهم بما علموا، لئلا تعثر بهم غفلة أو نسيان. فالقرآن تذكرة للمتقين في الماضي والحال والمستقبل، فإن الإخبار عنه باسم المصدر يتحمل الأزمنة الثلاثة، إذ المصدر لا إشعار له بوقت، بخلاف الفعل. وإنما علق للمتقين بكونه تذكرة، لأن المتقين هم الذين أدركوا مزيته^(١).

وبقى عندنا موضعان. مر أحدهما في صفات المتقين، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]. وهو يوضح أثر التقوى، ولكونها سبباً في التذكر والرجوع إلى الله تعالى عند مس الشيطان.

أما الثاني: الباقي وهو ما نختم به عاقبة التقوى على دين المؤمن فهو قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وهذه الآية الكريمة تنبئ عن أن للتقوى أثراً كبيراً في تحصيل وفهم علوم، لا يصل إلى مثل ذلك غير المتقين، مع ما يهب الله تعالى من بركة الحفظ والفهم، وتيسير سبل التعلم.

وقد وجدنا مصداق ذلك بين من يشتركون في علوم واحدة، كيف يفهم بعضهم وبسرعة ما لا يفهمه غيره مع التكرار، وكيف يطلع على أسرار ومعاني تدق وتخفى على الكثير، وكيف يصير الصعب المستغلق عندهم سهلاً قريباً!

(١) العلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٩ / ١٤٨ - ١٤٩).

وإن الله تعالى يتم رحمته للمتقين، فيفيض عليهم من كرمه وجوده ما يتيسر لهم به طريق العلم والفهم، وأن من اتقى علّم الخير وأُهِمّه»^(١).

ويقول العلامة الطاهر بن عاشور، في تفسيره الآية، من «التحرير والتنوير»: «أمر بالتقوى لأنها ملاك الخير، وبها يكون ترك الفسوق. وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ تذكير بنعمة الإسلام، الذي أخرجهم من الجهالة إلى العلم بالشرعية ونظام العالم، وهو أكبر العلوم وأنفعها، ووعد بدوام ذلك، لأنه جىء فيه بالمضارع. وفي عطفه على الأمر بالتقوى إيحاء إلى أن التقوى سبب إفاضة العلوم، حتى قيل: إن الواو فيه للتعليل، وجعله بعضهم من معانى الواو، وليس بصحيح»^(٢).

وهكذا تبين قيمة التقوى على دين المرء، فهي تحافظ عليه وترقيه، وتزيده إيماناً، وتحفظه من كيد الشيطان، وترده إلى الحق. وهى الفرقان الذي يميز بين به الضلال من الحق، وهى سبب إفاضة العلوم عليه.

(١) ابن عطية «المحرر الوجيز»، (١/ ٣٨٥).

(٢) الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٣/ ١١٨).

المطلب الثاني عاقبة التقوى في الدنيا

ونتكلم الآن في تحليل الآيات التي ذكر الله تعالى فيها ما أعدّه للمتقين في الدنيا، من جميل أثر وحسن عاقبة، ليوطن الناس أنفسهم على ذلك، وليتنافسوا فيه، خاصةً وأن موعود الله بذلك ظاهر الأثر، ملموس النتيجة، فتثبت به القلوب والأقدام، ويكون زاداً وعوناً لهم على مواصلة السير إلى الله تعالى، وأول ما نذكر من عواقب ذلك في الدنيا:

المخرج والرزق واليسر:

وقد ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]. وقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا لَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعِيقَابُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢]. وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ ۖ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢-٣].

لا شك أن استقامة معيشة المرء في الدنيا، وزوال قلقه واضطرابه، يكون بتيسير أسباب رزقه، بحيث يستطيع أن يقوم على مصالح أهله وولده، آمناً في يومه، مطمئناً إن هو عاش إلى غده.

جعل الله تعالى التقوى من أعظم أسباب تحصيل الرزق الحلال المبارك فمتى حصل المرء التقوى فقد وفق لأبواب الرزق، وفتح الله عليه حسنة الدنيا على أحسن حال، وهو بعكس غير المتقين في تحصيل أرزاقهم وهم مقصرون، قائمون على معصية، لا يبالون بأي طريق حصلوا رزقهم.

وشدائد الدنيا وضيقها، ووجوه الأنكاد والآلام فيها غير منحصرة، تصيب المرء في نفسه وأهله وماله، وتكاد تسد الأبواب في وجهه، حتى تضيق عليه

الدنيا بما رحبت، ويود أن لو مات قبل حلول ما حل به، ويصل الحال ببعض إلى أن ينهى حياته بيده هروباً من بؤسه، خروجاً من مأزقه.

وقد بين الله تعالى للمؤمنين به وبأقداره، أن تلك الامتحانات في الدنيا لها مخرج عند الله تعالى، وأنه بيده ملكوت كل شيء - سبحانه، فمن اتقاه جعل له من كل ضيق مخرجاً، ومن كل هم فرجاً. وقد حدث ذلك للأنبياء والمرسلين، وعباد الله الصالحين، مما تنشرح به صدور المتقين، وتقوى همهم وعزائمهم.

ولننظر في الآيات السابقة لنرى مصداق ذلك والدليل عليه، ولنبدأ بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾.

وهو جزء من آية جاء في سياق الكلام على الطلاق وأحكامه، وأن من يتقى الله في ذلك كله رجالاً ونساءً يجعل لهم مخرجاً، ويرزقهم من حيث لا يدرون. ولكن التعبير القرآني جاء عاماً في أن كل من يتقى الله تعالى ينتظر تلك العاقبة، وستقع له ولا بد، لأن الله - سبحانه - لا يخلف وعده.

ونلاحظ أنه جاء بذكر المخرج، وهو يعنى أن المرء قد ضاقت عليه أموره واستحكمت، وأصبح يرى من حوله حائطاً مسدوداً لا مخرج منه. إذا بالتقوى تدرك صاحبها، فتفتح له باباً يخرج منه، ليعيد له روحه وحياته، ويخرجه إلى نسيم الحياة وروح العيش. تلکم التقوى.

وقد رأينا ما حدث للنبي ﷺ والصحابه من ذلك. وقصة هجرة للنبي ﷺ خير شاهد على هذا المعنى. وقد ذكر النبي ﷺ أيضاً قصة الثلاثة الذين خرجوا في يوم شات، فأووا إلى غار، فنزلت صخرة، فسدت عليهم باب الغار، حتى إذا أدركوا أنهم هلكى دعوا ربهم بسابق ما كان لهم من تقوى، فانفجرت الصخرة، فخرجوا يمشون.^(١)

(١) الحديث رواه البخارى (٥٩٧٤). وانظر ابن حجر العسقلانى «فتح البارى».

وقد أورد معظم المفسرين - كابن جرير والزمخشري وابن كثير والألوسي

وصديق

خان - قصة عوف بن مالك وابنه في نزول هذه الآية الكريمة، وهي أن ابناً لعوف بن مالك أسره المشركون، فذهب يشتكى لرسول الله ﷺ فأمره أن يتق الله ويصبر، وأن يقول هو وامراته: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، فخرج ابنه من الأسر، فإذا هو بناقاة للقوم فركبها، واستاق سرح القوم، فلم يحس أبوه إلا وهو يطرق عليهم الباب، فأخبره النبي ﷺ ونزل فيه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ (١).

لم تكتف الآية الكريمة بذكر المخرج من الضيق بتقوى الله تعالى، بل زادت بأن الله يرزقه من حيث لا يخطر بباله، وفي ظلام المادية الدامس هذا، يحتاج الناس إلى قوة اليقين في الله تعالى وقدرته، وإلى برد التوكل عليه واللجوء إليه، حتى يثقوا في رزق الله لهم، وأنه يأتيهم من وجوه لا يعلمونها، ولم تخطر ببالهم، فتهدأ نفوسهم بركونها إلى القوى القادر، فينطلقوا في دنياهم وأخراهم بقلوب لا تعرف الخوف من الغد، ولا الحزن على فوت الرزق.

والآية التالية، وهي قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعِيقَابُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢]، تؤكد هذا المعنى، وهو أن يستعين المرء على خصائصه، أو ما ينزل به بتقوى الله تعالى، ومن أهمها الصلاة يفرج الله عليه بها، ويفيض عليه من رزقه.

(١) وانظر ابن جرير الطبري «جامع البيان»، مجلد ١٢، (٩٠/٢٨). جار الله الزمخشري «الكشاف»، (١٠٩/٤). وابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٣٨٠/٤). وصديق حسن خان «فتح البيان»، (٤٥٩/٩). والعلامة الألوسي «روح المعاني»، (٢٩٠-٢٠٠/٢٩).

يذكر الإمام ابن كثير في تفسيره: ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ يعني: إذا أقمت الصلاة أذكرك الرزق من حيث لا تحتسب، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾...، إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾. وروى ابن أبي حاتم عن ثابت قال: كان النبي ﷺ إذا أصابه خصاصة نادى أهله: «يا أهلاه، صلوا صلوا»، قال ثابت: وكانت الأنبياء إذا نزل بهم أمر فرعوا إلى الصلاة.^(١)

﴿وَالْعَنْقَبَةُ لِلتَّقْوَى﴾: أي أن التقوى تجيء نهايتها عواقب خير الدنيا والآخرة، لأنه ينتظر من فضل الله تعالى لمن اتقاه الخير والمخرج، حيث وعد - سبحانه - بذلك.

وإذا كان ذلك في خاصة كل أحد، فإن الله وعد عموم الناس إن هم آمنوا واتقوا بأكثر من ذلك وأعم، وذلك قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، وإن كانت الآية الكريمة في ذكر المكذبين من الأمم السابقين، إلا أن عاقبتها في عمومها باقية لكل أمة

(١) الحافظ إسماعيل بن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٣/١٧١). قال صديق خان: «الحديث أخرجه أحمد والبيهقي وغيرهما وأضاف: وعن عبد الله بن سلام: - قال السيوطي: بسند صحيح - قال: كان النبي ﷺ إذا نزلت بأهله شدة أو ضيق أمرهم بالصلاة، وقرأ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ...﴾ الآية»، صديق خان «فتح البيان»، (٦/١٣٣). قال العلامة الطاهر بن عاشور في «التحرير والتنوير»: «وأمر الله ورسوله بما هو أعظم مما يأمر به أهله، وهو أن يصطر على الصلاة، وهو مستعمل مجازاً في إكثاره من الصلاة في النوافل. قال تعالى: ﴿يَنَالُهَا الْمُرْمِلُ﴾ قُرْ أَلِيلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الآيات، وقال: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾»، الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٦/٣٤٢-٣٤٣).

ومجتمع يتقى الله، أن تحل عليهم بركاته من السماء والأرض، فيرتفع عنهم بذلك ما هم فيه من ضيق ومحن ومصائب في اقتصادهم واجتماعهم وسياستهم ومالهم، وكل ما يتعلق بكونهم مجتمعاً راقياً.

تيسير الأمور:

وهو الوارد في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ۝﴾ [الطلاق: ٤]، والآية الكريمة - كأختها - وإن كانت واردة في أحكام الطلاق، وما يتعلق بتقوى المرء في ذلك، فهي عامة لكل متقٍ لله تعالى.

وتقدير الآية: أن من يتق الله يجعل له من أمره المتعسر عليه يسراً، فإذا كان في الآية الأولى يجعل له من كل ضيق فرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب، فإنه ها هنا له عند الله عاقبة أخرى حسنة، فإنه إذا تسرت أموره وتعقدت أحواله، وبات لا ينتظر في الصباح حلاً لما هو فيه، فإن في التقوى تيسير ذلك كله من حيث لا يتوقع، فيطمئن باله، وتهدأ نفسه.

وكذلك ييسر الله على المتقين كل أمر عسير يمكن أن ينزل بهم في حال نزول الموت عليهم، وكذا ييسر لهم الطاعات، ويوفقهم إليها ويعينهم عليها.^(١)

النجاة من العذاب في الدنيا:

(إذا نزل بالأمم الظالمة والمجتمعات الفاسقة الخارجة عن أمر الله تعالى المكذبة لرسله).

بين المولى - سبحانه وتعالى - أن العذاب إذا أنزله في الدنيا، فإنه ينجي - سبحانه - المتقين. قال تعالى: ﴿فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَ عِقَابُ مُكْرِهٍ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝﴾ فِتْلِكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا ۚ إِنَّ فِي

(١) وانظر صديق خان «فتح البيان»، (٩/٤٦٣).

ذَلِكَ لآيَةٍ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥١﴾ وَأُنْحِجْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ [النمل: ٥١-٥٣]، وقوله تعالى: ﴿وَنُحِجْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: ١٨].

هذه الآيات ختمت بها قصة ثمود، وقد أشرنا إلى طرف منها في فصل «التقوى دعوة الرسل»، حيث كذبوا رسولهم صالح عليه السلام حينما دعاهم للإيمان والتقوى، ولجوا في طغيانهم وبغيهم وظلمهم، ولم يترجزوا بآيات الله ولا تخويف رسولهم، فأخذهم الله تعالى كما ذكرت الآيات: ﴿دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، فتلك بيوتهم خاوية إلى يوم الناس هذا مزاراً للمعتبرين.

وكانت النجاة نصيب أهل الإيمان والتقوى، والآية وإن تحدثت في ثمود، فإنها عامة لأهل التقوى في كل زمان ومكان.

نزول الملائكة:

بما خص به أهل التقوى نزول الملائكة لتبشيتهم والربط على قلوبهم في المواقف العصبية، والأحوال الشديدة التي تزلزل قلوب الأبطال، وذلك قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران ١٢٥]، ومعنى الآية أن المتحققين بصفات التقوى وأهمها الصبر، ينزل الله عليهم الملائكة لتبشيتهم وتدفع عنهم وذلك في كل وقت وفي كل مكان، وهو ما يفيد أسلوب الشرط، ومصداق ذلك ما يحدث كثيراً من أن أعداداً قليلة من المؤمنين ضعيفة العدد والسلاح هزمت قوات كبيرة، وما ذلك إلا بتأييد الملائكة.

بل قد ذكرت آيات أخر - في غزوة بدر - أن الملائكة قاتلت مع المؤمنين، وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقَىٰ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ

وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ [الأنفال: ١٢].

وعليه فإن المسلمين لا ينقصهم - لكى يهزموا أعداءهم ويرتفع لواؤهم فتكون لهم حينئذ قيمة بين الأمم - إلا أن يرتفع لواء التقوى، وينضوا جميعاً تحته حكماً ومحكومين، وعندئذ يكرمهم ربهم بنصره، لأنهم نصره - سبحانه، ووعد الذي لا يخلف: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ ﴿٧﴾ [محمد: ٧]، ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ ﴿١٢٥﴾ [آل عمران: ١٢٥]، فلا تحزنهم لذلك قلتهم ولا ضعف عددهم، ولا يفت في عضدهم قوة عدوهم ولا كثرة سلاحهم: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿٢٤٩﴾ [البقرة: ٢٤٩].^(١)

الحفظ والحراسة من الأعداء :

وهو آخر ما نختم به أثر التقوى وعاقبتها في الدنيا، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾، وهى تكملة قوله تعالى: ﴿إِنْ تَمَسَّسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُوهُمْ وَإِنْ تَصَبَّكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾.

وإذا كان الله تعالى قد ضمن للمتقين النصر وتأييد الملائكة لهم، فإنه - سبحانه - قد بشرهم كذلك وأيدهم بحفظه من كيد أعدائهم جزاء لهم على حسن صبرهم وعظيم تقواهم.

ولتوضح قيمة ما أعد الله - سبحانه وتعالى - للمتقين في هذه الآية الكريمة، فإنه يحسن الاطلاع سريعاً على الآيات السابقة لها، حيث صور القرآن الكريم شيئاً من أحوال المنافقين، وموقفهم من المؤمنين، وما ينبغى أن يكون موقف المتقين من هؤلاء المجرمين، ثم ختم ذلك بهذه العاقبة الحسنة.

(١) انظر ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (١/ ٤٠٠-٤٠١).

صور القرآن الكريم هؤلاء الأشرار بأنهم لا يقصرون في بذل أى جهد يكون خبالاً للمؤمنين، ويتمنون لهم من كل قلوبهم الأذى والمصائب، والمؤمنون طيبون حسنو النية، وقد جاء أمر الله لهم في أول الآيات بأن لا يتخذوا بطانة من هؤلاء المجرمين، لأنهم: (إن تمسّسكم حسنة)، والتعبير بالمس يعنى مهما كانت قليلة مجرد مس، (تسوهم) وتنكد عليهم عيشهم لأنهم يريدون لكم الأذى، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها.

في هذا الخضم جاءت بشارة الله لهم بالحفظ التأييد والحراسة من أصعب فئة وأشدّها ضرراً بقوله إن كيدهم ذلك كله - مع الصبر والتقوى - هباء لا يؤثر - بقوة الله وقدرته وفضله - على المؤمنين المتقين الصابرين تأثيراً يذكر.

يقول الإمام الفخر الرازى في «التفسير الكبير»: معنى الآية أن كل من صبر على أداء أوامر الله تعالى، واتقى كل ما نهى عنه، كان في حفظ الله، فلا يضره كيد الكافرين ولا حيل المحتالين. وتحقيق الكلام في ذلك هو أنه - سبحانه - إنما خلق الخلق للعبودية، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فمن وفى بعهد العبودية في ذلك فالله - سبحانه - أكرم من أن لا يفى بعهد الربوبية في حفظه عن الآفات والمخالفات.^(١) وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]. وهكذا تظهر آثار التقوى جلية.

(١) الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٤/٤٢٦).

المطلب الثالث

عاقبة التقوى في الآخرة

أما شرف أهل التقوى السامق في الآخرة - أى فيما يتعلق بأمورها - وما أعد الله لهم فيها من حسن الجزاء وجميل العاقبة، فهذا أعظم فضله عليهم وأكرم ما يسديه إليهم، إذ ليس بعد سعادتهم في الآخرة من سعادة، وليس بعد فوزهم من فوز، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

ومن هذه العواقب الواردة في ذلك:

أولاً : نزول الملائكة عليهم :

ذكرنا في قوله تعالى: ﴿الْأَبْرَارَ أُولِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢٢) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴿يونس: ٦٢-٦٤﴾ أن المتقين لا خوف عليهم فيما يستقبلون من أمور الآخرة وكرها، ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا من أهل ومال وولد وغيره.

وأن أمنهم هذا الذي ذكرته الآيات، وعدم خوفهم أو حزنهم، مع تلك البشارات في الدنيا بيته آيات أخرى. نقصد قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (٢٤) نَحْنُ أُولِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٢٥﴾ نِزْلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿فصلت: ٣٠-٣٢﴾.

فتبشيرهم بعدم الخوف وبعدم الحزن إنما تنزلت به الملائكة لهؤلاء المتقين، وهو تنويه بشأنهم إذ ينزل الملائكة من علوياتهم لأجلهم.

وحاصل كلام أهل العلم أن الملائكة تنزل عليهم في ثلاثة مواضع: في الدنيا حال الموت، وفي القبر، وعند الخروج للحساب، في كل ذلك تثبتهم

وتطمئن قلوبهم، ثم تبشرهم برحمة الله وجنته، إكمالاً لسرورهم، وتتمياً لنعيمهم، حتى يصلوا بهم إلى جنة الخلد.

الموضع الأول: أن الملائكة تنزل عليهم في المحشر يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَتَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، أى أبشروا بالجنة، فإن ذلك يثبت كرامة لأهل التقوى.

والموضع الثانى: القبر، يثبتونهم عند السؤال، ويؤنسون وحشتهم، حيث من المقرر في عقيدة أهل السنة أن المرء يمتحن في قبره، فإن كان مؤمناً ثبته الله تعالى في الامتحان، فيجيب: ربي الله ودينى الإسلام ورسولى محمد ﷺ، وذلك مصداق قول الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

ذكر الإمام ابن جرير ما يؤيد هذا الكلام ويشهد له - وهو أن الله يثبت الذين آمنوا بالقول الثابت في قبورهم - بأحاديث كثيرة، وأشهرها حديث البراء بن عازب، يقول - رحمه الله - إن رسول الله ﷺ قال، وذكر قبض روح المؤمن، فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه - يعنى في قبره - فيقولان: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان: ما دينك؟ فيقول دينى الإسلام، فيقولان: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله، فيقولان: ما يدريك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فأمنت به وصدقت. فينادى من السماء أن صدق عبدى. قال: فذلك قول الله ﷻ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. وأما الظالمون فمصيرهم الهلاك. يقولون: لا ندرى.

أما المقام الثالث الذي تنزل الملائكة فيه على المؤمنين المتقين فهو عند الاحتضار، وهو موقف من أصعب المواقف على المؤمن، فضلاً عن غيره، لأن

سكرات الموت وشدته شيء لا يوصف كرباً وهولاً وألماً، حتى إن رسول الله ﷺ كان يقول عند الموت: «لا إله إلا الله إن للموت لسكرات»^(١)، علاوة على مشاهدة صورة ملك الموت، ودخول الروح والخوف منه على القلب، مع مشاهدة العصاة مواضعهم في النار، وخوفهم قبل المشاهدة، فإنهم في حال السكرات قد تحاذلت قواهم، واستسلمت للخروج أرواحهم، ولن تخرج أرواحهم ما لم يسمعوا نغمة ملك الموت بإحدى البشريين، إما: أبشر يا عدو الله بالنار، أو: أبشر يا ولي الله بالجنة.^(٢)

والأكثر من ذلك أن بعض أهل العلم قد ذهب إلى جواز تنزل الملائكة على المتقين في الدنيا، علاوة على تلك المواطن الثلاثة السابقة، وذلك لأن الآية عامة شاملة لتلك المواطن وغيرها، وهذا ما ذهب إليه العلامة الألوسي وغيره، حيث يقول، في تفسيره روح المعاني:

«وقيل: تنزل عليهم، يمدونهم فيما يعين ويطراً لهم من الأمور الدينية والدنيوية بما يشرح صدورهم،... إلخ»^(٣).

النجاة من النار:

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۖ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا ۖ﴾ [مريم: ٧١-٧٢].

عندما يقوم الناس من قبورهم إلى الحشر، وإلى فصل القضاء، يغشاهم من

(١) رواه البخاري من حديث عائشة - رضي الله عنها - (٦٥١٠). وانظر ابن حجر «فتح الباري»، (٣٦١/١١).

(٢) انظر الإمام الغزالي «إحياء علوم الدين»، مجلد ٤، (٢٨٥٩/١٥).

(٣) العلامة محمود الألوسي «روح المعاني»، مجلد ١٣، (١٨٦/٢٤).

الهلول والكرب شىء عظيم، ثم يساقون إلى النار جميعهم، فتأخذ أصحابها، وينجو أهل التقوى بتقواهم.

اختلف المفسرون في تأويل هذا الورود في الآية الكريمة، وها هو ذا اختصاره، مع الراجع منه:

ذهب جمع كثير من سلف المفسرين وأهل السنة إلى أنه الدخول، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وقوله تعالى في فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨]، وقوله تعالى: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِثًا﴾ [مريم: ٨٦]، وإلى هذا ذهب ابن مسعود وابن عباس وخالد ابن معدن^(١) وابن جريج^(٢) وغيرهم. وهذا الدخول لا تعدو النار على المؤمنين، ثم يخرجهم الله منها بعد معرفتهم حقيقة ما نجوا منه.

يقول العلامة محمود الألوسي، في «روح المعاني»: «أخرج أحمد والحكيم والترمذي وابن المنذر والحاكم وصححه وجماعة عن أبي سمية، قال: اختلفنا في الورود، فقال بعضهم: لا يدخلها مؤمن، وقال آخر: يدخلونها جميعاً ثم ينجي الله الذين اتقوا. فلقيت جابر بن عبد الله رضي الله عنه فذكرت له، فقال، وأهوى إلى أذنيه: صمتاً إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يبق بر ولا فاجر إلا دخلها، فتكون على المؤمن برداً وسلاماً، كما كانت على إبراهيم عليه السلام، حتى إن للنار

(١) هو خالد بن معدان بن أبي كرب الكلاعي، تابعي ثقة، اشتهر بالعبادة، معدود في أئمة الفقه، ت ١٠٣ هـ. انظر الذهبي «سير أعلام النبلاء»، (٤/ ٥٣٦).

(٢) هو عبد الله بن عبد العزيز بن جريج، من علماء مكة ومحدثيهم، وهو أول من صنف الكتب بالحجاز، ت ١٥٠ هـ. انظر المسعودي «شذرات الذهب»، (١/ ٢٢٦).

ضجيجاً من بردهم، ثم ينجى الله الذين اتقوا»^(١).

وقالت فرقة: بل هو ورود إشراف وإطلاع وقرب، كما تقول: وردت الماء إذا جثته، وليس يلزم أن تدخل فيه.

واحتج من قال بأن الورد ليس نفس الدخول كذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١-١٠٢]، وإبعادهم المذكور يدل على عدم دخولهم فيها، فالورد غير الدخول.^(٢)

وقالت فرقة: إن الورد المذكور هو المرور على الصراط، وهو جسر مضروب على متن جهنم، وقد روى ذلك عن ابن مسعود ؓ عن النبي ﷺ: «إن الصراط مضروب على جسر جهنم، فيمر الناس كالبرق، وكالريح، وكالجواد من الخيل على مراتب، ثم يسقط الكفار في جهنم، وتأخذهم كالليب»^(٣).

وآخر الأقوال في الورد، وقد نسبها القاضي ابن عطية في تفسير «المحرر الوجيز» لمجاهد^(٤) - ونحن نذكره لذكره في التفاسير فقط - وهو أن ورود المؤمنين هو الحمى التي تصيبهم في دار الدنيا. واحتج من قال هذا القول بحديث الرسول ﷺ: «الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء»، وفي الحديث:

(١) العلامة محمود الألوسي «روح المعاني»، مجلد ٩، (١٦/١٧٧).

(٢) انظر العلامة محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن»، (٤/٣٤٩).

(٣) انظر ابن عطية «المحرر الوجيز»، (٤/٢٧). وقد ورد عن ابن مسعود ؓ كذلك أنهم يردون النار وهي خامدة، ثم تسوخ بأهلها، ويخرج المؤمنون فائزون. وروى عنه كذلك أنهم يدخلونها جميعاً، ثم يصدرون بحسب أعمالهم. نفس المصدر السابق، والشنقيطي «أضواء البيان»، (٤/٣٥٢).

(٤) ابن عطية «المحرر الوجيز»، (٤/٢٧).

«الحمى حظ كل مؤمن من النار».

أما الراجح فهو القول: بأن الورود هو الدخول، وذلك لما فيه من إظهار نجاة المتقين وفوزهم، مما يجعلهم مستعدين لهذا الموقف في الدنيا.
أما أدلة ترجيح هذا القول:

فالأول: ما احتج به الإمام ابن عباس - رضى الله عنهما - على نافع بن الأزرق بأن الورود هو الدخول.

الثاني: هو أن في الآية قرينة دالة على ذلك، وهى أنه تعالى لما خاطب جميع الناس، بأنهم سيردون النار برهم وفاجرهم، بقوله: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]، بين مصيرهم ومآلهم بعد الورود المذكور بقوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا﴾ [مريم: ٧٢]، أى نترك الظالمين فيها، وهو دليل على أن ورودهم لها دخول، إذ لو لم يدخلوها لم يقل: ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا﴾، بل يقول: وندخل الظالمين، وهو واضح. وكذلك قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ دليل على أنهم وقعوا فيها من شأنه أنه هلكة، ولذا عطف على قوله: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ بقوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾.^(١)

وفى نهاية المسألة لابد من التنبيه على أن التقوى - وهى صاحبة الفضل في نجاة أصحابها - درجات، فليس المتقون في درجة واحدة، كما قال الله تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾.^(٢) ومن ثم فإن خروجهم من النار ليس دفعة واحدة جميعاً، بل كل على حسب تقواه. ويحسن نقل قول العلامة الألوسى في ذلك.

(١) انظر الشنقيطى «أضواء البيان»، (٤/ ٣٥٠). والألوسى «روح المعانى»، (١٦/ ١٨٠).

وصديق حسن خان «فتح البيان»، (٦/ ٤٥-٤٧).

(٢) الألوسى «روح المعانى»، (١٦/ ١٧٨)، الشنقيطى «أضواء البيان»، (٤/ ٣٥٢)،

وغيرها.

يقول - رحمه الله: «والذى تقتضيه الآثار الواردة في عصاة المؤمنين أن يقال: إن التنجية المذكورة ليست دفعة، بل تحصل أولاً فأول، على حسب قوة التقوى وضعفها حتى يخرج من النار من كان في قلبه وزن ذرة من خير وذلك بعد العذاب حسب معصيته. وأما ظاهر من الأخبار كخبر جابر السابق أن المؤمن لا تضره النار مؤول بحمل المؤمن على المؤمن الكامل، لكثرة الأخبار الدالة على أن بعض المؤمنين يعذبون»^(١).

يتضح بهذه المسألة - على أى حال - من الأخذ والرد فيها بهذا الاختصار الشديد قيمة التقوى وأهميتها، وما ينبغى على المؤمن من لزوم التزود منها ليوم معاده.

أما قول العلامة ابن عاشور في تفسير الآية - حيث يخالف ما سبق جميعاً - تركناه للهامش^(٢).

﴿يَوْمَ نَخْشِرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ۖ وَنُسْوَاقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِدًّا﴾ [مريم: ٨٥-٨٦].

وهذه الآية الكريمة مرتبطة بما قبلها من مناقب التقوى وأهلها، إذ تبين هيئة قدوم المتقين على ربهم، وهو قدوم مكرم، قدوم الوفود على الملوك، وإن كان قدوم الوفود على الملوك يعقبه انصراف، ولكن هذا القدوم على الله تعالى قدوم مقيم، كأنهم وفود مكرمة أبداً، لا ينالها إلا الكرامة وحسن الاستقبال الدائم،

(١) الألوسى «روح المعانى»، (١٦/ ١٨٠).

(٢) ذهب العلامة الطاهر بن عاشور، في تفسيره «التحرير والتنوير»، إلى خلاف ما ذكرنا من أقوال أهل التفسير، وملخص قوله: أن المتقين لا تنالهم النار أصلاً، وأن ورود المذكور ليس الدخول، وإنما الدخول في الآية للكفرة وأن ما ذكره الفخر الرازى من فوائد لهذا الدخول لا اعتداد به. انظر ابن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٩/ ١٤٧-١٥٢). ولم أر له - رحمه الله - سلفاً فيما علمت إلا الإمام أبا حيان في «البحر المحيط» (٧/ ٢٨٩).

وأنواع التحف وحسن الوفادة خالدين فيها أبداً.

وهذا قول أبى حيان كذلك، يقول أبو حيان في «البحر المحيط»، في تفسيره للآية: وعدى ﴿نَحْشُرُ﴾ بـ ﴿إِلَى الرَّحْمَنِ﴾ تعظيماً لهم وتشريفاً.

ولكن ما زال فضل الله تعالى على أهل التقوى مبسوطاً، حيث ذكر بعض أهل العلم - كما مر آنفاً - أن المتقين يحشرون فور خروجهم من قبورهم وفداً إلى ربهم، وذكر فريق آخر أن ذلك بعد انقضاء الحساب، وذكر بعضهم أنه يمكن الجمع بين القولين السابقين، ولا يلزم تحقق أحدهما فقط، بل يمكن أن يتحققا معاً، وذلك بأن يقال إن أهل التقوى الكاملة - أى الكَمَل من المتقين - يحشرون من ساعة خروجهم من قبورهم هذا الحشر المكرم.

وقد ذكر هذا القول العلامة الألوسى في «روح المعانى» حيث هو الذي فصل هذا القول.^(١)

وعلى كل تلك الأقوال أو بعضها فإن المتقين يصلون الجنة ركباً وافدين مكرمين، على هيئة حسنة، وعلى منظر جميل حسن يليق بلقاء الله تعالى ومجاورته في جنته.

لا شك أن ما سبق مما ذكرنا من عاقبة التقوى هو الفلاح المبين، وقد تكرر قوله تعالى فيما أحصينا في أول الفصل: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ([البقرة: ١٨٩] [آل عمران: ٢٠٠] [المائدة: ٣٥])، ليدل على أن التقوى سبيل الفلاح، وهذا الفلاح في الدنيا والآخرة.

يقول الزمخشري في «الكشاف»: ومعنى التعريف في ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ الدلالة على أن المتقين هم الناس الذين بلغك عنهم أنهم يفلحون في الآخرة، كما

(١) انظر الألوسى «روح المعانى». والنيسابورى «غرائب القرآن ورغائب الفرقان» (٧٢/١٦)، على هامش تفسير ابن جرير الطبرى.

إذا بلغك أن إنساناً قد ثاب من أهل بلدك فاستخبرت من هو فقيل: زيد التائب، أى هو الذي أخبرت بتوبته، أو على أنهم الذين إن حصلت صفة المفلحين، وتحققوا ما هم، وتصوروا بصورتهم الحقيقة، فهم هم لا يعدون تلك الحقيقة، كما تقول لصاحبك: هل عرفت الأسد وما جبل عليه من فرط الأقدام؟ إن زيداً هو، فانظر كيف كرر الله التنبيه على اختصاص المتقين بنيل ما لا يناله أحد على طرق شتى، وهى ذكر اسم الإشارة وتكريره، وتعريف المفلحين، وتوسيط الفصل بينه وبين أولئك، ليصرك مراتبهم ويرغبك في طلب ما طلبوا، وينشطك لتقديم ما قدموا، ويشبطك عن الطمع الفارغ والرجاء الكاذب، والتمنى على الله لا تقتضيه حكمته ولم تسبق به كلمته»^(١).

وقد وردت الآيات على المتقين حين يقدمون على ربهم، يقدمون عليه وقد غفرت ذنوبهم وكفرت عنهم سيئاتهم.

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنفال: ٢٩]. وهذه الآية الكريمة من أشد الآيات وضوحاً في التدليل على ما نحن بصدد الكلام عليه من أن التقوى سبيل المؤمنين لتكفير سيئاتهم ومغفرة خطاياهم، وفضل الله أوسع من ذلك كذلك.

أما ما نحن بصده الآن من المغفرة وتكفير السيئات فقد خاطب الله تعالى المؤمنين - في هذه الآية الكريمة - بوصف الإيمان، تذكيراً لهم بأهميته، وما يقتضيه من سرعة الإجابة وتمام الامتثال والدوام على الطاعة، وعقب ذلك بالترغيب في التقوى، تحذيراً من العصيان، وتنبيهاً على سوء عاقبته، مع بيان حسن عاقبة التقوى من الوعد بالنصر واستقامة الأحوال، وتكفير السيئات

(١) جار الله محمود بن عمر الزمخشري «الكشاف»، (١/ ٢٥).

وغفران الذنوب، إن هم داموا على ذلك.

يبين ذلك فعل الشرط في: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ﴾، لأن فعل الشرط المراد به الدوام، فكأنهم كانوا متقين، وبالتالي يكون المعنى تحذيراً لهم من الخيانة لله وللرسول - الواردة في سياق الآيات قبلها، وترغيباً في المداومة على التقوى، ثم ذكر عقيب ذلك عاقبة التقوى والمداومة عليها.

أما تكفير السيئات فهو سترها عليهم في الدنيا، وهى التي فرطت منهم وأعقبتها التقوى.

أما قوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ فهو محذوف المفعول، أى يغفر كل الذنوب. أما قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ بعد تكفير السيئات وغفران الذنوب، بدل أن يقول - مثلاً: والله غفور رحيم؛ فليبين لهم أن كل ذلك تفضيل منه سبحانه.

على ما جاء عند العلامة الألوسى^(١): «أن ذلك من عظيم فضله أن يتفضل من غير واسطة وبدون التماس عوض، ولا كذلك غيره - سبحانه». ويرى العلامة الطاهر بن عاشور أن ذلك تذييل وتكميل، وهو كناية عن حصول منافع أخرى لهم من جراء التقوى.

والحاصل أن المقصود في الآيات الحث على التقوى، وتحقيق فائدتها، والتعريض من التفريط فيها، فلا يحصل التكفير ولا المغفرة بأى احتمال.^(٢)

وهكذا نرى في بقية الآيات التي رتبت المغفرة وتكفير السيئات على التقوى، لتظهر أهمية التقوى، وعناية الله تعالى بأهلها، وتعجيل المثوبة لهم، مع ادخار

(١) انظر العلامة الألوسى «روح المعانى»، مجلد ٦، (٩/ ٢٨٥). وهو بنصه من: أبى السعود «إرشاد العقل السليم»، (٢/ ٣٥٧).

(٢) انظر العلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٩/ ٣٢٧).

جزاء ذلك في الآخرة، ليحوزه المرء أحوج ما يكون إليه، حيث لا ينفع المرء ولا ينجيه إلا تقوى الله تعالى.

تعظيم الثواب (إعظام الأجر):

فإذا كانت التقوى سبب تكفير السيئات، وغفران الذنوب، فإنها لا تقف عند هذا الحد فقط، بل تزيد عليه بإعظام الأجر وتكثير الثواب لأصحابها، مما يعنى رفع درجاتهم، وعلو مرتبتهم على حسب تقواهم، ويعنى كذلك أن باب المنافسة مفتوح لتحصيل أعظم الأجر، بتحصيل أعظم أسباب التقوى وصفاتها. وفي ذلك يقول الحق - جل وعلا:

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٢]، ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥].

وغيرها من الآيات التي أشارت إلى عظيم الثواب، وإن لم تنص عليه، كقوله تعالى: ﴿وَلَا جُرْ إِلَّا فِي الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٥٧].

أما الآيات الأولى في إعظام الأجر للمتقين فواضحة، حتى اختصر المفسرون الكلام فيها، فمثلاً يقول الإمام ابن كثير، في قوله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾، «أى يذهب عنه المحذور ويجزل له الثواب على العمل اليسير»^(١).

(١) ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤/ ٣٨٢).

أما قوله تعالى: ﴿وَلَا جُرْأَلَاخِرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٥٧]، فإن أفعال التفضيل يشر إلى أن أهل التقوى لهم أجر عظيم كذلك في الدنيا، بدليل ذكر أجر الآخرة، فإن الله تعالى من فضله يعجل لهم في حياتهم الأولى ثواباً وعطاءً، ولكنه ينبه في نفس الوقت على أن أجورهم في الآخرة خير، إذ لا قياس بين أجر الدنيا - مهما كان - وأجر الآخرة المقيم الدائم، مع عظم كنهه مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، كل ذلك لأهل التقوى في الدنيا. ولا شك أن تنكير الأجر وإبهامه مما يدل على عظمه، وأنه لا يدركه الخيال ولا يحيط به الفكر.

ويؤكد ذلك ويقويه أن الآية جاءت في سياق ما حدث لسيدنا يوسف عليه السلام، فبعدما جرى له من المحن المعلومه، كانت عاقبة التقوى أن مكّنه الله تعالى في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، ويحكم فيها بما يشاء، وهو من فضل الله تعالى لأهل التقوى في الدنيا، كما قال الحق - سبحانه - في الآية: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦-٥٧]. والآية عامة لأهل التقوى في كل زمان ومكان، وما حدث ليوسف عليه السلام جراء تقواه، لربه - سبحانه وتعالى، الدليل الحى والواقع الحادث، ويمكن أن يتكرر بتكرار أسباب التقوى، وقد تكرر كما قد علمنا مع المرسلين والصالحين من بعدهم. يقول الزمخشري في الكشاف: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أن نأجرهم في الدنيا: ﴿وَلَا جُرْأَلَاخِرَةَ خَيْرٌ﴾ لهم. قال سفيان بن عيينه: المؤمن يثاب على حسناته في الدنيا والآخرة، والفاجر يعجل له الخير في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق، وتلا هذه الآية. ^(١)

(١) جار الله الزمخشري «الكشاف»، (٢/ ٢٦٣ - ٢٦٤).

رفعتهم فوق غيرهم :

ومما يميز أهل التقوى يوم القيامة أنهم سيكونون في الدرجة العليا من بين المؤمنين، حيث يرون ساعتها العاقبة الحسنة للتقوى، مما يجعل الناس يغبطونهم على علو منزلتهم ويتمنون أن لو أفنوا أعمارهم وجهدهم وأموالهم في تحصيل هذا النعيم المقيم والدرجة الرفيعة تلك.

وهذا بدوره يدفع المؤمنين المصدقين اليوم بموعده الله إلى التنافس في القرب العظيم من الله تعالى، وما يستتبعه ذلك من رضوان.

يقول تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَدَسَّخَرُونَا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: ٢١٢].

يقول أبو حيان في «البحر المحيط»: «وجاءت هذه الجملة مصدرة بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ ليظهر أن السعادة الكبرى لا تحصل إلا للمؤمن المتقى، ولتبعث المؤمن على التقوى».^(١)

ويضيف العلامة صديق حسن خان، في تفسيره «فتح البيان»: «وفيه دلالة على أن فوقيتهم من أجل التقوى، وفيه تحريضهم على الاتصاف به إذا سمعوا ذلك، أو للإيذان بأن إعراضهم عن الدنيا للاتقاء عنها لكونها شاغلة عن جانب القدس».^(٢)

وهذه الفوقية لأهل التقوى حقيقة ومجاز، لأن المتقين في أعلى عليين، وأن الكافرين في أسفل سافلين، أو أنهم في أوج الكرامة، وهم في حضيض الذل

(١) أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي «البحر المحيط»، (٢/ ٣٥٥). وهو بنصه في: الفخر الرازي «التفسير الكبير»، (٣/ ٢٦٨).

(٢) صديق حسن خان «فتح البيان في مقاصد القرآن»، (١/ ٣٣٩).

والمهانة، أو أنهم يتناولون عليهم في الآخرة فيسخرون منهم كما سخروا منهم في الدنيا، والتعبير بالجملة الاسمية للدلالة على دوام ذلك، مع تسلية المؤمنين بهذه المنزلة عندما يحدث لهم من الكفار مثل تلك السخرية في الدنيا.^(١)

وفي قوله - سبحانه: ﴿زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [البقرة: ٢١٢]

أن المتقين لم يبلغوا هذه الدرجة من التقوى إلا بالزهد في الدنيا، وإخراجها من قلوبهم، وإن كانت في أيديهم، وإنها لم تكن بزهرتها ونضرتها لتشغلهم عن ربهم والاستعداد للقاءه بما يبيض وجوههم، ويثقل موازينهم، وذلك كقوله تعالى: ﴿زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَمِ وَالْحَرْثِ﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ أُوتِيتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَ لَكُمُ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [آل عمران: ١٤-١٥]، وقد ذكرناها في صفات المتقين، فالذين اتقوا تطلعهم لأعلى من ذلك، وأبقى وأجل من هذا الخسيس القليل القصير الفاني.

الخطوة في الجنة :

وجزاء المتقين بعد نجاتهم من أهوال القيامة ومن عذاب جهنم، أن يتفضل عليهم الله ﷻ بدخول جنته، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، حيث يحل عليهم رضوانه فلا يغضب عليهم أبداً. والمتقون في هذا النعيم درجات كما هم في درجات التقوى.

وقد أحصينا - في بداية هذا الفصل - الآيات التي بينت أن الجنة أعدت للمتقين، ولكننا نلاحظ:

أولاً: كثرة الآيات التي دلت على ذلك، بما يؤكد أهمية التقوى لتحقيق هذا

(١) انظر الفخر الرازي «التفسير الكبير»، (٣/٢٦٨). و أبا حيان الأندلسي «البحر

المحيط»، (٢/٣٥٤-٣٥٥)، ومحمود الألوسي «روح المعاني»، (٢/١٥١).

الثواب العظيم، وكذلك لتنشيط همم المؤمنين لسعى الصحيح إلى الآخرة.
ثانياً: تنوع أصناف النعيم المذكورة في القرآن الكريم وكثرتها، غيز ما ادخر الله تعالى وخبأ لعباده المتقين، مما لا يحيط به إلا المولى الكريم - سبحانه وتعالى - كل ذلك ليتحقق للمتقين حسن نعيم الآخرة ودوامه فيسعون إليه، ويظهر لهم خسة نعيم الدنيا وقلته فلا يشغلهم عن الآخرة والاستعداد لها.

ثالثاً: التكرار، فإن المطالع لهذه الآيات التي ذكرت جزاء المتقين يظن لأول وهلة أن ذكر النعيم والجزاء فيها مكرر. ولما كانت هذه دراسة نصية لآيات التقوى فقط، فسنذكر شيئاً من هذه الآيات ونحللها، لنظهر أن ليس ثم تكرار، وإنما تنوع النعيم كمّاً وكيفاً، وإعجاز القرآن في نظمه ومعناه وبلاغته.
وإليك هذه الآيات:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّهَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضَلًّا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾ [الدخان: ٥١-٥٧].

الثانية: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿٥٨﴾ فِيكِهِينَ بِمَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَّهَهُم رَّبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٩﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ مُتَكِبِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٦١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ ۚ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٦٢﴾ وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٦٣﴾ يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْنِيمٌ ﴿٦٤﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ هُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكُونٌ ﴿٦٥﴾﴾ [الطور: ١٧-٢٤].

الثالثة: قوله - جل وعلا: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٦٦﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٦٧﴾﴾

وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٦﴾ وَكَأَسًا دِهَاقًا ﴿٣٧﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا ﴿٣٨﴾
 جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٩﴾ [النبا: ٣٦-٣٩].

ونبدأ في تحليل هذه الآيات مع مقارنتها بعضها ببعض، وكذلك غيرها مستعنيين في ذلك باختصار ما ذكره أهل التفسير فيها. ونبدأ بآيات سورة الدخان، وهى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿١٠١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٠٢﴾... إلى آخر الآيات.

لما ذكر الله حال الأشقياء بقوله: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ ﴿١٢٢﴾ طَعَامٌ أَلَا تُئِمُّ ﴿١٢٣﴾﴾، عطف بذكر السعداء فقال: إِنَّ الْمُتَّقِينَ لله تعالى في الدنيا في مقام أمين في الآخرة، وهو الجنة، قد أمنوا فيها من الموت والخروج، ومن كل هم وحزن وجزع وتعب ونصب، ومن الشيطان وكيده، وسائر الآفات والمصائب^(١). والأمين بمعنى الآمن، والمراد: الآمن ساكنه، فوصفه بـ(أمين) مجاز عقلي. والأمن أكبر شروط حسن المكان، لأن الساكن أول ما يتطلب الأمن، وهو السلامة من المكاره والمخاوف، فإن كان آمناً في منزله كان مطمئن البال شاعراً بالنعيم الذي يناله.^(٢)

ثم قال تعالى: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٠٢﴾﴾، وهو بدل من ﴿مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿١٠١﴾﴾، وأعيد حرف ﴿فِي﴾ مع البدل للتأكيد. وهو ليس أى مقام، بل هو مقام التنزه وطيب العيش والنعيم الدائم. ﴿جَنَّاتٍ﴾ جمعها باعتبار جمع المتقين، أى جنات

(١) انظر ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤/ ٢٤١ - ٢٤٣).

(٢) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٥ / ٣١٧)، (٢٧ / ٣٤٧). والفخر الرازى «التفسير الكبير»، مجلد ١٤ / ٥٦٩ وبعدها. وأبا حيان «البحر المحيط»، (٩ / ٤٠٩)، وقد نقل عن ابن عطية أن أمين بمعنى مأمون فيه يؤمن فيه من الغير. وابن عطية «المحرر الوجيز»، (٥ / ٧٧). والزنجشري «الكشاف»، (٣ / ٤٣٥). ومحمود الألوسى «روح المعانى»، (١٤ / ٢٠٥ - ٢٠٦).

كثيرة، كما في الحديث: «إنها لجنان كثيرة وإنه لفي الفردوس»، ونُكِّرت ﴿جَنَّتِ﴾^(١) للتعظيم من شأنها.

كل ذلك نعيم مكانهم، ثم ثنى بوصف نعيم أجسادهم، حيث يلبسون السندس والإستبرق^(٢)، وبعد وصف نعيم مكانهم وأجسامهم وصف نعيم نفوسهم، بعضهم مع بعض في مجالسهم ومحادثاتهم بقوله: ﴿مُتَّقَبِّلِينَ﴾ وقد أغنت هذه اللفظة الجميلة الواحدة بهذا الإيجاز البديع عن كونهم يجلسون على السرر، لا يجلس أحد منهم وظهره إلى غيره، وهو أدعى للمحبة وعدم الشعور بالدونية، مما يحدث الأنس وكمال المسرة، يتحدثون ويتفكهون، ويتسامرون على أحسن هيئة، وأحلى اجتماع، وهم متحابون يأنس بعضهم ببعض.

ثم انتقل القرآن الكريم إلى تكملة نعيمهم في هذه الآيات وهو استكمال الأنس الجسماني والروحي بصحبة تلك النسوة الأطهار الجميلات، على المتعارف عليه في أنس الدنيا، فقال: ﴿كَذَلِكَ﴾، وهو اعتراض يبين أن هناك نعيماً أيضاً كالسابق زدناهم إياه، وهو تزويجهم بالخور العين، أى النساء البيض^(٣) بضيضات الجلد واسعات العيون.

وهي صفة نساء أهل الجنة من نساء الدنيا، ومن النساء اللاتي يخلقهن الله لأهل التقوى في الآخرة، وهذا من فضل الله على النساء الصالحات في الجنة أن يكن على أحسن صورة - إذ ليس في الجنة حزن ولا تنغيص ولا حسد ولا حقد أن يرين الخور العين أجمل أو أفضل منهن - وكذلك تلحق المرأة بزوجها وإن

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٣١٧/٢٥). وأشار إلى أن الأكثر على السندس والإستبرق معرب من الفارسية.

(٢) وقيل: الخور شدة بياض العين مع شدة سوادها، وقيل غير ذلك. انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٣١٨/٢٥). ومحمد بن أبي بكر الرازي «مختار الصحاح»، عنى بترتيبه محمود خاطر بك، ط. دار المعارف: ١٩٢٢م / ١٣٤٠هـ.

كانت أقل في العمل، وكذلك الرجال إزالة للوحشة وإتماماً للنعيم. ويزداد نعيمهم وأنسهم وسرورهم بتفكهم بجميع أنواع الفاكهة، لا بتخصيص شيء منها بمكان ولا زمان، وإنما يأمرن بإحضار كافة ما يتلذذ بطعمه من الثمار، فيكون حاضراً بين أيديهم، ف (كل) في قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ﴾ مستعملة في الكثرة الشديدة لكل منهم، أو الإحاطة بكل صنف من أصناف الفاكهة، ليحلوا لهم سمرهم وأنسهم.

وختم تلذذهم بتلك الفاكهة بقوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾، أى من كل ضرر، وهو أمن غير الأول المذكور في قوله: ﴿مَقَامٍ أَمِينٍ﴾، متعلق بأكلهم، إذ هو ليس كأكل وتلذذ أهل الدنيا، الزيادة فيه والتوسع منه يؤدي إلى التخمّة والضرر والآلام، بل هو تلذذ مهما أكثر منه لا غوائل ولا ألم له.

كذلك جاءتهم البشارة من الله تعالى بخلود ذلك النعيم، ودوام ذلك السرور وتلك البهجة بقوله: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾، أى لا يذوقون فيها الموت أبداً، من تأكيد الشيء بما يشبه الضد لزيادة توكيد انتفاء ذوقهم للموت.^(١)

يقول الزمخشري، في الكشف: «فإن قلت كيف استثنيت الموتة الأولى المذوقة قبل دخول الجنة من الموت المنفى ذوقه فيها؟ قلت: أريد أن يقال: لا يذوقون فيها الموت البتة، فوضع قوله ﴿إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ موضع ذلك، لأن الموتة الماضية محال ذوقها في المستقبل، فهو من باب التعليق بالمحال».^(٢)

وقد ذكر هذا المعنى عن الرسول ﷺ فيما روى في البخارى ومسلم، قال

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٥/٣١٩).

(٢) الزمخشري «الكشاف»، (٣/٤٣٥)، ونقل ذلك بنصه الألوسى في «روح المعانى»، مجلد ١٤، (٢٥/٢٠٨)، وفصل فيها بعد. وكذلك ذكره الرازى في «التفسير الكبير» ولكن نسبه للزمخشري، مجلد ١٤.

«يؤتى بالموت في صورة كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، ثم يذبح، ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت»^(١).

﴿وَوَقْنَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾، وهىمنة عظيمة على أهل التقوى، حين يرون أصحاب الجحيم وما هم فيه، ويرون نعيم أنفسهم، وما أنقذهم الله منه، فيرون كم هىمنة جسيمة وفقهم الله تعالى لها، وذلك عطف على النعيم السابق، فكأنه من تمام نعيمهم سلامتهم مما ارتبك فيه غيرهم، وهذا مما يحمد الله - جل وعلا - عليه، كما ورد أن من آداب من يرى غيره في شدة أو بأس أن يقول: الحمد لله الذي عافنى مما ابتلى به غيرى^(٢).

ثم ختمت الآيات بقوله تعالى: ﴿فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، أى إنما كان ذلك بفضل - سبحانه - عليهم، وإحسانه إليهم، إذ لا يساوى عملهم ذلك النعيم ولا يدانيه، ولو حاسبهم بعدله لعذبهم، ومن ثم كان ذلك فضلاً منه - سبحانه، وورد في الحديث ما يدل لذلك، فقال النبى ﷺ: «اعملوا وسددوا وقاربوا، واعملوا أن أحداً لن يدخله عمله الجنة، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال ﷺ: ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بنعمة منه وفضل»^(٣).

ولاحظنا في هذا الختام للآيات: أن قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يبين أن الفوز العظيم هو الفوز بالمطالب والنجاة من المكاره، والإشارة في ﴿ذَٰلِكَ﴾ لتعظيم ذلك الفوز ببعده المرتبة. وكذلك يشير السياق إلى أن ذلك

(١) رواه البخارى (٤٧٣٠). وانظر ابن حجر «فتح البارى»، (٨/٤٢٨). رواه مسلم (٢٨٤٩).

(٢) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٣٢٠/٢٥)، والحديث رواه الترمذى وقال: حديث حسن.

(٣) انظر الحافظ إسماعيل بن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤/١٤٧). والحديث رواه البخارى وانظر ابن حجر «فتح البارى»، (١٠/١٢٧) (٥٦٣٣).

الفوز الذي لا فوز غيره، حيث أفاد ذلك أسلوب القصر الناشئ عن الإتيان بضمير الفصل ﴿هُوَ﴾^(١).

ونشرع الآن في تحليل الآيات الثانية، وهو الموضع الثاني الذي ذكرناه في بداية الكلام، لنبين به جزاء المتقين، ولنقارن به بين الآيات. وهو في سورة الطور، من أول قوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿٧﴾ فَيَكْهِنُونَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقْنَهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٨﴾... إلى آخر الآيات.

ونلاحظ في بداية الآيات هذا التناسب الجميل، حيث قال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿٧﴾ فَيَكْهِنُونَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقْنَهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٨﴾﴾، فلما بدأ بقوله ﴿جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ قال: (فاكهين)، وهو ما يقتضيه النعيم والفكه من طابت نفسه وسر وهم فاكهون. ويقول الحق تعالى: ﴿فَيَكْهِنُونَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقْنَهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٨﴾﴾، فذكر أنهم فاكهون بما هم فيه من النعيم، واستحضر لفظ ﴿رَبِّهِمْ﴾ ليظهر:

أولاً: عظم تفكههم، لأنه منبى على أن ذلك مما آتاهم ربهم، فلما أضاف الإتياء إليه دل على عظيم الإتياء، لأنه على قدر المعطى يكون العطاء.

ثانياً: أن في إضافة الرب إلى ضميرهم ﴿رَبِّهِمْ﴾ تقريباً لهم وتعظيماً، وأى حال أجل وأكمل من الإضافة إلى العظيم المتعال؟..

﴿وَوَقْنَهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٨﴾﴾: وهى مثل سابقتها في سورة الدخان، والمقصود من ذكر هذه الحالة: إظهار التباين بين حال المتقين وحال المكذبين، زيادة في الشعور بالمنة، فإن النعمة تزداد حسن وقع في النفس عند

(١) انظر العلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٣٢٠/٢٥). والألوسی «روح

ملاحظة ضدها.^(١)

وزاد في نعيمهم عن الآيات الأولى قوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وهذا مقول قول محذوف، يقال لهم من الله - جل وعلا - أو الملائكة، تلطفاً بهم، وزيادة إيناس.

وقد حذف مفعول الأمر في ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ ليعم كل أكل وكل شرب، مما يشتهى لهم، لا يمنعون من شيء، ولا يفقدون مما يطلبون شيئاً.

وليس الأمر مقتصرًا على أن يأكلوا ويشربوا كل ما يشتهون، بل أكل وشرب هنيئ^(٢)، فهو سالم من الكدر في كل ما يتعلق به.

ثم يزيد في إكرامهم بأن ما يأكلون وما يشربون وما يتنعمون، ذلك عوض ما قدموا من عمل صالح - وإن كان ذلك فضل الله كما تقدم في الآيات الأولى - لأن ذلك مما تشعر بآء السببية كأنه يكرمهم ويعززهم، فيقول لهم: كلوا واشربوا فإنه ملككم ونتيجة أعمالكم.

﴿مُتَكِينِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾: أى تلذذوا بأكلكم وشربكم حال كونكم على هيئة أهل الترف والرفاهية، إذ تلك هيئة ملوك الدنيا في أكلهم وشربهم من الأكاسرة و الأباطرة. يصف الأعشى ذلك فيقول:

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٧/ ٤٨).

(٢) هنيئًا وصف لمصدرى كلوا واشربوا، أى أكلا وشربا هنيئًا. وجوز الزخشرى أن الباء

زائدة، و(ما) هى الفاعل في قوله (بما ما كنتم..)، كقول كثير:

هنيئًا مريثًا غير داء مخامر لعزة من أعراضنا ما استحل

أى هنؤا لعزة المستحيل من أعراضنا.

جار الله الزخشرى «الكشاف» (٤/ ٣٤). والعلامة الألوسى «روح المعاني»، مجلد ١٥،

(٢٧/ ٤٩).

نازعتهم قضب الرياحان متكئاً وخمرة مزرة راووقها خضل
 وهم ملوك الآخرة، كما ذكر الله تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا
 وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: ٢٠].

وزيادة أنسهم أنهم مجتمعون كل سريرة مضطجعا، كما ذكر الله تعالى: ﴿عَلَى
 سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الصافات: ٤٤]، وذلك لمزيد البهجة وتمام اللذة،
 باجتماعهم على أكلهم وشرابهم.

فزادت هذه الآيات على آيات الدخان لفظاً ومعنى، حيث ذكر هنالك
 (متقابلين)، وذكر هنا ما أشرنا إليه، مما يبين الفرق في الأسلوب، والزيادة في
 النعيم.

﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ : وإن كررت هنا، إلا أنها أشد مناسبة لما
 هنا، حيث جاءت بعد الأنس والأكل والشرب الهنيئ، ليستكملوا بقية شهواتهم
 وتمام لذائذهم، إذ ذلك موضعه ثم.^(١)

أما قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا
 بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾
 فهو اذ بين ذكر كرامات المؤمنين في قوله السابق - سبحانه: ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ
 بِحُورٍ عِينٍ﴾، واللاحق في قوله - جل ذكره ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ
 مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾. والمطالع يظن أول وهلة أن لا علاقة للآية بنعيم المتقين، بل
 على العكس هي كرامة للمتقين ونعيم لهم، إذ هو نعمة جمع الله بها للمتقين أنواع
 المسرة، بسعادتهم بمزاوجة الحور العين، وبمؤانسة الإخوان، وباجتماع أولادهم
 ونسلهم معهم، لأنه كيف يتم نعيمه وقد حيل بينهم وبين أولادهم وذريتهم، ذلك
 تنغيص وهم وتشوف لا يليق بالجنة، التي لا يمسه فيها سوء ولا هم يحزنون.

(١) انظر العلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٧/٤٧).

ونبدأ بشيء من التفصيل:

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ﴾ : أى إكراماً لهؤلاء الآباء المؤمنين تلحق بهم ذريتهم ونرفعهم إلى درجة آبائهم، ما دامت الذرية مؤمنة بأى إيمان كان، وهو ما يفيد تنكير إيمان^(١)، خاصة وأن إيمان الذرية سببه إيمان الآباء، لأنهم لا شك يلقبون أبناءهم بالإيمان لوقايتهم من النار، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحریم: ٦]، ولو كان إيمانهم كإيمان آبائهم فأى منة في رفعهم الى درجة آبائهم إذ هم فيها بغير منة.

وقد ورد في هذا حديث ذكره المفسرون. يقول الإمام القرطبي في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن»: عن ابن عباس - رضى الله عنهما - عن رسول الله ﷺ: «إن الله ﷻ ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة، وإن كان لم يبلغها بعمله، لتقر بهم عينه» ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ﴾ ... إلى آخر الآية.^(٢)

وما ألتنا الآباء من ثوابهم شيئاً، أى وما أنقصناهم كما هو الحال في الدنيا، بل ثوابهم موفور كما هو، وإلحاق ذريتهم بهم ورفعهم إليهم، كرامة لهم، ومزيد نعيم يشملهم.

(١) في الآية كلام آخر أن التنكير للتعظيم، ويكون النعمة بجعلهم في مكان واحد، أو بسبب إيمان عظيم للآباء، ألحقنا بهم ذريتهم، وإن كانوا لا يستأهلونها تفضلاً عليهم، وعلى آبائهم، ل يتم سرورهم ويكمل نعيمهم.

انظر الألوسى «روح المعانى»، مجلد ١٥، (٢٧/٥١)، وغيره: الزمخشري، والقرطبي.

(٢) هذا كلام القرطبي بهذه الرواية، في تفسيره الجامع لأحكام القرآن، مجلد ٩، (١٧/٦٦). وانظر الطبري «جامع البيان في تفسير القرآن»، مجلد ١١، (٢٧/١٥). وتفسير القرآن العظيم، الحافظ إسماعيل بن كثير، (٤/٢٤١-٢٤٢). والألوسى «روح المعانى»، مجلد ١٥، (٢٧-٥٠). والظاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٧/٤٩).

ثم قال الحق تعالى: ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (١)، وكأن الله - جل وعلا - يظهر فضله ومنته على المتقين، بأن كل أحد مرتب بعمله، يأخذ درجته على قدره، إلا ذريات المتقين، فإنهم يلحقون بأبائهم، ولولا تلك الكرامة لكانوا كذلك كغيرهم، يأخذون ثوابهم على قدر عملهم، ولا يلحقون بأبائهم.

والآباء كذلك مع الأبناء، فإن الله تعالى يفضل على الأبناء المتقين برفع آبائهم إليهم، وإن كان الآباء أقل درجة، وهذا مما تشمله الآية تكملاً منه - سبحانه. يقول صديق حسن خان في «فتح البيان»: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: الذرية هنا تصدق على الآباء وعلى الأبناء، فإن المؤمن إذا كان عمله أكثر لحق به من دونه في العمل، ابناً كان أو أباً. وهو منقول عن ابن عباس وغيره. إلى أن يقول: «وعنه أيضاً أن النبي ﷺ قال: «إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده، فيقال: إنهم لم يبلغوا درجتك وعملك، فيقول: يارب قد عملت لى ولهم. فيؤمر بإلحاقهم به»، أخرجه الطبراني وابن مردويه» (١).

وهكذا تكون هذه الآيات في نعيم المتقين زائدة على ما في آيات سورة الدخان.

ونعيم جديد لم يذكر في الآيات الأولى - من سورة الدخان - تسوقه إلينا الآيات التالية، بقوله - جل وعلا: ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ (٢) يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيهِمْ (٣).

والمدد الزيادة فيما هم فيه من النعيم، يزدادون منه وقتاً بعد وقت مما تشتهي أنفسهم، فواكه متنوعة، ولحوم يستطيعونها من فنون النعماء وأنواع الآلاء، وإن لم يقترحوا ولم يصرحوا بطلبه (٢)، ولكل منهم ما اشتهى.

(١) صديق حسن خان «فتح البيان في مقاصد القرآن»، (٩/ ١٤٤).

(٢) انظر تفسير النسفي، المسمى «مدارك التنزيل وحقائق التأويل»، (٣/ ١٤٥). وكذا هو

وخص الفاكهة واللحم تمهيداً لما يأتي في قوله: ﴿يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيُمُ﴾ (١)، حيث منحهم الله تعالى في الآخر لذة نشوة الخمر، والمنادمة على شربها، لأنها من أحسن اللذات فيما ألفته نفوسهم.

﴿يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيُمُ﴾ (٢): يتعاطون فيها إناء الخمر مملوءاً^(١)، وإن بعضهم يصب لبعض ويناوله على سبيل الإيثار والكرامة، وقيل: إن تنازعهم الكأس مجاذبة بعضهم كأس بعض إلى نفسه، على سبيل المداعبة، أنساً ومسرة.

وهذه الكأس التي يتناولونها لا يصاحبها لغو ولا تأثيم، إن كان المقصود بها الإناء، أما إن كان المراد بالكأس الخمر، فيكون لا لغو ولا تأثيم يصيبهم بسبب شربها. وعلى كلا الوجهين، فإنها لا يخالط شاربها ما يصيب المتنادمين في الدنيا في الشراب في سفههم وعربدتهم، فلا يتكلمون بسقط الحديث مع الهذيان وما لا طائل تحته، وكذلك لا يفعلون ما يؤثم به فاعله من الكذب والشتم والفواحش.^(٢)

ثم بينت خاتمة الآيات من يقوم على خدمتهم، بقوله: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ هُمْ كَأَنَّهُمْ لَوْلُوكُمْ مَكْنُونٌ﴾ (٣). الغلمان هم خدمهم في الجنة، خلقهم الله

في الكشف. وصديق حسن خان «فتح البيان»، (٩/ ١٤٥). والألوسی «روح المعاني»،
مجلد ١٥، (٥٣/ ٢٧).

(١) إناء الخمر مملوءاً يسمى كأساً، فإذا فرغ لم يسم كأساً: الإمام القرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، (مجلد ٩)، (١٧/ ٦٨). وهي مؤنثة: مختار الصحاح، الرازي، باب الكاف.

(٢) انظر جار الله الزمخشري «الكشاف»، (٤/ ٣٧). والألوسی «روح المعاني»، مجلد ١٥، (٥٣/ ٢٧)، وهو نفسه كلام الزمخشري. والظاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»،
(٥٣-٥٢/ ٢٧).

تعالى لأجلهم.^(١) قال تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾. ومنظرهم وهيئتهم في الحسن والجمال والنظافة، كأنهم اللؤلؤ المصون لكمال حفظه ونفاسته، أو لارتفاع قيمته. نسارع فنقول: إذا كان الخدم على هذه الهيئة، فما بال المخدومين من أهل التقوى؟

يطوف هؤلاء الغلمان عليهم بأنواع الطعام والشراب، والفواكه والتحف، وإن كان يناسب ما قبله في قوله: ﴿يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾، أى يدورون عليهم في مجالسهم يناولونهم الخمر وغيره.

وجئ بالطواف في صيغة المضارع:

أولاً: للدلالة على التجدد والتكرار الذي لا ينقطع، بخلاف لذات الدب فإنها تنتهى، ففكره الزيادة لأصحابها، لما يصاحبها من الغول والإطباق ووجع الأمعاء من الخمر أو الشبع مما يحيل اللذة ألباً.

ثانياً: أشعر تكرار الطواف بتكرار المناولة، لما فيه لذاتهم، فصار كل ذلك لا سامة فيه ولا ملل كذلك.

ولم تبين الآية بأى شئ يطوف الغلمان ليتصور أنهم يطوفون عليهم بكل ما يخطر أو لا يخطر، فهم يطوفون عليهم بكل أصناف النعيم وبينت غيرها من

(١) ذكره الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٧/٥٥). وقال الألوسى في «روح المعاني»: «غلمان لهم أى ممالك مختصون بهم، كما يؤذن به اللام، ولم يقل: غلمانهم، لثلاثتهم أنهم الذين كانوا يخدمونهم في الدنيا، فيشفق كل من خدم أحداً في الدنيا أن يكون خادماً له في الجنة، فيحزن بكونه لا يزال تابعاً. وقيل: أولادهم الذين سبقوهم.. وكذا نسبة الخدم إلى الأولاد لا تناسب مقام الامتتان «روح المعاني»، (٢٧/٥٣). وقال القرطبي: «قيل: هم أولاد المشركين، وهم خدم أهل الجنة، وليس في الجنة نصب ولا حاجة إلى خدمة، ولكنه أخبر أنهم على نهاية النعيم، الإمام محمد بن أحمد القرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، مجلد ٩، (١٧/٦٩).

الآيات شيئاً مما يطوفون به - فأغنى عن ذكره هنا - كقوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصُحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]، وكقوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ﴾ [١٥] بِبَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴿١٦﴾ [الصافات: ٤٥-٤٦] وكقوله - عز من قائل: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخْلَدُونَ﴾ [١٧] بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ [الواقعة: ١٧-١٨].

وقد يقال: لم استخدم الغلمان في ذلك، ولم يخدمهم الكبار؟

الغلام من هو في سن البلوغ أو يقاربه، وكانوا أكثر ما يتخذون خدمهم من الصغار، ولعدم الكلفة في حركاتهم، وعدم استئصال تكليفهم.^(١)

بهذا يتبين ما كنا نطلب في بداية ذكر الآيات لجزاء المتقين في الآخرة، وظهر الفرق في الآيات، والزيادة في بعضها عن بعض إلى غير ذلك مما ذكرنا من فوائد. وأخيراً، ننظر في الموضع الثالث لآيات جزاء التقوى في الآخرة، وهي آيات سورة النبأ، من أول قوله: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ [١١] حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿١٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿١٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿١٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذْبًا ﴿١٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿١٦﴾.

«المتقين» هنا جاءت في الخبر المتقدم، وهذا للتنويه بشرفهم^(٢) وأن هذا الفوز للمتقين، لا لغيرهم. وهذا من معنى اللام التي تفيد ملكهم لذلك، واختصاصهم به، مما يحث المؤمنين على التزام التقوى والمسارة إليها. وزادنا هذا التعبير هذه المعاني الجديدة على ما في الآيات الأخر.

اختلف التعبير الخاص بالجنة عن الآيتين السابقتين، حيث الأولى: ﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ [١٦] فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٧﴾، والثانية: ﴿فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ [١٨].

(١) الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٥٥/٢٧).

(٢) انظر العلامة ابن عاشور «التحرير والتنوير»، (٤٣/٢٧).

وهنا جاء تعبير القرآن الكريم بقوله ﴿مَفَازًا﴾: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۖ حَدَاقًا وَاعْتَبَاءً﴾، فالمفاز هنا أعم من الجنات، فتكون الحدائق بدل بعض من كل، إذ الجنات ليست كل الفوز للمتقين، إذ هناك الكواعب الأتراب والكأس الدهاق... إلخ، فأضاف معنى جديداً، علاوة على أن التعبير بمفاز المنة يفيد كونه مفازاً عظيماً، وهو مكان الفوز والظفر، أو الفوز والظفر نفسه^(١) وكذلك النجاة.

فإذا أضفنا ذلك إلى ما سبق من الآيات التي ذكر الله تعالى فيها عاقبة الطاغين - حيث قال عز من قائل: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۖ لِلطَّاغِينَ مَنَابًا﴾ إلى آخر الآيات - اتسق الأسلوب، وتناسب أشد التناسب، ليبين منة الله تعالى على المؤمنين بما نجاهم منه من العذاب، ليستشعروا بذلك فضل الله عليهم، فيزداد بذلك إحساسهم بالنعمة السابغة والنعيم المقيم.

وفي الموضعين الأولين ذكر نعيمهم بالخور العين، بقوله: ﴿وَزَوْجَنَّهُمْ خُحُورٍ عَيْنٍ﴾، أما في هذه الآيات فذكر الحق - سبحانه - أن من فوزهم الذي به فازوا ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ ليبين عظيم ما فازوا به جراء تزويجهم بالخور العين، ثم شيئاً من جمالهن وحسنهن ومحاسنهن، فكان ذلك زيادة على الإجمال في قوله: ﴿يُحُورُ عَيْنٍ﴾، أما الجمال والنفاسة ففي حور صغيرات كواعب، أى نهدت صدورهن، وذلك أحب إلى الرجال، وكذلك ﴿أَتْرَابًا﴾ متقاربات، لا بميل المرء إلى إحداهن أكثر فيسبب نكداً أو تنغيصاً مما تنزعه عنه الجنة، فيكون الاستمتاع على

(١) انظر الزنجشیری «الكشاف»، (٤/١٧٩). والألوسی «روح المعاني»، مجلد ١٦، (٣٠/٣٠). وغيرهما. وذلك على أن المفاز اسم مكان أو مصدر ميمي، والمفازة في الاصل: الفلاة التي قل ماؤها، أطلق عليها ذلك تفاؤلاً بالخلاص منها. وانظر القرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، مجلد ١٠، (١٩/١٨٣).

أحسن ما يكون بهن جميعا.

وأما التعبير عن مجالس الأنس والشرب، فقد قال - سبحانه - في الموضع

الثاني:

﴿يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيُمُ﴾ ﴿١٦﴾ بصيغة المضارع على ما أشرنا من المعنى، أما هنا فقال: ﴿وَكَوَاعِبَ أُنْرَابًا﴾ ﴿١٧﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ ﴿١٨﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذْبًا﴾ ﴿١٩﴾، فبين بالعطف على بالجملة الاسمية بقاء هذه اللذة وذلك النعيم، لا ينفكون عنه أبداً، وهو ما تشير إليه لفظة ﴿دِهَاقًا﴾، أى كأساً مترعة مملوءة أبداً، يتناولونها وقتاً بعد وقت، هذا من يد هذا، لذة بعد لذة، كذا أبداً بمجالس شربهم، لا يصيبهم ما يصيب أهل الدنيا من الأوجاع والسامة أو الوقوع في سقط القول والهذيان والتأثيم.

وزاد هنا أيضاً: ﴿كِذْبًا﴾ ﴿٢٠﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ أى بسبب شربها إن كان المقصود الخمر، أو عندها إن كان المقصود الكأس، وزاد أنهم لا يكذب بعضهم بعضاً كما يحدث في الدنيا، أو يسمعون فيها كذباً.

وقد ذكر كثير من المفسرين^(١) أن الضمير فى: ﴿فِيهَا﴾ يمكن أن يعود إلى الجنة، وهو صحيح أيضاً لا يسمعون فى الجنة لغواً ولا كذاباً من أصله، فمن باب الأولى لا يسمعون عند شراهم ذلك.

ورأينا قوله - سبحانه - فى سورة الدخان: ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾، أى كل ذلك تفضل وإكرام، أما فى الطور فكان قوله: ﴿هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٢١﴾، وهنا اختلف، فقال - سبحانه وتعالى: ﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا﴾ ﴿٢٢﴾.

(١) انظر الألوسى «روح المعانى»، مجلد ١٦، (٣٠/٣١). والقرطبى «الجامع لأحكام القرآن»، (١٩/١٨٤). والطبرى «جامع البيان فى تفسير القرآن»، مجلد ١٢، (٢٠/١٤).

ومعنى الأولى - وهو ما أشرنا إليه في موضعه - أن ذلك فضل الله تعالى أن يدخلوا، أما الموضع الثانى فإن التمتع في الجنة والتفاوت في درجاتهم بحسب أعمالهم. أما الأخير، فقد جاء الأسلوب جديداً، وهو قوله: ﴿جَزَاءً﴾، والجزاء هو ما يجازى به، وكأنه أعطاه لهم بسبب حسن صنيعهم وقيامهم بأمر ربهم. ثم وصف هذا الجزاء بالعطاء، وفيه إشارة إلى عكس معنى الجزاء، إذ العطاء يشعر أنه تفضل بدون عوض، وتفضل عظيم من ربك. ويكون المعنى أنهم جوزوا بسبب أعمالهم جزاء أعظم وأكمل وأفضل وأزيد مما عملوا.

وذلك ما تشير إليه لفظة ﴿حِسَابًا﴾، فإن من معانيها: الكفاية، أى أعطاهم حتى قالوا: حسبنا، أى أعطاهم عطاءً عظيماً كافياً. أو ﴿حِسَابًا﴾، أى مقدراً بالحساب العظيم من الله الكريم، المتفضل به، كمثل الحسنة بعشر أمثالها أو بسبعمئة ضعف.^(١)

وهكذا رأينا من تلك الآيات كيف كانت الجنة جزاء التقوى، وعاقبتها في الآخرة مع الرضوان الأكبر عن الله تعالى، ومجاورته، والنظر إلى وجهه الكريم، وهو أعظم من كل النعيم الحسى المذكور.

الدار الآخرة للمتقين :

لا جرم بعد ذلك كله، أن تكون الدار الآخرة للمتقين، لا لغيرهم. وقد أحصينا آيات جزاء المتقين في الآخرة في أول الفصل، ولم يتبق سوى هذه الآيات، نستخرجها منها لننظر فيها، ونختم بها كما قلنا. وهذه الآيات هى: قوله تعالى: ﴿وَمَا أَلْحَيُوهُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوٌّ وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ

(١) انظر الإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازى «التفسير الكبير»، مجلد ١٦، (٣١/١٦١ - ١٦٣). والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٤٦/٣). وابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤/٤٦٥).

لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ [الأنعام: ٣٢].

وقوله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ الْأُخْرَىٰ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا جُرْ الْأُخْرَىٰ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [يوسف: ٥٧].

وقوله تعالى: ﴿ وَلِدَارُ الْأُخْرَىٰ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٩].

وقوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلِدَارُ الْأُخْرَىٰ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ [النحل: ٣٠-٣١].

وقوله تعالى: ﴿ وَزُحْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٣٥].

ويلاحظ على هذه الآيات الكريمات أنها عبرت عن آخرة المتقين بأمرين: الأول: أن الآخرة لهم، في قوله: ﴿ وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾. والثاني: عبرت كذلك بالدار، أي الدار الآخرة، وهي كذلك لهم، وهو قوله - سبحانه - وتعالى: ﴿ وَلِدَارُ الْأُخْرَىٰ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾. فكانت الآخرة كلهم لهم، وإن فسر بعضهم الآخرة بالجنة، ولكن الآخرة أعم من الجنة، إذ الآخرة تشمل نجاتهم من أهوال الحشر: الميزان، والصحف، والصراط، وكذلك تشمل رضوان الله عليهم، وتبشير الملائكة إياهم، وغير ذلك. فكان التعبير بالآخرة أشمل من التعبير بالجنة، خاصة وقد ذكر القرآن الكريم الجنة في تلك المواضع

الكثيرة التي ذكرنا بأنها جزاء المتقين، فجاء التعبير بالآخرة - ولا شك - ليضيف معنى آخر غير الجنة.

وقد وصفت الدار الآخرة في الآيات كلها بأنها خير، وقد فسرت الدار بالجنة - كما في الآيات الكريئات - والمعنى أنها خير لهم من الدنيا.

أما التعبير بالدار، فهو تشريف للمؤمنين، حيث نزلوا في محل الرعاية وحسن الإقامة، في مقابل تحقير الكفار فلم تذكر لهم دار، بل ﴿النَّارُ مَثْوًى لَكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا﴾، أى مرصوصون فيها ينالهم جزاؤهم.

ويحسن أن نختم بما فسر به العلامة الطاهر بن عاشور الآيتين في سورتي الأنعام والأعراف: ﴿وَاللَّذَارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، ﴿وَاللَّذَارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، لما في الآيتين من تعظيم قدر التقوى وصنيع المتقين.

يقول - رحمه الله - في الآية الأولى - وهى قوله: ﴿وَمَا الْحَبْوَةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلِلَّذَارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: «وعقب بقوله: ﴿وَاللَّذَارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، فعلم منه أن أعمال المتقين في الدنيا هى ضد اللعب واللهو، لأنهم جعلت لهم دار أخرى هى خير، وقد علم أن الفوز فيها لا يكون إلا بعمل في الدنيا، فأنتج أن عملهم في الدنيا ليس اللهو واللعب، وأن حياة غيرهم هى المقصورة على اللهو واللعب». إلى أن يقول - رحمه الله: «وقوله: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ تعريض بالمشركون بأنهم صائرون إلى الآخرة، لكنها ليست لهم بخير»^(١).

ولما كان انشغال الناس بالدنيا هو الغالب على غير المتقين - فضلا عن المشركون - وكانت هى السبب في غفلتهم عن الآخرة، وعدم الاستعداد للقاء

(١) الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٧/ ١٩٤-١٩٥).

الله تعالى مع كونها نعيماً عاجلاً زائلاً يلحقه التنغيص، كان الانشغال بها عن الآخرة من قلة العقل، وضعف الفهم.

ولذا ختم القرآن الكريم الآية بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ^(١). يقول العلامة الطاهر بن عاشور: «والاستفهام عن عدم عقلهم مستعمل في التوبيخ إن كان خطاباً للمشركين، أو في التحذير إن كان خطاباً للمؤمنين».

أما آية الأعراف: ﴿وَالْدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ ^(٢) أَفَلَا تَعْقِلُونَ ^(٣) فهذا التعقيب فيها قد جاء بعدما ذكر الله تعالى أولئك الذين أخذوا عرض الدنيا الزائل وانشغلوا به عن الباقي الدائم، مع قيام الحجة عليهم بدراسة ذلك وعلمه، مع ادعائهم الكاذب، وأمنيتهم الحمقى بأنهم سيغفر لهم. كيف أخذوا عرض هذا الأدنى وتركوا الحظ الباقي مع علو حسنه وشدة خيرته؟ لاشك أنهم لا يعقلون.

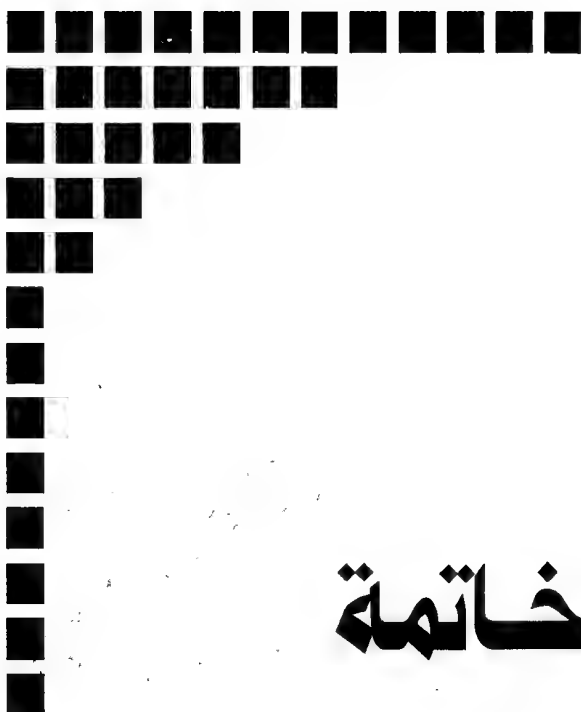
ذكر بعد ذلك قوله: ﴿وَالْدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾. يقول العلامة الطاهر بن عاشور، في تفسيره «التحرير والتنوير»: «وفي قوله: ﴿وَالْدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ كناية عن كونهم خسروا خير الآخرة بأخذهم عرض الدنيا بتلك الكيفية، لأن كون الدار الآخرة خيراً مما أخذوه يستلزم أن يكون ما أخذوه قد أفات عليهم خير الآخرة.

وفي جعل الآخرة خيراً للمتقين كناية عن كون الذين أخذوا عرض الدنيا بتلك الكيفية لم يكونوا من المتقين، لأن الكناية عن خسرانهم خير الآخرة مع إثبات كون خير الآخرة للمتقين تستلزم أن الذين أضاعوا خير الآخرة ليسوا من المتقين، وهذه معان كثيرة جمعها قوله: ﴿وَالْدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾

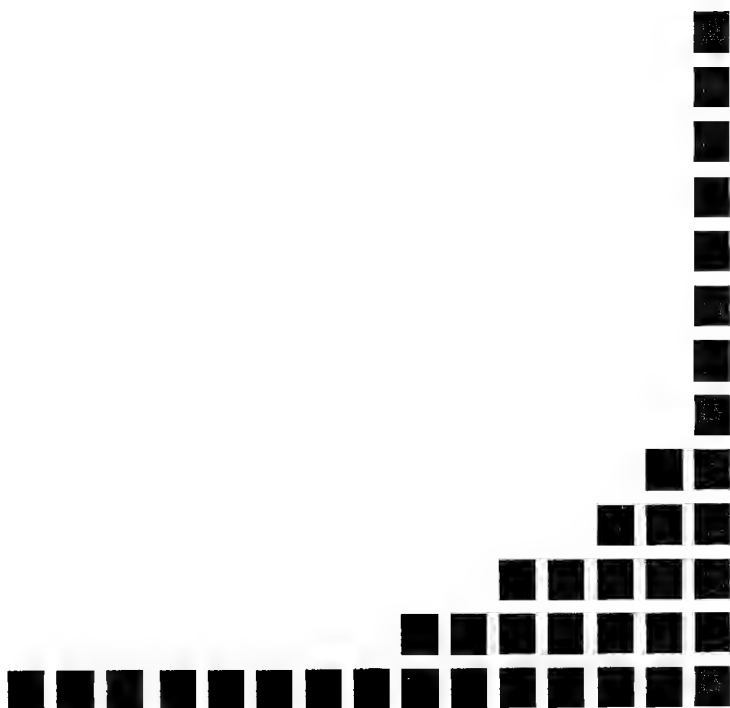
(١) الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٧/ ١٩٥).

أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٦﴾، وهذا من حد إعجاز العجيب»^(١).
ونختتم بهذا - وإن كان على سبيل الاختصار الشديد للضرورة - عاقبة
التقوى في الآخرة.

(١) العلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٩/ ١٦٤-١٦٥).



خاتمة



خاتمة

جاء ذكر التقوى بمشتقاتها المختلفة في القرآن الكريم في أكثر من مائتي موضع، مما يدل على اهتمام القرآن الكريم بها وأنها ملاك الأمر، ومن ثم وجدنا تنوع الأساليب التي جاءت فيها من أمر وتوصية بها، إلى ذكر صفات أهلها، إلى تبين عاقبة أصحابها ومحبة الله لهم، ونجاتهم في الدنيا والآخرة إلى غير ذلك. هذا ويمكن حصر أهم نتائج البحث فيما يلي:

* مفهوم التقوى:

فإن من ينظر إلى مفهوم التقوى في البحث يراه قد اتسع عما هو شائع ومألوف بين أهل العلم فضلاً عن غيرهم، ليشمل الإيمان وترك الشرك وامتثال الواجبات واجتناب المحرمات، والإتيان بالمستحبات وترك المكروهات وترك ما لا بأس به حذرًا مما به بأس، مع اتقاء الشبهات والمبتدعات فكانت التقوى درجات، علاوة على تعريفات أخرى للتقوى يظهرها سياق الآيات كالخوف والإخلاص والتوبة وغيرها.

* التقوى دعوة الرسل:

وكانت النتيجة التالية للبحث أن التقوى دعوة الرسل، أي أن التقوى هي ترك الشرك والإيمان بالله، كما ذكر عن نوح وإبراهيم وهود وصالح وشعيب -عليهم السلام- كقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٠٦-١٠٥)، وهكذا عن بقية الرسل، ورأينا كذلك تدرج الرسل في دعوتهم إلى التقوى من الرفق إلى الإنكار مع ثباتهم على الدعوة في مختلف الأزمان والأحوال ولكل الطبقات، كما استخدم الرسل كافة الأساليب في حمل الناس على التقوى من الوعد والوعيد، والتحضيض والاعتبار بالأمم السابقة، والنظر في آيات الله الكونية وغير ذلك.

* أساليب الدعوة إلى التقوى:

وكان جديرًا في البحث تلك النتيجة المهمة، وهي أن القرآن الكريم ما ترك أسلوبًا قرأ عنه المرء ليحض الناس على تقوى الله إلا ذكره، وما ترك أحدًا إلا شمله بدعوة التقوى، فدعا الناس جميعًا بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ [النساء: ١]، ودعا المؤمنين: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [الحشر: ١٨]، وفردًا: ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢] ﴿وَأَتَّقِينَ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٥٥]، والنبى نفسه ﷺ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١].

وكذلك في معمولات التقوى، رأينا كذلك تعدد الأساليب الحاملة على التقوى ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾، ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمُ﴾، ﴿وَابْتَئِي فَاتَّقُونِ﴾، ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ﴾، ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾، ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾.

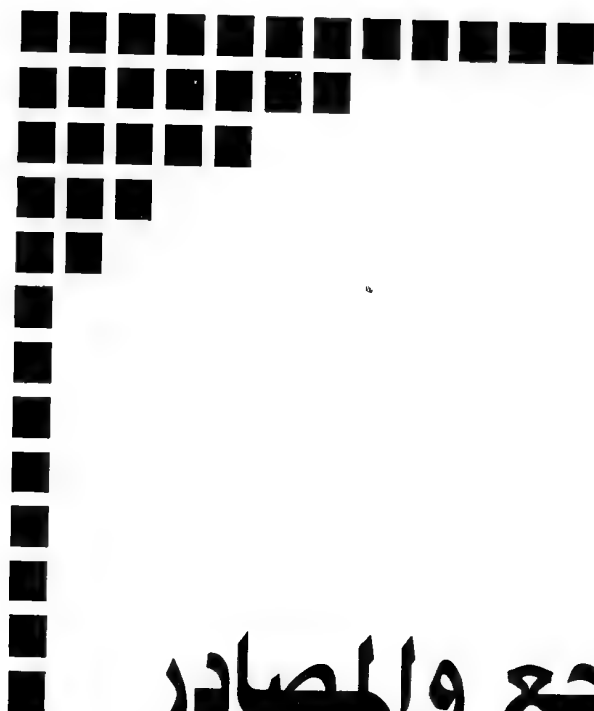
بل زاد على ما سبق أن القرآن الكريم على ما لاحظته الباحث ورد فيه تذييل معظم أوامر التقوى بما يحمل عليها ويحض حضا على الالتزام بها، كقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمْكُمْ اللَّهُ﴾، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، وقل أن يتكرر تذييل من هذه الأساليب، خاصة وقد رأينا متسقة تمام الاتساق مع بقية السياقات الواردة فيها، كل ذلك حملاً للناس على تقوى الله.

ثم يبين ذكر القرآن الكريم في مواطن كثيرة لعاقبة التقوى سواء كانت على دين المرء من زيادة إيمانه، وترقيه في درجاته إتيانه الفرقان، وفي الدنيا من نجاته وتيسير أوامره، وتفرغ همومه ورزقه.

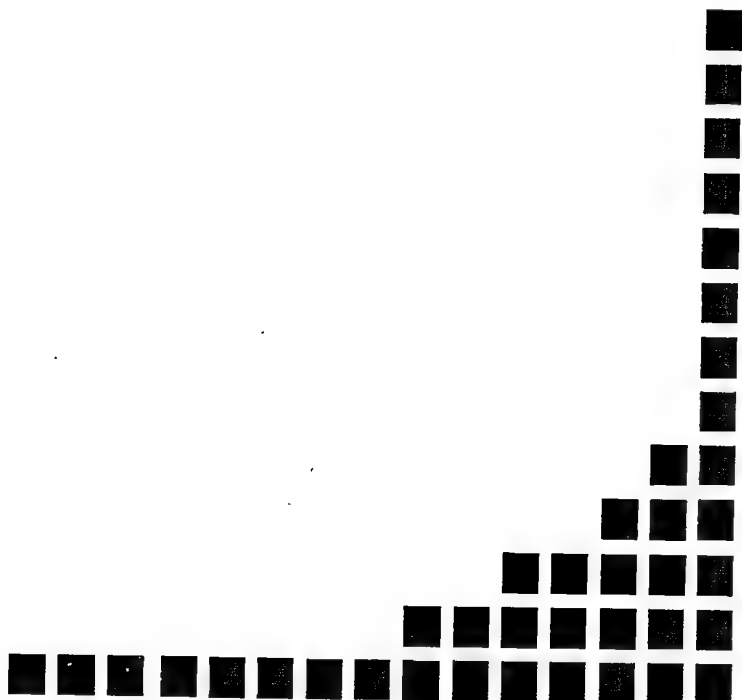
وأما في الآخرة فتكفير السيئات والنجاة من النار، ودخول الجنة، وارتفاع أهل التقوى عن غيرهم: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [البقرة: ٢١٢]

مع نزول الملائكة لتثبيتهم في الدنيا وفي القبر وحين يخرجون من قبورهم. والأعلى من ذلك محبة الله لهم وولايته إياهم ومعيته معهم مع إقبال أعمالهم كل ذلك وأنه لا يقبل إلا منهم للحث على تقواه - سبحانه.

التقوى ونواقض الإيمان مما يذكر هنا أن البحث انتهى إلى أن نواقض التقوى هي نواقض الإيمان أو أن نواقض الإيمان في مقابل التقوى، وأن الكافرين في مقابل المتقين، لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥].



المراجع والمصادر



المراجع والمصادر

١. القرآن الكريم.
٢. إتحاف الأكابر بهتذيب كتاب الكبائر، شمس الدين الذهبي، تحقيق وتهذيب وترتيب د. أسامة محمد عبد العظيم حمزة، دار الفتح، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
٣. آثار التقوى في القرآن الكريم، راوية نور الدين عتر، دار المكتبي، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.
٤. إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، دار الشعب، القاهرة.
٥. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، محمد بن محمد بن مصطفى المعروف بأبي السعود، دار الفكر، بيروت.
٦. أساس البلاغة، جار الله محمود بن عمر الزمخشري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثالثة، ١٩٨٥م.
٧. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
٨. إعراب القرآن الكريم، محيي الدين الدرويش، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الخامسة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.
٩. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي، تحقيق عبد القادر عرفات العشا حسونة، دار الفكر، بيروت، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
١٠. اتجاهات التفسير في مصر في العصر الحديث، د. عفت محمد الشرقاوي، رسالة ماجستير كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٧٠م.
١١. الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي،

- الهيئة المصرية العامة للكتاب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ١٩٧٤م.
١٢. البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩١م.
١٣. البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، دار المعارف، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٧م.
١٤. البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، محمد بن علي الشوكاني، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٤٨هـ.
١٥. التبيان في إعراب القرآن، أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري، دار إحياء الكتب العربية، بيروت.
١٦. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلام.
١٧. الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.
١٨. التفسير القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن القيم، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٩. التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي، دار الغد العربي، القاهرة، ١٤١٢هـ/١٩٩١م.
٢٠. التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، د. محمد أحمد يوسف القاسم، القاهرة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
٢١. التفسير الوسيط للقرآن الكريم، تأليف لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.

٢٢. التفسير والمفسرون، د. محمد حسين الذهبي، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة السادسة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
٢٣. التفسير ورجاله، محمد الفاضل بن عاشور، مجمع البحوث الإسلامية، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.
٢٤. التقوى في هدي الكتاب والسنة وسير الصالحين، د. محمد أديب الصالح، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
٢٥. الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية.
٢٦. الجواهر الحسان في تفسير القرآن، الثعالبي، مؤسسة الأعلمي، بيروت.
٢٧. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، شهاب الدين بن حجر العسقلاني، تحقيق محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، الطبعة الثانية، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٦م.
٢٨. الدرر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، دار المعرفة، بيروت.
٢٩. الرحيق المختوم «بحث في السيرة النبوية»، صفى الدين المباركفوري، دار إحياء التراث.
٣٠. الرعاية لحقوق الله، أبو عبد الله الحارث المحاسبي، تحقيق الإمام عبد الحليم محمود، دار المعارف، القاهرة.
٣١. الزواجر عن اقتراف الكبائر، أحمد بن محمد بن علي بن حجر المكي الهيثمي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، الطبعة الثانية، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.
٣٢. السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، د. مهدي رزق الله أحمد، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
٣٣. الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض بن موسى اللخمي،

تحقيق محمد أمين قره وآخرون، مكتبة الفارابي، دمشق.

٣٤. الصلاة وحكم تاركها، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن القيم، المكتبة القيمة.

٣٥. الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، دار مكتبة الحياة، بيروت.

٣٦. العبودية في الإسلام، أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن تيمية، الدار السلفية، الطبعة الرابعة، ١٤٠٠هـ.

٣٧. العلل المتناهية في الأحاديث الواهية، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق إرشاد الحق الأثري، دار الكتب الإسلامية، باكستان، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

٣٨. الغاية القصوى في الكلام على آية التقوى، تج الدين عمر بن علي الفاكهاني، تحقيق محي الدين بيدق، مؤسسة ريان، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

٣٩. الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جار الله محمود بن عمر الزمخشري، دار المعرفة، بيروت.

٤٠. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

٤١. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار ومطابع الشعب.

٤٢. المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل الأصبهاني، مكتبة الأنجلو المصرية.

٤٣. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، يحيى بن شرف النووي، تحقيق

- عصام الصبابطي وغيره، دار الحديث، القاهرة.
٤٤. النكت والعيون، علي الماوردي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.
٤٥. الوابل الصيب من الكلم الطيب، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن القيم، تحقيق محمد علي أبو العباس، مكتبة القرآن، القاهرة.
٤٦. بدائع التفسير، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن القيم، تحقيق يسري السيد محمد، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.
٤٧. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، محمد بن يعقوب بن محمد الفيروزآبادي، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
٤٨. بغية الدعاة في طبقات اللغويين والنحاة، السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، مطبعة عيسى الحلبي، دمشق، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.
٤٩. تأملات في القرآن الكريم، أبو الحسن الندوي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
٥٠. تاريخ القرآن والتفسير، د. عبد الله محمود شحاتة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
٥١. تفسير الجلالين، جلال الدين محمد بن أحمد المحلى وجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، مطبعة الشمري، ١٩٧٧م.
٥٢. تفسير القرآن العظيم، عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير، مكتبة التراث الإسلامي، حلب، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
٥٣. تفسير القشيري المسمى لطائف الإشارات، عبد الكريم بزهوزان النيسابوري القشيري، تحقيق سعيد قطيفة، المكتبة التوفيقية.
٥٤. تفسير المراغي، محمد مصطفى المراغي، مطبعة مصطفى الحلبي، ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م.

٥٥. تهذيب الأسماء واللغات، أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، دار الكتب العلمية، بيروت.
٥٦. جامع البيان في تفسير القرآن، محمد بن جرير الطبري، دار الحديث، القاهرة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، وعلى هامشه تفسير غرائب القرين ورغائب الفرقان، الحسن النيسابوري.
٥٧. جامع العلوم والحكم، عبد الرحمن ابن رجب الحنبلي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية.
٥٨. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم الأصبهاني، مطبعة السعادة.
٥٩. ديوان ابن المعتز، تحقيق كرم البستاني، دار صادر، بيروت، ١٣٨١هـ/١٩٦١م.
٦٠. ديوان الأعشى، تحقيق كرم البستاني، دار صادر، بيروت.
٦١. ديوان الفرزدق، تحقيق كرم البستاني، دار صادر، بيروت.
٦٢. ديوان النابغة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف.
٦٣. ديوان جرير، تحقيق كرم البستاني، دار صادر، بيروت.
٦٤. ديوان زهير بن أبي سلمى، تحقيق كرم البستاني، دار صادر، بيروت، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.
٦٥. رسالة إلى كل مسلم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن القيم، تحقيق د. أسامة محمد عبد العظيم، دار الفتح، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
٦٦. روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، محمود الألوسي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
٦٧. روضة المحبين ونزهة المشتاقين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن القيم، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار الخير.
٦٨. رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، أبو زكريا يحيى بن شرف

- النووي، تحقيق حسان عبد المنان، المكتبة الإسلامية، عمان، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ.
٦٩. زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن الجوزي، المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة، ١٤٧٢هـ/١٩٨٧م.
٧٠. سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، دمشق، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
٧١. سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٣٩٢هـ.
٧٢. سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، دار إحياء السنة النبوية.
٧٣. سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي، رقمه ووضع فهرسه عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
٧٤. سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط وغيره، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
٧٥. شؤم المعصية وبركة التقوى، أحمد عز الدين البيانوني، دار السلام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
٧٦. شرح الشفاء، الملا علي القاري، دار الباز، مكة المكرمة، ودار الكتب العلمية، بيروت.
٧٧. شرح العقيدة الطحاوية، الطحاوي، تحقيق جماعة من العلماء، مكتبة الدعوة الإسلامية، شباب الأزهر.
٧٨. شرح ديوان الحاسمة، المرزوقي، نشره أحمد أمين عبد السلام هارون،

- لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٧٨هـ/ ١٩٦٧م.
٧٩. صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار الصابوني، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
٨٠. ضعيف سنن أبي داود، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.
٨١. ضعيف سنن الترمذي، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
٨٢. طبقات الأولياء، سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الحصري المعروف بابن الملتن، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
٨٣. طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب السبكي، تحقيق محمود محمد الطناني، مطبعة عيسى الحلبي، دمشق، الطبعة الأولى، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م.
٨٤. عون المعبود شرح سنن أبي داود، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، الطبعة الثانية، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.
٨٥. فتح الباري شرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تصحيح وتحقيق عبد العزيز بن باز، المكتبة السلفية، القاهرة.
٨٦. فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان، مطبعة العاصمة، القاهرة، ١٩٦٥م.
٨٧. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الشوكاني، تحقيق سيد إبراهيم صادق، طبعة دار الحديث، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
٨٨. فقه السيرة، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، بيروت، الطبعة

- السابعة، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
٨٩. فقه السيرة، للشيخ محمد الغزالي، خرج أحاديثه محمد ناصر الدين الألباني، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
٩٠. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، الطبعة العاشرة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
٩١. قصة التفسير أحمد الشرباصي، المكتبة الثقافية، ١٩٦٢م.
٩٢. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، المولى مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الحنفي المعروف بحاجي خليفة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
٩٣. كنز العمال في سنن الأفعال والأقوال، علاء الدين علي بن حسام الدين، مكتبة التراث الإسلامي، حلب، الطبعة الأولى، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.
٩٤. لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي المعروف بابن منظور، تحقيق عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، طبعة دار المعارف، القاهرة.
٩٥. لطائف المعارف في مواسم العام من الوظائف، عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، تحقيق ياسين محمد السواس، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
٩٦. مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي، طبعة دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٣٨٠هـ/١٩٦١م.
٩٧. مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن تيمية، مكتبة ابن تيمية لإحياء كتب التراث الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ.
٩٨. محاسن التأويل في التفسير، جمال الدين القاسمي، تصحيح محمد فؤاد

- عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م.
٩٩. مختار الصحاح، الرازي، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٣٤٠هـ/ ١٩٢٢م.
١٠٠. مختصر منهاج القاصدين، ابن قدامة المقدسي، المكتب الإسلامي، دمشق، ١٣٨٩هـ.
١٠١. مدارج السالكين، بين منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية، دار غحياء الكتب العربية، بيروت.
١٠٢. مدارك التنزيل وحقائق التأويل، أحمد بن محمود النسفي، المطبعة الحسينية المصرية، ١٣٤٤هـ.
١٠٣. مشكاة المصابيح، الخطيب التبريزي، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
١٠٤. معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.
١٠٥. مغني اللبيب، جمال الدين بن هشام الأنصاري، وبهامشه حاشية الشيخ محمد الأمير، دار إحياء الكتب العربية.
١٠٦. مقدمة في أصول التفسير، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، دار الكتب السلفية، الطبعة الرابعة، ١٣٩٩هـ.
١٠٧. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، مكتبة ابن تيمية، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.
١٠٨. نفثات صدر المكمد، وقرة عين المسعد، شرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد، العلامة الشيخ محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، المكتب الإسلامي، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.
١٠٩. هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون،

إسماعيل باشا البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت،
١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

١١٠. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن
محمد بن أبي بكر بن خلكان، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر،
بيروت، ١٩٦٨م.

١١١. ولاية الله والطريق إليها، دراسة وتحقيق لكتاب فطر الولي على حديث
الولي لمحمد بن علي الشوكاني، إبراهيم إبراهيم هلال، دار الكتب
الحديثة.

فهرس الموضوعات

١٣	مدخل
١٥	المطلب الأول: اتجاهات التفسير
٢٢	المطلب الثاني: التفسير الموضوعى
٢٥	الفصل الأول: مفهوم التقوى
٢٨	المطلب الأول: مادة التقوى ومعناها
٣٠	المطلب الثاني: ترتيب المادة إحصائياً
٤٣	المطلب الثالث: التقوى في كلام أهل الشرع
٥٧	المطلب الرابع: ولكن يناله التقوى منكم
٦٣	المطلب الخامس: محل التقوى
٧٥	المطلب السادس: لباس التقوى
٨٢	المطلب السابع: كلمة التقوى
٨٧	المطلب الثامن: خير الزاد التقوى
٩٠	المطلب التاسع: بقية مواضع التقوى
١٣٠	المطلب العاشر: التقوى أساس قبول العمل
١٣٣	الفصل الثاني: أساليب الأمر بالتقوى والحض عليها
١٣٦	المطلب الأول: النصوص الواردة في الأمر بالتقوى
١٤١	المطلب الثاني: أساليب الأمر بالتقوى
١٦٤	المطلب الثالث: الأوامر المصاحبة للتقوى

- ❁ الفصل الثالث: التقوى دعوة الرسل ١٩٩
- المطلب الأول: نصوص دعوة الرسل إلى التقوى ٢٠٣
- المطلب الثاني: التكرار في الأمر بالتقوى ٢١٤
- المطلب الثالث: تنوع أساليب دعوة الرسل إلى الله تعالى ٢١٩
- المطلب الرابع: مدى اتفاق أسلوب دعوة الرسل إلى التقوى واختلافه
وأسباب ذلك ٢٥٠
- ❁ الفصل الرابع: أسباب التقوى ٢٦١
- المطلب الأول: الإيمان ٢٦٥
- المطلب الثاني: التقوى والعبادة ٢٧٣
- المطلب الثالث: الأخلاق والسلوك ٢٨٠
- المطلب الرابع: التقوى مبعث كل التصرفات المقبولة ٢٨٢
- المطلب الخامس: صفات المتقين ٢٨٤
- ❁ الفصل الخامس: عاقبة التقوى ٣٩١
- المطلب الأول: آثار التقوى على دين المؤمن ٤٢٧
- المطلب الثاني: عاقبة التقوى في الدنيا ٤٣٥
- المطلب الثالث: عاقبة التقوى في الآخرة ٤٤٣
- خاتمة ٤٧٩
- المراجع والمصادر ٤٨٥
- فهرس الموضوعات ٤٩٦